بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية أصول الدين بالرياض
قسم القرآن وعلومه

Comput. No. ٤٤٥٥٨
Date :
Signat.
٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٤٦٩
٢١١,٧٩
٣٥٨١٠٠

نظام سور : الفاتحة والبقرة وآل عمران

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد

محمد عناية الله محمد هداية الله

إشراف

فضيلة الدكتور أحمد حسن فرحات
(الأستاذ المشارك بجامعة الكويت)

١٤٠٧هـ ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدا وشكرا لمن أنعم علينا ، فخلقنا في أحسن تقويم ، ثمّ منّ علينا ففضّلنا على سائر الأمم بكتابه الكريم وذكره الحكيم . وأودع في نظمه المتين القويم ما يسرّ النّاظرين ويقرّ عيون الباحثين

والصّلاة والسّلام على من كان خلقه القرآن ، ورايته القرآن وآيته القرآن ، ليبنى به جيل القرآن ، ويشيد به حضارة القرآن ، فبنى به جيلا ، وشيّد به حضارة لم يسبق لهما مثيل في الزّمان .

فطوبى لمن قدره حقّ قدره ، وعضّ عليه بنواجذه ، وقام به آناء ليله ونهاره ، فهو العروة الوثقى ، الّتي لا انفصام لها ، وهو المحجّة البيضاء ، الّتي ليلها كنهارها . ومن زاغ عنها فقد خسر الدّنيا والآخرة .

وبعد :

فهذه رسالة أسميناها : (نظام سور : الفاتحة والبقرة وآل عمران) وتناولنا فيها ثلاث سور عظام من سور القرآن ، وتكلّمنا فيها عن روعة نظامها وحسن المناسبة في آياتها وفقراتها ، وكشفنا فيها القناع عن قدر طيّب ممّا أودعه ربّنا في نظم كلماتها ومبانيها من علوم غزيرة وحكم زاخرة .

ولقد سبق لنا قبل ذلك بخمسة أعوام أن قدّمنا رسالة بعنوان (امعان النّظر في نظام الآى والسور)

وكانت تلك الرسالة بحثا منهجيّا أصوليّا يتناول كلّ ما يتعلّق بالموضوع من ناحية نظريّة علميّة .

وكان من فضل الله و منّته أن نالت تلك الرسالة قبولا حسنا واعجابا بالغا من أساتذتنا الأفاضل و زملائنا الأكارم ، ولقيت منهم من التشجيع والتقدير مالم نكن نتصوّر .

فكانت تلك الظّاهرة الطّيّبة حافزة لنا ومشجّعة على الاستمرار في هذا العمل الطيّب المبارك .

فحرصنا كلّ الحرص أن تكون الرسالة التالية امتدادا للموضوع السابق ، حيث نطبّق فيها تطبيقا عمليّا كلّ ما قرّرناه في تلك الرسالة نظريّا .

ومن حسن الحظّ أنّ هذه الفكرة أو هذه الخطّة نالت موافقة سريعة من حضرات المسئولين في الكلّيّة - كليّة أصول الدّين ، الموقّرة - ثمّ أخذت طريقها الى حيّز العمل والتنفيذ .

حتّى جاءت هذه الرسالة المتواضعة ، الّتي نراها بين أيدينا الآن .

ولقد قلنا في الرسالة السابقة ، انّ الاشتغال بنظام القرآن ليس من الأعمال الترفيهيّة ، الّتي تقصد بها المتعة والتسلية وازجاء الوقت أو قتل الوقت ، كما يقولون . بل الاشتغال به هو الطّريق الوحيد لفهم القرآن . ويأخذ الدّارس نصيبه من علومه وكنوزه بقدر اهتمامه وعنايته بهذا العلم .

ولقد ذكرنا هناك أهمّ تلك المزايا ، الّتي تحصل لمن يعنى بهذا العلم و يتبنّاه ويعيره من الاهتمام ما يستحقّه ، وكانت كما يلي :

١ - النّظام يرشد الى فحوى الكلام وملابساته ، والّذى يغفل عن نظام الآيات يتعذر عليه العثور على ما ترمي اليه تلك الآيات .

٢ - النّظام هو الدّليل الى صحيح التأويل اذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات .

٣ - النّظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه ، كما أنّه سرّ من أسرار اعجازه . فانّه هو الّذى جعل القرآن بحرا لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه .

٤ - النّظام يجلي الأمور في أكمل صورها ، ويكشف عن قدرها وأهمّيّتها . واذا لم ننتبه لنظام الآيات ، فكثير من الأمور لا ندركها ، ونظلّ غافلين عن قدرها وأهمّيّتها .

٥ ـ النّظام يشخّص معانى الآيات المكرّرة ، ويحدّد مراميها، لكن الّذى يغفل عنه يتعثّر ولا يكاد يفرّق بين موطن وآخر .

٦ ـ النّظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن . لكن الّذى لا يهتمّ به يتعذر عليه أن يتذوّق بلاغة القرآن ، أو يدرك ميزته الّتي أعجزت فرسان الكلام .

٧ ـ رعاية النّظام تفتح على الدّارس ماتقرّ به عينه ويستنيربه قلبه ، وتورثه برد اليقين الّذى لا يتزلزل ولا يتزعزع .

٨ ـ رعاية النّظام تمكّن من فهم أسباب النزول . والّذى يغفل عنه يتحيّرفي فهمها ، ويضعها في غيرموضعها ، ثمّ يتحيّر في تأويل الآيات وتفسيرها .

٩ ـ رعاية النّظام والبحث عن رباط الآيات هى المحك النّاجح لنقد الروايات التفسيريّة ؛ فبها تتميّزالضّعاف من الصّحاح ويتميّزالسقيم من السليم .

١٠ ـ رعايةالنّظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول الى أصول الصّحاح في القرآن . فانّ جملةكبيرةمن الأحاديث الصّحاح مأخوذة منه كمانصّ عليه فريق من جلّة العلماء .

١١ ـ الوقوف على نظام الآيات يؤدّى بالدّارس الى ذروةالشوق والمحبّة واللّذة الّتي لا يصل اليها من لا يهتمّ بنظامها ، فانّ هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام و حسن النّظام وقوّة البرهان . (١)

وسيجد القارئ الكريم من هذه الرسالة المتواضعة سجنجلا مصقولا يعكس له كلّ هذه المزايا ويحكيها بدقّة ووضوح باذن الله .

ومن الجديربالذكر أنّ تصوّرنا للنّظام والمناسبة يختلف عن تصوّر الكثيرين ممّن سبقونا بالكتابة في هذا المجال .

---

(١) امعان النّظر في نظام الآى والسور : ص/ ١١٩ ـ ١٢٠

فليس المراد به عندنا أن نربط الآية بالآية ، أو الفقرة بالفقرة ، أو السورة بالسورة بأىّ رابط كان ، حتّى ولو كان رابطا واهنا ، كما نلمسه في كتابات النّاس .

وانّما الّذى يهمّنا منه أن نلتمس تلك الروابط الّتي تكسب الكلام رونقا وبهاءا و تزيده قوّة ورصانة ، وتفجّر خلاله أنهارا من المعاني والحكم .

فانّ النّظام ليس شيئا مطلوبا بذاته ، اذا لم يقدّم الينا شيئا جديدا .

ونحن انّما ننوّه بشأنه و نشيد بذكره لأنّنا نعتقد أنّه هو سرّ اعجاز القرآن ، كما أنّه هو مفتاح فهمه . ومعظم كنوزه وأسراره مودعة في طىّ نظامه .

فهذا النّظام الّذى يحتلّ ذروته القرآن هو الّذى أعجز فرسان الكلام و فحول البيان ، وهم أدركوا ذلك ادراكا جيّدا وان كنّا لا ندركه نحن .

فكم من آية في القرآن قد جعلها حسن نظامها وروعة رباط معانيها في فم المتذوّق أحلى من العسل المصفّى ، وفي نظره أبهج من القمر الساطع في اللّيلة الظّلماء . ولكنّنا لا نحسّ فيها من البلاغة أكثر ممّا نحسّه في كلام أىّ شاعر من الشعراء أو أىّ أديب من الأدباء !!

وأوضح مثال لذلك ما كتبه أبوحيّان ـ رحمه الله ـ وهو يكشف القناع عمّا تتضمّنه خواتيم سورة آل عمران من ضروب البلاغة حيث يقول :

" وتضمّنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع الاستعارة عبّر بأخذ الميثاق عن التزامهم أحكام ما أنزل عليهم من التوراة والانجيل وبالنّبذ وراء ظهورهم عن ترك عملهم بمقتضى تلك الأحكام ،

وباشتراء ثمن قليل عن ماتعوّضوه من الحطام على كتم آيات الله ، وبسماع المنادى ان كان القرآن عن ماتلقّوه من الأمر والنّهى والوعد والوعيد وبالاستجابة عن قبول مسألتهم وبانتفاء التضييع عن عدم مجازاته على يسير أعمالهم وبالتقلّب عن ضربهم في الأرض لطلب المكاسب وبالمهاد عن المكان المستقرّ فيه وبالنّزل عمّا يعجّل اللهلهم في الجنّة من الكرامة ، وبالخشوع الّذى هو تهدّم المكان وتغيّر معالمه عن خضوعهم و تذلّلهم بين يديه وبالسرعة الّتي هى حقيقة في المشى عن تعجيل كرامته . قيل ويحتمل أن يكون الحساب استعير للجزاء كما استعير ولم أدرما حسابيه لأنّ الكفّار لا يقام لهم حساب كما قال تعالى : * فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * والطّباق في لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه وفي السماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار فالسّماء جهة العلوّ والأرض جهة السفل واللّيل عبارة عن الظّلمة والنّهار عبارة عن النّور وفي قياما وقعودا ومن ذكر أو أنثى . والتكرار في لا تحسبنّ فلا تحسبنّهم وفي ربّنا في خمسة مواضع وفي فاغفرلنا ذنوبنا وكفّرعنّا سيّئاتنا ان كان المعنى واحدا . وفي ما أنزل اليكم وما أنزل اليهم وفي ثوابا وحسن الثواب . والاختصاص في لأولي الألباب وفي وما للظّالمين من أنصار وفي توفّنا مع الأبرار وفي ولا تخزنا يوم القيامة وفي وما عندالله خير للأبرار . والتجنيس المماثل في أن آمنوا فآمنّا وفي عمل عامل منكم والمغاير في مناديا ينادى . والاشارة في ماخلقت هذا باطلا والحذف في مواضع . " (١)

فهذه النواحي الّتي نبّه اليها أبوحيّان من الطّباق والتجنيس والحذف والتكرار وماشابه ذلك لا نعدمها في كلام المتنبّي ومقامات الحريرى فأيّ ميزة إذاً لهذه الآيات ؟؟

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١٤٩/٣ ـ ١٥٠

مع أنّ الواقع الّذى لا مرية فيه أنّ هناك بونا شاسعا بين هذه الآيات وبين تلك (المقامات) أو تلك (المتنبّيات) بل لا نسبة بينهما ، فأين الثّرى من الثّريّا وأين السمك من السماك !!

والوضع الّذى نراه عند أبي حيّان ليس مقصورا عليه ، فكلّ من غفل عن نظام الآيات أو تناوله تناولا قاصرا عابرا لا يمكنه أن يستمتع بجمال القرآن ولا يمكنه أن يدرك ميزته الّتي تخصّه من بين سائر أنواع الكلام . ولا يمكنه أن يستوعب ما يرمي اليه قوله تعالى :

* قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا * (١)

نعم ، لا يمكنه أن يستوعب ذلك ويقتنع به اقتناعا علميّا كاملا حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط . ولذلك نرى النّاس تحيّروا في ادراك وجه الاعجاز في هذا القرآن . ولم يأتوا فيه بشيءٌ تطمئنّ اليه النّفس .

ونحن نرى أنّ سرّ اعجاز القرآن هو هذا النّظام .

فهذا النّظام هو الّذى جعل من تلك الآيات الّتي لا نرى فيها من ضروب البلاغة الّا التجنيس والطّباق والحذف والتكرار وما شابه ذلك ، عالما عجيبا من الروعة والجمال وبحرا زاخرا من المعاني والحكم ، بحيث تهتزّ لها النّفس اهتزازا ، وتمتلئُ بها بهجة وسرورا ، ولا تدرى كيف تعبّر عمّا تجد فيها من لطائف البلاغة وروائع البيان .

وسيرى القارئُ شيئا من ذلك حين ندرس تلك الآيات في موضعها باذن الله .

وليس هذا الشيءُ مقصورا على تلك الآيات ، فالقرآن كلّه

---

(١) سورة الاسراء : ٨٨

نزل بهذا الشكل . ولا تفارقه هذه الميزة في أيّ موضع من مواضعه ، وان كان هناك تفاوت في مقاديرها حسبما يقتضيه الأمر.

ولقد سجّلت هذه الرسالة ولم يكن القصد بها الاّ أن تكشف هذه الجوانب الّتي مازالت في خفاء ، ومازالت تنتظر من يبيّنها ويجلّيها للنّاظرين .

وماكان لمثل هذا العمل العظيم أن ينجز في هذه الفترة القصيرة الّتي لا تتجاوز أربع سنوات ، فقد أقام سيّدنا عبدالله بن عمر على سورة البقرة وحدها عدّة سنين وقيل ثمان سنين .(١)

فاذا كان سيّدنا عبدالله بن عمر أقام على سورة البقرة وحدها مايقارب ثمان سنين فما بالها وقد ضمّت اليها سورتان عظيمتان هما سورة الفاتحة وسورة آل عمران !

فالحقّ أنّ هذه الفترة القصيرة لم تكن تكفي لنضج هذا العمل واستوائه ، وخاصّة على يد هذا العبد المتواضع المسكين، الّذى لا يضمّ بين برديه الاّ الضّعف والعجز وقلّة العلم وقلّة التقوى والعياذ بالله !

ولكن كم نحمده ـ سبحانه وتعالى ـ وكم نثني عليه !

ومن أين لنا ذلك اللّسان الّذى يحصي الثّناء عليه !!

فقد كان لنا في هذه الفترة من عونه ـ تعالى ـ ومن نصره وفتحه حظّ وافر .

فكم اعترضت لنا عقبات في الطّريق ولكن سرعان ما ذلّلت !

وكم واجهتنا معضلات ومشاكل في هذا العمل ولكنّها مالبثت أن حلّت وانكشفت !

وكم حدث أن يئسنا من انجاز هذا العمل ، وكاد اليأس يقعد بنا عن الاستمرار فيه ، ثمّ شعرنا كأنّ يدا حانية مشفقة تمسح عن قلوبنا اليأس وتفتح أمامنا نوافذ الأمل !

---

(١) انظر الموطّأ للامام مالك : ٢٠٥/١

وهكذا في ظلّ رعاية الله وعنايته وفضله وتوفيقه تمّ هذا العمل واستوى على سوقه !

فلك الحمد يا ربّ ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد !!

*** ** ***

وأمّا خطّة هذا البحث فهي عبارة عن تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

فأمّا التمهيد فهو عبارة عن دراسة موجزة لتفسير الامام البقاعي - رحمه الله - وهو : (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)

ولقد بيّنا في هذه الدّراسة منهج البقاعي في تناول علم المناسبات ، وبيّنا الفرق بين منهجه وبين منهجنا الّذى حاولنا أن نطبّقه في هذه الرسالة .

فالفارق الأساسي بين منهج البقاعي وبين منهج هذه الرسالة هو أنّ منهجه لا يعتمد على أسس علميّة واضحة ثابتة ، بل يعتمد في أكثر مواقفه على محض الرأى . ولذلك يغلب على أسلوبه طابع التكلّف والتعسّف بشكل واضح .

بينما هذا المنهج الّذى سرنا عليه في هذه الرسالة يعتمد من أوّل أمره على أسس علميّة واضحة ثابتة . ولا مكان فيه للقول بمحض الرّأى .

ولقد قصرنا هذه الدّراسة على السور الثّلاث الأولى ، الّتي هى موضوع بحثنا ، لكيلا يطول بنا الحديث ، ولكى يتمكن القارئ من المقارنة بين المنهجين اذا أراد .

ويتبع هذا التمهيد الباب الأوّل ، وهو نظام سورة الفاتحة .

وهذا الباب يتضمّن ستّة فصول :

الفصل الأوّل : على هامش السورة .

الفصل الثّاني : عمود السورة .

الفصل الثّالث : وجوه الارتباط بين الآيات ٠

الفصل الرّابع : ارتباط السورة بالّتي بعدها ٠

الفصل الخامس : موقع السورة من جملة القرآن ٠

الفصل السادس : المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه ٠

ثمّ يأتي الباب الثّاني ، وهو : نظام سورة البقرة ٠

والباب الثّالث ، وهو : نظام سورة آل عمران ٠

ولم نفعل في هذين البابين مثلما فعلنا في الباب الأوّل من تقسيمه الى عدّة فصول ٠ وذلك للفرق الّذى يوجد بين سورة الفاتحة وبين هاتين السورتين من ناحية الحجم ٠

بل تناولنا كلّ مجموعة من الآيات واحدة واحدة وبيّنّا مناسبتها فيما بينها ولما قبلها ، ثمّ ان كانت هناك حكم تستفاد من نظم تلك الآيات من غير تكلّف ولا تعسّف ، أشرنا اليها ٠

وأيضا ان كانت هناك آية أو آيات قد التبس على النّاس أمرها ولم يكن لنا بدّ من الوقوف عندها ، وقفنا عندها ، وأدلينا بدلونا في بيان تأويلها حتّى يستقيم لنا فهم نظمها ٠

وبعد ما انتهينا من بيان المناسبة في آيات السورة وفي أجزائها في كلّ من البابين عدنا الى السورة مرّة أخرى ، لنبيّن عمودها ، الّذى تدور السورة حوله بجميع أجزائها ٠

وفي نهاية الباب الثّالث بيّنّا وجوه المناسبة بين البقرة وآل عمران ٠ وأمّا مناسبة البقرة لسورة الفاتحة ، فقد انتهينا من بيانها في الباب الأوّل في أثناء حديثنا عن سورة الفاتحة ٠

ثمّ تأتي الخاتمة ٠

والخاتمة عبارة عن تمنّي العودة الصّادقة الواعية الى تدبّر كتاب الله والتأمّل في نظمه الحكيم الّذى يزخر بعالم من المعاني والحكم ٠

جامعة أم القرى مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

وتنبيه الى أنّ هذا هو سرّ سعادة هذه الأمّة، وسرّ تقدّمها وازدهارها، فان كانت الأمّة حريصة على سعادتها وتقدّمها وازدهارها فلا سبيل لها الاّ أن تعود الى كتاب ربّها كما عاد آلية سلفها، ولن يصلح آخر هذه الأمّة الاّ بما صلح به أوّلها .

*　　　*　　　*

وبعد : فهذه لمحة سريعة الى منهج هذه الرسالة والى موضوعاتها .

ولا يسعني هنا الاّ أن أتقدّم بالشكر والعرفان بالجميل الى جامعتنا هذه - جامعة الامام محمّد بن سعود الاسلاميّة - حرسها الله ورعاها - الّتي أتاحت لي هذه الفرصة السعيدة، فقد كانت هذه لحظات رحمانيّة مباركة عشتها في ظلال هذا القرآن العظيم .

ثمّ لم أكن لأنعم بهذه اللّحظات الطّيّبات المباركات لولا أنّ جلّة أساتذتي وخلّص اخواني ساعدوني في التغلّب على المشكلات الّتي كانت جاثمة في طريقي ولم تكن تسمح لي بمواصلة دراستي .

وأخصّ بالذكر منهم فضيلة الأستاذ الشيخ خالد بن عبد الرحمن العجيمي - عميد شئون الطّلاّب بالجامعة ، وفضيلة الأستاذ الدّكتور أحمد حسن فرحات - المشرف على هذه الرسالة ، فقد ودقت سماء عطفهما ورعايتهما ودقا فأدرّت الغدق ، وأقرّت الحدق ، وتعاهدت هذه الرسالة مذ كانت أمنيّة في القلب وفكرة في الذهن الى أن صارت كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه .

فجزاهم الله جميعا عنّي وعن هذه الرسالة كلّ خير وبارك في حياتهم ونشاطهم، وأسقاهم من فضله ماء غدقا، وهيّأ لهم من أمرهم مرفقا .

هذا ، وأسأل الله ربّي أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم ، وينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون الاّ من أتى الله بقلب سليم . انّه تعالى جواد كريم ملك برّ رؤوف رحيم .

التمهيد

(دراسة موجزة لتفسير البقاعي والفرق

بين منهجه ومنهج هذه الرّسالة)

لقد سألني كثير من النّاس حين وقع اختياري على هذا الموضوع - موضوع نظام الآيات والسور - :

لماذا اخترت هذا الموضوع ؟ فقد كتب فيه النّاس كثيرا ، وأشبعوا فيه الكلام ، وعلى رأسهم الامام البقاعي - رحمه الله - الّذى أفرد هذا الموضوع بتفسير كامل مبسّط ، أسماه :(نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور) فقد تناول فيه كلّ ما يتعلّق بالموضوع ، ولم يترك للمتأخّر الآن يغترف من هذا البحر الزّاخر ، ويستكثر ممّا فيه من الثّمين الزّاهر .

فما الّذى حملك على أن سجّلت هذا الموضوع ؟

وهل عندك جديد تريد أن تضيفه اليه ؟

لقد وجّه اليّ هذا السؤال كثيرا .

والّذين وجّهوه لم يكونوا من عامّة النّاس ، بل كانوا ممّن يعتزّ بهم من أولي العلم وأصحاب الفضل .

وهذا الوضع يؤكّد لنا أهمّيّة هذا السؤال ، ويفرض علينا أن نأخذه بعين الاعتبار .

ثمّ يزداد هذا السؤال أهمّيّة الى أهمّيّته حين نرى الامام البقاعي نفسه قد نوّه بتفسيره تنويها وعظّم من شأنه تعظيما حيث قال :

" وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها . ولقد شفاني بعض فضلاء العجم وقد سألته عن شيء من ذلك فرآه مشكلا ثمّ قرّرت اليه وجه مناسبته وسألته هل وضح له ؟ فقال : ياسيّدي ا كلامك هذا يتسابق الى الذهن . فلا تظنن أيّها النّاظر لكتابي هذا أنّ المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لستورها ، فربّ آية أقمت في تأمّلها شهورا ، منها : * واذ غدوت من أهلك * في آل عمران ، ومنها : * ويستفتونك في النّساء قل الله يفتيكم فيهنّ * * يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة *

ومن أراد تصديق ذلك فليتأمّل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ماقلته ثمّ لينظره يظهر له مقدار ماتعبت وماحصل لي من قبل الله من العون ، سواء كان ظهر له وجه لذلك عند تأمّله أو لا . وكذا اذا رأى ماذكر غيرى من مناسبات بعض الآيات . " (١)

ويقول - رحمه الله - :

" وقد ذكر الزّركشيّ نحو أربع ورقات من مناسبات بعض الآيات ، واذا تأمّلتها عظم عندك مافي هذا البحر الزّاخر من نفائس الجواهر وبدائع السرائر . " (٢)

إذاً فأصبح من الضّرورى جدّا - بعد هذا السؤال الّذى وجّه الينا ، وبعد هذه الكلمات الّتي عرّف بها البقاعيّ تفسيره - أن نبدأ عملنا هذا بتقديم دراسة موجزة لهذا التفسير الضّخم الكبير وأن نبيّن الفرق بين منهج صاحبه وبين منهجنا الّذى نريد أن نتبعه ، وأن نبيّن الفرق بين النّتائج الّتي تترتّب على المنهجين ، حتّى يكون لنا مبرّر لاختيار هذا الموضوع مع وجود هذا التفسير الضخم العظيم .

وأمّا النّاس الآخرون الّذين عنوا بهذا الموضوع ، وبذلوا جهدهم المشكور في هذا المجال ، فلا يسمح لنا المقام بأن نتناول عملهم بالدّراسة والتقويم في هذا التقديم المختصر .

الاّ أنّنا سنفسح لهم المكان في غضون هذه الرسالة وأضعافها ، وسيكون لنا معهم حوار ونقاش كلّما اقتضى الأمر وكلّما دعت اليه المناسبة .

<u>منهج البقاعي في التماس مناسبات الآيات :</u>

إذاً فلنبدأ حديثنا الآن عن عمل البقاعي ومنهجه في تفسيره .

يقول البقاعي - رحمه الله - وهو يحدّث عن منهجه في التماس مناسبات الآيات :

---

(١) نظم الدّرر : ١/ ١٤ - ١٥ (٢) المصدر السابق : ١/ ١٦

" قال شيخنا الامام المحقّق أبو الفضل محمّد بن العلّامة القدوة أبي عبدالله محمّد ابن العلّامة القدوة أبي القاسم محمّد المشدالي المغربي البجائي المالكي علّامة الزّمان سقى الله عهده سحائب الرضوان وأسكنه أعلى الجنان : الأمر الكلّي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنّك تنظر الغرض الّذى سيقت له السورة ، وتنظر مايحتاج اليه ذلك الغرض من المقدّمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدّمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدّمات الى مايستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام واللّوازم التّابعة له ، الّتي تقتضي البلاغة شفاء العليل يدفع عناء الاستشراف الى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلّي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، واذا فعلته تبيّن لك ان شاء الله وجه النّظم مفصّلا بين كلّ آية و آية في كلّ سورة سورة ، والله الهادى - انتهى .

وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي الى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أنّ اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها ، لأنّ اسم كلّ شئ تظهر المناسبة بينه وبين مسمّاه عنوانه الدالّ اجمالا على تفصيل مافيه . وذلك هو الّذى أنبأ به آدم عليه الصّلاة والسّلام عند العرض على الملائكة عليهم الصّلاة والسّلام . ومقصود كلّ سورة هاد الى تناسبها ، فأذكر المقصود من كلّ سورة ، وأطبّق بينه وبين اسمها ، وأفسّر كلّ بسملة بمايوافق مقصود السورة ولا أخرج عن معاني كلماتها "(١)

هذا ماحرّره البقاعي - رحمه الله - وهو يبيّن لنا منهجه في التماس وجوه المناسبة بين الآيات . والتأمّل في كلامه يوقفنا أمام نقطتين رئيسيّتين ، وهما كمايلي :

---

(١) نظم الدّرر : ١٧/١ - ١٩

١ ــ اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها .

٢ ــ مقصود كلّ سورة هاد الى تناسبها ، فليكن أوّل خطوتنا في هذا الطّريق أن نحدّد مقصود السورة ، ونحدّد المقدّمات الّتي يحتاج اليها ذلك المقصود . وبعد ذلك نلتمس مناسبات الآيات .

هاتان نقطتان أساسيّتان في منهج الامام البقاعي ، فلا بدّ لنا من وقفة قصيرة عندهما .

أمّا النقطة الأولى فيحوم حولها سؤالان :

١ ــ هل هذه الأسماء الّتي ترويها لنا الآثار لكلّ سورة من سور القرآن ، كلّها توقيفيّة حتّى نعتبرها اقليدا لمقاصد السورة ، أم انّها اجتهاديّة وضعها النّاس حسب ما ظهر لهم من المناسبات ؟

٢ ــ لو افترضنا أنّها كلّها توقيفيّة ـ على خلاف القول الراجح في هذا الموضوع ـ فهل هناك شيء ثابت في كون هذه الأسماء عناوين لمقاصد السور الّتي سمّيت بها ؟

قد يقال : هذه ظاهرة يؤيّدها الواقع ، وان لم ترد بها الآثار . واذا كان الشيء يؤيّده الواقع فلا يضرّه ، ان لم ترد به الآثار .

ويبدو أنّ البقاعي ـ رحمه الله ـ كان جلّ اعتماده على ما ظهر له من دليل الواقع ، كما نعلم ممّا سبق من كلامه ، حيث قال :

" وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي الى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أنّ اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها . "

إذاً فلتكن لنا وقفة عند ما ظهر له من دليل الواقع حتّى نقول ما نقول عنه عن بيّنة وعلى بصيرة ، ولا نكون متسرّعين في الحكم له أو الحكم عليه .

مقصود سورة الفاتحة كما يراه البقاعي :

يقول ـ رحمه الله ـ وهو يذكر مقصود سورة الفاتحة ودلالة

أسمائهـــا عليه :

" فالفاتحـــة اسمها " أمّ الكتاب " والأساس والمثاني والكنز والشّافية والكافيةوالوافية والواقية والرقية والحمـد والشكـــر والدّعـــاء والصّلاة . فمـــدار هـــذه الأسماء كما ترى على أمـــر خفيّ كاف لكلّ مـــراد وهو المراقبـــة الّتي سأقول انّها مقصودهـا ، فكلّ شيءٍ لا يفتتح بها لا اعتـــداد به ، وهي أمّ كلّ خير ، وأســاس كلّ معـــروف ، ولا يعتـدّ بها الاّ اذا ثنّيت ، فكانت دائمـــة التكرار ، وهـي كنز لكلّ شـيءٍ ، شافية لكلّ داء ، كافية لكلّ هـمّ ، وافية بكلّ مـــرام ، واقية من كلّ ســـوء ، رقية لكلّ ملمّ ، وهي اثبات للحمـــد الّذى هو الاحـــاطـة بصفات الكمال ، وللشكر الّذى هو تعظيم المنعم ، وهي عين الدّعـــاء فانّه التوجّـــه الى المدعـــوّ ، وأعظم مجامعهـا الصّـــلاة .

اذا تقـــرّر ذلك فالغرض الّذى سيقت له الفاتحـــة ، وهـــو اثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال واختصـــاصه بملك الدّنيا والآخـــرة ، وباستحقاق العبادة والاستعانة ، بالسؤال في المنّ بالـــزام صـــراط الفائزين والانقاذ من طريق الهالكين مختصّـــا بذلك كلّـــه . ومـــدار ذلك كلّه مـــراقبة العباد لربّهم ، لافراده بالعبادة فهو مقصـــود الفاتحـــة بالذات وغيره وسائل اليه ، فانّه لا بدّ في ذلك من اثبات احاطته تعالى بكلّ شـيءٍ ، ولن يثبت حتّى يعلم أنّه المختصّ بأنّه الخالق الملك المالك ، لأنّ المقصود من ارسال الرسل وانـــزال الكتب نصب الشرائع ، والمقصـــود من نصب الشرائع جمع الخلق على الحقّ والمقصود من جمعهم تعريفهم الملك وبما يرضيه ، وهـــو مقصود القرآن الّذى انتظمته الفاتحـــة بالقصـــد الأوّل ولن يكون ذلك الاّ بما ذكـــر علما وعمـــلا . " (١)

هـــذا ما حـــرّره البقاعي في بيان مقصود هـذه السورة ، ودلالة

---

(١) نظـــم الـــدّرر : ١/١٩ ـ ٢١

أسمائها عليه .

وممّا نلاحظه في هذا المقال أنّه يذكرلنا مقصود هذه السورة العظيمة ، ولكنّه لا يبيّن لنا أنّ هذا الّذى توصّل اليه من مقصود هذه السورة ، كيف يستنبط منها ، وما هى الملامح الّتي ترشدنا الى هذا المقصود .

وكذلك لا نجد في كلامه شيئا ممّا يبيّن لنا أنّ هذه الأسماء الكثيرة المتعدّدة الّتي وردت بها الآثار كيف تترجم جميعها عن هذا المقصود الّذى نصّ عليه ، مع أنّ هذا أمر يحتاج الى بيان وتفصيل ، ولا يقبل منه قبل أن يظهر له دليل .

مقصود سورة البقرة كما يراه البقاعي :

ثمّ يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة البقرة ودلالة أسمائها عليه :

" مقصودها اقامة الدّليل على أنّ الكتاب هدى ليتبع في كلّ ما قال . وأعظم ما يهدى اليه الايمان بالغيب ، ومجمعه الايمان بالآخرة ، فمداره الايمان بالبعث ، الّذى أعربت عنه قصّة البقرة ، الّتي مدارها الايمان بالغيب ، فلذلك سمّيت بها السورة . وكانت بذلك أحقّ من قصّة ابراهيم عليه الصّلاة والسلام ، لأنّها في نوع البشر وممّا تقدّمها في قصّة بني اسرائيل من الاحياء بعد الاماتة بالصّعق وكذلك ما شاكلها ، لأنّ الاحياء في قصّة البقرة عن سبب ضعيف في الظّاهر بمباشرة من كان من آحاد النّاس ، فهى أدلّ على القدرة ولا سيّما وقد أتبعت بوصف القلوب والحجارة بما عمّ المهتدين بالكتاب والضّالّين ، فوصفها بالقسوة الموجبة للشقوة ، ووصفت الحجارة بالخشية النّاشئة في الجملة عن التقوى المانحة للمدد المتعدّى نفعه الى عباد الله . وفيها اشارة الى أنّ هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفة من أولي العزم من الرسل ، يرشدنا في كلّ أمر الى صواب المخرج منه ، فمن أعرض خاب ، ومن تردّد كاد ، ومن أجاب اتّقى وأجاد .

وسمّيت بالزهراء لانارتها طريق الهداية والكفاية في الدّنيا والآخرة ، ولايجابها اسفار الوجوه في يوم الجزاء لمن آمن بالغيب ولم يكن في شكّ مريب ، فيحال بينه وبين ما يشتهي .

وبالسنام لأنّه ليس في الايمان بالغيب بعد التوحيد الّذى هو الأساس الّذى ينبني عليه كلّ خير، والمنتهى الّذى هو غاية السير، والعالي على كلّ غير بأعلى ولا أجمع من الايمان بالآخرة، ولأنّ السنام أعلى ما في بطن المطيّة الحاملة . والكتاب الّذى هى سورته هو أعلى ما في الحامل للأمر، وهو الشرع الّذى أتاهم به رسولهم صلّى الله عليه وسلّم . " (١)

هذا ما حرّره البقاعي في بيان مقصود سورة البقرة ودلالة أسمائها عليه .

والّذى يستفاد من كلامه هو أنّ هذه السورة إنّما سمّيت بهذا الاسم ، لأنّ قصّة البقرة، الّتي وردت في هذه السورة تدلّ على البعث بعد الموت ، وهى بذلك تدلّ على مقصود هذه السورة وتترجم عنه ، حيث انّ مقصودها اقامة الدّليل على أنّ الكتاب هدى . وأعظم ما يهدى اليه هذا الكتاب هو الايمان بالغيب . والايمان بالغيب يتّصل - في معظمه - بالايمان بالآخرة . والايمان بالآخرة مبنيّ على الايمان بالبعث ، وهو الّذى تعرب عنه قصّة البقرة .

ونحن نقول : انّ الاستدلال بقصّة البقرة على مقصود سورة البقرة تكلّف محض . فالّذى يثبت بقصّة البقرة - على حدّ قوله - هو البعث بعد الموت . والقصّة الّتي تعرب عن البعث بعد الموت كيف يمكن أن تعتبر مترجمة عن مقصود هذه السورة ، اذا كان مقصودها : اقامة الدّليل على أنّ الكتاب هدى .

ولذلك نرى كلامه يغلبه لون التكلّف والتعسّف بحيث يكاد يلمس بالرّاح .

---

(١) نظم الدّرر : ١/٥٥ - ٥٨

هذه ناحية .

ومن ناحية أخرى فانّ قصّة البقرة لا صلة لها بقضيّة البعث بعد الموت ، كما أنّه لا صلة لها بقصّة احياء النّفس المقتولة فهما قصّتان مستقلّتان منفصلتان . والّذين جعلوهما قصّة واحدة ذهلوا عن أمور كثيرة لا تسمح بذلك .

وسنبيّن ذلك ونفصّله حين ندرس تلك الآيات في موضعها .

وستكون لنا لمحات سريعة الى هذا الموضوع في هذا التقديم أيضا باذن الله .

وأمّا الاسمان الآخران لهذه السورة - وهما الزّهراء والسنام - فلم يذكر عنهما البقاعي الّا ما يعتبر تعليلا للتسمية بهما ، وليس في كلا منهما يثبت أنّهما يترجمان عن مقصود السورة .

مقصود سورة آل عمران كما يراه البقاعي :

ثمّ يقول - رحمه الله - وهو يذكر مقصود سورة آل عمران ودلالة أسمائها عليه :

" المقاصد الّتي سيقت لها هذه السورة اثبات الوحدانيّة لله سبحانه وتعالى ، والاخبار بأنّ رئاسة الدّنيا بالأموال والأولاد وغيرهما ممّا آثره الكفّار على الاسلام غير مغنية عنهم شيئا في الدّنيا ولا في الآخرة ، وأنّ ما أعدّ للمتّقين من الجنّة والرضوان هو الّذى ينبغي الاقبال عليه والمسارعة اليه .

وفي وصف المتّقين بالايمان والدّعاء والصّبر والصّدق والقنوت والانفاق والاستغفار ما يتعطّف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة .

هذا ما كان ظهر لي أوّلا ، وأحسن منه أن نخصّ القصد الأوّل ، وهو التوحيد ، بالقصد فيها ، فانّ الأمرين الآخرين يرجعان اليه .

وذلك لأنّ الوصف بالقيّوميّة يقتضي القيام بالاستقامة ، فالقيام يكون على كلّ نفس ، والاستقامة العدل كما قال : (قائما بالقسط) أى بعقاب العاصي وثواب الطّائع بما يقتضي للموفّق ترك العصيان ولزوم الطّاعة . "

ويزيد فيقول :

" وممّا يدلّ على أنّ القصد بها هوالتوحيد تسميتها بآل عمران ، فانّه لم يعرب عنه في هذه السورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلّة على القدرة التّامّة الموجبة للتوحيد الّذى ليس في درج الايمان أعلى منه . فهو التّاج الّذى هو خاصّة الملك المحسوسة ، كما أنّ التوحيد خاصّته المعقولة . والتوحيد موجب لزهرة المتحلّي به ، فلذلك سمّيت الزّهراء ."(١)

هذا ما حرّره البقاعي في بيان مقصود هذه السورة ودلالة اسمها عليه .

فأمّا مقصود هذه السورة فلسنا الآن بصدد الكلام عليه . فلنفترض الآن أنّ القصد بها هوالتوحيد - كما يراه البقاعي - ثمّ لننظر هل اسم هذه السورة يترجم عن هذا المقصود ؟

انّ التأمّل في قصص آل عمران وفي جوّه وسياقه لا يشجّعنا على القول بما قال به البقاعي ، فانّ الجوّ الّذى يسوده ليس جوّ الدّلالة على القدرة التامّة الموجبة للتوحيد ، وانّما هو جوّ الاصطفاء والتكريم ، ثمّ جوّ الاعزاز والتأييد لآل عمران ، على رغم أعدائهم الّذين كانوا يمكرون بهم ويبغون لهم السوء .

ولقد نبّه - سبحانه وتعالى - الى هذه الظّاهرة في مطلع هذا القصص حيث قال :

﴿ انّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العلمين﴾(٢).

نعم ، إن القدرة التامّة هى الّتي يتمّ بها الاصطفاء والتكريم والاعزاز والتأييد ، كما تتمّ بها الأعمال كلّها ، الاّ أنّ السياق لا يبرزها هنا ، بل يبرز ما أشرنا اليه .

---

(١) نظم الدّرر : ١٩٥/٤ - ١٩٧
(٢) سورة آل عمران : ٣٣

فالقارئ لا ينتهي من قراءة هذا القصص الا وهو مغتبط بما خصّ الله به آل عمران من السيادة والوجاهة والاصطفاء والتكريم. وسنبيّن ذلك ونفصّله حينما ندرس تلك الآيات في موضعها باذن الله.

اذا فالقول بأنّ تسمية هذه السورة بآل عمران تترجم عمّا قصد بها، وهو التوحيد، تكلّف محض لا ينهض به دليل.

وأمّا تسمية السورة بالزهراء، فالوضع هنا لا يختلف عمّا مرّ معنا في سورة البقرة، حيث انّه لم يذكر عنها الا ما يعتبر تعليلا للتسمية بها، وليس في كلامه شيء ممّا يثبت أنّ هذا الاسم يترجم عن مقصود هذه السورة.

وبالجملة فهذا المبدأ الّذى سار عليه البقاعي في تفسيره لا يساعدنا في تحديد مقاصد السور، بل يبعدنا عنها ويتركنا في حيرة من الأمر.

ولقد جرّبنا هذا المبدأ في ثلاث سور عظام، فوجدناه لا يسعفنا بالمقصود. والوضع نفس الوضع في سائر السور الا أنّ المقام لا يسمح لنا بأن نتنفّس في سرد الأمثلة بعد ما وضح الأمر وتبلور.

فلننتقل الآن الى النّقطة الأخرى من منهجه - رحمه الله - وهى أنّ مقصود كلّ سورة هاد الى تناسبها، فليكن أوّل خطوتنا في هذا الطّريق أن نحدّد مقصود السورة، ونحدّد المقدّمات الّتي يحتاج اليها ذلك المقصود، وبعد ذلك نلتمس مناسبات الآيات.

المناسبة بين السور الثّلاث كما يراها البقاعي :

وانطلاقا من هذا المبدأ يبدأ البقاعي، فيحدّد مقاصد السور، ثمّ يلتمس في ضوئها المناسبة بين الآيات والآيات، والسّور والسّور.

فلقد مرّ معنا آنفا ما قاله - رحمه الله - في مقاصد السّور الثّلاث، حيث أفاد عن سورة الفاتحة أنّ مقصودها: مراقبة العباد لربّهم.

وأفاد عن سورة البقرة أنّ مقصودها : اقامة الدّليل على أنّ الكتاب هدى .

وأفاد عن سورة آل عمران أنّ مقصودها : اثبات الوحدانيّة لله سبحانه وتعالى .

ثمّ يقبل الى تلك السور الثّلاث ليبيّن المناسبة بينها في ضوء مقاصدها ، الّتي أشار اليها ، فيقول :

" وهذا الوجه أوفق للترتيب ، لأنّ الفاتحة لمّا كانت جامعة للدّين اجمالا ، جاء مابه التفصيل محاذيا لذلك ، فابتدئ بسورة الكتاب المحيط بأمر الدّين ، ثمّ بسورة التوحيد ، الّذى هو سرّ حرف الحمد ، أوّل حروف الفاتحة ، لأنّ التوحيد هو الأمر الّذى لا يقوم بناء الاّ عليه . ولمّا صحّ الطّريق وثبت الأساس ، جاءت الّتي بعدها داعية الى الاجتماع على ذلك .

وأيضا فلمّا ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنّه هدى ، وقامت به دعائم الاسلام الخمس ، جاءت هذه لاثبات الدّعوة الجامعة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ياأيّها النّاس اعبدوا ربّكم ﴾ فأثبت الوحدانيّة له بابطال الهيّة غيره باثبات أنّ عيسى عليه الصّلاة والسلام ، الّذى كان يحيي الموتى ، عبده ، فغيره بطريق الأولى .

فلمّا ثبت أنّ الكلّ عبيده دعت سورة النّساء الى اقبالهم اليه و اجتماعهم عليه . "

ويزيد فيقول :

" ومناسبة هذا الأوّل بالابتدائيّة لآخر ماقبلها أنّه لمّا كان آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي ومابعدها انّما هو بيان ، لأنّها أوضحت أمر الدّين بحيث لم يبق وراءها مرمى لمتعنّت ، أو تعجّب من حال من جادل في الالهيّة ، أو استبعد شيئا من القدرة ، ولم ينظر فيما تضمّنته هذه الآية من الأدلّة مع وضوحه ، أو اشارة

الى الاستدلال على البعث بأمر السنابل في قالب الارشاد الى ماينفع في اليوم الّذى نفى فيه نفع البيع والخلّة والشفاعة من النّفقات ، وبيان بعض مايتعلّق بذلك ، وتقرير أمرملكه لمامنه الانفاق من السماوات والأرض والاخبار بايمان الرسول وأتباعه بذلك ، وبأنّهم لا يفرّقون بين أحد من الرسل المشار اليهم في السورة ، وبصدقهم في التضرّع برفع الأثقال الّتي كانت على من قبلهم من بني اسرائيل وغيرهم ، وبالنصرة على عامّة الكافرين / لماكان ذلك على هذا الوجه ناسب هذا الاختتام غاية المناسبة ابتداء هذه السورة بالّذى وقع الايمان به سبحانه وتعالى ووجّهت الرغبات آخر تلك اليه .

وأحسن منه أنّه لمّانزل الينا كتابه فجمع مقاصده في الفاتحة على وجه أرشد فيه الى سؤال الهداية ، ثمّ شرع في تفصيل ماجمعه في الفاتحة ، فأرشد في أوّل البقرة الى أنّ الهداية في هذا الكتاب ، وبيّن ذلك بحقّيّة المعنى والنّظم كماتقدّم - الى أن ختم البقرة بالاخبار عن خلّص عباده بالايمان بالمنزّل بالسمع والطّاعة وأفهم ذلك مع التوجّه بالدّعاء الى المنزل له أنّ له سبحانه وتعالى كلّ شيء وبيده النّصر ، علم أنّه واحد لا شريك له حيّ لا يموت قيّوم لا يغفل وأنّ ماأنزل هوالحقّ . فصرّح أوّل هذه بماأفهمه آخر تلك ، كمايصرّح بالنتيجة بعد المقدّمات المنتجة لهاقال :(الله) أى الّذى لا يذلّ من والاه ولا يعزّ من عاداه لأنّ له الاحاطة بجميع أوصاف الكمال والنّزاهة الكاملة من كلّ شائبة نقص .

وقال الحرّالي مشيرا الى القول الصحيح في ترتيب السورمن أنّه باجتهاد الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم اقرارا لله سبحانه وتعالى لهذا الانتظام والترتيب السورى في مقرّر هذا الكتاب : هو مارضيه الله سبحانه وتعالى فأقرّه ، فلمّاكانت سورة الفاتحة جامعة لكلّيّة أمرالله سبحانه وتعالى فيما يرجع اليه ،

وفيما يرجع الى عبده ، وفيما بينه وبين عبده ، فكانت أمّ القرآن وأمّ الكتاب ، جعل مثنى تفصيل ما يرجع منها الى الكتاب المنبأ عن موقعه في الفاتحة مضمّنا سورة البقرة الى ما أعلن به ، لألأ نور آية الكرسي فيها ، وكان منزل هذه السورة من مثنى تفصيل ما يرجع الى خاصّ علن الله سبحانه وتعالى في الفاتحة ، فكان منزلة سورة آل عمران منزلة تاج الراكب وكان منزلة سورة البقرة منزلة سنام المطيّة ، قال صلّى الله عليه وسلّم : " لكلّ شيءٍ سنام وسنام القرآن سورة البقرة، لكلّ شيءٍ تاج وتاج القرآن سورة آل عمران " .

وانّما بدئ هذا الترتيب لسورة الكتاب لأنّ علم الكتاب أقرب الى المخاطبين من تلقّي علن أمر الله ، فكان في تعلّم سورة البقرة والعمل بها تهيّؤ لتلقّي ما تضمّنته سورة آل عمران ليقع التدرّج والتدرّب بتلقّي الكتاب حفظا وبتلقّيه على اللقن منزل الكتاب بما أبداه علنه في هذه السورة . وبذلك يتّضح أنّ احاطة " الم " المنزلة في أوّل سورة البقرة احاطة كتابيّة بما هو قيامه وتمامه ، ووصلة ما بين قيامه وتمامه ، وأنّ احاطة " الم " المنزلة في أوّل هذه السورة احاطة الهيّة حياتيّة قيّوميّة ممّا بين غيبة عظمة اسمه (الله) الى تمام قيّوميّته البادية في تبارك ما أنبأ عنه اسمه " الحيّ القيّوم " وما أوصله لطفه من مضمون توحيده المنبئ عنه كلمة الاخلاص في قوله " لا اله الاّ هو " فلذلك كان هذا المجموع في منزله قرآنا حرفيّا وقرآنا كلميّا أسمائيّا وقرآنا كلاميّا تفصيليّا ممّا هو اسمه الأعظم كما تقدّم من قوله صلّى الله عليه وسلّم : " اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : " واِلهكم اِله واحد لا اله الاّ هو الرحمن الرحيم " " الم . الله لا اله الاّ هو الحيّ القيّوم " .

وكما وقعت الاحة في سورة البقرة لما وقع به الافصاح في سورة آل عمران كذلك وقع في آل عمران من نحو ما وقع تفصيله في سورة

البقرة ليصير منزلا واحدا بما أفصح مضمون كلّ سورة بالاحقة الأخرى فلذلك هما غمامتان وغيايتان على قارئهما يوم القيامة ـ كما تقدّم ـ لا تفترقان . فأعظم "الم" هو مضمون "الم" الّذى افتتحت به هذه السورة ، ويليه في الرتبة ما افتتحت به سورة البقرة ، ويليه في الرتبة ما افتتحت به سور الآيات نحو قوله سبحانه وتعالى : (الم . تلك آيات الكتاب الحكيم) فللكتاب الحكيم احاطة قواما وتماما ووصلة ، ولمطلق الكتاب احاطة كذلك . واحاطة الاحاطات وأعظم العظمة احاطة افتتاح هذه السورة . " (١)

ثمّ يقول وهو يبيّن المناسبة بين بداية سورة آل عمران وبين ما ورد في أثنائها ، وينبّه الى سرّ الاختلاف الّذى نلاحظه في صدر السورتين : البقرة و آل عمران :

" ومناسبة ابتدائها بالتوحيد لما في أثنائها أنّه لمّا كان خلق عيسى عليه الصّلاة والسلام من أنثى فقط وهى أدنى أسباب النّماء كان وجوده اشارة الى أنّ الزّيادة قد انتهت وأنّ الخلق أخذ في النّقصان ، وهذا العالم أشرف على الزّوال ، فلم يأت بعده من قومه نبيّ بل كان خاتم أنبياء بني اسرائيل وكان هذا النّبيّ الّذى أتى بعده من غير قومه خاتم الأنبياء مطلقا ، وكان مبعوثا مع نفس الساعة وكان نزوله هو في آخر الزّمان علما على الساعة . وصدّرت هذه السورة الّتي نزل كثير منها بسببه بالوحدانيّة اشارة الى أنّ الوارث قددنا زمان ارثه ، وأن يكون ـ ولا شيء معه ـ كما كان ، وأنّ الحين الّذى يتمحّض فيه تفرّد الواحد قد حان ، والآن الّذى يقول فيه سبحانه : له الملك اليوم ، قد آن . ويوضّح ذلك أنّه لمّا كان آدم عليه الصّلاة والسلام مخلوقا من التراب الّذى هو أمتن أسباب النّماء ، وهو غالب على كلّ ما جاوره ، وكانت الأنثى مخلوقة من آدم الّذى هو الذكر

---

(١) نظم الدرر : ١٩٩/٤ ـ ٢٠٢

وهو أقوى سببى التناسل كان ذلك اشارة الى كثرة الخلائق ونمائهم وازديادهم ، فصدر أوّل سورة ذكرفيها خلقه وابتداء أمره بالكتاب اشارة الى أنّ مايشيراليه ذكره من تكثّر الخلائق وانتشارا لأمم والطّوائف داع الى انزال الشرائع وارسال الرسل بالأحكام والدّلائل . فالمعنى أنّ آدم عليه الصّلاة والسلام لمّا كان منه الابتداء وعيسى عليه الصّلاة والسلام لمّا كان دليلا على الانتهاء اقتضت الحكمة أن يكون كلّ منهما ممّا كان منه ، وأن تصدّر سورة كلّ بما صدّرت به . والله سبحانه وتعالى الموفّق . "(1)

تقويم رأى البقاعي :

هذا ماكتبه البقاعي وهو يريد أن يكشف القناع عمّا يوجد من المناسبة بين هذه السور الثّلاث .

وممّا لا يخفى أنّ هذه المناسبات ، الّتي ذكرها بين هذه السور الثلاث ، كلّها ترجع الى ماحدّد لها من المقاصد . وقد عرفناها قبل قليل .

والمتأمّل في كلامه هذا ، لا يلبث أن يثور في ذهنه سؤال :

انّ هذه المقاصد، الّتي يركّز عليها البقاعي ، ويعتبرها مفتاحا لمعرفة المناسبات بين الآيات والسور، من أين عرفها ومن أين استخرجها ؟

وهل هناك طرق معلومة للتوصّل الى تلك المقاصد ، ويستطيع كلّ باحث أن يتوصّل اليها باتّباع تلك الطّرق ، أم انّها من قبيل الأسرار، الّتي لا يعرفها الاّ من تفتح عليه ؟

والّذى يظهر من صنيعه هو الوجه الثّاني ، حيث انّه لم يذكر في تفسيره الاّ تلك المقاصد ، ولم يبيّن لنا شيئا ممّا يعتبر دليلا اليها .

---

(1) نظم الدّرر : ٤/٢١١ - ٢١٣

فكأنّما ألقيت هذه المقاصد في روعه القاء حتّى تكون له أداة ومفتاحا لما انغلق على النّاس من علم المناسبات .

فهو يعتمد عليها اعتمادا كلّيّا ، ويستعين بها في التماس المناسبات .

وبعبارة أخرى ، فهو لا يعتمد في عمله هذا على أسس علميّة ثابتة واضحة ، بل لا نحيف عليه اذا قلنا : انّه في عمله هذا أشبه برجل يبني على جرف هار ، لا يدرى ما ليل من نهار .

و تلك النّقول الّتي نقلناها من تفسيره أصدق شاهد وأثبت حجّة عليه .

فتلك النّقول منها ما يشتمل على شيء يتعارض مع صريح النّص وصريح العقل ، كما نشاهد ذلك في العبارة الثّالثة الأخيرة ، فالّذى يطّلع على هذه العبارة يحتار ويسائل نفسه :

هل كلّ ما في هذه السورة هو أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ خلق من أنثى فقط ، حتّى يعتبر ذلك دليلا على مناسبة أوّل السورة لما في أثنائها ؟ وحتّى يحمل ذلك محملا يتيه منه اللّبّ ويشده منه الجنان !

لا شكّ أنّ هذه الاشارة الّتي استنبطها البقاعي في غاية البعد ، فسيّدنا عيسى كان آية الحياة وآية النّموّ ، كما يدلّ عليه كلامه في المهد ، وكما يدلّ عليه لقبه الخاصّ به ، وهو كونه روحا من الله : ﴿ وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ﴾ (١)

وكما تدلّ عليه الآيات الّتي خصّ بها من بين سائر الأنبياء والرسل من خلق الطّير واحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص .

ولعلّ البشريّة الّتي خلقت بعده أكثر بكثير ممّا خلقت قبله .

ثمّ ان كان خلق آدم اشارة الى كثرة الخلائق ونمائهم وازديادهم ـ على حدّ قوله ـ فذكره لا يشير الى ذلك .

---

(١) سورة النّساء : ١٧١

وكذلك ان كان خلق عيسى اشارة الى انتهاء الزيادة ـ على حدّ قوله ـ فذكره لا يشير الى ذلك ، والاّ سيحصل هناك تعارض بين دلالة السورتين ، حيث انّ سورة البقرة ستدلّ على كثرة الخلائق ونمائهم وازديادهم ، وستكون داعية الى انزال الشرائع وارسال الرسل بالدّلائل والأحكام ، لكونها مشتملة على ذكر خلق آدم ، بينما سورة آل عمران ستدلّ على عكس ذلك تماما لكونها مشتملة على ذكر خلق عيسى عليه السلام .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فانّ انزال الشرائع وارسال الرسل بالدّلائل والأحكام لا يرجع الى كثرة الخلائق ، بل لا صلة له بها أصلا .

اذا فهذه المناسبة الّتي ذكرها ، ليس لها قوائم ، وليس عليها دلالة في السياق ، أو شهادة من الواقع ، بل هى تتعارض مع صريح النصّ وصريح العقل .

وأيضا فيما نقلناه من كلامه ما هو كالضّريع الّذى لا يسمن ولا يغني من جوع ، أو كالمورد الملح الّذى لا يزيد وارده الاّ حرارة العطش ، كالّذى اقتبسه من كلام الحرالي ، فلا شكّ أنّه أشبه بالألغاز منه بالمناسبات . والقارئ كلّما تأمّل فيه لم يزد د منه الاّ حيرة وعمى .

وأيضا فيما نقلناه من كلامه ما هو مثال واضح لضعف الاستدلال فقوله في الفقرة الثّانية من العبارة الثّانية :(فصرح أوّل هذه ـ أى سورة آل عمران ـ بما أفهمه آخر تلك ـ أى سورة البقرة ـ كما يصرح بالنّتيجة بعد المقدّمات المنتجة لها) من هذا النّوع حيث انّ المخاطبين بأوائل سورة آل عمران غير الّذين وردت فيهم خواتيم سورة البقرة ، فقد وردت الخواتيم تحكي حال الصّفوة المختارة من المؤمنين بينما أوائل سورة آل عمران ناظرة الى كفّار أهل الكتاب .

اذاً فالمناسبة الّتي أشار اليها لا تصحّ ولا تستقيم .

وأيضا فيما نقلناه من كلامه ما يعتمد على افتراضات ليس لها أساس ، فالقول بأنّ آخر البقرة في الحقيقة آية الكرسي قول يحتاج الى دليل لا يقلّ في وضوحه عن وضوح الشمس ، وذلك مطلب دونه خرط القتاد !

وأيضا من هذا النّوع ما قاله في الفقرة الثّانية من العبارة الأولى ، حيث انّه لم يبيّن لنا أنّ هذه السورة كيف تثبت تلك الدّعوة الجامعة الواردة في قوله تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم ﴾(١)

وأمّا ذكر عيسى - عليه السلام - فلم يرد في هذه السورة لابطال الهيّته - كما سنبيّنه في موضعه - ولو افترضنا أنّ الأمر كما قال فانّ ذكر عيسى لا يشغل الاّ مساحة قصيرة من هذه السورة . فهذا الأمر وحده لا يكفي للقول بأنّ السورة كلّها جاءت لاثبات تلك الدّعوة الجامعة .

وبالجملة فهذا الضّعف والتكلّف الّذى نلاحظه عند البقاعي في التماس المناسبات نتيجة طبيعيّة لذلك النّقص الّذى يوجد في منهجه ، حيث انّه لا يعتمد على قواعد علميّة واضحة ثابتة ، وانّما هو عبارة عن مبدئين ، لا نصيب لهما من الدّقّة والمتانة .

وبعد ما انتهينا من دراسة منهجه في التماس المناسبة بين سورة و سورة ، وبين مقصد السورة وما في أثنائها ، وبين ختام السورة وأوائل السورة التالية لها ، نودّ أن تكون لنا وقفة عند تناوله الآيات والتماسه المناسبة فيما بينها بشكل عامّ ، حتّى نكون قد ألقينا الضّوء على جوانب الموضوع كلّها ، وحتّى نتمكّن من اعطاء صورة واضحة متكاملة عن عمله .

المناسبة بين القصص الثلاث كما يراها البقاعي :

لقد جاء في سورة البقرة التلميح الى قصّة أهل السبت :

﴿ ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتّقين ﴾(٢)

(١) سورة البقرة : ٢١ (٢) سورة البقرة : ٦٥ - ٦٦

ثمّ جاءت قصّة البقرة :

﴿ واذقال موسى لقومه انّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... الخ ﴾[1]

ثمّ جاء التلميح الى قصّة النّفس المقتولة :

﴿ واذقتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلّكم تعقلون ﴾[2]

فيقول البقاعي وهويبيّن المناسبة بين هذه القصص الثّلاث :

" ولمّا بيّن تعالى قساوتهم في حقوقه عامّة ثمّ خاصّة أتبعه بيان جساوتهم في مصالح أنفسهم لينتج أنّهم أسفه النّاس فقال :(واذقال موسى لقومه) ...

... أو يقال انّه لمّا كان السبت انّما وجب عليهم وابتلوا بالتشديد فيه باقتراحهم له وسؤالهم ايّاه بعد ابائهم للجمعة كما يأتي ان شاء الله تعالى بيانه عند قوله تعالى : (انّما جعل السبت على الّذين اختلفوا فيه) كان أنسب الأشياء تعقيبه بقصّة البقرة الّتي ما شدّد عليهم في أمرها الاّ لتعنّتهم فيه وابائهم لذبح أىّ بقرة تيسّرت . ويجوز أن يقال انّه لمّا كان من جملة ما استخفوا به السبت المسارعة الى ازهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصّة البقرة التعنّت والتباطؤ عن ازهاق نفس واحدة أمروا بها ابتلاءه بها . ومن أحاسن المناسبات أنّ في كلّ من آيتى القردة والبقرة تبديل حال الانسان بمخالطة لحم بعض الحيوانات العجم ، ففي الأولى اخراسه بعد نطقه بلحم السمك وفي الثّانية انطاقه بعد خرسه بالموت بلحم البقر . ولعلّ تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لايقاظهم من رقدتهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجّب من خوار العجل الّذى عبدوه . وقال الامام أبو الحسن الحرالي: وفي ذلك تشامّ بين أحوالهم في اتّخاذهم العجل وفي طلبهم ذلك ، وفي كلّ ذلك مناسبة

---

(١) سورة البقرة : ٦٧ - ٧١ (٢) سورة البقرة : ٧٢ - ٧٣

بين طباعهم وطباع البقرة المخلوقة للكدّ وعمل الأرض الّتي معها التعب والذلّ والتصرّف فيما هو من الدّنيا توغّلا فيها وفيه نسمة مطلبهم ماتنبت الأرض الّذى هو أثر الحرث ـ يعني الّذى أبدلوا الحطّة به وهو حبّة في شعرة ، فكأنّهم بذلك أرضيّون ترابيّون لا تسمو طباع أكثرهم الى الأمور الروحانيّة العلويّة ، فانّ جبلّة كلّ نفس تناسب ماتنزع اليه وتلهج به من أنواع الحيوان (جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا) انتهى .

وقسمت القصّة شطرين تنبيها على النّعمتين : نعمة العفو عن التوقّف عن الأمر ونعمة البيان للقاتل بالأمر الخارق وتنبيها على أنّ لهم بذلك تقريعين : أحدهما باساءة الأدب في الرمى بالاستهزاء والتوقّف عن الامتثال والثّاني على قتل النّفس وماتبعه . ولو رتّبت ترتيبها في الوجود لم يحصل ذلك ، وقدّم الشطر الأنسب لقصّة السبت ثمّ أتبعه الآخر . وقال الحرالي : قدّم نبأ قول موسى عليه السلام على ذكر تدارؤهم في القتيل ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الّذى هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة . انتهى . " (١)

تقويم هذه الوجوه :

هذه الوجوه الّتي ذكرها البقاعي للمناسبة بين هذه القصص الثّلاث .

وحين نمعن النّظر فيما كتبه ، لا نرتاح اليه من عدّة وجوه وهى كما يلي :

١ ـ الاعتداء في السبت لا يعني ازهاق أرواح الحيتان . وانّما يكفي لكونهم معتدين في السبت أن يصطادوها في ذلك اليوم ، وان لم يزهقوا أرواحها . أو يحبسوها حتّى يتمكّنوا من اصطيادها فيما بعد . حتى ولو حاولوا في ذلك اليوم اصطيادها أو حبسها فهم يعتبرون

(١) نظم الدّرر : ١/٤٦٦ ـ ٤٧٥ (بحذف واختصار)

معتدين في السبت ، بمجرّد محاولتهم تلك ، وان لم يظفروا بواحدة منها .

اذاً فلا يستقيم قوله في بيان مناسبة قصّة البقرة لما قبلها :

" انّه لمّا كان من جملة ما استخفوا به السبت المسارعة الى ازهاق ما لا يحصى من الأرواح الممنوعين منها من الحيتان وكان في قصّة البقرة التعنّت والتباطؤ عن ازهاق نفس واحدة أمروا بها تلاه بها . "

٢ ـ انّ المعتدين في السبت لم يخرسوا بلحم السمك وانّما أخرسوا بفسقهم وعتوّهم كما صرّح به القرآن ، حيث قال تعالى :

﴿ فلمّا نسوا ما ذكّروا به أنجينا الّذين ينهون عن السوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلمّا عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (١)

والّذى أنطق بعد خرسه بالموت لم ينطق بلحم البقر، وانّما أنطق بمحض قدرة الله . ولا صلة له بقصّة البقر. وسنشبع الكلام على هذا الموضوع في موضعه باذن الله .

ومن هنا لا حاجة بنا الى التكلّف الّذى اضطرّ اليه حيث قال :

" ولعلّ تخصيص لحم البقر بهذا الأمر لا يقاظهم من رقدتهم وتنبيههم من غفلتهم عن عظيم قدرة الله تعالى لينزع من قلوبهم التعجّب من خوار العجل الّذى عبدوه . "

ولا ندرى كيف سكنت نفسه الى هذا التعليل ، فانّه لا فرق بين لحم البقر ولحم غيرها من الحيوانات في كونه مظهرا لعظيم قدرة الله اذا ظهرت منه تلك المعجزة الّتي تحكي عن لحم تلك البقرة.

اذاً فلم يبق وجه لتخصيص لحم البقر بهذا الأمر .

٣ ـ بيان القاتل بالأمر الخارق لم يكن نعمة ورحمة ، وانّما كان بالنّسبة لهم عقوبة وفضيحة !

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٥ ـ ١٦٦

٤ ـ ان كان ذبح البقرة واحياء النّفس المقتولة قصّة واحدة قسمت شطرين ـ كما يزعمون ـ فلماذا اختلف الأسلوب في الشطرين ؟ حيث انّ الأوّل ذكر بصيغة الغيبة والثّاني بصيغة الخطاب : ﴿ واذ قتلتم نفسا .... تكتمون ﴾

٥ ـ انّ القول بأنّ القصّة لو رتّبت ترتيبها في الوجود لم تدلّ على ما دلّت عليه ، افتراض محض لا دليل عليه . فانّ ما ذكره من التقريعين والتنبيه على النّعمتين ، لا صلة له بترتيب القصّة ، فليست هذه الأمور تستفاد من نظم الكلام ، بل تستفاد من عبارة القصّة وألفاظها .

اضافة الى ذلك أنّه لا عهد لنا في القرآن بتقديم ما تأخّر وتأخير ما تقدّم . فالقصص الّتي وردت في القرآن كلّها ذكرت على ترتيبها في الوجود .

٦ ـ انّ قصّة البقرة ليست مثالا للتشديد في الأمر وانّما هي مثال لسعة حلم الله وعظيم عفوه عن تعنّت القوم واستهزائهم بأمره .

والأوصاف الّتي وردت في شأن البقرة ردّا على سؤالهم ، ليست من قبيل التشديد في الأمر ، وانّما هي من قبيل تبيين المجمل وتوضيحه على طلب منهم .

ولا شكّ أنّ الأمر يكون فيه سعة اذا كان مجملا ، ولا تبقى فيه تلك السعة بعد مجيء البيان . وهذه قاعدة عامّة تجري في جميع الأمور ، ولا علاقة لها بالتشديد في الأمر .

وقد كان من واجبهم حين وجّه اليهم الأمر مجملا أن ينتقوا للذبح أحسن بقرة تتيسّر لهم . وان كان يكفي لخروجهم من العهدة أن يذبحوا أيّ بقرة من أبقارهم .

فلمّا جاءهم البيان من ربّهم على طلب منهم ، ألزموا به الزاما ولم يبق لهم الخيرة من أمرهم .

ونظير ذلك أنّ الله تعالى أمر المؤمنين بالقربان فقال :

﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ ولكلّ أمّة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم اله واحد ، فله أسلموا وبشّر المخبتين ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافّ . فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ . كذلك سخّرناها لكم لعلّكم تشكرون ﴾ (٣)

فهذه الآيات كلّها تأمر بقربان الأضاحي بدون أن تذكر شروطها وتحدّد أوصافها ، ولكنّ النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - قرّب منها أحسنها وأسمنها وأكرمها وعلّمنا كذلك ألّا نقرّب من الأنعام الّا خيارها وكرائمها .

ففي رواية عن عائشة - رضى الله عنها - أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أمر بكبش أقرن ، يطأ في سواد ، وينظر في سواد ، ويبرك في سواد ، فأتى به فضحّى به . (٤)

وعن أنس - رضى الله عنه - أنّ النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - نحر سبع بدنات بيده قياما ، وضحّى بالمدينة بكبشين أقرنين أملحين . (٥)

وعن أبي عياش - وهو المعافرىّ المصرىّ - عن جابر بن عبد الله قال : ذبح النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - يوم الذبح - كبشين أقرنين أملحين موجئين . (٦)

وعن أبي سعيد - وهو الخدرى - قال كان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يضحّي بكبش أقرن فحيل ينظر في سواد ، ويأكل في سواد ، ويمشي في سواد . (٧)

---

(١) سورة الحجّ : ٢٨ (٢) سورة الحجّ : ٣٤ (٣) سورة الحجّ : ٣٦
(٤) مختصر سنن أبي داود : ٩٩/٤ (٥) المصدر السابق : ١٠٠/٤
(٦) و (٧) " " : ١٠١/٤

وعن جابر - وهو ابن عبد الله - قال : قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : لا تذبحوا الا مسنّة ، الاّ أن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضّأن . (١)

وعن عبيد بن فيروز ، قال : سألت البراء بن عازب : ما لا يجوز في الأضاحي ؟ فقال : قام فينا رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - وأصابعي أقصر من أصابعه ، وأناملي أقصر من أنامله ، فقال : أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء بيّن عورها ، والمريضة بيّن مرضها ، والعرجاء بيّن ظلعها ، والكسير الّتي لا تنقى . قال : قلت : فانّي أكره أن يكون في السّن نقص ، قال : ما كرهت فدعه ولا تحرّمه على أحد . (٢)

وعن يزيد ذى مضر قال : أتيت عتبة بن عبد السلمى ، فقلت يا أبا الوليد ، انّي خرجت ألتمس الضّحايا ، فلم أجد شيئا يعجبني غير ثرماء ، فكرهتها ، فما تقول ؟ قال : أفلا جئتني بها ؟ قلت : سبحان الله ! تجوز عنك ولا تجوز عنّي ؟!! قال : نعم ، أنت تشكّ ولا أشكّ . انّما نهى رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - عن المصفّرة والمستأصلة والبخقاء والمشيّعة والكسراء .

والمصفّرة : الّتي تستأصل أذنها ، حتّى يبدو سماخها ، والمستأصلة : الّتي استؤصل قرنها من أصله ، والبخقاء : الّتي تبخق عينها ، والمشيّعة : الّتي لا تتبع الغنم عجفا وضعفا ، والكسراء : الكسير . (٣)

وعن عليّ قال : أمرنا رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أن نستشرف العين والأذن ولا نضحّي بعوراء ولا مقابلة ، ولا مدابرة ، ولا خرقاء ولا شرقاء ، قال زهير - وهو ابن معاوية - قلت لأبي اسحاق - وهو السبيعي - أذكر عضباء ؟ قال : لا ، قلت : فما المقابلة ؟ قال : يقطع طرف الأذن ، قلت : فما المدابرة ؟ قال : يقطع من مؤخّر الأذن ،

---

(١) مختصر سنن أبي داود : ١٠٢/٤ (٢) المصدر السابق : ١٠٦/٤
(٣) " " " : ١٠٦/٤ - ١٠٧

قلت : فما الشرقاء ؟ قال : تشقّ الأذن ، قلت : فما الخرقاء ؟ قال : تخرق أذنها للسمة . وأخرجه الترمذى والنّسائي وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح .[1]

وعنه أنّ النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - نهى أن يضحّى بعضباء الأذن والقرن .

وأخرجه الترمذى والنّسائي وابن ماجة وقال الترمذى : حسن صحيح .[2]

فنرى من خلال هذه الروايات أنّ النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - أمرنا ألّا نقرّب من أموالنا الّا ما كان صحيحا قويّا وكان جميلا سويّا يسرّ النّاظرين .

وكان - عليه السّلام - أيضا يلتزم بذلك كما كان يأمر به النّاس فكان لا يضحّي من الأنعام الّا بما كان أقواها وأسمنها وأكرمها وأجملها .

وكانت هذه سنّته - عليه الصّلاة والسلام - مع أنّ الله لم يأمرنا بذلك ولم يطلب منّا الّا أن نذكر اسمه على ما رزقنا من بهيمة الأنعام .

وذلك لأنّ العبد من واجبه ألّا يتقرّب الى ربّه الّا بأكرم أمواله وان لم يؤمر بذلك أمرا صريحا .

فهكذا لمّا أمر بنوا سرائيل أن يذبحوا بقرة ، كان من واجبهم أن ينتقوا للذبح أحسن بقرة وأكرمها وأغلاها وأجملها في أعينهم وكان بنوا سرائيل يدركون ذلك جيّدا ، ولكنّهم استهزؤوا بنبيّهم وأبوا الّا أن يحرجوه بتلك الأسئلة الهازلة الساخرة .

فكان من سعة حلم الله وعظيم عفوه عنهم أنّه لم يؤاخذهم بتلك السخرية الساخرة بل ردّ على أسئلتهم ردّا جميلا وبيّن لهم ما أرادوه بيانا شافيا .

---

(١) مختصر سنن أبي داود : ١٠٧/٤ (٢) المصدر السابق : ١٠٨/٤

وممّا يدلّ على أنّ تلك الأوصاف الّتي ذكرت للبقرة لم تكن من قبيل التشديد في الأمر أنّها جاءت في جوّ يسوده البيان والتبيين فقد حكيت هذه الحكاية في خمس آيات ٠ وورد ذكر طلبهم البيان في هذه الآيات الخمس ثلاث مرّات :

* قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى ؟ *

* قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها ؟ *

* قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى ؟ *

فجاءت مجموع هذه الأوصاف في ثلاث دفعات ٠ وجاءت كلّ دفعة منها بعد طلبهم البيان ، فكلّما استزادوا البيان زادهم الله بيانا وايضاحا ، حتّى تبيّن لهم الأمر ولم يبق لهم موضع للسؤال ٠ وهناك قالوا تلك الكلمة الهازلة الساخرة : * الآن جئت بالحقّ !! * كأنّهم يمتّون على الرسول ويمتّون على ربّهم حيث قبلوا منه ذلك الأمر، وقد قبلوه منه بعد ردّ وكدّ ونقاش طويل ! مع أنّ الأمر كان واضحا بيّنا عندهم ، ولم تكن بهم حاجة الى ما فعلوه ٠

وبالجملة فهذا الجوّ الّذى يسود هذه الآيات يأبى القول بأنّ الأوصاف الّتي ذكرت للبقرة ردّا على سؤالهم كانت من قبيل التشديد في الأمر لقاء تعنّتهم وابائهم لذبح أىّ بقرة تيسّرت وانّما هو تبيين من الله وايضاح منه على طلبهم حتّى لا يكون لهم العذر في القعود عنه ٠

ولعلّنا لا نبعد اذا قلنا انّ الشروط الّتي كان يراعيها النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في الأضاحي ، والّتي يجب علينا أن نراعيها كذلك هى كلّها مستفادة من هذه الآيات ، فالأحاديث الأربعة الأخيرة ناظرة الى قوله تعالى : * مسلّمة لا شية فيها *

وكونه - عليه الصّلاة والسلام - يضحّي بكبش فحيل - وهو الكريم المختار للفحلة - يذكّرنا قوله تعالى : * انّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث *

وكان ـ عليه الصّلاة والسلام ـ قد أمر بكبش يطأ في سواد ، وينظر في سواد ويبرك في سواد ـ وهو الكبش الّذى تكون أظلافه ومواضع البروك منه وما أحاط بملاحظ عينيه من وجهه أسود، وسائر بدنه أبيض ـ .

وكذلك ضحّى ـ عليه الصّلاة والسلام ـ بالمدينة بكبشين أملحين ـ والأملح من الكباش : هو الّذى في خلال صوفه الأبيض طاقات سود ـ .

ومثل هذه الروايات تذكّرنا قوله تعالى : ﴿ انّها بقرة صفراء فاقع لونها تسرّ النّاظرين ﴾

فالأملح من الكباش أو الّذى يطأ في سواد وينظر في سواد ويبرك في سواد يعتبر بمنزلة الأصفر من الأبقار، ولا فرق بينهما من حيث انّ الاثنين يفوقان غيرهما بخلابة اللّون وحسن المنظر .

وقال ـ عليه الصّلاة والسلام ـ : لا تذبحوا الآمسّنة ـ والمسنّة من البقر ابنة ثلاث ، ودخلت في الرابعة ـ الآأن يعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضّأن ـ وهى الّتي دخلت في السنة الثّانية ـ

وهذا القول يذكّرنا قوله تعالى : ﴿ انّها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾

فان صحّ أنّ هذه الشروط الّتي أمرنا بمراعاتها في الأضاحي، كلّها مستفادة من هذه الآيات ، أو شبيه بما تتضمّنه هذه الآيات ، فكيف يصحّ القول بأنّها وردت تشدّد على قوم موسى في أمر البقرة ؟

المناسبة بين القصص الثلاث الأخرى كما يراها البقاعي:

وبعد هذه الملاحظات المتواضعة على ما كتبه البقاعي في مناسبة هذه القصص الثّلاث فيما بينها ، ننتقل الى القصص الثّلاث الأخرى لننظر كيف عالجها ، وبيّن مناسبتها فيما بينها .

يقول ـ رحمه الله ـ وهو يلتمس المناسبة بين قصّة الّذى

حاجّ ابراهيم في ربّه ، وقصّة الّذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها ، وقصّة ابراهيم اذ قال ربّ أرني كيف تحيي الموتى :

" ولمّا كان الايمان بالبعث ، بل الايمان من المقاصد العظمى في هذه السورة ، وانتهى الى هذا السياق الّذى هو لتثبيت دعائم القدرة على الاحياء مع تباين المناهج واختلاف الطّرق ، فبيّن أوّلا بالرّدّ على الكافر ما يوجب الايمان ، وباشهاد المتعجّب ما ختم الايقان ، علا عن ذلك البيان في قصّة الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - الى ما يثبت الطّمأنينة ، وقد قرّر سبحانه وتعالى أمر البعث في هذه السورة ، بعد ما أشارت اليه الفاتحة بيوم الدّين ، أحسن تقرير ، فبثّ نجومه فيها خلال سماوات آياتها ، وفرّق رسومه في أرجائها بين دلائلها وبيّناتها فعل الحكيم الّذى يلقي ما يريد بالتدريج غير عجل ولا مقصّر ، فكرّر سبحانه وتعالى ذكره بالآخرة تارة والاحياء أخرى ، تارة في الدّنيا وتارة في الآخرة في مثل قوله : * وبالآخرة هم يوقنون * * كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم * الآية * ثمّ بعثناكم من بعد موتكم * * كذلك يحيي الله الموتى * * فقال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم * وما كان من أمثاله ونظائره وأشكاله في تلك الأساليب المرادة غالبا بالذات لغيره فاستأنست أنفس المنكرين له به فصار لها استعداد لسماع الاستدلال عليه حتّى ساق لهم أمر خليله عليه الصّلاة والسلام والتحيّة والاكرام ، فكان كأنّه قيل : يا منكرى البعث ومظهرى العجب منه ومقلّدى الآباء في أمره بالأخبار الّتي أكثرها كاذب ! اسمعوا قصّة أبيكم ابراهيم صلّى الله عليه وسلّم الّتي لقّاكم بها الاستدلال على البعث وجمع المتفرّق واعادة الرّوح باخبار من لا يتّهم بشهادة القرآن الّذى أعجزكم عن الاتيان بمثل شيء منه فشهادته شهادة الله لتصيروا من ذلك على علم اليقين بل عين اليقين . فقال تعالى (واذ) عطفا على نحو اذكروا ما تلى عليكم من أمر البعث

واذكروا قصّة أبيكم ابراهيم فيما يدلّ عليه اذ ، وقال الحرالي : ولمّا كان أمر منزل القرآن اقامة الدّين بمكتوبه وحدوده فأنهاه تعالى منتهى منه ثمّ نظم به ما نظم من علنه في آية الكرسي ورتّب على ذلك دين الاسلام الّذى هو القاء كالقاء اليد عند الموت انتظم به أمر المعاد الّذى لا مدخل للعباد في أمره فرتّب سبحانه وتعالى ذكر المعاد في ثلاثة أحوال :

حال الجاحد الّذى انتهت غايته الى بهت ، ثمّ حال المستبعد الّذى انتهت غايته الى علم وايمان وأنهى الخطاب الى حال المؤمن الّذى انتهى حاله الى يقين وطمأنينة ورؤية ملكوت في ملكوت الأرض - انتهى ، فقال سبحانه وتعالى (واذ قال ابراهيم) ولقد استولى الترتيب والتعبير في هذه الآيات الثلاث على الأمد الأقصى من الحسن ، فانّها بدئت بمن أراد أن يخفى ما أوضحته البراهين من أمر الاله في الاحياء بأن ادّعى لنفسه المشاركة باحياء مجازىّ تلبيسا بلفظ الى الدّالّ على بعده ولعنه وطرده ، ثمّ بمن استبعد احياء القرية فأراه الله سبحانه وتعالى كيفيّة الاحياء الحقيقي آية له وتتميما للردّ على ذلك مع الاقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة . ثمّ بمن سأل اكرام الله تعالى له بأن يريه كيف يحيي فيثبت ثمّ أثبتت ثمّ أكّدت . ومناسبة الثلاث بكونها في احياء الأشباح بالأرواح لما قبلها وهو في احياء الأرواح بأسرار الصّلاح أجلّ مناسبة ، فالمراد التحذير عن حال الأوّل والنّدب الى الارتقاء عن درجة الثاني الى مقام الثّالث الّذى حقيقته الصّدق في الايمان لرجاء الحيازة ممّا أكرم به . ولذلك عبّر في قصّته بقوله (واذ) ولم يسقها مساق التعجيب كالأوّل . "(١)

ويزيد فيقول :

" ولمّا انقضى جواب السؤال عن الملك الّذى لا تنفع عنده شفاعة

---

(١) نظم الدّرر : ٤/٦٠ - ٦٣

بغيراذنه ولا خلّة ولا غيرهما وماتبع ذلك الى أن ختم بقصّة الأطيار الّتي صغت الى الخليل بالانفاق عليها والاحسان اليها ثنى الكلام الى الأمر بالنّفقة قبل ذلك اليوم الّذى لا تنفع فيه الوسائل الاّ بالوجه الّذى شرعه بعد قوله : (من ذاالّذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) نظرا الى أوّل السورة تذكيرا بوصف المتّقين حثّا عليه ، فضرب لذلك مثلا صريحة لمضاعفتها فاندرج فيه مطلق الأمر بها اندراج المطلق في المقيّد وتلويحه الّذى هو من جملة المشار اليه بحكيم للاحياء فصرّح بأنّ النّفقة المأمور بها من ذخائر ذلك اليوم الّذى لا ينفع فيه الاّ ما شرعه وهو من جليل العزّة . وساقه على وجه يتضمّن احياء الموات الّذى هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات ، فهو ايماء الى الاستدلال على البعث بأمر محسوس ، وذلك من دقيق الحكمة ، فكأنّه سبحانه وتعالى يقول : انّ خليلي عليه الصّلاة والسلام لمّا كان من الراسخين في رتبة الايمان أهّلته لا متطاء درجة أعلى من درجة الايقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن احياء الأطيار وأقمت نمطا من ذلك لعامّة الخلق مطويّا في احياء النّبات على وجه معتاد فمن اعتبر به أبصر ومن عمى عنه انعكس حاله وأدبر فقال سبحانه وتعالى: (مثل) . . (١)

تقويم هذه الافادات :

هذا ما يفيدنا البقاعي في مناسبة هذه القصص فيما بينها ، ولما بين يديها وما خلفها . والمتأمّل اذا تأمّل في هذه الافادات ، وقلّبها ظهرا لبطن ، فانّه لا يستريح اليها من عدّة وجوه ، وهى كما يلي :

١ ـ انّ ربط هذه الآيات بمنكرى البعث يجعلها غريبة بين جاراتها . حيث انّ الآيات الّتي سبقتها والّتي تليها ، كلّها تتّصل بالّذين آمنوا ، ولا صلة لها بمنكرى البعث أصلا ، لا من قريب ولا من بعيد.

(١) نظم الدّرر : ٧٣/٤ ـ ٧٤

حتّى الآيات الّتي استأنس بها ماجاءت لاثبات البعث ، وليس وجه الخطاب فيها الى منكرى البعث . وانّما هى تخاطب بني اسرائيل ، ومعلوم أنّهم كانوا يؤمنون بالتوراة ، وكانوا يؤمنون بالبعث .

وهكذا سيكون الوضع اذا رجعت هذه الآيات الى موضوع المعاد ، فانّ السياق ليس سياق اثبات المعاد . والموضوع الّذى تتضمّنه هذه الآيات غير هذا الموضوع .

ومن هنا يصعب على الباحث أن يوافق الحرالي فيما ذهب اليه من أنّ الله سبحانه وتعالى رتّب ذكر المعاد هنا في ثلاثة أحوال .

وكذلك الأمر فيما قاله البقاعي من أنّ الله تعالى أرى الّذى استبعد احياء القرية كيفيّة الاحياء الحقيقي مع الاقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة .

أوما قاله الحرالي من أنّه انتهت غاية هذا المستبعد الى علم وايمان .

فالّذى يترجّح في هذا الموضوع بعد التأمّل في نظم الآية وسياقها هو ما قاله الزمخشري - رحمه الله - حيث قال :

" والمارّ كان كافرا بالبعث وهو الظّاهر لانتظامه مع نمروذ في سلك ، ولكلمة الاستبعاد الّتي هى أنّى يحيي . " (١)

٢ - اذا كان ما قبل هذه القصص الثلاث في احياء الأرواح بأسرار الصّلاح ، أليس من الأفضل أن تؤوّل هذه القصص أيضا الى احياء الأرواح حتّى تتمّ المطابقة ويتحقّق التناسب ؟

أمّا أن يكون السياق سياق احياء الأرواح وتذكر فيه قصص احياء الأشباح ، اعتمادا على فهم المخاطب ، أنّه سيجيد الفهم ويحسن الاعتبار ويستوحي من تلك القصص ما يتناسب مع سياقها ، وان كانت هى في أصلها لا توحي بذلك ، خاصّة وهو يرى أنّ المخاطب في هذه الآيات منكر للبعث

---

(١) الكشّاف : ٣٨٩/١

ـ كما مرّ معنا آنفا ـ فهذا ليس من دأب القرآن ـــ القرآن الّذى ينتقي لكلّ موضع ما يناسبه ، ويكون دقيقا غاية الدّقّة في سرد قصصه وأمثاله .

اذاً فهذه المناسبة الّتي ذكرها لا تخلو من تكلّف ، وان كان يعتبرها هو (أجلّ مناسبة !)

٣ ـــ انّ هذه المناسبة الّتي ذكرها بين قصّة سيّدنا ابراهيم وبين ما يتلوها من الأمر بالانفاق والترغيب فيه والتحريض عليه ، مناسبة ضعيفة تعتمد على الخيال أكثر ممّا تعتمد على الواقع .

فأيّ مناسبة بين الانفاق على الطّير والاحسان اليها وبين الانفاق في سبيل الله ، حتّى يكون أحدهما تمهيدا للآخر ، أو مدعاة اليه ، أو سببا لانجرار الكلام اليه ؟

وتزداد هذه المناسبة ضعفا حين نضع في اعتبارنا أنّ هذا الأمر الّذى بنيت عليه هذه المناسبة ، ليس أمرا ثابتا ، وانّما هو من الاحتمالات الّتي تتأرجح بين ثبوتها وانتفائها ، وكفّة انتفائها أرجح من كفّة ثبوتها .

فليس هناك شيءٌ يثبت أنّ سيّدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ أنفق على الطّير وأحسن اليها ، حتّى صغت اليه ، الاّ ما ذكره عن الحرالي، حيث يقول :

" (فصرهنّ) أى : اضممهنّ "اليك " أى لتعرف أشكالها فيكون ذلك أثبت في أمرها . قال الحرالي : من الصّور وهو استمالة القلوب بالاحسان حتّى يشتدّ الى المستميل صغوها وميلها ، واشعاره ينبئ ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، أنّ ابراهيم عليه الصّلاة والسلام ربّاهنّ وغذاهنّ حتّى عرفنه ، ليكون ذلك مثلا لما الله سبحانه وتعالى في خلقه من تربيتهم بخلقهم ورزقهم حتّى عرفوه بما احتاجوا اليه . فوجدوه معرفة عجزعنه لا معرفة نيل له ، فمتى دعاهم من أقطار الآفاق أجابوه اجابة هذه الطّوائر لخليله بحظّ يسير من تربيته لهنّ . واذا كانت هذه الأربع

مجيبة للخليل – عليه السلام – بهذا الحظ اليسير من الصور والصغو فكيف تكون اجابة الجملة للجليل العزيز الحكيم ! " (١)

وهذا يعني أنّ قصّة الطّير والانفاق عليها ليست الّا اجتهادا واستنباطا من الحرالي – رحمه الله – .

وما كان يضرّنا هذا الاجتهاد لو أنّه استند فيه الى دليل ، ولكنّه بنى أمره كلّه على لفظ (صور) ومن الواضح أنّ لفظ (صور) وحده لا يؤدّى أبدا الى تلك النتيجة الرهيبة الّتي استخرجها الحرالي منه .

٤ – وكما أنّ هذه المناسبة ليست من الوجاهة في شئ ، فكذلك تلك المناسبة الّتي ذكرها بعدها ، حيث قال :

" وساقه على وجه يتضمّن احياء الموات الّذى هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات ، فهو ايماء الى الاستدلال على البعث بأمر محسوس ، وذلك من دقيق الحكمة ، فكأنّه سبحانه وتعالى يقول: انّ خليلي عليه الصّلاة والسلام لمّا كان من الراسخين في رتبة الايمان أهّلته لامتطاء درجة أعلى من درجة الايقان بخرق العادة في رفع الأستار على يده عن احياء الأطيار ، وأقمت نمطا من ذلك لعامّة الخلق مطويّا في احياء النّبات على وجه معتاد . " (٢)

فهذه المناسبة ليست أحسن حالا من أختها ، حيث انّ هذه الآيات لا تمسّ موضوع احياء الموات مسّا ، ولا صلة لها بالاستدلال على البعث أصلا .

والقارئ الخالى الذهن اذا قرأها وتدبّرها ، فلن تتبادر الى ذهنه هذه النّكتة الّتي استخرجها البقاعي ونوّه بشأنها ولو طال مكثه عليها .

فهذه ليست من جنس المناسبات الّتي تتبادر الى الذهن طوعا ،

---

(١) نظم الدّرر : ٦٧/٤ – ٦٨ (٢) المصدر السابق : ٧٤/٤

وتسرع اليه عفوا صفوا من غير تكلّف ولا عناء ، وانّما هى من جنس ما يخترعه الذهن اختراعا ، ثمّ يقبل الى الآيات ليستخرجه منها استخراجا ، ولو كانت العبارة لا تحتمله ، بل كانت ترفضه رفضا !

فكم من آية في القرآن قد تناولت موضوع احياء الموات ، واستدلّت به على البعث بعد الممات ، ولكنّها واضحة في موضوعها ، وتختلف في لونها وأسلوبها . ولا بأس بأن نذكر هنا نماذج منها . قال تعالى:

﴿ فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، انّ ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كلّ شيءٍ قدير ﴾ (١)

﴿ يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ﴾ (٢)

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّا فمنه يأكلون ﴾ (٣)

فأين هذه الآيات من تلك ، فهناك فرق واضح في لونها وأسلوبها ، فالقرآن يستدلّ على احياء الموتى باحياء الأرض الميتة ، ولكن لا يستدلّ عليه أبدا بكثرة النّبات وشدّة النّموّ .

ولعلّ الامام البقاعي - رحمه الله - لم يضطرّ الى هذا التكلّف في التماس المناسبة إلاّ لأنّه ارتبك في فهم تلك الأمثلة الثلاثة وفي فهم أهدافها ودلالاتها ، والاّ فالمناسبة بينها كانت واضحة ، ولم يكن الأمر بحاجة الى هذا التكلّف الّذى لجأ اليه .

تلك الوجوه الّتي أردنا أن ننبّه اليها . وهى تجعل الباحث لا يستريح الى ما ذهب اليه في مناسبة هذه القصص الثّلاث فيما بينها ولما حولها .

<u>وقفة عند آية أقام عليها البقاعيّ شهورا :</u>

وقبل أن نقفل هذا الحديث نودّ أن تكون لنا وقفة عند آية

---

(١) سورة الرّوم : ٥٠   (٢) سورة الرّوم : ١٩
(٣) سورة يس : ٣٣

يقول عنها البقاعي ، انه أقام في تأمّلها شهورا ، حيث يقول :

" فلا تظنّ أيّها النّاظر لكتابي هذا أنّ المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها والرفع لستورها ، فربّ آية أقمت في تأمّلها شهورا ، منها : ﴿ واذ غدوت من أهلك ﴾ في آل عمران . الخ "(١)

فلننظر كيف عالج هذه الآية . يقول - رحمه الله - :

" ولمّا كان ماتضمّنته هذه الآية من الاخبار ومن الوعد ومن الوعيد منطوقا ومفهوما محتاجا الى الاجتلاء في صور الجزئيّات ذكرهم سبحانه وتعالى بالوقائع الّتي شوهدت فيها أحوالهم من النّصر عند العمل بمنطوق الوعد من الصّبر والتقوى وعدمه عند العمل بالمفهوم وشوهدت فيها أحوال عدوّهم من المساءة عند السرور والسرور عند المساءة . وذلك غنيّ عن دليل لكونه من المشاهدات ، مشيرا الى ذلك بواو العطف على غير مذكور ، مخاطبا لأعظم عباده فطنة وأقربهم اليه رتبة ، تهييجا لغيره الى تدقيق النّظر واتّباع الدّليل من غير أدنى وقوف مع المألوف ، فقال تعالى : (واذ) أى اذكر ما يصدّق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم واتّقيتم فنصرتم ، وحين ساءهم نصركم في كلّ ذلك : في سريّة عبدالله بن جحش الى نخلة ثمّ في بدر ثمّ في غزوة بني قينقاع ونحو ذلك ، واذكر اذلم يصبر أصحابك فأصيبوا ، واذ سرّتهم مصيبتكم في وقعة أحد . "(٢)

ويزيد فيقول :

" ولعلّه انّما خصّ هذه الغزوة بالذكر دون ماذكرت أنّ واو عطفها دلّت عليه ممّا أيّدوا فيه بالنّصر لأنّ الشماتة بالمصيبة أدلّ على البغضاء والعداوة من الحزن بما يسرّ ، ودلّ ذكرها على المحذوف لأنّ المدعى فيما قبلها شيئان : المساءة بالحسنة والفرح والمسرّة بالمصيبة فاذا برهن المتكلّم على الثّاني علم ولا بدّ أنّه حذف

---

(١) نظم الدّرر : ١٥/١ (٢) المصدر السابق : ٤١/٥ - ٤٢

برهان الأوّل . وأنّه انّما حذفه – وهو حكيم – لنكتة ، وهي هنا عدم الاحتياج الى ذكره لوضوحه بدلالة السياق مع واو العطف عليه ، وما تقدّم من كونه غير صريح الدّلالة في أمر البغض على أنّه تعالى قد ذكر بدرا – كما ترى – بعد محكمة ستذكر . " (١)

هذا ما يقوله البقاعي في مناسبة هذه الآية لما قبلها .

وكنّا نظنّ أنّ الوضع في معالجة هذه الآية سيختلف عنه في معالجة أخواتها ، لما أنّه – رحمه الله – أقام في تأمّلها شهورا ، ولكن ماذا ستفعل هذه الاقامة الطّويلة في تأمّل الآية اذا كان المنهج نفسه لا يسلم من خلل ؟

فهيهات ، هيهات أن يصل المرء الى ما يروم ، ولو سهر له طوال السنين ، اذا كان منهجه لا يسلم من خلل !

ونحن سننبّه هنا الى أمور لا نرتاح لأجلها الى هذا التأويل ، وهي كما يلي :

١ – انّ قوله تعالى : ﴿ واذ غدوت .. الآية ﴾ لا يحتمل أبدا تلك المقدّرات الّتي أشار اليها البقاعي ، حيث قال :

" (واذ) أي اذكر ما يصدّق ذلك من أحوالكم الماضية حين صبرتم واتّقيتم فنصرتم وحين ساء هم نصركم في كلّ ذلك : في سريّة عبدالله بن جحش الى نخلة ثمّ في بدر ، ثمّ في غزوة بني قينقاع ، ونحو ذلك . واذكر اذ لم يصبر أصحابك فأصيبوا ، وانسرّتهم مصيبتكم في وقعة أحد . "

٢ – انّ هذه الآيات (١٢١ – ١٢٩) لا تتناول الا ما حدث قبل نشوب المعركة ، وليس فيها ذكر ما أصاب المسلمين في تلك الغزوة ، حتّى نربطها بما فوقها برابطة الشماتة بالمصيبة .

٣ – انّ هذه المناسبة الّتي ذكرها تعتمد على فكرة هزيمة

---

(١) نظم الدّرر : ٥/٤٣ – ٤٤

المسلمين في غزوة أحد ، وهي فكرة خاطئة لا تقوم بها حجّة قائمة · وسنبيّن ذلك باذن الله حين ندرس تلك الآيات في موضعها ·

٤ ـ انّ هذه الآيات لو كانت تستهدف اقامة الحجّة على ما ذكر من حال عدوّهم من المساءة عند السرور والسرور عند المساءة ، لكان لها اشارة واضحة أو خفيّة مفهومة في تلك الآيات ·

تلك الاشكالات الّتي تجعلنا لا نفرح بهذا التأويل ، وتحثّنا حثّا على أن نلتمس له بديلا ، وليس ذلك على الله بعزيز ·

وبالجملة فهذا المنهج الّذى اتّبعه البقاعي واستخدمه في ممارسة هذا العلم لم يستطع أن يملأ يديه من خيرات هذا العلم ·

ولقد بيّنّا فيما مضى أنّه يقوم على قاعدتين ، احداهما : اسم كلّ سورة مترجم عن مقصودها ·

والثّاني : مقصود كلّ سورة هاد الى تناسبها ·

ويجمع هاتين القاعدتين أنّه ليس لهما أصل ثابت ، وانّما تعتمدان كلّ الاعتماد على الخيال ·

فالأصل في هذا المنهج أنّه يطير بجناح الخيال ، ويتلقّف كلّ ما يسوقه اليه الخيال ، حتّى ولو كان في غاية الرداءة والغرابة ·

ولقد قدّمنا نماذج فيما مضى ، ونودّ أن نضيف اليها أنموذجا جديدا من هذا القبيل ·

تقويم ما قاله البقاعي في الفرق بين آيتى البقرة وآل عمران :

يقول البقاعي وهو يتحدّث عن قوله تعالى : ﴿ انّ في خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآيات لأولي الألباب ﴾ :[1]

" وذكر سبحانه وتعالى في أخت هذه الآية في سورة البقرة ثمانية أنواع من الأدلّة واقتصر هنا على ثلاثة ، لأنّ السالك يفتقر في ابتداء السلوك الى كثرة الأدلّة ، فاذا استنار قلّت حاجته الى ذلك · وكان الاكثار

(١) سورة آل عمران : ١٩٠

من الأدلّة كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لجج المعرفة . واقتصرهنا من آثار الخلق على السماويّة ، لأنّها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب منها الى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشدّ وأسرع . وختم تلك بما هو لأوّل السلوك : العقل ، وختم هذه بلبّه ، لأنّها لمن تخلّص من وساوس الشيطان وشوائب هواجس الوهم المانعة من الوصول الى حقّ اليقين ، بل علم اليقين . " (١)

وهذا يعني أنّ من شأن السالك المستنير أن يحذر المواضع الّتي كثرت فيها الأدلّة في القرآن . فلا يقرأ تلك الآيات ولا يستمع لها ، حتّى لا تكون تلك الآيات كالحجاب الشاغل له عن استغراق القلب في لجج المعرفة .

ثمّ انّ هذه النّكتة لا تنسجم مع النّكتة الثّانية وهى قوله : " واقتصرهنا من آثار الخلق على السماويّة لأنّها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب منها الى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشدّ وأسرع . "

فانّ الّذى يتضرّر بكثرة الأدلّة سيتضرّر بها اذا كانت أقهر وأبهر . وانّما الّذى يناسبه أن تكون الأدلّة المعروضة عليه أخفّ وأيسر .

وأيضا اذا كانت كثرة الأدلّة كالحجاب الشاغل له ، فكثرة العجائب سيكون ضررها عليه أكثر وأشدّ .

اذاً فلا معنى لقوله بعد ذلك : " وانتقال القلب منها الى عظمته سبحانه وتعالى وكبريائه أشدّ وأسرع " فهناك تعارض واضح بين الأمرين كما لا يخفى .

ولا شكّ أنّ مثل هذه المناسبات ـ أو بعبارة أصحّ : مثل هذه التكلّفات ـ هى الّتي أحفظت الامام الشوكاني وجعلته يثور على هذا العلم ، حيث يقول :

---

(١) نظم الدّرر : ١٥٥/٥

" اعلم أنّ كثيرا من المفسّرين جاءوا بعلم متكلّف ، وخاضوا في بحر لم يكلّفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم في فنّ لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم في التكلّم بمحض الرأى المنهيّ عنه في الأمور المتعلّقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنّهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنيّة المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف ، فجاءوا بتكلّفات وتعسّفات يتبرّأ منها الانصاف ، ويتنزّه عنها كلام البلغاء فضلا عن كلام الربّ سبحانه ، حتّى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهمّ من التأليف ، كما فعله البقاعيّ في تفسيره ومن تقدّمه حسبما ذكر في خطبته . " (١)

ونحن أيضا مع الامام الشوكاني في الرغبة عن مثل هذه التكلّفات ، التي تعتمد على محض الرأى ، ثمّ نزيد فنقول :

كلمة عن المنهج الّذى تمثّله هذه الرسالة :

انّ الأصل في هذا العلم ليس الرأى المحض ، كما يتوهّم ذلك من ينظر في عمل البقاعي ، بل الأصل فيه هو العكوف على كتاب الله ، وتدبّر آياته ، والتأمّل في نظمه وسياقه ، ومتابعته متابعة دقيقة من غير تكلّف ولا تعسّف ، حتّى ينكشف ما خفى من معانيه ، ويتجلّى كما يتجلّى القمر في ليلة تمامه .

فمحاولة التمكّن من فهم القرآن والتوصّل الى صحيح تأويله هو الأصل في هذا العلم .

ومن هنا يختلف منهجنا في ممارسة هذا العلم عن منهج الامام البقاعي ، حيث انّ منهجه يغلبه طابع التكلّف والتعسّف ، بينما هذا المنهج ، الّذى تمثّله هذه الرسالة ، يرفض التكلّف رفضا باتّا ، ولا يلتفت الى تأويل تشمّ فيه رائحة التكلّف .

وكما أنّه لا مكان هنا للقول بمحض الرأى ، فكذلك لا مكان لما يشبهه

---

(١) فتح القدير : ٧٢/١

من الاعتماد على الروايات الضّعيفة ، الّتي تصرف الآيات عن وجهها وتكون حجابا دون التوصّل الى صحيح تأويلها . فمثل هذه الأشياء كلّها مرفوضة في هذا المنهج .

انّ هذا المنهج يعتمد من أوّل أمره على أسس علميّة واضحة ثابتة .

فأوّل أمر يهمّ صاحب هذا المنهج أن يتأكّد من صحّة تأويل الآيات ، الّتي يريد أن يلتمس فيها المناسبة ، فكثير من الآيات قد التبس علينا أمرها ، ولم يتبيّن لنا صحيح تأويلها . فان أردنا أن نلتمس المناسبة بينها من غير أن نتأكد من صحة تأويلها، كنّا كباسط كفّيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

وهذا الّذى حصل مع كثير من النّاس ، ممّن عنوا بالتماس المناسبات بين الآيات ، ومنهم البقاعيّ - رحمه الله - حيث انّهم التمسوا المناسبة بين آيات لم يتأكّدوا من صحّة تأويلها ، فلم يظفروا بما أرادوا ، وما كان لهم أن يظفروا بما لم يمهّدوا الطّريق اليه ، ولم يسلكوا المسالك الّتي تؤدّيهم اليه .

ولقد سبقت لك نماذج فيما مضى ، وستأتي نظائرها في غضون هذا البحث باذن الله .

فهذا المنهج يفرض على من يلتمس المناسبة بين الآيات أن يتأكّد أوّلا من صحّة تأويل تلك الآيات ، بحيث يعرض ما بدا له من التّأويل على معايير دقيقة لا تخطئ في الحكم ، ولا تبخل ببيان ما هو عليه من صحّة أو سقم .

* فاذا كانت الآية - مثلا - تحتمل وجوها كثيرة أو وجوها عديدة من المعاني ، فلا يؤخذ منها الا ما كان أقرب لحسن التأويل ، وكان أليق بعظمة هذا الكلام .

* ولا يؤخذ منها الا ما كان موافقا لمحكم الكتاب والسّنّة .

* واذا كان هناك وجه له شاهد في العبارة ، ووجه آخر ليس له شاهد ، فلا يؤخذ الا ماكان له شاهد ·

* ولا يقبل من التأويل ماكان بعدا بألفاظ الآية عن المعنى المتبادر، المعروف في لسان العرب الى غيره ·

* وكذلك لا يقبل منه ما يعدل بالكلام عن الأسلوب المعروف في لسان العرب ، وكان يوحي بالتكلّف والتعسّف ، حيث انّ القرآن نزل بلسان عربيّ مبين ، فكلّ تأويل يوهم غيرذلك ، أو يجرّد القرآن عن هذا الوصف ، فهو ردّ على صاحبه ·

هذه المعايير أشار اليها الفراهي في مواضع متفرّقة من كتبه وخاصّة في كتابه " دلائل النّظام " ·

وبالجملة فلا بدّ لنا أن نتأكّد أوّلا من صحّة تأويل الآيات ثمّ نلتمس وجوه المناسبة فيها ·

ثمّ انّ المعايير الّتي ذكرناها لمعرفة صحيح التأويل من سقيمه ، ستساعدنا في معرفة صحيح المناسبة من سقيمها كذلك ·

* فلا تقبل من وجوه المناسبة الاّ ماكان أقرب لحسن التأويل، وكان أليق بعظمة هذا الكلام ·

* ولا يقبل منها الاّ ماكان موافقا لمحكم الكتاب والسّنّة ·

* ولا يقبل منها الاّ ماكان له شاهد في العبارة ·

* ولا يقبل منها ماكان يلجئ الى التكلّف والتعسّف و سخافة الاستدلال ·

* ولا يقبل منها ماكان يربط المتّصل القريب ويقضب البعيد المحيط ، وكان غيرمنسجم مع الجوّ العامّ للسورة ·

وبعد ما ننتهي من التماس المناسبات و ربط الآيات بعضها ببعض ، نعود الى السورة مرّة أخرى لنلتمس مقصدها ، أوعمودها ، الّذى تدورالسورة حوله بجميع أجزائها ·

ولا يمكن الاطّلاع على عمود السورة الّا بعد الاطّلاع على تناسب أجزائها .

ثمّ مجرّد الاطّلاع على تناسب الأجزاء لا يكفي للتوصّل الى عمود السورة . بل يحتاج الباحث بعد ذلك أن يكرّر النّظر في جميع أجزاء السورة ، ويطيل التأمّل فيها .

ويحتاج كذلك الى أن يستحضر في ذهنه مضامين السور المجاورة ومقاصدها . ويتأمّل في الميزات والسمات الّتي تجمعها معها ، أو تفرّق بينها .

ومع ذلك كلّه يتضرّع الى الرحمن أن يفتح عليه من خزائن رحمته ، ولا يحرمه من علم كتابه .

وقد يستغرق هذا التأمّل المتكرّر في مضامين السورة ومضامين جاراتها شهورا وسنين ، حتّى اذا استيأس الباحث وظنّ أنّه لن ينال ماكان يتطلّع اليه ، جاءه النّصر وانكشف له العمود .

واذا انكشف العمود أضاءت له السورة كلّها كفلق الصّبح ، وتجلّت له بأطرافها وأبعادها وهى تزخر بالمعاني والحكم .

وممّا يجدر التنبيه اليه أنّ الاطّلاع على تناسب أجزاء السورة كما يساعد في التوصّل الى عمودها ، فكذلك العمود ـ بعد وضوحه ـ يبلور وجوه المناسبة بين أجزاء السورة .

فانّ العمود ـ كما قدّمنا ـ يجعل السورة واضحة شاخصة ، ويضئ جوانبها وأطرافها . وبذلك تتّضح الأمور الّتي لم تكن واضحة قبل ، وتسفر كما يسفر الصّبح بعد ظلمة اللّيل .

وكلّما ازدادت السورة وضوحا وسفورا ، ازدادت وجوه المناسبة بين أجزائها وتكاثرت .

وقد يكون هناك ـ قبل أن يتّضح العمود ـ ميل أو غبش في الرؤية الى وجوه المناسبة ، ولكن اذا وضح العمود ، وضحت السورة كلّها ، وتبيّن للباحث ماكان فيه من ميل أو غبش في رؤيته .

يقول أستاذنا الفراهي - رحمه الله - وهو ينبّه الى خطورة شأن العمود ، والى عزّة حصوله وصعوبة مناله :

" اعلم أنّ تعيين عمود السورة ، هو اقليد لمعرفة نظامها ، ولكنّه أصعب المعارف ، ويحتاج الى شدّة التأمّل والتمحيص وترداد النّظر في مطالب السور المتماثلة والمتجاورة ، حتّى يلوح العمود كفلق الصّبح ، فتضيئ به السورة كلّها ويتبيّن نظامها ، وتأخذ كلّ آية محلّها الخاصّ ، ويتعيّن من التأويلات المحتملة أرجحها . " (١)

وكذلك الأمر في تأويل الآيات قبل وضوح المناسبة بينها ، فقد يتصوّر الباحث أنّه مصيب فيما ذهب اليه من تأويل الآية أو الآيات ، ثمّ اذا ظهرت له المناسبة بينها تبيّن له أنّه كان مخطئا في ظنّه ، وأنّ تأويل الآية على غير ما ذهب اليه .

وبالجملة فهذا المنهج يعتمد على ثلاث مراحل ، أولاها :

التأكّد من صحّة تأويل الآيات ، بعرضه على المعايير العلميّة الدّقيقة الثّابتة .

والمرحلة الثّانية : التماس المناسبة بين الآيات وبين أجزاء السورة وفقراتها .

والمرحلة الثّالثة : استخراج عمود السورة .

ثمّ هذه المراحل الثلاث ، وان كان يوجد بينها ترتيب ، الاّ أنّ هذا الترتيب لا يظهر الاّ في أوّل الطّريق . وبعد ذلك تتداخل هذه الثّلاث بعضها في بعض ، وتتعاون فيما بينها وتتعاضد - كما بيّنّاه آنفا - حتّى تتحقّق الغاية المنشودة ، وتقرّبها عين الباحث باذن الله .

***　　　**　　　***

وبعد : فهذه دراسة موجزة لتفسير البقاعي ومنهجه في تناول علم المناسبات .

وتلك لمحات سريعة الى المنهج الّذى ستمثّله هذه الرسالة

---

(١) دلائل النّظام : ص / ٧٧

المتواضعة باذن الله .

والفرق بين المنهجين واضح شاخص .

وكفى به مبرّرا لاختيارنا لهذا الموضوع .

*** ** ***

تنبيه هامّ :

وقبل أن نختم هذا الحديث نودّ أن ننبّه الى أمر لا بدّ من التنبيه اليه ، وهو أنّنا مانهضنا لهذا العمل العظيم الجليل ثقة بحولنا وقوّتنا ، فكلّنا ضعف وعجز وانكسار . ولا حول ولا قوّة الّا بالله .

وانّما عدّتنا وزادنا في هذا الطّريق هو الثّقة بالله والتوكّل على واسع رحمته وعظيم فضله .

فنبدأ مسيرنا هذا متضرّعين اليه - جلّ شأنه - أن يعلّمنا من كتابه ماجهلنا ، ويفتح علينا من كنوزه ماخفى عنّا ، ولا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين فنهلك .

ونعطي العهد من أنفسنا أنّنا لن نخطّ فيه كلمة الّا اذا انشرح لها صدرنا و تأكّد لدينا أنّها ممّا أفاضه ربّنا من فضله .

وأمّا اذا أرتج علينا واستغلق علينا شيء من كلام ربّنا فلن نتكلّف القول هناك . ولن نتعسّف في تأويله ، بل نعترف على أنفسنا بالعجز ونقرّ بالجهل .

ولكن اذا عجزنا عن اكتشاف النّظام في آية أو سورة أو مجموعة من الآيات ، أو مجموعة من السور فلن يكون ذلك دليلا على انتفائه وعدم وجوده .

وانّما يكون دليلا على عجزنا وقلّة علمنا وقصور فهمنا فقط .

فانّ العجز عن ادراك حقيقة لا يكون دليلا على انتفائها .

وانّما يكون دليلا على العجز عن ادراكها فقط .

ومثله في هذا كمثل ما يحدث معنا في هذا الكون ، حيث انّ هذا الكون كتاب الله المنظور كما أنّ هذا الكتاب كتاب الله المتلوّ . وبينهما شبه كبير .

فكم من الحقائق في هذا الكون لم تنكشف على من قبلنا ، وانكشفت علينا اليوم !

وكم من الحقائق في هذا الكون لم تنكشف علينا اليوم ، وستنكشف على من يأتون بعدنا .

فان لم تنكشف هذه الحقائق على من قبلنا بالأمس ، أولم تنكشف علينا اليوم ، ولم يكن ذلك دليلا على انتفائها وعدم وجودها ، فكيف يكون ذلك دليلا على انتفاء النّظام في كتاب الله ، ان لم ينكشف شيءٌ منه علينا اليوم ، أولم ينكشف شيءٌ منه على من قبلنا ؟

وهذه نكتة لا بدّ أن ننتبه لها .

فالغفلة عن هذه النّكتة هى الّتي حملت بعض النّاس على انكار النّظام في القرآن ، كما حملت بعضهما لآخرين على التكلّف والتعسّف في أمره ، حيث انّهم ظنّوا أنّهم ان اعترفوا على أنفسهم بالعجز عن ادراكه في أىّ موضع من القرآن ، يكن ذلك حجّة لخصمهم عليهم .

ولا شكّ أنّ موقفهم هذا أصبح ضررا عليهم . ويا حبّذا لو أنّهم قالوا بوجود النّظام في القرآن ، وأردفوه بأنّ وجوده في جميع القرآن لا يستلزم أن ينكشف عليهم في جميع القرآن . فقد ينكشف عليهم في موضع ولا ينكشف في آخر .

فما انكشف فهو فضل من الله ونعمة ، وما لم ينكشف فهو راجع الى قلّة علمهم وقصور فهمهم ، وقد قال تعالى :﴿ وما أوتيتم من العلم الاّ قليلا ﴾

ولو أنّهم قالوا ذلك لكان أولى بهم وأجدر ، وكان أقوى لموقفهم وأثبت لحجّتهم ، ولكنّهم ـ والله يسامحهم ـ فعلوا ما كان ضرره أقرب من نفعه !

هذه وجهة نظرنا في هذا الموضوع .

وسنلتزم بها التزاما في عملنا هذا باذن الله .

وبعد هذه الكلمة القصيرة المتواضعة نقبل الى ثلاث سور عظام من سور القرآن ، لنكشف القناع عن نظامها ونظام آياتها ونميط اللّثام عمّا أودع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها عن طريق حسن نظامها من خزائن العلم وكنوز الحكمة .

سائلين ربّنا ومولانا أن يسدّد خطانا وينوّر قلوبنا ويلهمنا رشدنا وصوابنا ، ويأخذ بناصيتنا الى ما يرضيه عنّا ، فهو وليّنا ومولانا ، فنعم المولى ونعم النّصير .

الباب الأول :

نظام سورة الفاتحة

** الفصل الأول **
** ** **

على هامش السورة

قال الله تعالى في فاتحة كتابه العزيز :

﴿ الحمد لله ربّ العالمين . الرّحمن الرّحيم . مالك يوم الدّين . ايّاك نعبد وايّاك نستعين . اهدنا الصّراط المستقيم . صراط الّذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم و لا الضّالّين . ﴾

تلك سورة الفاتحة — السّورة الّتي يردّدها كلّ مسلم في كلّ ركعة من صلاته في ليله ونهاره .

ألا ما أعظمها من سورة وما أجلّها !! فقد سمّاها النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - أعظم سورة في القرآن .(١)

وقد روى عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال :

بينما جبريل قاعد عند النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - سمع نقيضا (٢) من فوقه ، فرفع رأسه فقال :

هذا باب من السّماء فتح اليوم ، لم يفتح قطّ الاّ اليوم فنزل منه ملك فقال :

هذا ملك نزل الى الأرض لم ينزل قطّ الاّ اليوم ، فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب و خواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما الاّ أعطيته .(٣)

ثمّ ما أحبّ هذه السورة عند ربّنا وما أعظمها !! وما أشرفها وما أكرمها !!

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّه سمع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يقول :

قال الله تعالى : قسمت الصّلاة بيني و بين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ..

فاذا قال العبد : الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب فاتحة الكتاب ٦/ ١٠٣

(٢) (نقيضا) أى صوتا كصوت الباب اذا فتح . (٣) صحيح مسلم ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، والحثّ على قراءة الآيتين من آخر البقرة ، رقم الحديث (٨٠٦) ١/٥٥٤

قال الله تعالى : حمدني عبدى .

واذا قال : الرّحمن الرّحيم .

قال الله تعالى : أثنى علىّ عبدى .

واذا قال : مالك يوم الدّين .

قال : مجّدني عبدى . (وقال مرّة : فوّض الىّ عبدى)

فاذا قال : ايّاك نعبد وايّاك نستعين .

قال : هذا بيني وبين عبدى ولعبدى ما سأل .

فاذا قال : اهدنا الصّراط المستقيم ، صراط الّذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين .

قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .(١)

هذان حديثان من بين أحاديث أخر كثيرة في هذا الموضوع ، وناهيك بهما دلالة على شرف هذه السّورة ، وعلى خطورة شأنها وجلالة قدرها .

فلعمرى انّ المسلم الواعي اذا اطّلع عليهما لم يملك الاّ أن يخرّ ساجدا أمام ربّه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على عظيم فضله علينا وبالغ تكريمه لنا بهذه السّورة العظيمة ، كما وجد في نفسه دافعا قويّا الى أن يقف عندها طويلا وينعم فيها النّظر متدبّرا لمعانيها ، باحثا عن سرّ مكانتها وجلالة قدرها .

والحقّ أنّنا كلّما أطلنا الوقوف عندها رأينا من شأنها عجبا .

فمن عجيب شأنها - مثلا - أنّ هذه السورة القصيرة الوجيزة ، الّتي لا تزيد على سبع آيات قصار ، صورة مصغّرة للصّلاة وبرنامج كامل لها ، بالاضافة الى أنّها روحها وبهاؤها وسندها وعمادها ومادّتها الحقيقيّة الّتي لا صلاة بدونها حيث قال - عليه السّلام - :

لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب .(٢)

وبعبارة أوضح : فالصّلاة بجميع أركانها من قيام وركوع وسجود

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الصّلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعة ، رقم الحديث (٣٩٥) ٢٩٦/١

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الأذان ، باب وجوب القراءة للامام والمأموم في الصّلوات كلّها في الحضر والسّفر . ١٨٤/١

و قعود تفسير عمليّ لهذه السّورة، ولعلّ هذا هو السّر في أنّ الله تبارك و تعالى سمّى هذه السّورة (الصّلاة) حيث قال - عزّ من قائل - في الحديث القدسيّ الّذى مرّ بنا آنفا :

(قسمت الصّلاة بيني و بين عبدى نصفين)

وممّا يثير اعجابنا أنّ السّورة نفسها أرشدتنا الى هذه الحقيقة الغالية. أرشدتنا اليها بنظمها وموقعها من السّورة الّتي تليها.

فانّ أوّل سورة وضعت في المصحف الكريم هى سورة الفاتحة، وأوّل عبادة ورد ذكرها في صفات المتّقين هى فريضة الصّلاة، حيث قال تعالى في مستهلّ السّورة الّتي تليها وهى سورة البقرة :

﴿ هدى للمتّقين، الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة ﴾

هذا النّظم يشدّ انتباهنا ويوحي الينا بأنّه لا بدّ أن يكون هناك سبب و نسب بين هذه السّورة وبين فريضة الصّلاة.

والمتأمّل في هذا النّظم يجد - فعلا - مناسبة قويّة بين هذه السّورة و بين الصّلاة، بل انّه يجد بينهما مناسبات متعدّدة من جهات مختلفة.

حتّى انّ السّورة لتكاد تصبح كأنّها هى الصّلاة، لشدّة ما بينهما من صلة و قربى.

فنجد - مثلا - حين نتأمّل في هذه السّورة الكريمة أنّ الآيات الثّلاث الأولى الّتي هى عبارة عن الحمد و الثّناء والتّمجيد ناظرة بمضمونها الى ركن القيام الّذى هو - في حقيقته - حمد و ثناء و تمجيد، فانّ القيام قوامه قراءة القرآن وهو كلّه حمد و ثناء و تمجيد. ثمّ الآية الرّابعة :

﴿ ايّاك نعبد و ايّاك نستعين ﴾ نصفها ناظر الى الرّكوع و نصفها الى السجود.

فالرّكوع يكون لله و السّجود للعبد، حيث انّ الرّكوع عبارة عن عبادة الله و تعظيمه والتسبيح له والثّناء عليه، والسّجود عبارة عن الدّعاء و الاستعانة واظهار العجز و الافتقار الى الله، كما ورد عن رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم - أنّه قال :

(ألا واني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاأو ساجدا ، فأمّا الرّكوع فعظّموا فيه الرّبّ عزّوجلّ ، وأمّا السّجود فاجتهدوا في الدّعاء فقمن أن يستجاب لكم .)(1)

ثمّ الآيات الثّلاث الأخيرة : ﴿ اهدنا الصّراط المستقيم . صراط الّذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين . ﴾ ناظرة الى القعدة الّتي هى تمام الصّلاة والّتي هى - بطبيعتها - أقرب ماتكون الى السّجود حيث انّ كلتا الحالتين حال دعاء و تضرّع و رجاء واستعانة كما ورد عن عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - أنّ النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - علّمهم التّشهّد ثمّ قال في آخره :

(ثمّ يتخيّر بعد من الدّعاء)(2)

وفي رواية البخارى :(ثمّ يتخيّر من الدّعاء أعجبه اليه فيدعو)(3)

وفي روايات لمسلم :(ثمّ يتخيّر من المسألة ماشاء)(4)

ثمّ التّشهّد نفسه أقرب مايكون في مضمونه الى الآيات الثّلاث الأخيرة ، فهذه الآيات الثّلاث تعبير بليغ عمّا تهيج به قلوب المؤمنين من حنين و شوق الى الّذين أنعم الله عليهم من عباده الصّالحين . وفي التّشهّد أيضا نعبّر عن نفس المعاني حين نزف السّلام الى عبادالله الصّالحين وعلى رأسهم سيّدنا رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم -

وكان من حسن الأدب أن يبدأ هذا السّلام على الصّالحين بازجاء التحيّة لله ربّ العالمين فنقول :

(التّحيّات لله والصّلوات و الطّيّبات ، السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته ، السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين ، أشهد ألاّ اله الاّ الله وأشهد أنّ محمّدا عبده و رسوله .)

وعلى هذا ، فالآيات الثّلاث الأولى حمد و ثناء و تمجيد ، وهى ناظرة الى ركن القيام الّذى هو حمد و ثناء و تمجيد .

---

(1) صحيح مسلم ، كتاب الصّلاة ، باب النّهى عن قراءة القرآن في الرّكوع والسجود . رقم الحديث (٤٧٩)

(٢)و(٤) صحيح مسلم ،كتاب الصّلاة ، باب التّشهّد في الصّلاة . ٣٠٢/١

(٣) صحيح البخارى ،كتاب الأذان ،باب مايتخيّر من الدّعاء بعد التشهد . ٢٠٣/١

والآيات الثلاث الأخيرة دعاء و تضرّع و حنين الى الصّالحين وهى ناظرة الى القعدة، الّتي هى دعاء و تضرّع وحنين الى الصّالحين.

والآية الرابعة نصفها عبادة وتعظيم وهو ناظر الى الرّكوع، الّذى هو عبادة و تعظيم. ونصفها الأخير رجاء و تضرّع و استعانة، وهو ناظر الى السجود، الّذى هو رجاء و تضرّع و استعانة.

وممّا نستأنس به في هذا المقام ما ورد في الروايات من أنّ النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - كان يقول اذا رفع رأسه من الرّكوع:

(ربّنا لك الحمد، ملء السّموات والأرض و ملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثّناء والمجد، أحقّ ما قال العبد، وكلّنا لك عبد. اللّهمّ لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ.) [1]

فنرى هذه الكلمات النّديّة المأثورة وردت على نفس التّرتيب الّذى نلاحظه في سورة الفاتحة، كما أنّها تحمل نفس الايحاءات الّتي تشتمل عليها تلك السّورة.

فقوله - عليه السّلام -:

(ربّنا لك الحمد ملء السّموات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد)

ناظر الى قوله تعالى: ﴿ الحمد لله ربّ العالمين. ﴾

وقوله عليه السّلام -: (أهل الثّناء والمجد) ناظر الى قوله تعالى: ﴿ الرّحمن الرّحيم. مالك يوم الدّين ﴾

حيث مرّ معنا في الحديث القدسي:

(واذا قال: الرّحمن الرّحيم، قال الله: أثنى عليّ عبدى، فاذا قال: مالك يوم الدّين، قال الله: مجّدني عبدى.)

وقوله - عليه السّلام -: (أحقّ ما قال العبد، وكلّنا لك عبد، اللّهمّ لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ.) ناظر الى قوله تعالى: ﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين. ﴾

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصّلاة، باب ما يقول اذا رفع رأسه من الرّكوع، رقم الحديث (٤٧٧).

وهذه الكلمات كان يلهج بها النبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - بعد ما يرفع رأسه من الرّكوع ، فأودع فيها بأسلوب عجيب وبلاغة معجزة مضمون الآيات الّتي تتعلّق بالقيام والرّكوع والسّجود ، حيث انّه انتهى من القيام والرّكوع وهو متهيّئ للسّجود .

فهذه ناحية عجيبة من نواحي عظمة هذه السّورة ، و بذلك يتّضح تماما أنّ هذه السّورة هي سورة الصّلاة ، بل هي نفس الصّلاة ، وكلّ صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ، فهي خداج ، فهي خداج !!

هذه ناحية . وهناك نواح أخر عجيبة تشتمل عليها تلك السّورة . وهي لا تنكشف الا لمن يتدبّرها و يمعن النّظر فيها و يتأمّل في نظام آياتها و رباط معانيها .

و سنحاول - باذن الله - في الفصول الآتية أن نميط اللّثام عن بعضها ، متضرّعين الى الله أن يفتح علينا من أسرار كتابه و نفائس حكمه و كنوز معانيه . انّه سميع قريب .

* الفصل الثّاني *

** ** **

عمود السّورة

انّ هذه السّورة الكريمة ، وان كانت زاخرة بمعان و حكم جمّة الاّ أنّ هدفها الأساسيّ و قطب رحاها ، هو العهد و الميثاق .

عهد و ميثاق يؤكّده الرجل المسلم لربّه على العبادة الخالصة المطلقة ، والانابة الكاملة الصّادقة : ﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾ .

فهذه الآية - ايّاك نعبد وايّاك نستعين - ليست في الواقع اخبارا عن الواقع ، بل هي عهد و ميثاق للمستقبل أكثر ممّا هي اخبار عن الواقع .

وهذا العهد له أسلوبه المتميّز و طابعه الخاص .

فهو عهد يجيش به قلب مفعم بمشاعر الحمد والثّناء .

و هو عهد تنطق به روح فائضة بحبّ الله ، حريصة على مرضاة الله .

وهو عهد منبعث من تلك الكلمات الودودة الرّقيقة الخاشعة المباركة : ﴿ الحمد لله ربّ العالمين . الرّحمن الرّحيم . مالك يوم الدّين . ﴾

وعلى هذا فانّ هذا العهد يكون قد سيط من دم صاحبه ، ويكون له طهره و نزاهته و يكون مأمونا من أن يعتريه نقض أو نقص .

ثمّ يتبع هذا العهد دعاء حارّ واستعانة ضارعة للاستقامة على هذا العهد : ﴿ اهدنا الصّراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين . ﴾

وهذا ضمان آخر لمتانة هذا العهد و قوّته و استحكامه ، فانّ العهد اذا كان ناشئا من قلب مفعم بعظمة الله - سبحانه و تعالى - و جلاله وكبريائه ثمّ انضمّت اليه الاستعانة به و طلب التّوفيق منه ، فهو عهد قد استكمل مقوّماته ، وهو مضمون من جميع جهاته .

وما أبعد الفرق بين عهد كهذا و عهد يؤخذ من قوم ، ثمّ هم

لا يلبثون أن ينبذوه وراء ظهورهم، كما حصل مع اليهود مرّات و مرّات، حيث قال تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور، خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا، قالوا سمعنا وعصينا، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين . ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات، وما يكفر بها إلاّ الفاسقون. أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون . ﴾ (٢)

ولمّا كانت هذه السّورة سورة عهد و ميثاق، وهي سورة الصّلاة كذلك، بحيث أنّ الصّلاة لا تستقيم بدونها، أعطيت الصّلاة حكمها، ووصفت بوصفها، و اعتبرت عهدا و ميثاقا، كما أنّ هذه السّورة عهد وميثاق حيث قال ـ عليه الصّلاة و السّلام ـ :

(العهد الّذي بيننا وبينهم الصّلاة، فمن تركها فقد كفر .) (٣)

ومن ثمّ نرى من خصائص هذه الأمّة الخيرة المباركة أنّها تجدّد عهدها مع ربّها في كلّ يوم وليلة سبع عشرة مرّة على الحدّ الأدنى، وإلى غير حدّ إذا كان الرجل من تلك الثّلة المباركة الّتي تجد أنسها وراحتها في الصّلاة .

ولا شكّ أنّ هذه مفخرة لهذه الأمّة ومن مزاياها، فقد سبقها أقوام كانوا يتبجّحون و يتبذخون بتمرّدهم واستكبارهم أمام ربّهم، وكان من دأبهم ـ قاتلهم الله ـ أن ينقضوا مواثيقهم في كلّ مرّة، ويقولوا بكلّ خبث و كلّ وقاحة : سمعنا وعصينا !!!

---

(١) سورة البقرة : ٩٣ (٢) سورة البقرة : ٩٩ ـ ١٠٠

(٣) سنن التّرمذي، باب ما جاء في ترك الصّلاة، ١٤/٥، رقم الحديث (٢٦٢١).

* الفصل الثالث *

وجوه الرّبط بين الآيات

حينما نتأمّل في هذه السّورة الكريمة و رباط معانيها لا نقضي منها العجب .

آياتها متعانقة ، متشابكة بعضها مع بعض بشكل يأخذ باللّبّ . يقرأها القارئ فينساق من آية الى آية بدون أن يشعر فيها بشيء من تنافر أو تجاف ، بل انه يشعر أنّ كلّ كلمة من كلماتها صادفت موضعها بحيث لا تبغي عنه حولا ، فهى مشدودة الى ماقبلها وما بعدها ، كالبنيان المرصوص ، يشدّ بعضه بعضا .

ولا بأس بأن نقف هنا وقفة ، ونرى ما في هذه الآيات من تآلف قوىّ و تناسق عجيب .

تبدأ هذه السّورة بقوله تعالى :

﴿ الحمد لله ربّ العلمين . ﴾

و (الحمد) له دلالات و اعتبارات :

فهو يستعمل - مثلا - في معنى الشّكر على حصول نعمة ، أو تحقّق رغبة ، أو انجلاء كربة ، كما نرى بالترتيب في الآيات التّالية :

﴿ الحمد لله الّذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . ﴾ (١)

﴿ الحمد لله الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله . ﴾ (٢)

﴿ الحمد لله الّذى وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق ، انّ ربّي لسميع الدّعاء . ﴾ (٣)

﴿ الحمد لله الّذى نجّانا من القوم الظّالمين . ﴾ (٤)

---

(١) سورة الكهف : ١
(٢) سورة الأعراف : ٤٣
(٣) سورة ابراهيم : ٣٩
(٤) سورة المؤمنون : ٢٨

وأيضا تستعمل كلمة (الحمد) عند ظهور سنّة الله الحكيمة العادلة في هذه الدّنيا ، حيث يهلك المجرمون بعذاب الله و يفرح المؤمنون بنصر الله ، كما تستعمل هذه الكلمة في سياق الدّينونة الكبرى ، حين يفصل الله بين العباد، فيحشر المؤمنين الى النّعيم و يسوق الكافرين الى الجحيم :

﴿ فقطع دابر القوم الّذين ظلموا ، والحمدلله ربّ العلمين ﴾ (١)

﴿ و قضى بينهم بالحقّ وقيل الحمدلله ربّ العلمين ﴾ (٢)

و يطّرد استعمال (الحمد) كذلك في موطن اثبات الكمال والعزّة والملك لله - سبحانه وتعالى - كما نرى في هذه الآيات :

﴿ وقل الحمد لله الّذى لم يتّخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذّل وكبّره تكبيرا ﴾ (٣)

﴿ الحمد لله فاطر السّموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع ، يزيد في الخلق مايشاء، انّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ (٤)

﴿ ومن يتولّ فانّ الله هو الغنيّ الحميد ﴾ (٥)

ونحن نرى أنّ كلمة (الحمد) في قوله تعالى في بداية سورة الفاتحة : ﴿ الحمدلله ربّ العلمين ﴾

تحتوى هذه المعاني كلّها . فلننظر كيف اختار الوحى الكريم لهذا الموطن ثلاث صفات من صفات الله الحسنى ، بحيث تيسّر بها استيعاب معاني (الحمد) ثمّ التّدرّج بها الى معنى يخدم جوّ السّورة بكلّ دقّة وأمانة، وتلك الصفات هى:

(ربّ العلمين . الرّحمن الرّحيم . مالك يوم الدّين .)

---

(١) سورة الأنعام : ٤٥
(٢) سورة الزّمر : ٧٥
(٣) سورة الاسراء : ١١١
(٤) سورة الفاطر : ١
(٥) سورة الحديد : ٢٤

فالصّفة الأولى : (ربّ العالمين) صفة جامعة شاملة مثل كلمة (الحمد) و بالتّالي هى تغطّي جميع جوانب الحمد ، و تستوعب كافّة أطرافها . فهى تشمل - مثلا - أصناف النّعم كلّها صغيرها وكبيرها ، كما نرى ذلك واضحا في الآيات التّالية :

﴿ قال فمن ربّكما يا موسى ؟ قال ربّنا الّذى أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هدى . ﴾ (١)

﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فانّهم عدوّ لي الاّ ربّ العالمين ، الّذى خلقني فهو يهدين ، والّذى هو يطعمني ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والّذى يميتني ثمّ يحيين ، والّذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدّين . ﴾ (٢)

وأيضا تشمل هذه الصّفة معنى الملك ، والكمال ، والعزّة ، والغنى ، كما يتجلّى ذلك في تلك الآيات :

﴿ ذلكم الله ربّكم ، له الملك . ﴾ (٣)

﴿ بديع السّموات والأرض ، أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كلّ شيءٍ وهو بكلّ شيءٍ عليم . ذلكم الله ربّكم ، لا اله الاّ هو ، خالق كلّ شيءٍ ، فاعبدوه ، وهو على كلّ شيءٍ وكيل . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، و هو اللّطيف الخبير . ﴾ (٤)

فاذا كان الله هو ربّ العالمين — ربّ العالمين ، بمدلوله الواسع الشّامل الكامل . و هو الّذى يتّصف بتلك الصّفات العظيمة دون غيره ، فمن يكون له الحمد ، اذا لم يكن له - سبحانه و تعالى - ؟

---

(١) سورة طه : ٤٩ - ٥٠
(٢) سورة الشعراء : ٧٥ - ٨٢
(٣) سورة فاطر : ٣٥
(٤) سورة الأنعام : ١٠١ - ١٠٣

ثمّ تتبع هذه الصفة الصّفة الثّانية : ﴿ الرّحمن الرّحيم ۰ ﴾ ومدلول الرّحمة وان كان داخلا في صفة (ربّ العالمين) كما رأينا آنفا ، الاّ انّ الوحى أراد أن يبرز هذا الجانب ، و يلفت الانتباه الى أكبر مظهر من مظاهر الرحمة ، والى أعظم نعمة خصّ بها الانسان من بين سائر الأجناس ، ألا وهى نعمة الهداية ، و نعمة الرّسالة ، و نعمة الوحى ، و نعمة الكتاب ۰

والجدير بالذّكر أنّ هذه الصّفة الكريمة ـ صفة (الرّحمن) المشفوعة بصفة (الرّحيم) ـ لا تذكر الاّ في موطن الهداية ، أو موطن الوحى والرسالة ، كما قال تعالى :

﴿ حم ۰ تنزيل من الرّحمن الرّحيم ۰ كتاب فصّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ۰ ﴾ [1]

ولقد جاءت هذه الصّفة ما عدا ذلك في ثلاثة مواضع :

١ـ ﴿ والهكم اله واحد ، لا اله الاّ هو الرّحمن الرّحيم ۰ ﴾ [2]

٢ـ ﴿ انّه من سليمان ، وانّه بسم الله الرّحمن الرّحيم ۰ ﴾ [3]

٣ـ ﴿ هو الله الّذى لا اله الاّ هو ، عالم الغيب والشّهادة ، هو الرّحمن الرّحيم ۰ ﴾ [4]

أمّا الآية الأولى فقد سبقتها هذه الآيات :

﴿ انّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاّعنون ۰ الاّ الّذين تابوا و أصلحوا و بيّنوا فأولئك أتوب عليهم و أنا التّوّاب الرّحيم ۰ انّ الّذين كفروا و ماتوا وهم كفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ۰ ﴾ [5]

---

(١) سورة فصّلت : ١ ـ ٣
(٢) سورة البقرة : ١٦٣
(٣) سورة النّمل : ٣٠
(٤) سورة الحشر : ٢٢
(٥) سورة البقرة : ١٥٩ـ ١٦٢

نعود الى حديثنا الأول فنقول : انّ هذه الرّحمة المهداة في صورة الوحي والرّسالات الّتي تشير اليها الآية الثّانية :﴿ الرّحمن الرّحيم ﴾ تشعرنا بضرورة وقوع يوم الدّين ، ليتمّ جزاء من قابل هذه النّعمة بالشّكر والطّاعة ، وتحمّل في سبيلها ما تحمّل واليه يشير قوله تعالى :

﴿ كتب على نفسه الرّحمة ، ليجمعنّكم الى يوم القيامة لا ريب فيه . ﴾ (١)

فوقوع يوم الدّين نتيجة حتميّة لهذه الرّحمة ، وليس عذاب الكافرين والمستكبرين الاّ صورة من صور الانعام على المتّقين الخاشعين ، كما نستوحي من قوله تعالى :

﴿ وقال الّذين كفروا لا تأتينا السّاعة ، قل بلى وربّي لتأتينّكم عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الاّ في كتاب مبين ، ليجزى الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك لهم مغفرة و رزق كريم . والّذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم . ﴾ (٢)

فجزاء المؤمنين هو الأصل في اتيان السّاعة كما يشعرنا أسلوب الآية : ﴿ ليجزى الّذين آمنوا ... الخ ﴾

وأمّا عذاب المعاندين فهو يأتي تبعا لتكتمل العدالة وليتمّ الجزاء :

﴿ والّذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم . ﴾

ومن هنا حسن موقع ﴿ مالك يوم الدّين ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ الرّحمن الرّحيم ﴾ .

بقي علينا أن نبيّن الفرق بين كلمتي الرّحيم والرّحمن ، فانّ هذا يكشف لنا جانبا آخر من حكمة النّظام و روعة البيان .

ومن العجيب أنّ النّاس قد تناولوا قديما وحديثا هاتين الكلمتين بالبحث والدّراسة ، وحاولوا أن يفسّروهما و يبيّنوا الفرق بينهما ، ولكنّ الأمر ما زال بحاجة الى زيادة وضوح ، فنقول وبالله التّوفيق :

---

(١) سورة الأنعام : ١٢ (٢) سورة سبأ : ٣ - ٥

انّ صيغة " فعيل " تدلّ - فيما تدلّ - على ثبوت الصّفة ورسوخها واستمرارها في موصوفها كما نرى في مثل " كريم " و " أمين " و" لئيم " .

ولقد سهّل لنا الشّاعر العربيّ مهمّتنا حيث قال :

اذا هى لم تمنع برسل لحومها * من السّيف لاقت حدّه وهو قاطع [(١)]
ندافع عن أحسابنا بلحومها * وألبانها انّ الكريم يدافع
ومن يقترف خلقا سوى خلق نفسه * يدعه وترجعه اليه الرّواجع [(٢)]

فقد بيّن لنا الشّاعر في مقطوعته حقيقة كلمة " الكريم " وما تحتويه من معاني الدّوام والاستمرار والرّسوخ وعدم التّخلّف في الكرم بحال من الأحوال ، وبذلك بيّن لنا طبيعة هذه الصّيغة - صيغة فعيل - في أغلب أحوالها .

وأمّا صيغة " فعلان " فهى تشرب الوصف معنى الفيضان والغليان والهيجان ، كما نرى في مثل " حرّان " و " غضبان " .

فـ " الغضبان " - مثلا - هو الّذى يهيج غضبه فيملكه ويبلغ منه منتهاه . ولقد فسّر لنا الشّاعر العربيّ هذا اللّفظ ، فقال :

فأقسمت ما جشّمته من ملمّة * تؤود كرام القوم الاّ تجشّما
ولا قلت : مهلا وهو غضبان قد غلا * من الغيظ وسط القوم الاّ تبسّما [(٣)]

ولقد بيّن لنا القرآن أيضا هذه الكلمة حيث قال في قصّة سيّدنا موسى - عليه السّلام - :

﴿ ولمّا رجع موسى الى قومه غضبان أسفا ﴾

ثمّ فسّر ذلك الغضب وصوّر مدى شدّته وغليانه فقال :

﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدى ، أعجلتم أمر ربّكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه اليه . ﴾ [(٤)]

---

(١) الرّسل : اللّبن . وقد أرسل القوم ، أى صار لهم اللّبن من مواشيهم .
(٢) الحماسة لأبي تمّام (٣٣١/٢) رقم : ٧٥٣
(٣) " " (٤٨٨/١) رقم : ٣٤٣
(٤) سورة الأعراف : ١٥٠

و بالجملة، فانّ صيغة " فعلان " تدلّ على معنى الفيضان والغليان في الوصف دون معاني العمق و الرّسوخ والدّوام والاستمرار، بخلاف صيغة " فعيل " فانّ الأمر فيها على العكس.

وقد نستأنس هنا في تبيّن هذا الفرق بقول الخنساء - رضى الله عنها - وهى ترثي أخاها صخرا:

تحسبه غضبان من عزّه * ذلك منه خلق ما يحول [1]

فانّها ما جاءت بالشّطر الثّاني الاّ لتعالج النّقص الّذى يوجد في الأوّل، فانّها أرادت أن تضيف الى ما وصفت به أخاها من جلال المهابة و سطوة العزّ، معاني العمق والرّسوخ والدّوام و الاستمرار.

هذا ما تيسّر لنا في تحقيق الأمر عن صيغة " فعيل " و" فعلان ".
ويمكن أن نجزم على هذا الأساس بأنّ كلمة (الرّحمن) تدلّ على فيضان رحمته - سبحانه وتعالى - وعمومها و شمولها و سعتها، فقد وسعت رحمته كلّ شيء. وأمّا كلمة (الرّحيم) فهى تدلّ على دوام الرّحمة و ثبوتها و استمرارها، فرحمته - سبحانه و تعالى - دائبة مستمرّة، لا مقطوعة ولا ممنوعة.

والآن نرتقي خطوة أخرى و نقول: انّ رحمته - سبحانه وتعالى - اذا كان من شأنها الدّوام و الاستمرار فهى تستوجب - ولا شكّ - أن تتبع هذه الحياة الفانية حياة باقية خالدة تستمرّ فيها رحمة الله لمن يستحقّها و يرشّح نفسه لها، و تظهر فيها - لمن يكون لها أهلا - بمظهر أجمل و أشمل و أكمل. ومن هنا حسن أن تتلو الصّفة الثّانية الصّفة الثّالثة:

﴿ مالك يوم الدّين ﴾

و هنا يحضرنا ما ورد عن سيّدنا عمر بن الخطّاب - رضى الله عنه - حيث قال:

(قدم على رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - بسبى فاذا امرأة من السّبي تبتغي اذا وجدت صبيا من السّبي أخذته فألصقته ببطنها

---

(١) ديوان الخنساء: ص ١١٥

و أرضعته ، فقال لنا رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم - : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النّار ؟ قلنا : لا،والله ! وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : لله أرحم بعباده من هذه بولدها .

وقال - عليه السّلام - :

ان الله خلق يوم خلق السّموات والأرض مائة رحمة ، كلّ رحمة طباق ما بين السّماء و الأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطّير بعضها على بعض ، فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرّحمة .) (١)

ثمّ هناك جانب آخر ، وهو أنّ صفة (الرحيم) ان كانت تدلّ على دوام الرّحمة و استمرارها فصفة (الرحمن) تدلّ - كما سبق آنفا - على فيضان الرّحمة و شمولها و سعتها و تدفّقها بلا حدود ولا نهاية . وهذا لا يتهيّأ أبدا الا اذا اجتمعت الرّحمة مع الملك الشّديد، الواسع العريض المحيط ، حتى يكون الأمر كما ذكره الله تعالى عن نفسه ، فقال :

﴿ ما يفتح الله للنّاس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ (٢)

﴿ وان يردك بخير فلا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرّحيم . ﴾ (٣)

ومن هنا تضمّن (الرّحمن) معنى الملك الواحد القهّار ،الّذى تعنو له الوجوه و تخضع له الجباه . ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة متكرّرة :

﴿ ان كلّ من في السّموات والأرض الا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم و عدّهم عدّا . ﴾ (٤)

﴿ يوم يقوم الرّوح والملائكة صفّا ، لا يتكلّمون الا من أذن له الرّحمن و قال صوابا . ﴾ (٥)

﴿ و خشعت الأصوات للرّحمن فلا تسمع الا همسا . ﴾ (٦)

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب التّوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنّها سبقت غضبه .
(٢) سورة فاطر : ٢ (٣) سورة يونس : ١٠٧ (٤) سورة مريم : ٩٣ - ٩٤
(٥) سورة النّبأ : ٣٨ (٦) سورة طه : ١٠٨

﴿ الملك يومئذ الحقّ للرّحمن ، وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾[١]

﴿ الرّحمن على العرش استوى ، له ما في السّموات وما في الأرض وما بينهما و ما تحت الثّرى ﴾ [٢]

﴿ أمّن هذا الّذى هو جند لكم ينصركم من دون الرّحمن ﴾ [٣]

فكلمة (الرّحمن) في هذه الآيات كلّها تتضمّن ـ كما لا يخفى ـ معنى الملك العزيز الجبّار، الّذى لا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه ، والكون كلّه خاضع لنظامه و رهن لا شارته ٠

ولعلّ هذا هو السّرّ في أنّ صفة (الرحمن) أصبحت مختصّة بالله ـ سبحانه و تعالى ـ دون صفة (الرحيم) فانّها تستعمل لله و للعباد ، كما ورد في شأن الرّسول ـ عليه الصّلاة و السّلام ـ :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ٠ ﴾ [٤]

فاذا كانت صفة (الرحمن) تتضمّن معنى الملك الواحد القهّار ، فلنعرف أنّ المُلْك والدّين ـ وهو الحساب والجزاء ـ توأمان لا يفترقان ، فالمَلِك لا يتمّ له مُلْكه الا اذا حاسب الرّعيّة على الطّاعة والمعصية ٠

ومن هنا حسن أن تتلو صفة (الرحمن) صفة (مالك يوم الدّين) فربّنا الرّحمن سيأتي بيوم يفصل فيه بين من أطاعه و شكر له وبين من عصاه وأعرض عنه ٠

ثمّ هو مالك يوم الدّين ، يملك أن يأتي بهذا اليوم اذا أراد ٠ فيأذن له اذا شاءت حكمته ، ويتصرّف فيه كما أرادت قدرته ٠ وليس لأحد أن يعارضه و يحول دون ما يريده ٠

فالمسلم يخصّ ربّه بحمده وهو على بصيرة من أمره ، ومطّلع على أسمائه وصفاته ٠ فاذا تذكّر هذه الصّفات الحسنى ، وهى ملاك أسمائه و صفاته ، لم يملك الا أن يلقى بنفسه على عتبة جلاله وكبريائه ، ويفرده بعبادته واستعانته كما أفرده بحمده و ثنائه ، فذلك قوله تعالى :

﴿ ايّاك نعبد و ايّاك نستعين ٠ ﴾

---

(١) سورة الفرقان : ٢٦ (٢) سورة طه : ٥ ـ ٦
(٣) سورة الملك : ٢٠ (٤) سورة التّوبة : ١٢٨

ومن ناحية أخرى فانّ هذه الآية جاءت في الوسط ، فحلّت محلّ واسطة العقد من هذه السّورة ، فالشّطر الأول من هذه الآية :(ايّاك نعبد) ختام لما قبله من حمد الرّبّ و تمجيده و الثّناء عليه ، كما انّ الشّطر الثّاني منها : (وايّاك نستعين) تمهيد لما بعده من الدّعاء والاستعانة و طلب الهداية من الله :

﴿ اهدنا الصّراط المستقيم • صراط الّذين أنعمت عليهم • غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين • ﴾

ثمّ انّ هذا الدّعاء كما أنّه عبارة عن الاستعانة ، فهو في نفس الوقت مخّ العبادة و جوهرها ، كما ورد عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أنّه قال :

(الدّعاء مخّ العبادة ﴾ (١)

هذا ما تيسّر لنا التّوصّل اليه من وجوه الرّبط بين آيات هذه السّورة العظيمة المعجزة ، فلله الفضل والمنّة ، وله الحمد في الأولى والآخرة •

ولعلّ فيه كفاية لادراك ما تتميّز به هذه الآيات الجليلة من ترابط متين و تعانق عجيب فيما بينها •

---

(١) سنن التّرمذي ، باب ما جاء في فضل الدّعاء ٤٥٦/٥ ، رقم (٣٣٧١) •

* الفصـــل الرابـــع *
*** ** ***

ارتباط السورة بالّتي بعـد ها

انّ هذه السورة كما أنّها تتّسم آياتها بتشابك عجيب و ارتباط قوىّ فيما بينها ، فكذلك تمتّ بو شائج قويّة متينة متعدّدة الى السورة الّتي تليها ، وهى سـورة البقرة ·

و ستكون لنا ـ باذن الله ـ محاولات متواضعـة لا ماطة اللّثام عن بعض جوانبها ، فنقول وبالله التوفيق :

انّ النّظرة المتأنّية في هاتين السورتين تكشف لنا ستّة وجوه بارزة من المناسبة بينهما ، وهى كما يلي :

١ ـــ انّ سورة الفاتحـة سورة عهد و ميثاق كما مضى معنا من قبل · و سورة البقرة تذكير بذلكم العهد و الميثاق ، و تقريع لمـن ينقضونه · ولعلّ هذا هو السرّ في تكرار ذكـر العهد والميثاق في هـذه السورة·

ولا بأس بأن نذكـر هنا بعض تلك الآيات ،الّتي تساعدنا فـي تحديد هذا الاتجـاه :

﴿ يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضلّ به الاّ الفاسقين ، الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمـر الله بـه أن يوصل و يفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسـرون · ﴾ (١)

﴿ يا بني اسرائيل اذكـروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكـم ، وايّاى فارهبون · ﴾ (٢)

﴿ يا بني اسرائيل اذكـروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم ، وأنّي فضّلتكم على العالمين · ﴾ (٣)

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين · ﴾ (٤)

---

(١) سورة البقرة : ٢٦ ـ ٢٧ (٢) سـورة البقرة : ٤٠
(٣) " " : ٤٧ (٤) " " : ١٢٢

* واذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطّور، خذوا ما آتيناكم بقوّة ، واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون . * (١)

* واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الاّ الله وبالوالدين احسانا و ذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للنّاس حسنا ، وأقيموا الصّلاة و آتوا الزّكاة ثمّ تولّيتم الاّ قليلا منكم وأنتم معرضون .* (٢)

* واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثمّ أقررتم و أنتم تشهدون . * (٣)

* واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور، خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا قالوا : سمعنا و عصينا و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين . * (٤)

* أوكلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون * (٥)

* فاذكروني أذكركم و اشكروا لي ولا تكفرون . * (٦)

ولعلّ هؤلاء الآيات يكفين لادراك ما أشرنا اليه من موضوع هذه السورة . وسيكون لنا كلام مستفيض حول هذا الموضوع ان شاء الله .

٢ـــ جاء التنويه بشأن سورة الفاتحة و خواتيم سورة البقرة معا ، وفي وقت واحد ، و بأسلوب واحد، حيث روى عن ابن عبّاس ـ رضى الله عنهما ـ أنّه قال :

(بينما جبريل قاعد عند النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السّماء فتح اليوم ، لم يفتح قطّ الاّ اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، لم ينزل قطّ الاّ اليوم ، فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما ،لم يؤتهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب و خواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما الاّ أعطيته .) (٧)

---

(١) سورة البقرة : ٦٣
(٢) سورة البقرة : ٨٣
(٣) سورة البقرة : ٨٤
(٤) سورة البقرة : ٩٣
(٥) سورة البقرة : ١٠٠
(٦) سورة البقرة : ١٥٢
(٧) صحيح مسلم : باب فضل الفاتحة و خواتيم سورة البقرة ، رقم الحديث (٨٠٦) ، ٥٥٤/١

وهـــذا ان دلّ على شيء فإنما يدلّ على مناسبة تامّـة ، وصـــلة وثيقـة بينهما ، فما أقرب الشّبه بين قوله ـ تعالى ـ في سورة الفاتحة :

﴿ ايّاك نعبد و ايّاك نستعين ﴾

و بين قولـــه تعالى في خاتمـــة ســورة البقرة :

﴿ آمن الرّسول بما أنزل اليه من ربّه و المؤمنون ، كلّ آمن بالله و ملائكته وكتبه و رسله ، لا نفرّق بين أحـد من رسله ، وقالوا سمعنا و أطعنا ، غفرانك ربّنا واليك المصير. لا يكلّف الله نفسا الاّ وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربّنا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربّنـــا ولا تحمل علينا اصـــرا كما حملته على الّذين من قبلنا ، ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقـــة لنا به ، واعف عنّا ، واغفرلنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصـــرنا على القوم الكافرين . ﴾ (١)

ففي أوّل وهلة يشعر القارئ ، حينما يمرّ بهذه الآيات ، أنّها عهد خاشع و استعانة ضارعـــة بالله ـ سبحانه و تعالى ـ .

و بعبارة آخـــرى ، فهى تفصيل لقوله تعالى :

﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾

و هناك جوانب أخـــر سنشير اليها في موضعها من سورة البقرة ، ان شـــاء الله .

٣ ـــ سـورة الفاتحـــة تعبير بليغ عن حرص المتّقين على الايفاء بعهودهم و مواثيقهم وعضّهم عليها بالنّواجـذ ، بينما سـورة البقرة تصـوير واضح فاضح لخيانة اليهود و نـقضهم مواثيقهـــم .

٤ ـــ في سـورة الفاتحـــة تنفّر وامتعاض شديد من الضّالّين والمغضوب عليهم ، وسورة البقرة تقلب صفحات من تاريخهم البغيض ،وتعدّد الأسباب الّتي أدّت بهم الى ذاك الحضيض .

---

(١) ســـورة البقرة : ٢٨٥ ـ ٢٨٦

٥ ـــ في سورة الفاتحة حنين وشوق من المؤمنين الى الانتظام في سلك من أنعم الله عليهم ، و سورة البقرة تحمل اليهم البشرى باتمام النّعمة عليهم :

﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ، لئلاّ يكون للنّاس عليكم حجّة ، الاّ الّذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ، ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلّكم تهتدون ۰﴾ (١)

٦ ـــ في سورة الفاتحة طلب للهداية الى الصّراط المستقيم و سورة البقرة استجابة لذلك الطّلب ، حيث قال ـ تعالى ـ :

﴿ الم ۰ ذلك الكتاب لا ريب فيه ۰ هدى للمتّقين ۰ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ سيقول السّفهاء من النّاس ما ولاّهم عن قبلتهم الّتي كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيدا ۰ ﴾ (٣)

تلك ستّة وجوه بارزة للمناسبة بين السّورتين ۰ ولا نقول انّها هي كلّها ، فقد تكون هناك وجوه ، و وجوه ! وعسى أن يفتحها الله علينا فيما بعد ، والله وليّ التّوفيق ۰

---

(١) سورة البقرة : ١٥٠ (٢) سورة البقرة : ١ ـ ٢
(٣) سورة البقرة : ١٤٢ ـ ١٤٣

* الفصـــل الخامـــس *

*** ** ***

موقـــع السّـورة من جملة القـــرآن

عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنت أصلّي فدعاني النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - فلم أجبه، قلت : يارسول الله، انّي كنت أصلّي، قال : ألم يقل الله : استجيبوالله و للرّسول اذادعاكم، ثمّ قال : ألا أعلّمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ؟ فأخذ بيدى، فلمّا أردنا أن نخرج قلت : يارسول الله، انّك قلت : ألا أعلّمك أعظم سورة من القرآن ؟ قال : ﴿ الحمد لله ربّ العلمين ﴾ هى السبع المثاني والقرآن العظيم الّذى أوتيته . (١)

وهنا يثور سؤال : فما هى الميزة الّتي تتميّزبها هذه السورة دون غيرها حتى اعتبرت أعظم سورة في القرآن ؟

قد تكون هناك اجابات و اجابات على هذا السؤال، ولكنّ الّذى يترجّح عندنا هو أنّ هذه السورة - مع قصرها و وجازتها - تضمّنت العلوم والمبادئ الأساسيّة الّتي عولجت في جميع القرآن . وبذلك صارت أمّ القرآن، وأعظم سورة في القرآن .

وعلى هذا فيسعنا كذلك أن نقول : انّ سورة الفاتحة ديباجة القرآن، ومرآة القرآن، فالنّاظر المتأمّل في هذه السورة لا يفوته أن يطّلع من خلالها الى جميع مطالب القرآن، أو يستحضر في ذهنه رؤوس المعاني الّتي جاء بها القرآن .

وهذا اجمال لا بدّ له من تفصيل، فنقول وبالله التوفيق :

الآيات الثّلاث الأولى تحتوى ملاك الأسماء الحسنى كلّها، وهى القدرة المطلقة، والحكمة العادلة، والرحمة الفائضة الغامرة غير المتناهية . و بذلك رسخت دعائم التوحيد و توطّد بنيانه، بينما انسدّت منافذ الشرك و تقلّصت ظلاله . بالاضافة الى أنّ هذه الآيات

---

(١) صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن، باب فاتحة الكتاب ١٠٣/٦

تثبت الجزاء و تزرع في النّفوس الايمان بالآخرة، كما سبق معنا من قبل.

ثمّ الآية الرابعة تتضمّن الاخلاص لله واللّجوء اليه والاستعانة به والانابة اليه.

ثمّ الآيات الثّلاث الأخيرة :

* تعبير جميل عن الايمان بالرسالات كلّها، وعن الحنين الى الرّسل واتّباعهم والاعتراف بفضلهم و مكانتهم.

* و دلالة واضحة على أنّ الهداية الى الصّراط المستقيم منوطة بالأنبياء و الرّسل، ومن أراد الهداية بعيدا عنهم فقد ضلّ الطّريق و باء بغضب من الله.

* و براءة كاشفة صارخة من أعداء الله وأعداء الرسل والأنبياء.

ثمّ هذه الآيات تدلّ بنظمها على مسلبة النّعم أو على مصدر الخطر و منشأ الفساد في هذه الأمّة وهم اليهود والنّصارى - قاتلهم الله - وتاريخ المسلمين - على مرّ الدّهور - حافل طافح بما يصدّق ذلك.

فتومئ هذه الآيات الى موطن الدّاء ومكمن الشّقاء، وهو الانخداع بالضّالّين و المغضوب عليهم من اليهود و النّصارى، مع التنبيه على قارورة الدّواء و ابرة الشّفاء، وهو اتّباع صراط الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين و الشّهداء و الصّالحين - صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين - و بالجملة فهذه السّورة :

١ - تتضمّن ملاك الصّفات الحسنى كلّها.

٢ - و ترسي دعائم التوحيد و تجتثّ جذور الشّرك.

٣ - وتزرع في النّفوس الايمان بالآخرة.

٤ - وتهيب باخلاص العبادة لله والاستعانة به واللّجوء اليه.

٥ - و تذكّر ما حصل بين العبد و ربّه من عهد و ميثاق.

٦ - و تلهب في القلوب جذوة الحنين الى طريق الأنبياء.

٧ ــ و تنبّه على موطن الــدّاء في هذه الأمّــة .

٨ ــ و تصف العلاج الواقي من ذلك الــدّاء .

٩ ــ و ترغب في الحبّ والولاء للصّالحين .

١٠ ــ وتحذر من مصير الطّغاة و المفسدين .

تلك عشرة كاملة، و تلك هي المبادئ الأساسيّة أو المعارف الأصوليّة، التي فصّلت تفصيلا في سائر ســور القرآن . وهي - كما نرى - جاءت عفوا صفوا بدون تكلّف ولا تعسّف .

ثمّ هناك حكم أخــرى أودعت في نظم هــذه السّورة ، والاطّلاع على هذه الحكم يزيدنا ايمانا بأهمّية هذه السّورة و عظم شأنها ، وجــلالة قدرهــا ، و يفتح علينا آفاقا جــديدة من مرامي هذه السورة وشمولها وسعتها .

فمن تلك الحكم الّتي تستنبط من نظم هذه السورة مايلي :

١ ــ انّ من آداب الدّعــاء تقديم الحمد و الثّناء مــع الاعتراف بالعجــز و الافتقار الى الله - وهو كما لا يخفى، من تمام الحمد والثّناء - ثمّ التّطرّق الى ما هو المطلوب ، وكانت أدعية النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - على هــذا النّمط ، وبهــذا كان يأمر أصحابــه ،حيث قال - عليه الصّلاة و السّلام - :

(الصّلاة مثنى مثنى ، تشهّد في كلّ ركعتين ، و تخشّع و تضرّع و تمسكن ، و تقنع يديك ، - يقول : ترفعهما الى ربّك - مستقبلا ببطونهما وجهك ، وتقول : يا ربّ ، يا ربّ ! ومن لم يفعل ذلك فهو كــذا وكــذا . وفي رواية : من لم يفعل ذلك فهي خــداج .) (١)

وعن فضالة بن عبيد قال : بينا رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم - قاعــداً اذ دخل رجل فصلّى ، فقال : اللّهمّ اغفرلي وارحمني ، فقال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : (عجلت أيّها المصلي ،اذا صلّيت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، و صلّ عليّ ثمّ ادعــه) ، قال : ثمّ صلّى رجل آخر بعد ذلك فحمد الله و صلّى على النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم -

---

(١) سنن التّرمذي : باب ما جاء في التّخشّع في الصّلاة، ٢/٢٢٥ - ٢٢٦ ، رقم الحديث (٣٨٥).

فقال له النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : (أيّها المصلّي ، ادع تجب) (١)

٢ ــ أحقّ ما يطلبه العبد من ربّه هو الهداية والتوفيق ، ولذلك تلقّينا ، أوّل ما تلقّينا من ربّنا ، هذا الدّعاء : ﴿ اهدنا الصّراط المستقيم ﴾

٣ ــ الهداية الى الصّراط المستقيم هي باب الرحمة ومفتاح النّعمة ، ومن ابتعد عن الصّراط فلا جرم أنّ سائر النّعم تنقلب وبالا عليه .

٤ ــ الرّحمة من أبرز صفات الرّبّ ، كما قال تعالى : ﴿ وسعت رحمتي كلّ شيءٍ ﴾ ولذلك وضعت هذه الصّفة في غرّة هذا الكتاب .

٥ ــ من رحمته تعالى أنّه سيأتي بيوم الدّين ، ثمّ هو الّذى يتولّى الحكم و القضاء ، فلا يتكلّم من يتكلّم الاّ باذنه ، ولا يقول من يقول الاّ صوابا . ولقد فصّلت هذه النّقطة فيما مضى .

٦ ــ الأصل في المدح والثّناء أن يكون بظهر الغيب ، كما نرى في هذه السّورة ، فانّها كلّها خطاب مباشر الى الله تعالى غير ما فيها من الحمد و الثناء ، فانّه جاء بلفظ الغيبة ، وهذا هو أقرب الى الأدب والصّدق و الصّفاء ، وأبعد من الكذب والتّملّق والرّياء .

٧ ــ العبادة من تمام الحمد و من تهاون بالعبادة وحرّك لسانه بالحمد فهو كاذب في حمده .

٨ ــ الاستعانة أيضا من تمام الحمد ومن استعان بغير الله فهو كاذب في حمده .

٩ ــ الاستعانة و احساس الافتقار الى الله هو جوهر العبادة ، ومن استعان بغير الله فهو كاذب في عبادته ، ومن هنا سمّى الدّعاء مخّ العبادة .

١٠ ــ الدّعاء بعد العبادة أقرب الى الاستجابة ، ولذلك ورد أوّلا التّعهّد بالعبادة والاستعانة : ﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾ ثمّ تبعه الدّعاء ، ومن هنا شرع النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - أن يصلّى العبد

---

(١) سنن الترمذى : ٥/٥١٦ ، كتاب الدّعوات ، رقم الحديث (٣٤٧٦) .

ركعتين ، ثمّ يطلب مبتغاه ، فذلك أحرى أن يستجاب .

فقد روى عن عبدالله بن أبي أوفى ، قال : قال رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم - : (من كانت له الى الله حاجة أو الى أحد من بني آدم فليتوضأ ، فليحسن الوضوء ثمّ ليصلّ ركعتين ، ثمّ ليثن على الله و ليصلّ على النّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - ثمّ ليقل : لا اله الاّ الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربّ العرش العظيم . الحمدلله ربّ العالمين ، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والغنيمة من كلّ برّ و السّلامة من كلّ اثم ، لا تدع لي ذنبا الاّ غفرته ، ولا همّا الاّ فرّجته ، ولا حاجة هى لك رضا الاّ قضيتها يا أرحم الرّاحمين . (١)

وعن علىّ قال : كنت رجلا اذا سمعت من رسول الله - صلّى الله عليه و سلّم - حديثا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني ، واذا حدّثني أحد من أصحابه استحلفته ، فاذا حلف لي صدّقته ، قال : وحدّثني أبوبكر ، و صدق أبوبكر ، انّه قال : سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يقول : ما من عبد يذنب ذنبا ، فيحسن الطّهور ، ثمّ يقوم فيصلّي ركعتين ، ثمّ يستغفرالله الاّ غفرله . (٢)

وتلك أيضا عشرة كاملة . ومن يدرى ؟ فقد تكون هناك عشرات أخرى لم نصل اليها بعد ، ولا يستوعب كلام ربّك الاّ هو .

فلننظر هذه السورة - مع قصرها و وجازتها - كيف جمعت في غضونها أصول معارف القرآن كلّها ، وبذلك استحقّت - حقّا - أن تسمّى أمّ القرآن وأعظم سورة في القرآن .

وللامام الفراهي - رحمه الله - كلمة جميلة في هذا الموضوع ، ونرى من حقّها علينا أن نسجّلها هنا ، يقول - رحمه الله - :

" انّ هذه السورة ديباجة القرآن ، وجامعة لعلومه الثلاث

---

(١) سنن الترمذى : باب ما جاء في صلاة الحاجة ، ٣٤٤/٢ ، رقم الحديث (٤٧٩) .
(٢) مختصر سنن أبي داؤد : باب في الاستغفار ، ١٥٢/٢ ، رقم الحديث (١٤٦٥) .

على الاجمال ، ولذلك سمّاها العلماء موفية ، ومن حيث انّها ديباجة القرآن وحاوية لجميع علومه هى قرآن مستقلّ كما أنّ ديباجة الكتاب من حيث انّها هى شيء زائد عليه .

وهذا انّما هو من جهة اعتبار واحد وإلّا فالدّيباجة ليست الّا جزءا من الكتاب . وذلك أمر استنبط العلماء من القرآن ، فانّ الله تعالى تنبيها لعظيم منّته على نبيّه قال :

﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . ﴾ (١)

وقد اتّفقت العلماء من السلف الى الخلف على أنّ السبع المثاني هذه سورة الفاتحة .

فانظر كيف سمّاها الله على حدتها قرآنا عظيما ، كأنّ لهذه السبع شأنا على حدتها .

وان قيل انّ العطف ليس للتفسير بل المراد انّا أعطيناك هذه هذه الآيات السبع ومعها القرآن العظيم ، فعلى هذا التّأويل أيضا هى زائدة على القرآن العظيم ، فالى أىّ تقدير تذهب تجدها مستقلّة وجامعة ..."، الى أن قال - رحمه الله - : " أمّا انّها كيف جمعت علوم القرآن ، فالقرآن بحسب الاجمال يعطيك علوما ثلاثة :

١ - التوحيد ٢- والشّرائع ٣- والمعاد

وان فصّلنا هذه الأمور بحيث تراها تسع جميع القرآن خرجنا عن هذا البحث الى فضاء عريض ، وسيظهر ذلك على من يتلو القرآن بالتّأمّل .

ولا نقول انّ بعض آياتها في التوحيد وبعضها في الشرائع وبعضها في المعاد على حدتها ، فانّ هذه العلوم فيها ممزوجة ، فلا تراها مفترقة ، والتوحيد كجلباب أسبل على السورة ثمّ تحتها الشّرائع والمعاد .

ومن هذا الّذى قدّمناه تبيّن لك حكمة وضع هذه السورة للصّلاة ، فانّ الّذى قرأ الفاتحة كأنّه قرأ جميع القرآن اجمالا ، وبعد علم التّفاصيل يذكرك الاجمال جميعها . " (٢)

---

(١) سورة الحجر : ٨٧ (٢) تفسير سورة الفاتحة : ص ٤١ - ٤٣

هذا ممّا كتبه الامام الفراهي – رحمه الله – عن هذه السورة، ولا شكّ أنّ كلامه هذا بمكان من الرّوعة والدّقّة والوجاهة، فجزاه الله عنّا خير الجزاء وأوفاه ٠

ونرى الأمر قد بلغ غايته من الوضوح، وتجلّت مكانة سورة الفاتحة وموقعها من جملة القرآن تجلّيا كاملا، فله الحمد أوّلا وآخرا ٠

والآن نأتي الى نقطة مهمّة جدّا، وهى المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه، راجين من الله العون والتيسير، فانّه نعم المولى ونعم النّصير ٠

* الفصـــــل السّادس *

*** ** ***

المناسبة بين فاتحة الكتاب وخواتيمه

قد يستغرب القارئ اذارأى هذا العنوان ، ويسائل نفسه بشيء من الاستعجاب :

فهل توجد مناسبة بين فاتحة الكتاب و خواتيمه ؟؟

نحن نقول بدون أيّ تردّد أو توقّف : نعم ، اى وربّي ، انّ الأمر كذلك . وهو أوضح من أن يجحده جاحد أو يستريب فيه مستريب ، فكلّما نتدبّر هذه السورة مع السور الأخيرة في القرآن لا نقضى منها العجب لشدّة مايوجد بينها من تناسق رائع والتحام عجيب ، فقد عاد الكلام على بدئه بأسلوب تهتزّ له النّفس و تهتزّ ، وترتاح له أيّما ارتياح .

لقد رأينا قبل أنّ قطب سورة الفاتحة و عمودها هو قوله تعالى :

* ايّاك نعبد و ايّاك نستعين *

والآن سنرى في نهاية الشّوط أنّ القرآن كيف عاد الى هذه النّقطة كرّة أخرى ، وتناولها بطريقة عجيبة و روعة فائقة .

فقد أقرّ المسلم هناك و أعطى العهد و الميثاق أنّه يسلم نفسه لله ، فلا يعبد الّا ايّاه ولا يستعين الّا به . وأعرب عن لوعته وحنينه الى تلك النّفوس القدسيّة الّتي آثرها الله بنعمته و اختصّها برحمته و رضوانه ، كما أعرب عن ضجره و كراهيته لأولئك الأشقياء الّذين حادوا عن الطّريق و باءوا بغضب من الله .

والآن نرى في نهاية المطاف أنّ المسلم مطالب بأن يفاصل هؤلاء الأشقياء الكفّار مفاصلة كاملة ، و يصارحهم بضجره وكراهيته لهم ولما يعبدون من دون الله ، ويكاشفهم بأنّه لا يمكن أن يلتقى معهم في منتصف الطّريق ، أو يسالمهم في عقيدتهم و سلوكهم الى أن يأتى وعد الله : * قل يا أيّها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين . *

و يقرع أسماعهم بذلك العهد الّذى أبرمه مع ربّه حين قال : ﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾ :

﴿ قل هو الله أحد . الله الصّمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . ﴾

أى الّذى أعبده هو الله ، الّذى يتفرّد بهذه الصّفات ، وهى صفات لا بدّ من توفّرها في الاله المعبود .

فكان هذا تكملة للعهد الّذى سبق في سورة الفاتحة ، فانّ الاقرار بعبادة الله و اخلاص النّفس له يفقد اعتباره اذا بقى هو سرّا بين العبد و ربّه ، ولم يجهر به العبد على رؤوس النّاس ، ولم تصاحبه البراءة الصّريحة المكشوفة من عبادة غير الله .

ثمّ جاءت المعوّذتان .

ومعلوم أنّ الاستعاذة اخت الاستعانة و نسيبها أو أنّها شطر منها ، فانّ الاستعانة هى طلب العون في انجاز مهمّة أو تأدية حقّ ، والاستعاذة هى طلب العون للتخلّص من عدوّ أو التّوقّي من فتنة .

فلمّا تقدّم العبد المسلم الى ربّه بطلب العون في سورة الفاتحة :

﴿ ايّاك نعبد و ايّاك نستعين ﴾

استجاب الله دعاءه ، وبيّن له الطّريق ، وبيّن له الشّرائع ، وبيّن له الأحكام ، وبيّن له كلّ ما يساعده في عبادة الله وطاعته وابتغاء رضوانه .

ثمّ علّمه ، بعدما حمّله الرّسالة و أقامه على المحجّة البيضاء ، كيف يستعيذ بربّه من الشّرور و الفتن ، الّتي تحيط به من كلّ جانب وتريد أن تنقضّ عليه فتفسد عليه دينه و أمانته و تحرمه من السعادة ، الّتي اختصّه الله بها :

﴿ قل أعوذ بربّ الفلق . من شرّ ما خلق . ومن شرّ غاسق اذا وقب . ومن شرّ النّفّاثات في العقد . ومن شرّ حاسد اذا حسد . ﴾

وهذه الشّرور - كما لا يخفى - شرور خارجيّة وظاهرة تقف للمسلم بالمرصاد ، و تتوعّده في كلّ حين بالدّمار والهلاك ، ثمّ تنقضّ عليه انقضاضا ،

ان لم تتداركه نعمة من ربّه .

وهناك شرور خافية تدبّ في نفس الانسان دبيب النّعاس ، وهي الوساوس ، الّتي تتواثب على النّفس وتسيطر عليها بحيث لا يكاد الانسان يشعر بها ، فتعمل في كيان الانسان عملها وتجتاح دينه وأمانته ان لم يتيقّظ لها .

فتلك شرور داخليّة علّمنا الله كيف نستعيذ منها :

﴿ قل أعوذ بربّ النّاس . ملك النّاس . اله النّاس . من شرّ الوسواس الخنّاس . الّذى يوسوس في صدور النّاس . من الجنّة والنّاس . ﴾

وهكذا يكون المؤمن في مأمن من الفتن كلّها ، ويكون مأمونا في دينه وأمانته ، ولا يؤتى من داخله ولا من خارجه ، ان لم يتوان في الاستعاذة بربّه .

ولقد صدق نبيّنا - صلّى الله عليه وسلّم - حيث قال منوّها بشأن هاتين المعوّذتين :

(ألم تر آيات أنزلت اللّيلة لم ير مثلهنّ قطّ ؟ قل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ النّاس .)(١)

ومن بديع التناسب بين فاتحة الكتاب وخواتيمه أنّ الله سبحانه وتعالى وضع سورتين للاستعانة في أوّل القرآن ، وسورتين للاستعاذة في آخر القرآن .

فخواتيم سورة البقرة كلّها استعانة حارّة ضارعة من العبد المسلم أمام ربّه الكريم الودود :

﴿ آمن الرّسول بما أنزل اليه من ربّه والمؤمنون ، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرّق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربّنا واليك المصير ، لا يكلّف الله نفسا الاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربّنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربّنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الّذين من قبلنا ، ربّنا ولا تحمّلنا ما

---

(١) صحيح مسلم : باب فضل قراءة المعوذتين، ١/٥٥٨ ، رقم الحديث (٨١٤).

لا طاقة لنا به، واعف عنّا ، واغفرلنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين ٠ ﴾ (١)

وخواتيم سورة آل عمران أيضا جاءت تحمل نفس الرّوح و بنفس الأسلوب :

﴿ انّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل و النّهار لآيات لأولي الألباب ، الّذين يذكرون الله قياما و قعودا وعلى جنوبهم و يتفكّرون في خلق السّموات والأرض ، ربّنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النّار ، ربّنا انّك من تدخل النّار فقد أخزيته ، وماللظّالمين من أنصار٠ ربّنا انّنا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا ، ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا و توفّنا مع الأبرار٠ ربّنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انّك لا تخلف الميعاد٠﴾ (٢)

لا نقول انّ هاتين السورتين عمودهما الاستعانة بالله ، وانّهما تدوران حول هذا الموضوع ، ولكنّا نقول : انّ تلك الآيات لها شأن خاص تتميّز به دون غيرها ، وهى تكاد تطبع السورتين بطابعها ٠ ولن نبالغ اذا قلنا : انّ تلك الآيات تبرق في السورتين كبريق الثّريّا في كبد السماء ، أو كبريق الشمس في رابعة النّهار ٠

ولقد جاءت أدعية أخرى كثيرة في سور أخرى متعدّدة ، والأدعية كلّها استعانة بالله ، ولكن لهذه الآيات وضعا يختلف عن البقيّة ، وانّ لها لشأنا لا يوجد في غيرها ٠

ثمّ انّ الترتيب الّذى نراه في الاستعانة والاستعاذة ، حيث بدئ القرآن بالاستعانة و ختم بالاستعاذة ، كان هو الترتيب المفضّل من ناحية البلاغة ، فانّ الانسان يكون في أوّل أمره بحاجة الى الاستعانة بربّه ، ليعرف معالم الطّريق و يعرف القاصد من الجائر ، والقويم من الأعوج ، وبعد ذلك يحتاج الى أن يلجأ اليه و يستعيذ به من قطّاع الطّريق حتى لا تفوته الغاية بعد ماعرف الطّريق اليها ٠

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ ـ ٢٨٦ (٢) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٤

وكما أنّ الصّفات الّتي جاءت في سورة الفاتحة قبل قوله تعالى:

﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾

كانت ملائمة تماما لموضوع العبادة و الاستعانة، فانّ الشعور بالربوبية العامّة، والرحمة الشّاملة الدّائمة، والعدالة الخالصة البحتة هو الّذى يهيب بالانسان الى اخلاص العبادة لله، و يغمر قلبه بالأمل الخاشع في عون الله.

فكذلك الصّفات الّتي جاءت في سورة الاخلاص قبل المعوّذتين منسجمة تماما مع موضوع الاستعاذة بالله، فانّ الصّمد في اللّغة هى الصّخرة الراسية في الأرض، وهى الّتي اذا لذت بها نجوت من مخاوف العدوّ، وكثيرا ما كانوا يلوذون بالصّخور اذا دهمهم العدوّ.

ومن هنا سمّى سيّد القوم صمدا، فانّ القوم يلجأون اليه ويحتمون بحماه اذا دهاهم أمر.

فالله هو الصّمد، فانّه لا يملك أحد أن يكشف الضّرّ ويردّ المكاره الّا هو، واذا فرّ الانسان اليه و لاذ بكنفه واحتمى بحماه أمن المخاوف كلّها، ولن يضرّه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الملجأ وهو المعاذ.

ولقد كثر في الكتب السماويّة استعمال (صخرة) لله سبحانه و تعالى، و خاصّة في مزامير سيّدنا داوٗد - عليه السّلام - ولا بأس بأن نذكر هنا بعض الأمثلة:

" أحبّك يا ربّ، يا قوتي، الرّبّ صخرتي و حصني ومنقذى. الهي صخرتي به أحتمي. ترسي و قرن خلاصي و ملجأى. أدعو الربّ الحميد فأتخلّص من أعدائي. " (١)

" الله طريقه كامل. قول الربّ نقيّ. ترس هو لجميع المحتمين به، لأنّه من هو اله غير الرّبّ، ومن هو صخرة سوى الهنا. " (٢)

---

(١) المزمور الثامن عشر، آيات: ١ - ٣

(٢) المزمور الثامن عشر، آيات: ٣٠ - ٣١

" حيّ هو الربّ ومبارك صخرتي ومرتفع اله خلاصي ." (١)

" لتكن أقوال فمي و فكر قلبي مرضيّة أمامك ، يا ربّ صخرتي و وليّي . " (٢)

وأمّا بقيّة الصّفات فمناسبتها مع موضوع الاستعاذة واضحة ، فما دام أنّ الله أحد ، وليس له ابن ولا أب ، وليس له شبيه ولا عديل ولا نديد ولا نظير، فمن الّذى يملك أن يتحدّى قدرته أو يخفر جواره ، أو يمسّ من يدخل في حماه بسوء ! فسبحان من بيده ملكوت كلّ شيءٍ وهو يجير ولا يجار عليه .

و بعد ما انتهينا من بيان مناسبة السور الأربع مع سورة الفاتحة ، آن لنا أن نكشف القناع عن المناسبة بينها وبين سورتى النّصر واللّهب .

فالحقيقة أنّ سورتى النّصر واللّهب جاءتا استجابة للدّعاء الّذى تقدّم به العبد المسلم بين يدى ربّه الملك الرحيم في سورة الفاتحة ، وهو قوله تعالى :

﴿ اهدنا الصّراط المستقيم . صراط الّذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين . ﴾

والجدير بالذّكر أنّ الترتيب الموضوعيّ في كلا الموضعين واحد ، ففي سورة الفاتحة يقرّ العبد أوّلا بعبوديته الكاملة الخالصة من خلال قوله تعالى :

﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾

ثمّ يسأل الله أن يرزقه الاستقامة ويلحقه بمن استحقّوا منه النّعمة و يجنّبه من اشتروا الضّلالة بالهدى وباءوا بغضب من الله . وبعبارة أخرى هو يسأل لنفسه العزّة والنّصرة والنّعمة ، ولمن ناصبه العداء التباب والعذاب والنّقمة :

﴿ اهدنا الصّراط المستقيم . صراط الّذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين . ﴾

---

(١) المزمور الثامن عشر، آية : ٤٦ (٢) المزمور الثامن عشر، آية : ١٤

فطولب المؤمن أوّلا في سورة الكافرون بأن يتبرّأ من أعداء الله و ممّا يعبدون من دون الله و يجهر بهذا العهد الّذى أبرمه مع ربّه و يصدع به أمام النّاس حتى يتأكّد صدقه مع الله .

وبعد ذلك تأتي الاستجابة لدعائه في سورة النّصر في صورة الفتح والنّصر :

* اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبّح بحمد ربّك واستغفره، انّه كان توّابا . *

ثمّ تأتي سورة اللّهب :

* تبّت يدا أبي لهب و تبّ ،ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمّالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد . *

وليست هذه السورة الا تكملة لسورة النّصر ، حيث انّ الأولى تحمل الى المؤمنين بشرى النّصر والفتح بينما الأخرى جاءت تؤذن بالويل والتّباب لشانئيهم من أهل الكفر.

فهاتان السورتان تمثّلان في مجموعهما قوله تعالى :

* جاء الحقّ و زهق الباطل ، انّ الباطل كان زهوقا . * (1)

ولا تفوتنا الاشارة هنا الى أنّ هاتين السورتين تجمعان بين نعيم الدنيا والآخرة للمؤمنين ، وخزى الدنيا والآخرة للكافرين .

فسورة النّصر تشير الى النّصر والتّمكّن للمؤمنين في هذه الدّنيا ، كما أنّ سورة اللّهب تميل - في طبيعتها و جوّها - الى سوء عاقبة الكفّار في الآخرة .

و تمكّن المؤمنين في الدّنيا يستلزم هزيمة أعدائهم فيها ، كما أنّ سوء عاقبة الكفر في الآخرة ايذان بحسن عاقبة الايمان فيها .

والدّعاء الوارد في سورة الفاتحة أيضا جاء على هذه الشّاكلة ، فهو يشمل النّعمى في الدنيا والآخرة ، وبالتّالي هو يتضمّن سوء مصير أعداء الله في هذه الدّنيا و في الآخرة .

---

(١) سورة الاسراء : ٨١

تلك لمحات سريعة الى ما يوجد بين فاتحة الكتاب وخواتيمه من نظام متين و تلاحم قوي و تناسق عجيب !!

ولا نملك بعد ذلك الآن نحني رؤوسنا و نردد بكل خشوع ما قاله ربنا في وصف هذا القرآن :

﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (١)

نعم ، يا ربنا ، انه ليس في استطاعة أحد من الجن والانس أن يأتي بمثل هذا القرآن ، بل وليس في استطاعة أحد منهم أن يحيط بما فيه من دقة النظام و روعة البيان ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

---

(١) سورة الاسراء : ٨٨

الباب الثاني :

نظام سورة البقرة

انّ هذه السورة - كسائر أخواتها - نموذج رائع لحسن الارتباط في آياتها، و روعة التناسق فيما بين أجزائها، و ذلك بالرغم من أنّها لم تنزل جملة واحدة، بل نزلت على فترات زمنيّة متباعدة .

والفواصل الزّمنيّة في النّزول، وان كانت طويلة مديدة، إلّا أنّها لا تخلّ أبدا بهذا الارتباط وذلك التناسق .

و سوف نتناول باذن الله هذه السورة العظيمة من هذه النّاحية جزءًا جزءًا ، و نسعى جهدنا في ابراز ماتتمتّع به من حسن التناسق و روعة التعانق .

فلنبدأ اذا بماتستهلّ به هذه السورة العظيمة .

نظم الآيات (١ - ١٦)

قال تعالى :

* الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتّقين . الّذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصّلوة وممّا رزقناهم ينفقون . والّذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون . *

انّ دراسة نظم هذه الآيات تلحّ علينا أن نستحضر أوّلا تلك السورة الّتي مضت قبلها، وهى سورة الفاتحة .

لقد عرفنا في الباب السابق أنّ سورة الفاتحة هى سورة العهد والميثاق ، الّذى يتقدّم به العبد المسلم بين يدى ربّه بالعشيّ والابكار، و توثيق هذا العهد هو عمودها و روحها السّارى فيها .

ويظهر هذا واضحا جليّا حين ننظر الى موقعها من جملة القرآن ، وموقعها من السور الأربع ، الّتي تدور حول هذا العنوان ، ولقد بيّنّا ذلك فيما مضى و سنبيّنه فيما بعد باذن الله .

ثمّ هناك وجه آخر يلمسه النّاظر في هذه السورة حين يجمعها مع مطالع سورة البقرة ، وهو أنّها ترجمة رائعة لما كان يجده الصّالحون

من أهل الكتاب في صدورهم من تلهّف و اشتياق شديدين الى الحقّ . فقدكانوا متمسّكين ببقايا معالم الهدى و سنن الأنبياء ، وكانوا متضجّرين من أولئك الأحبار و الرّهبان ، الّذين طمسوا معالم الحقّ و باعوا دينهم بعرض من الدّنيا ، فضلّوا و أضلّوا و استحقّوا غضب الله .

فهم يتوسّلون بعبادتهم الى ربّهم و يتضرّعون اليه أن يرسل اليهم الكتاب الّذى وعد به على لسان الأنبياء ، و يأخذ بأيديهم الى الصّراط المستقيم ، الّذى سلكه الصّالحون من سلفهم ممّن أنعم عليهم .

و هنا تجيُ سورة البقرة ، تحمل اليهم البشرى : انّ الكتاب الّذى أنزل على محمّد هو ذلك "الكتاب" أى الكتاب الّذى وعد به الله على لسان الأنبياء السابقين .

فهو ذلك الكتاب الموعود بالتّأكيد ، وليس هناك مجال لأن يستريب فيه مستريب :

﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾

و يوحي الينا السياق كذلك أنّ هؤلاء الصّالحين من أهل الكتاب لمّا سمعوا بهذا الكتاب لم يتريّثوا و لم يتردّدوا ، بل لم يكن هناك أىّ فاصل زمانيّ بين سماعهم بهذا الكتاب و بين ايمانهم به و استجابتهم له ،فقدكانوا يتمتّعون بخلال الخير، الّتي لا تدع صاحبها يتأخّر أو يتردّد اذا ظهر له الحقّ .

انّ هذه الآيات تذكّرنا ذلك الحوار الّذى جرى بين موسى وربّه ، فانّ هناك شبها واضحا بين هذا و ذاك :

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلمّا أخذتهم الرّجفة قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل وايّاى ، أتهلكنا بما فعل السّفهاء منّا ، ان هى الاّ فتنتك تضلّ بها من تشاء و تهدى من تشاء ، أنت وليّنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه الدّنيا حسنة وفي الآخرة ، انّا هدنا اليك ، قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي

وسعت كلّ شيءٌ فسأكتبها للّذين يتّقون و يؤتون الزّكوة والّذين هم بآياتنا يؤمنون ٠ ﴾ (١)

فقد ذكرت هناك ثلاث صفات لهؤلاء الصّالحين من أهل الكتاب الّذين سينالهم نصيبهم من هذه الرّحمة :

١ ــ التّقوى

٢ ــ وايتاء الزّكاة

٣ ــ والايمان بالآيات

وتلك عيون الصّفات الّتي ذكرت في الآيات الّتي نحن بصددها من سورة البقرة ، وماعداها فهى داخلة فيها حيث انّها من مستلزماتها ٠

وبعدما ينتهي السياق من ذكر تلك الصّفات يأتي بهذه الآية مباشرة :

﴿ الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوبا عندهم في التّوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحلّ لهم الطّيّبات و يحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم ، فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ٠ ﴾ (٢)

وهذا الوضع ان دلّ على شيءٌ فانّما يدلّ على أنّ الصّالحين من أهل الكتاب ، الّذين كانوا يتّصفون بهذه الصّفات ، مالبثوا أن آمنوا بهذا النّبيّ حين سمعوا به ، وكانوا في استعدادهم للايمان كزيت يضيءُ ولو لم تمسسه نار ، فهم سارعوا الى الايمان وتنافسوا فيه ، ولم يكن دافعهم الى ذلك الا تلك الخلال الّتي كانوا يتمتّعون بها من أوّل أمرهم ٠

ولقد أشاد القرآن بذكرهم في عدّة مواضع ، وذكر مسارعتهم الى الايمان بأسلوب يطرب له القلب و تهتزّ له النّفس ، وما أروع تلك المشاهد الّتي تعرضها هذه الآيات :

﴿ واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدّمع

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٥ ــ ١٥٦ (٢) سورة الأعراف : ١٥٧

ممّا عرفوا من الحقّ . يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين ، ومالنا لا نؤمن بالله وماجاءنا من الحقّ و نطمع أن يدخلنا ربّنا مع القوم الصّالحين .﴾ (١)

﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ، انّ الّذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرّون للأذقان سجّدا ، ويقولون سبحان ربّنا ان كان وعد ربّنا لمفعولا . ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا .﴾ (٢)

﴿ الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا آمنّا به ، انّه الحقّ من ربّنا ، انّا كنّا من قبله مسلمين .﴾ (٣)

وبالجملة فالأوائل الخمس من هذه السورة جاءت في شأن الصّالحين من أهل الكتاب ،وهي تشير بسياقها الى شوقهم ولهفتهم ومسارعتهم الى القرآن ، كما تشير الى ذلك الرّصيد الطّيّب من الصّفات ، الّتي كانوا يملكونها ، والّتي دفعتهم دفعا الى دائرة الايمان .

وليس هذا بدعا من القول ، فقد كان في السلف من ذهب اليه ، كما صرّح بذلك الامام ابن جرير - رحمه الله - حيث قال :

" وقال بعضهم : بل نزلت هذه الآيات الأربع في مؤمني أهل الكتاب خاصّة . " (٤)

وقد نستأنس هنا بالأسلوب الّذى نلاحظه في كلا الموضعين من هذه السورة و من سورة الأعراف ، حيث انّ آيات سورة الأعراف ،الّتي وردت في شأن الصّالحين من أهل الكتاب ، ختمت بهذه الكلمات :

﴿ فالّذين آمنوا به وعزّروه و نصروه و اتّبعوا النّور الّذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .﴾

وآيات سورة البقرة أيضا ختمت بنفس الكلمات :

﴿ أولئك على هدى من ربّهم و أولئك هم المفلحون .﴾

---

(١) سورة المائدة : ٨٣ - ٨٤ (٢) سورة الاسراء : ١٠٧ - ١٠٩

(٣) سورة القصص : ٥٢ - ٥٣ (٤) جامع البيان في تأويل آى القرآن ١٠٢/١

وبعد ما ينتهي النّص من ذكر الصّالحين من أهل الكتاب ينصرف الى طواغيتهم مبيّنا موقفهم من الكتاب :

﴿ انّ الّذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . ﴾

هؤلاء زعماء اليهود و طواغيتهم ، الّذين ليس لهم همّ الاّ أن ينفثوا السمّ ضدّ الاسلام ، و يشعلوا نار الفتنة كي يطفئوا نور القرآن !

انّ أمثال هؤلاء لا يجدى فيهم الانذار ، فقد عرفوا الحقّ و جحدوه واستحبّوا الكفر على الايمان و آثروه !

انّهم يحاربون أهل الحقّ مع علمهم بأنّهم أهل الحقّ ، ويساندون أهل الباطل مع معرفتهم أنّهم على الباطل .

انّ أمثال هؤلاء ليس لهم الاّ أن يعيشوا ما عاشوا على الكفر و يموتوا اذا ماتوا على الكفر ، فقد عاقبهم الله على كفرهم بأن ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا رجاء في ايمانهم بعد أن تسبّبوا في اغلاق مداخل الايمان و منافذه و غدوا حبيسي كفرهم و ظلماتهم .

وممّا يؤيّد هذا الرّأى قول ابن عبّاس والكلبي حيث قالا عن هاتين الآيتين :

" نزلت في رؤوساء اليهود حييّ بن أخطب و كعب بن الأشرف و نظرائهما . " (١)

ومثله ماروى عن ابن السّائب حيث قال :

" انّها نزلت في طائفة من اليهود ومنهم حيىّ بن أخطب . " (٢)

---

(١) فتح القدير : ٣٩/١
(٢) زاد المسير : ٢٧/١

و بعد ما ينتهي النّص من ذكر هؤلاء الطّواغيت ، ينصرف الى ذكر المنافقين ، الّذين هم من أتباعهم و عملائهم داخل صفوف المسلمين:

﴿ ومن النّاس من يقول آمنّا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والّذين آمنوا وما يخدعون الآ أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا انّما نحن مصلحون . ألا انّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . واذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا انّهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .واذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انّا معكم ، انّما نحن مستهزؤون . الله يستهزئ بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . ﴾

هؤلاء المنافقون أيضا من اليهود ، كما ورد عن ابن عبّاس - رضى الله عنهما - في هذه الآيات أنّه قال :

" انّها في منافقي أهل الكتاب . " (١)

و قادتهم و شياطينهم هم الّذين سلف ذكرهم من اليهود، فهم الّذين يخطّطون لهم و يرسمون لهم الطّريق ، ثمّ يدسّونهم في صفوف المسلمين كي يخدموهم و يخدعوا المسلمين .

---

(١) زاد المسير : ٢٩/١

نظم الآيات (١٧ - ٢٠)

وبعد ما ينتهي النصّ من ذكر هذه الطّوائف الثلاث يتناول الطّائفتين الأخيرتين بمزيد من الايضاح ، ويضرب لهما مثلين حتى تتجلّى صورتهما بكلّ ما فيهما من خبث وفساد :

﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد نارا . فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيّب من السّماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلّما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، انّ الله على كلّ شيءٍ قدير . ﴾

هذان المثلان يتناولان الطّائفتين الأخيرتين بالترتيب .

فالمثل الأول يتناول الطّواغيت من اليهود . وهو يصوّر رجلا استوقد النّار لسيّارة يتيهون في الظّلام ، وهو لم يستوقد هذه النّار الاّ لكى يدعوهم اليه ويعدّ لهم طعاما يشبعهم ويغنيهم من جوع . ولكنّهم لم يلقوا له بالا مع أنّهم في أسوأ حالة وفي أمسّ حاجة اليه ، انّهم آثروا البقاء في الحيرة والمسغبة على تلك الضّيافة المهيّأة ، لا لسبب الاّ لعنجهيّتهم واستكبارهم وفساد في طبيعتهم !

فهكذا حال هؤلاء الطّواغيت ، إنّهم جاءهم الرسول بالهدى والنّور وهم في أمسّ حاجة اليه ، ولكنّهم آثروا البقاء في الحيرة ودياجير الظّلمة ولم تسمح لهم عنجهيّتهم واستكبارهم بأن يلتفتوا الى ذلك النّور!

﴿ صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾

وكلّما ازداد هذا النّور سطوعا وتألقا ازداد هذا النّفر نفورا وتنكّرا . فلمّا أبى هذا النّفر الاّ نفورا وتنكّرا لهذا النّور - نور الوحي ونور الهداية - ذهب الله بنورهم الّذى أودعه في فطرتهم ليكون لهم دليلا الى هذا النّور . وما ذهب بنورهم هذا ، الّذى قد أودعه في فطرتهم الاّ لأنّهم لم ينتفعوا به وعطلوه ، وبذلك تركهم في ظلمات لا يبصرون ، فلا رجعة

لهم الى الحقّ ولا أوبة لهم الى الهدى ولا هداية لهم الى النّور !

وهنا يحضرنا ذلك الحديث الّذى رواه الدّارمي عن ربيعة الجرشي، قال: (أتى نبيّ الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقيل له : لتنم عينك و لتسمع أذنك وليعقل قلبك . قال : فنامت عيني و سمعت أذناى وعقل قلبي . قال : فقيل لي : سيّد بنى دارا فصنع مأدبة وأرسل داعيا ، فمن أجاب الدّاعى دخل الدّار وأكل من المأدبة ، و رضى عنه السيّد، ومن لم يجب الدّاعى ، لم يدخل الدّار ولم يطعم من المأدبة وسخط عليه السيّد، قال : فالله السيّد ومحمّد الدّاعي والدّار الاسلام ، والمأدبة الجنّة .)[1]

والمثل الثّاني يرسم حال الطّائفة الثّالثة وهى طائفة المنافقين.

انّه يرسم حالة الحذر والخوف الشّديد. انّه يصوّر قوما وقعوا في مطر شديد رهيب ،مطر يصحبه رعد و برق و ظلام .

فكلّما سمعوا جلجلة الصّواعق ظنّوا كأنّها حلّت بهم ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ،وهم خائفون وجلون من الموت . وان لاح لهم البرق ارتجفوا وحسبوا أنّ سناه سيذهب بأبصارهم . واذا أضاء لهم الطّريق مشوا ، واذا خيّم عليهم الظّلام وقفوا .

فما ظنّك بقوم يقطعون طريقهم هكذا خائفين وجلين ، يعبث بهم الجزع و الفزع ! لا يقرّ لهم قرار ولا يهدأ لهم بال !

وهكذا حال هؤلاء المنافقين . انّهم اندفعوا الى طريق الاسلام ولم يقدروا الموقف قبل أن يدخلوا فيه .

انّهم اقتحموا المعركة ولم يتزوّدوا من التّقوى والثّقة بالله ما يثبّت أقدامهم ، ويربط على جأشهم ، فاذا بهم قد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر لشدّة الموقف و هول المنظر !

انّهم لا يثقون بالله كما يثقون بأنفسهم و كياستهم ، أوكما يثقون بمكرهم وحيلتهم . و يحسبون أنّهم هم الّذين ينجون بسمعهم وأبصارهم في جلجلة الصّواعق و لمعان البروق .

---

(١) سنن الدّارمي: باب صفة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الكتب قبل مبعثه، ص: ٧

ويا لسذاجة النّفوس و غباوة العقول ! فانّ الله هوالّذى يكلأهم و يحفظهم و يرعاهم من غير حول منهم ولا قوّة. ولو شاء لذهب بسمعهم و أبصارهم، ولكنّ المنافقين لا يفقهون ، فهم متردّدون بين معسكر الايمان و معسكر الكفر ، تقودهم المصلحة مرّة الى هؤلاء وأخرى الى هؤلاء .

و هكذا هم دائما في قلق واضطراب ، مذبذبين بين المعسكرين، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء .

فالمثل الأول يوحي بالعنجهيّة و الاستكبار والاباء والتّمرّد، وهو يتناسب مع حال الطّغاة من اليهود .

كما أنّ المثل الثاني يوحي بالوجل الشديد والخوف المستمرّ والحذر الدّائم وهو يتناسب مع حال المنافقين المخادعين .

ولقد روى الامام ابن جرير- رحمه الله - أنّ قتادة وابن جريج - رحمهما الله - كانا يتأوّلان قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت ﴾ أنّ ذلك من الله - جلّ ثناؤه- صفة للمنافقين بالهلع و ضعف القلوب و كراهة الموت . وكانا يتأوّلان في ذلك قوله تعالى :

﴿ يحسبون كلّ صيحة عليهم ﴾ (١)

ويقول الفرّاء - وهو يذكر معنى الآية- :

" قيل انّ الرّعد انّما ذكر مثلا لخوفهم من القتال اذا دعوا اليه، ألا ترى أنّه قد قال في موضع آخر : ﴿ يحسبون كلّ صيحة عليهم ﴾ أى يظنّون أنّهم أبدا مغلوبون . " (٢)

ومن هذا التفصيل يتبيّن ضعف الرّأى الّذى يربط كلا المثلين بالمنافقين و أحوالهم ، فانّ هذا الرّأى خلاف ما يمليه علينا السياق .

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٥٧/١
(٢) معاني القرآن للفرّاء : ١٧/١

والّذى يمليه علينا السياق هو ما عرفناه من أنّ المثل الأوّل يتناول الطّائفة الثانية من طواغيت اليهود و شياطينهم والمثل الثاني يتناول الطّائفة الثالثة من المنافقين المخادعين ٠

وكان الدّكتور عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ موفّقا كلّ التوفيق ، حيث قال وهو يناقش هذا الرّأى :

" لعلّك ترى هنا شيئا من المخالفة لكلام المفسّرين ، اذجعلوا المثلين كليهما راجعين الى المنافقين خاصّة ، وجعلناهما موزّعين على الطّائفتين ، نشرا على ترتيب اللّف ٠ ولكنّك اذا رجعت بنفسك الى أجزاء المثلين سترى معنا أنّ المثل الأوّل ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف الّتي ذكرها الله للكافرين وأنّ الّذى ينطبق على صفات المنافقين انّما هو المثل الثاني وحده ٠ فهؤلاء القوم الّذين (ذهب الله بنورهم و تركهم في ظلمات لا يبصرون ٠ صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون) أليسوا هم أولئك القوم الّذين (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) ٠ وهذه الظّلمات الثابتة المستقرّة الّتي ليس فيها بصيص من نور و ليس فيها تقلّب ولا تذبذب هل ترى فيها تصويراً لألوان النّفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال ؟ انّك لا تجد هذه الصّورة الاّ في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظّلام و النّور والوقوف والمسير٠ وكذلك ترى في المثل الثاني قوما لهم أسماع و أبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب ٠ وهذا مناسب لقوله في المنافقين (في قلوبهم مرض) فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلّي على القلوب والحواس ٠

نعم يمكن تقرير كلام المفسّرين على وجه صحيح اذا ضممنا اليه ضميمة٠ ذلك بأن نقول انّ المثل الأوّل يصوّر حال المنافقين في بواطنهم وهو الأمر الّذى يشاركون فيه سائر الكفّار٠ والمثل الثاني يصوّر حالهم في ظواهرهم ، وهو الأمر الّذى يتقلّب عندهم بتقلّب الدّواعي ، لأنّ تقلّبهم انّما هو في الظّاهر لا في الباطن ٠ غير أنّ هذه الدّعوى أيضا محلّ نظر،

اذ ما يدرينا لعلّ نوع الكفر الّذى يبطنه المنافق نوع خاصّ يتقلّب فيه قلبه بالشكّ والتردّد ، وأنّ هذا الاضطراب الّذى نشاهده على حركاته الظّاهرة في أقواله وأعماله انّما هو صورة الاضطراب النّفسيّ الّذى يحسّ به هو في دخيلته بخلاف النّوع الأول ، وهو كفر المجاهرين ، فهو طبيعة واحدة مصمّمة ، حسبما تشهد به وحدة آثاره . (١)

---

(١) النّبأ العظيم ص ١٦٨ ـ ١٦٩ بالهامش .

نظم الآيات (٢١ ـ ٢٩)

****

و بعد ماينتهي السياق من تمثيل هؤلاء و هؤلاء يأخذ القوم بالنّصيحة والموعظة الحسنة :

﴿ ياأيّها النّاس اعبدوا ربّكم الّذى خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون ، الّذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون . وان كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة ، أعدّت للكافرين . ﴾

من هم المعنيّون بـ (النّاس) في قوله تعالى : ﴿ ياأيّها النّاس ﴾؟ والى من يتوجّه الخطاب في هذه الآية ؟

للنّاس في ذلك أقوال . ولكنّ الّذى يرجّحه السياق ونظم الآيات هو أنّ الخطاب موجّه الى الطّائفة الثالثة الأخيرة ، وهى طائفة المنافقين من اليهود ، فانّ الطّائفة الثانية من طواغيت اليهود قد ختم على قلوبهم و سمعهم وقد عميت أبصارهم ، فتوجيه الخطاب اليهم أشبه شيء بنفخ في رماد أو صيحة في واد .

ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ القرآن يقف منهم دائما موقف التبكيت والاعراض .

فالخطاب هنا موجّه الى هؤلاء المنافقين المتأرجحين بين الاسلام والكفر . وجّه الخطاب اليهم حتى يراجعوا أنفسهم و يعبدوا ربّهم الّذى خلقهم .

و (العبادة) هنا الطّاعة كما روى عن ابن عبّاس في أحد قوليه . (١)

و (الأنداد) هم أئمّة اليهود و طواغيتهم ، الّذين يمتطون هؤلاء المنافقين ويوحون اليهم زخرف القول غرورا .

---

(١) زاد المسير : ٤٨/١

ومثل ذلك روى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ في تفسير الأنداد حيث قال :

" أكفاء من الرجال يطيعونهم في معصية الله. " (١)

وقال السدّى : " رجال كانوا يطيعونهم في معصية الله." (٢)

فقيل لهؤلاء القوم : ان كان ابتعادكم من كتاب الله امتثالا لما يوحيه اليكم زعماؤكم و كبراؤكم ، فهذا أمر لا يقرّه العقل ، فانّ الّذى خلقكم و خلق آباءكم و أغدق عليكم و عليهم النّعم ، هو الّذى يستحقّ الطّاعة والامتثال دون غيره. وأمّا اذا أطعتم كبراءكم في معصية ربّكم ، فهذا يعني أنّكم جعلتموهم أندادا لله. و هذا أمر لا مبرّر له مطلقا.

وان كان هذا التردّد ناتجا من شكّ يساور أنفسكم في هذا الكتاب وكنتم أنتم غير مقتنعين بكونه من عند الله فاجتهدوا أن تأتوا أنتم كذلك بسورة من مثله. ولا بأس بأن تدعوا كبراءكم حتى يساعدوكم في هذا الأمر.

فان كنتم عاجزين ، ولا شكّ أنّكم عاجزون ، فهذا دليل ساطع على كونه من عند الله ، وأنّ الاتيان بمثله خارج عن طوق البشر، فاحذروا عاقبة تكذيبكم فانّها وخيمة !

وهناك نكتة لا بأس بالتنبيه اليها ، وهى أنّ الصّالحين من أهل الكتاب كانوا ملتزمين بعبادة الله كما مرّ الاقرار به في سورة الفاتحة على لسانهم :

﴿ ايّاك نعبد وايّاك نستعين ﴾

وبفضل هذه العبادة كانوا على قدر صالح من التّقوى . وهذه التّقوى هى الّتي أسرعت بهم الى الايمان بكتاب الله كما مرّ الكلام عليه في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتّقين . ﴾

---

(١) فتح القدير : ٥١/١

(٢) زاد المسير : ٤٩/١

وأمّا هؤلاء القوم فكانوا غافلين عن عبادة الله و بالتّالي كانت قلوبهم خاوية من تقوى الله ، فقيل لهم :

﴿ يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم الّذى خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون ٠ ﴾

ثمّ بإزاء عاقبة الكافرين تذكر عاقبة المؤمنين العاملين، حتىٰ تكون الصّورة متكاملة :

﴿ وبشّر الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات أنّ لهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار، كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الّذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون ٠ ﴾

و بعد هذا الانذار والتبشير يعود الكلام مرّة أخرى الى ماكان عليه من الدعوة الى الايمان بالقرآن :

﴿ انّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ٠ فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم وأمّا الّذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ٠ يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا ٠ وما يضلّ به الّا الفاسقين ٠ الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمرالله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون٠ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ اليه ترجعون٠ هوالّذى خلق لكم ما في الأرض جميعا ثمّ استوى الى السّماء فسوّاهنّ سبع سموات وهو بكلّ شيءٍ عليم ٠ ﴾

لقد كانت الدّعوة الى الايمان فيما مضى من جهتين :

١ ـــ لا يصدّنّكم شياطينكم عن الايمان بهذا القرآن ، الّذى أكرمكم الله به، فانّ الله هو الرّبّ وهو الخالق وهو أولى بأن يطاع ٠

٢ ـــ عجز البشر عن الاتيان بمثله دليل قاطع على كونه من عند الله، فلا يجوز الشكّ فيه اعتمادا على الوساوس الّتي لا تستند الى أساس ٠

وهنا يدخل عليهم الحديث من باب ثالث ، ويعالجهم بشيءٍ من العنف ، فانه كان من ضمن أسباب الاعراض - كما يوحيه الينا السياق - أنّ القرآن قد كشف القوم كشفا وأماط اللّثام عن الوجوه وبيّن كلّ طائفة بما فيها وما يتّصل بها ٠

ولعلّ هذا هو المراد بضرب المثل ، فانّ ضرب المثل لا يستلزم تمثيل حال بحال أو تشبيه شيءٍ بشيءٍ ، وانّما هو حكاية الأمر وبيان الحقيقة بأىّ أسلوب كان ٠

والقرآن نفسه بيّن لنا هذا المعنى حيث قال :

﴿ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ٠ والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وآمنوا بما نزّل على محمّد وهو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم ٠ ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل وأنّ الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم ٠ كذلك يضرب الله للنّاس أمثالهم ٠﴾ (١)

فكلّما ضرب الله للنّاس أمثالهم وقف النّاس منها موقفين متعاكسين، ففريق منهم أذعنوا لها واتّعظوا بها ، وفريق آخر أخذتهم العزّة بالاثم ، وطفقوا يستهزءُون بها : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ﴾ ٠

أى ان أخذنا الكلام على ظاهره فهو خلاف الواقع ،ولا ندرى اذا كان له مفهوم باطن ٠ فما هو المفهوم الباطن ؟

وهم بقولهم هذا كانوا يضاهئون قول قوم شعيب - عليه السلام - اذ قالوا لنبيّهم :

﴿ يا شعيب ما نفقه كثيرا ممّا تقول ، وانّا لنراك فينا ضعيفا ٠ ﴾ (٢)

وهذا داء قديم في المخالفين المستكبرين ، فكلّما انهزموا في ساحة الاستدلال لجؤا الى أرخص الأساليب ودافعوا عن سمعتهم أو شخصيّتهم بسهام الاستخفاف والاستهزاء ٠

وهنا يبيّن لهم القرآن أنّ الله لا يستحيي من ضرب الأمثال ، كائنا ما كان موقفكم منها ٠

---

(١) سورة محمّد : ١ - ٣ (٢) سورة هود : ٩١

انه لا يستحيي من قول الحقّ قدر بعوضة فما فوقها ، الاّ أنّ الانتفاع بتلك الأمثال وتلقّي الهداية منها يعتمد على صلاحية المرء وسلامة طبعه .

فأمّا الّذين استنارت قلوبهم بالايمان فهم الّذين ينتفعون بها لكن الّذين أشربوا في قلوبهم الكفر يتّخذون آيات الله هزوا ، وبذلك يزدادون رجسا الى رجسهم .

وممّا يجدر الانتباه له أنّ القرآن وَصَمَ هنا هؤلاء القوم بالفسق كما وصف الصّالحين منهم بالتّقوى في أوّل هذه السّورة ، فسمّاهم (المتّقين) كما سمّى هؤلاء (الفاسقين) .

ثمّ ذكر من صفات هؤلاء الفاسقين ما يناقض تماما صفات أولئك المتّقين . فهؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه بتكذيب رسله وتكذيب كتبه ، بينما أولئك يوفون بعهد الله ، حيث يؤمنون بما أنزل الى النّبيّ - عليه الصّلاة والسّلام - وما أنزل من قبله .

وهؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل بينما أولئك يصلون ما أمر الله به أن يوصل فيؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة .

وهؤلاء يفسدون في الأرض بينما أولئك ينفقون ممّا رزقهم الله وبالتّالي هم يحاربون الفساد ويرفعون لواء الاصلاح .

وهذا الاختلاف البيّن في أعمالهم وتصرّفاتهم يؤدّى الى الاختلاف البيّن في عواقبهم ونتائج أعمالهم ، فقال عن هؤلاء :

* أولئك هم الخاسرون . *

بينما قال عن الأوّلين :

* أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون . *

ثمّ عاد الكلام من حيث بدأ . فقد بدأ بدعوة هؤلاء القوم الى عبادة ربّهم الّذى خلق :

* يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم الّذى خلقكم والّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون . *

وهنا يتوجّه اليهم السياق بسؤال فيه استنكار وفيه تعجيب من شأنهم لاصرارهم على الكفر ونفورهم من عبادة الله :

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ اليه ترجعون . هو الّذى خلق لكم ما في الأرض جميعا ، ثمّ استوى الى السّماء فسوّاهنّ سبع سموات وهو بكلّ شيء عليم . ﴾

ومادّة العرض أو الاستدلال في كلا الموضعين واحدة . فقد ذكر هناك من الأسباب المستوجبة لعبادة الله ، أنّه هو صاحب الخلق وصاحب النّعمة ، وهنا ـ في مقطع الفقرة ـ أيضا ذكر نفس الشيء ، الاّ أنّ هناك فرقا يسيرا في الموضعين من ناحية الاستدلال .

فقد كان التركيز في مطلع الفقرة على أنّ الله سبحانه وتعالى هو صاحب الخلق وصاحب النّعمة ، وعلى هذا فهو الّذى يستحقّ العبادة ويستحقّ الطّاعة دون غيره من الأنداد المختلفة .

بينما نرى السياق هنا يميل الى أمر الدّينونة والجزاء فهو كما أحياكم من بعد موتكم سيحييكم مرّة أخرى واليه ترجعون .

هذه ناحية . ومن ناحية أخرى فانّه ليس أنّه خلقكم وخلق هذه النّعم ثمّ ترككم وشأنكم ، بل هو بكلّ شيء عليم ، فهو يراقب العباد وسيحاسبهم يوم الحساب فيجزى المحسن باحسانه والمسيء باساءته .

نظم الآيات (٣٠ ـ ٣٩)

ثمّ اذا عدنا الى هاتين الآيتين (٢٨ ـ ٢٩) مرّة أخرى فستنكشف لنا ناحية أخرى لحسن مناسبتهما ، حيث انّهما أوجدتا بموقعهما جوّا ملائما لذكر خلافة آدم ، فالمتأمّل في هذه الآيات حين يقرأ قوله تعالى :

﴿ هو الّذى خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾

يستوحي منه مباشرة مفهوم خلافة بني آدم ، فانّ خلق الأرض و خلق ما فيها لبني آدم لا يعني الاّ أنّ الله قد اختارهم لمكرمة الخلافة ، ومن هنا حسن بعده ذكر خلافة آدم و ذكر تاريخها :

﴿ واذ قال ربّك للملائكة انّي جاعل في الأرض خليفة · قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدّماء ، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، قال انّي أعلم ما لا تعلمون · وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين · قالوا سبحانك لا علم لنا الاّ ما علّمتنا ، انّك أنت العليم الحكيم · قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انّي أعلم غيب السّموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون · ﴾

لقد علمنا آنفا مناسبة هذه الآيات لما قبلها · وهذا اذا أخذناها بنظرة قريبة عاجلة · أمّا اذا توسّعنا قليلا و ألقينا عليها نظرة بعيدة متأنّية فستنكشف لنا جوانب أخر من المناسبات باذن الله · وها نحن نذكرها بعضا منها :

لقد ذكرت في الفقرة السّالفة آثار من ربوبية الله سبحانه وتعالى وكانت هذه الآثار مادّيّة ملموسة ، بحيث يحسّ بها كلّ من يملك الشعور والاحساس.

وأمّا الآيات الّتي نحن بصددها فهى أيضا تعرض ربوبية الله سبحانه وتعالى الاّ أنّها ربوبية روحيّة أدبيّة · انّها ربوبيّة معنويّة بحتة ، انّها تعرض ذلك التّكريم الكبير الّذى خصّ الله به الانسان من بين سائر الأنواع ، ألا وهو ترشيح الانسان لخلافة الله في الأرض ·

ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ الفقرتين استهلّتا بذكر الرّبوبيّة حيث جاء في الموضعين :

﴿ ياأيّها النّاس اعبدوا ربّكم ... الآية ﴾

﴿ واذقال ربّك للملائكة انّي جاعل في الأرض خليفة... الآية ﴾

والتّأمّل في نظم هذه الآيات يرشدنا كذلك الى حقيقة أخرى مهمّة، وهى أنّ القطيعة والافساد في الأرض ليس لهما أصل ثابت في هذا الكون . وانّما هى أحوال طارئة لا تلبث أن تنقشع ، والجولة الأخيرة الفاصلة دائما تكون للخير والصّلاح .

ولم يكن جزع الملائكة وقلقهم في أوّل الأمر الّا لخفاء هذه الظّاهرة عليهم ، فلمّا أنبأهم آدم بأسماء ذرّيته الطّيّبين الطّاهرين،الّذين سيصمدون للباطل و يكونون معه دائما في صراع مرير ، عرفوا حقيقة الأمر و أدركوا حكمة الله في ارادته .

ولقد أحسن الامام ابن كثير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿ انّي أعلم مالا تعلمون ﴾ حيث قال :

" أى أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصّنف على المفاسد الّتي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم ، فانّي سأجعل فيهم الأنبياء و أرسل فيهم الرّسل ويوجد منهم الصّدّيقون والشّهداء والصّالحون والعبّاد والزّهّاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبّون له تبارك وتعالى المتّبعون رسله صلوات الله و سلامه عليهم . " (١)

ولقد سبقه قتادة الى هذا التّأويل حيث قال :

" فكان في علم الله أنّه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون و ساكنو الجنّة . " (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير : ٦٩/١

(٢) تفسيرابن كثير : ٧٢/١ ، والمحرّر الوجيز: ٢٢١/١ - ٢٢٢

وعلى هذا فانّ تلك الآيات توحي بنظمها أنّ هذا التّكريم الّذى خصّ الله به آدم ليس للمفسدين الفاسقين منه نصيب ، فانّ الخلافة ليست افسادا في الأرض ولا نقضا للميثاق ، وانّما هى العبادة والتّقوى والايمان بما أنزل الله ٠

هذا اجمال القول في تأويل تلك الآيات وفي ايحاءات نظمها ٠ و سنردف ذلك الاجمال بشيء من الايضاح و التفصيل ، فانّ النّاس تحيّروا تحيّرا عجيبا في تأويل تلك الآيات ، فيقول ـ مثلا ـ صاحب تفسير البحر المحيط وهو بصدد تأويل قوله تعالى : ﴿ واذ قال ربّك للملائكة انّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ :

" وخطاب الله الملائكة بقوله انّي جاعل في الأرض خليفة ان كان للملائكة الّذين حاربوا مع ابليس الجنّ فيكون ذلك عامّا بأنّه رافعهم الى السّماء ومستخلف في الأرض آدم و ذرّيّته * وروى ما يدلّ على ذلك عن ابن عبّاس وهو ما ملخّصه أنّ الله أسكن الملائكة السماء والجنّ الأرض فعبدوا دهرا طويلا ثمّ أفسدوا و حسدوا فاقتتلوا فبعث الله لهم جندا من الملائكة رأسهم ابليس وكان أشدّهم وأعلمهم فهبطوا الأرض وطردوا الجنّ الى شعف الجبال و بطون الأودية و جزائر البحور وسكنوها و خفّف عنهم العبادة و أعطى الله ابليس ملك الأرض وملك سماء الدّنيا وخزانة الجنّة فكان يعبد تارة في الأرض و تارة في الجنّة فدخله العجب وقال في نفسه ما أعطاني الله هذا الّا لأنّي أكرم الملائكة عليه فقال الله تعالى له ولجنوده : انّي جاعل في الأرض خليفة بدلا منكم ورافعكم الىّ ، فكرهوا ذلك لأنّهم كانوا أهون الملائكة عبادة ، وقالوا أتجعل الآية ، وان كان الملائكة جميع الملائكة فسبب القول ارادة الله أن يطلع الله الملائكة على ما في نفس ابليس من الكبر وأن يظهر ما سبق عليه في علمه * روى عن ابن عبّاس وعن السدّى عن أشياخه وأن يبلو طاعة الملائكة قاله الحسن ، أو أن يظهر عجزهم عن الاحاطة بعلمه ، أو أن يعظم آدم بذكر الخلافة قبل وجوده ليكونوا مطمئنّين له اذا وجدوا

أو أن يعلمهم بخلقه ليسكن الأرض ، وان كان ابتداء خلقه في السماء أو أن يعلمنا أن نشاور ذوى الأحلام منّا وأرباب المعرفة اذ استشار الملائكة اعتبارا لهم مع علمه بحقائق الأشياء ، أو أن يتجاوز الخطاب بما ذكر فيحصل منهم الاعتراف والرجوع عمّا كانوا يظنّون من كمال العلم ،أو أن يظهر علوّ قدر آدم في العلم بقوله لآدم أنبئهم بأسمائهم ، أو أن يعلّمنا الأدب معه وامتثال الأمر عقلنا معناه أو لم نعقله لتحصل بذلك الطّاعة المحضة ، أو أن تطمئنّ قلوب الملائكة حين خلق الله النّار فخافت و سألت لمن خلقت هذا قال لمن عصاني اذلم يعلموا وجود خلق سواهم قاله ابن زيد."(١)

هذا ما يفيدنا أبوحيّان في تأويل قوله تعالى : ﴿ واذقال ربّك للملائكة انّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ والّذى نلاحظه فيما ذكره - رحمه الله - من الوجوه أنّها لا تعتمد على أصل ولا تستند الى دليل .

ولعلّ هذا هو السبب في أنّه - رحمه الله - سرد هذه الوجوه سردا ، من غير أن يميل الى واحدة منها ميلا .

ولا بأس بأن نشير هنا الى ما يوجد في تلك الوجوه من نقاط الضّعف ، فنقول :

النّقطة الأولى :

انّ الحكاية الّتي تنسب الى ابن عبّاس من أنّ الجنّ هم الّذين كانوا يعمرون هذه الأرض قبل آدم ثمّ أفسدوا فيها فطردوا الى شعاف الجبال و بطون الأودية ، ثمّ خلق آدم ليخلفهم فيها ، إنّ هذه الحكاية بجميع تفاصيلها أشبه ماتكون بالأساطير. ومن الصّعب جدّا جدّا أن نصدّق نسبتها الى سيّدنا ابن عبّاس - رضى الله عنهما - وما ألجأ النّاس الى قبول هذه الحكاية الاّ قلّة امعانهم في معنى (الخليفة)، فهم ظنّوا - وقد ظنّوا خطأ - أنّ آدم لا يكون خليفة في الأرض الاّ اذا كان قد سبقه بعمارة الأرض قوم آخرون .

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١٤٠/١ - ١٤١

تحقيق معنى الخليفة :

فلنعلم أنّ القرآن اذا أراد أن يؤدّي هذا المعنى ـ وهو مجيءُ قوم بعد قوم ـ فانّه يستعمل له صيغة الجمع ـ خلائف أو خلفاء ـ وأمّا كلمة (الخليفة) فانّه لا يستخدمها في هذا السياق .

وسيتّضح ذلك بالأمثلة ، قال تعالى :

﴿ و هو الّذي جعلكم خلائف الأرض ... ﴾ (١)

﴿ ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (٢)

﴿ وجعلناهم خلائف وأغرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا ﴾ (٣)

﴿ هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ﴾ (٤)

﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ (٥)

﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض ﴾ (٦)

﴿ أمّن يجيب المضطرّ اذا دعاه و يكشف السّوء و يجعلكم خلفاء الأرض ﴾ (٧)

فهذه الآيات كلّها تستخدم كلمة (الخلفاء أو الخلائف) للمعنى الّذي أشرنا اليه وهو مجيءُ قوم بعد قوم .

وأمّا كلمة (الخليفة) فلم يستعملها القرآن الّا في موضعين :

أحدهما تلك الآية الّتي نحن بصدد الحديث عنها : ﴿ واذ قال ربّك للملائكة انّي جاعل في الأرض خليفة ﴾

والآخر ذلك الخطاب الّذي وجّهه الى سيّدنا داوُد :

﴿ يا داوُد انّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين النّاس بالحقّ ﴾ (٨)

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٥

(٢) سورة يونس : ١٤

(٣) سورة يونس : ٧٣

(٤) سورة فاطر : ٣٩

(٥) سورة الأعراف : ٦٩

(٦) سورة الأعراف : ٧٤

(٧) سورة النّمل : ٦٢

(٨) سورة ص : ٢٦

يقول الامام ابن الجوزى - رحمه الله - في تأويل هذه الآية :

" أى : تدبّر أمر العباد من قبلنا بأمرنا فكأنّك خليفة عنّا . "(١)

ويقول - رحمه الله - في تأويل الآية الأولى السابقة :

" وفي معنى خلافة آدم قولان ، أحدهما : أنّه خليفة عن الله تعالى في اقامة شرعه و دلائل توحيده والحكم في خلقه ، وهذا قول ابن مسعود و مجاهد . "(٢)

و روى الطّبرى عن سيّدنا ابن مسعود - رضى الله عنه - أنّه قال في تأويل هذه الآية :

" انّما معناه خليفة منّي في الحكم بين عبادى بالحقّ وبأوامرى، يعني بذلك آدم عليه السّلام ومن قام مقامه بعده من ذرّيّته . "(٣)

ويقول الامام أبو محمّد الفرّاء البغوى :

" والصّحيح أنّه - أى آدم - خليفة الله في أرضه لاقامة أحكامه و تنفيذ قضاياه . "(٤)

ويقول صاحب لباب التّأويل في معاني التّنزيل المعروف بالخازن:

" والصّحيح أنّه - أى آدم - سمّى خليفة لأنّه خليفة الله في أرضه ، لاقامة حدوده و تنفيذ قضاياه . "(٥)

ولقد ورد في الحديث الصّحيح المشهور :

(اللّهمّ أنت الصّاحب في السفر والخليفة في الأهل.)(٦)

أى : أنت الّذى تكلأهم و ترعاهم و تتولّى أمرهم .

و نعرف من هذا الحديث أمرين ، أحدهما :

أنّه لا اشكال في كون المرء خليفة الله في أرضه ، اذا صحّ كون الله خليفته في أهله.

والثاني : انّ كلمة (الخليفة) تتضمّن معنى الملك والسلطة و حرّيّة الرّأى والتّصرف .

---

(١) زاد المسير : ١٢٤/٧ (٢) زاد المسير : ٦٠/١

(٣) تفسير الطّبرى: ١٥٧/١ (٤) تفسير البغوى ، المسمّى : معالم التنزيل : ٣٨/١ (بهامش تفسير الخازن)

(٥) تفسير الخازن ، المسمّى : لباب التأويل : ٣٨/١

(٦) سنن الترمذى: باب ما يقول اذا خرج مسافرا ، ٤٩٧/٥ ، رقم الحديث(٣٤٣٨) . و سنن الدّارمي ، باب في الدعاء اذا سافر ، ص ٦٨٣

وهذا المعنى كما يدلّ عليه هذا الحديث فكذلك تدلّ عليها الآيتان.

ومن هنا حسن استعمال هذه الكلمة لمن يسوس أمر المسلمين و يلي شئونهم و قضاياهم. فالانسان جعل خليفة الله في الأرض، وذلك بأنّه أوتي حظّا ممّا يعتبر من خصائص الألوهيّة وهو الملك و السلطة وحرّية الرأى والتصرف وهذه ميزة لم تحصل لأحد غير الانسان.

النّقطة الثّانية :

انّ حكاية استعمال ابليس على الملائكة وحكاية اعطائه ملك الأرض وملك سماء الدّنيا و خزانة الجنّة حكاية ليس لها قوائم. ونحن لا نجد نظيرا واحدا لما يحكى في شأن ابليس، فربّنا - سبحانه و تعالى - كان خبيرا بفسقه و كفره من أوّل أمره، اذا فكيف يتصوّر أن ينال ابليس عنده هذه الحظوة و هذه المكانة و يستمرّ على ذلك دهرا طويلا، فهذا الشيء يتعارض مع قوله تعالى :

* وماكنت متّخذ المضلّين عضدا. * (١)

ولعلّ الذى أساغ للنّاس هذه الحكاية زعمهم أنّ ابليس كان من الملائكة، استنادا الى قوله تعالى : * واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس * حيث انّ السياق قد استثنى ابليس من الملائكة، فيقول - مثلا - صاحب المحرّر الوجيز :

" وقوله تعالى (الاّ ابليس) نصب على الاستثناء المتّصل لأنّه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية وكان خازنا وملكا على سماء الدّنيا والأرض واسمه عزازيل. " (٢)

ولقد رجّح الطّبرى أيضا قول من قال انّ ابليس كان من الملائكة، وقال :

" ليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه ما يدفع أنّه كان من الملائكة. " (٣)

---

(١) سورة الكهف : ٥١

(٢) المحرّر الوجيز : ١/٢٣١- ٢٣٢

(٣) تفسير الطّبرى : ١/١٨٠

منشأ الوهم :

ونحن نرى أنّ الّذين ذهبوا الى مثل هذا القول على الرّغم من تصريح القرآن بأنّه كان من الجنّ حيث قال تعالى: ﴿ كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه ﴾ (١) انّما ذهب هؤلاء الى مثل هذا القول و تكلّفوا له لأنّهم لم يدركوا السرّ في استثناء ابليس من الملائكة.

والّذى يظهر لنا أنّ هذا الاستثناء جاء على نحو قولنا : جاء القوم الأكلب القرية . فاستثناء الكلب من القوم في هذه الجملة يفيد أنّه لم يبق أحد من القوم الآجاء . وانّما لم يجئ كلب القرية فقط .

وهذه الاحاطة أو هذا الشمول لا يستفاد أبدا لوقلنا مثلا : جاء القوم كلّهم . أو جاء القوم أجمعون . فانّه يبقى الاحتمال مع كلّ من هذه العبارات أنّه ربّما تخلّف واحد أو اثنان .

ولكنّنا اذا قلنا : جاء القوم الأكلب القرية ، قطعنا دابر هذا الاحتمال و جزمنا أنّه لم يبق أحد من النّاس الآقد جاء . وانّما الّذى تخلّف هو كلب القرية فقط .

فهكذا قوله تعالى : ﴿ فسجدوا الآابليس ﴾ يدلّ على الشّمول والاحاطة ، ويفيد أنّه لم يبق أحد من الملائكة الآو سجد. وانّما الّذى لم يسجد هو ابليس فقط . وهذا النّوع من الاستثناء كثير شائع في القرآن و في كلام العرب ، وله فوائد أخرى غير الّتي أشرنا اليها . وليس هذا موضع تفصيلها .

النّقطة الثّالثة :

انّ قوله تعالى : ﴿ انّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ يفيد بأسلوبه أنّ عمارة الأرض بدأت من آدم ، كما يفيد أنّ هذا الخليفة سيكون خليفة الله .

ولو كان الأمر كما يقولون لقيل : (انّي جاعل في الأرض خلفاء من بعد الجنّ) على نحو قوله تعالى : ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ ، ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .

---

(١) سورة الكهف : ٥٠

النّقطــة الرّابعــة :

انّ قوله تعالى : ﴿ انّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ قد سبقته هذه الآية : ﴿ هو الّذى خلق لكم ما في الأرض جميعا ثمّ استوى الى السّماء فسوّاهنّ سبع سموات وهو بكلّ شيءٍ عليم ﴾ وتلك الآية تدلّ بعبارتها أنّ هذه الأرض بجميع ما فيها قد خلقت للانسان ! اذا فمن أين للجنّ أن يسبقوا الانسان الى هذه الأرض ويملكوها و يستمتعوا بها دهرا طويلا حتى يفسدوا فيها و يخرجوا منها ؟!

النّقطــة الخامســة :

انّ هذه الآية تدلّ بنظمها أنّه لم يكن هناك فاصل زمنيّ كبير بين خلق هذه الأرض و خلق من خلقت له هذه الأرض . كما أنّه ليس هناك فاصل في الآيات بين ذكر خلق هذه الأرض و ذكر استخلاف آدم فيها .

* * *

هذه عدّة نقاط اذا وضعناها في اعتبارنا ظهر لنا ضعف الوجه الأول ، الّذى ذكره أبو حيّان في تعليل قول الله للملائكة : ﴿ انّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ .

وأمّا بقيّة الوجوه الّتي ذكرها هو وغيره من المفسّرين - رحمهم الله - في تعليل هذا القول من اختبار طاعة الملائكة أو اطلاعهم على ما في نفس ابليس من الكبر أو اظهار عجزهم عن الاحاطة بعلمه أو تعليمنا مشاورة ذوى الأحلام منّا ، أو اظهار علوّ قدر آدم في العلم أو تطمين قلوب الملائكة أنّهم ليسوا ممّن يدخلون النّار أو ... أو ... أو ... فهذه الوجوه أيضا ليست أحسن حالا من أختها الّتي أسلفنا الكلام عليها . والسّقم الّذى يعمّ هذه الوجوه كلّها هو أنّها لا تستند الى دليل ولا تأوى الى ركن شديد ، وانّما هي خواطر خطرت ببال أصحابها ثمّ أخذت طريقها الى كتب التفسير ، ولم تعرض على المعايير الدّقيقة ، الّتي تبين الغثّ منها من السّمين .

و ستظهر هذه الوجوه كلّها بما فيها وما يرد عليها حين نتابع المشهد و نتأمّل في طبيعة الموقف ·

فماذا قالت الملائكة حين اطّلعوا على هذا القرار ؟

﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء و نحن نسبّح بحمدك و نقدّس لك ﴾

وهنا يثور سؤال : من أين عرفت الملائكة أنّ هذا الخليفة سيفسد في الأرض و يسفك الدّماء ؟

وماذا كانوا يقصدون بقولهم :﴿ ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ﴾ ؟

تأويل قول الملائكة :

يقول صاحب "المحرّر الوجيز" وهو يعالج هذين السؤالين :

" وقوله تعالى : (قالوا أتجعل فيها) الآية · قد علمنا قطعا أنّ الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول وذلك عامّ في جميع الملائكة ، لأنّ قوله تعالى : (لا يسبقونه بالقول) خرج على جهة المدح لهم ، قال القاضي ابن الطّيب : فهذا قرينته العموم فلا يصحّ مع هذين الشّرطين الاّ أن يكون عندهم من افساد الخليفة في الأرض نبأ ومقدّمة ، قال ابن زيد وغيره : انّ الله تعالى أعلمهم أنّ الخليفة سيكون من ذرّيّته قوم يفسدون ويسفكون الدّماء فقالوا لذلك هذه المقالة فهذا امّا على طريق التّعجّب من استخلاف الله من يعصيه ، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه و ينعم عليه بذلك ، وامّا على طريق الاستعظام و الاكبار للفصلين جميعا الاستخلاف و العصيان ، وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره : انّما كانت الملائكة قد رأت و علمت ما كان من افساد الجنّ و سفكهم الدّماء في الأرض فجاء قولهم :(أتجعل فيها) الآية على جهة الاستفهام المحض هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجنّ أم لا ؟ ، وقال آخرون كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنّه يخلق في الأرض خلقا يفسدون و يسفكون الدّماء

فلمّا قال لهم بعد ذلك : (انّي جاعل) (قالوا أتجعل فيها) الآية . على جهة الاسترشاد والاستعلام هل هذا الخليفة هو الّذى كان أعلمهم به قبل أو غيره ؟ " (١)

و يقول - رحمه الله - :

" (ونحن نسبّح) . قال بعض المتأوّلين : هو على جهة الاستفهام كأنّهم أرادوا : ونحن نسبّح بحمدك الآية أم نتغيّر عن هذه الحال .

قال الفقيه القاضي أبو محمّد عبد الحقّ بن عطيّة رضي الله عنه : وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم :(أتجعل). وقال آخرون : معناه التمدّح ووصف حالهم وذلك جائز لهم، كما قال يوسف عليه السّلام : (انّي حفيظ عليم) وهذا يحسن مع التعجّب والاستعظام، لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم : أتجعل وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: (انّي أعلم ما لا تعلمون)، وقال قوم : معنى الآية ونحن ،لو جعلتنا في الأرض واستخلفتنا ،نسبّح بحمدك ، وهذا أيضا حسن مع التعجّب والاستعظام في قولهم أتجعل ؟ " (٢)

هذا ما يقوله ابن عطيّة في تأويل هاتين الجملتين .

ثمّ يتبعه أبو حيّان فيقول بمثل ما قاله ابن عطيّة ويزيد عليه :

" ... وعلى هذه الأقوال يكون علمهم بذلك قد سبق امّا باخبار من الله أو بمشاهدة في اللّوح أو يكون مخلوق غيرهم وهم معصومون أو قالوا ذلك بطريق القياس على من سكن الأرض فأفسد قبل سكنى الملائكة أو استنبطوا ذلك من لفظ خليفة اذ الخليفة من يكون نائبا في الحكم، وذلك يكون عند التظالم * وقيل هو استفهام محض قاله أحمد بن يحيى وقدّره أتجعل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجنّ أم لا ، و فسّره أبو الفضل البجلي أى أم تجعل من لا يفسد ، وقدّره غيرهما ونحن نسبّح بحمدك أم نتغيّر؟" (٣)

---

(١) المحرّر الوجيز : ٢١٨/١ - ٢١٩
(٢) المحرّر الوجيز : ٢٢٠/١
(٣) تفسير البحر المحيط : ١٤٢/١

و يقول - رحمه الله - وهو يتناول المسألة الثّانية :

" ولمّا كان ظاهر قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك) ممّا لا يناسب أن يجاوبوا به لله اذ قال لهم (انّي جاعل في الأرض خليفة)* وكان من القواعد الشرعيّة والعقائد الاسلاميّة عصمة الملائكة من المعاصي والاعتراض، لم يخالف في ذلك الا طائفة من الحشويّة، وهى مسئلة يتكلّم عليها في أصول الدّين، ودلائلها مبسوطة هناك، احتاج أهل العلم الى اخراج الآية السابقة عن ظاهرها، وحملها كلّ قائل ممّن تقدّم قوله على ما سنح له وقوى عنده من التأويل الّذى هو سائغ في علم اللسان * وقال بعض أهل الاشارات : الملائكة لمّا توهّموا أنّ الله تعالى أقامهم في مقام المشورة، بان لهم وجه المصلحة في بقاء الخلافة فيمن يسبّح ويقدّس ، وأن لا ينقلها الى من يفسد فيها ويسفك ، فعرضوا ذلك على الله، وكان ذلك من جملة النّصح في الاستشارة ، والنّصح في ذلك واجب على المستشار، والله تعالى الحكم فيما يمضي من ذلك ويختار . (ومن أندر) ماوقع في تأويل الآية ما ذهب اليه صاحب كتاب " فكّ الأزرار" وهو الشيخ صفيّ الدّين أبوعبد الله الحسين ابن الوزير أبي الحسن علّي ابن أبي المنصور الخزرجي ، قال في ذلك الكتاب : ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوع من الاعتراض وهم منزّهون عن ذلك * والبيان أنّ الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين، وكان ابليس مندرجا في جملتهم، فورد منهم الجواب مجملا ، فلمّا انفصل ابليس عن جملتهم باباءه وظهور ابليسيّته واستكباره، انفصل الجواب الى نوعين :

فنوع الاعتراض منه كان عن ابليس، وأنواع الطّاعة والتسبيح والتقديس كان عن الملائكة ، فانقسم الجواب الى قسمين كانقسام الجنس الى جنسين، وناسب كلّ جواب من ظهر عنه ، والله أعلم ، انتهى كلامه ، وهو تأويل حسن، وصار شبيها بقوله تعالى: (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) لأنّ الجملة كلّها مقولة والقائل نوعان ، فردّ كلّ قول لمن ناسبه * "(1)

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١٤٣/١ - ١٤٤

ولقد حاول أبو السّعود أيضا أن يدلي بدلوه في تحريرهذا الموضوع فقال :

" وأنت خبير بأنّ مدارتعجّبهم ليس خلق من يفسد في الأرض ، كيف لا وان مايعقبه من الجملة الحاليةالنّاطقة بدعوى أحقّيّتهم منه يقضي ببطلانه حتما اذ لا صحّة لدعوى الأحقّية منه بالخلق وهم مخلوقون بل مداره أن يستخلف لعمارةالأرض واصلاحها باجراء أحكام الله تعالى وأوامره ، أو يستخلف مكان المطبوعين على الطّاعةمن شأن بني نوعه الافساد و سفك الدّماء وهو عليه السلام وان كان منزّها عن ذلك الاّ أنّ استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريّته الّتي لا تخلو عنه غالبا . وانّما أظهروا تعجّبهم استكشافا عمّا خفى عليهم من الحكم الّتي بدت على تلك المفاسد و ألغتها ، واستخبارا عمّا يزيح شبهتهم ويرشدهم الى معرفة مافيه عليه السلام من الفضائل الّتي جعلته أهلا لذلك كسؤال المتعلّم عمّا ينقدح في ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه ولا شكّا في اشتماله على الحكمة و المصلحة اجمالا ولا طعنا فيه عليه السلام ولا في ذريّته على وجه الغيبة ، فانّ منصبهم أجلّ من أن يظنّ بهم أمثال ذلك ، قال تعالى : بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * وانّما عرفوا ما قالوا امّا باخبار من الله تعالى حسبما نقل من قبل ، أو بتلقّ من اللّوح ، أو باستنباط عمّا ارتكز في عقولهم من اختصاص العصمة بهم ، أو بقياس لأحد الثّقلين على الآخر . " (١)

ويزيد – رحمه الله – فيقول :

" (ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك) جملة حاليةمقرّرة للتعجّب السابق ومؤكّدة له على طريقة قول من يجدّ في خدمةمولاه وهو يأمر بها غيره اتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها ، كأنّه قيل : أتستخلف من من شأن ذريّته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا ، والمقصود عرض أحقّيتهم منهم بالخلافة واستفسار عمّا رجّحهم عليهم مع ما هو متوقّع منهم

---

(١)تفسير أبي السعود : ١/١٠١

من الموانع ، لا العجب والتفاخر، فكأنّهم شعروا بما فيهم من القوّة الشّهويّة الّتي رذيلتها الافراطيّة الفساد في الأرض . والقوّة الغضبيّة الّتي رذيلتها الافراطيّة سفك الدّماء فقالوا ما قالوا ، وذهلوا عمّا اذا سخّرتهما القوّة العقليّة ومرّنتهما على الخير يحصل بذلك من علوّ الدّرجة ما يقصر عن بلوغ رتبة القوّة العقليّة عند انفرادها في أفاعيلها كالاحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيّات واستنباط الصّناعات واستخراج منافع الكائنات من القوّة الى الفعل ، وغير ذلك ممّا نيط به أمر الخلافة . " (١)

الاشكالات الواردة على ما قيل :

هذه ثلاث محاولات لثلاثة من أعلام المفسّرين - رحمهم الله - في تحرير هذا الموضوع . وحين ننظر في هذه المحاولات ونتأمّل فيها تثور في أنفسنا عدّة اشكالات وهي كما يلي :

١ - من أين لنا أن نعرف أنّ الله تعالى قد أعلم الملائكة أنّ الخليفة سيكون من ذرّيّته قوم يفسدون ويسفكون الدّماء ، أو أعلمهم مسبقا أنّه يخلق في الأرض خلقا يفسدون ويسفكون الدّماء ؟ فانّ القرآن لا يشير الى ذلك . بل أسلوبه يصرف عن ذلك . وليس هناك شيء ثابت عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - حتى نعتبره بيانا مأمونا لما أجمله القرآن . ولو افترضنا الأمر كذلك فهل يكون له معنى غير أن يقال : انّ أبرز صفة في هذا الخليفة هو الافساد وسفك الدّماء ؟! ولذلك لم يذكر للملائكة الّا أنّهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدّماء !!

٢ - كيف سمحت الملائكة لأنفسهم أن يقيسوا هذا الخليفة على من سبقه من مفسدي الجنّ . فانّ الجنّ خلقوا من نار السّموم ، وهذا الخليفة خلق من طين . وشتّان بين طبيعة النّار وطبيعة الطّين ! وما أبعد أن يقاس أحدهما على الآخر !

---

(١) تفسير أبي السعود : ١/١٠١ - ١٠٢

٣ ـــ ما يدرى الملائكة أنّ هذا الخليفة سيملك القوة الشهويّة الّتي رذيلتها الافراط فيها الفساد في الأرض ، والقوة الغضبيّة الّتي رذيلتها الافراطيّة سفك الدّماء . حتى يستنبطوا من ذلك أنّه سيكون سببا في الافساد و سفك الدّماء ؟ فانّ الله تعالى لم يخبرهم بذلك ، وانّما الّذى أخبرهم به هو أنّه سيخلق بشرا من طين .

٤ ـــ من أين ارتكز في عقول الملائكة اختصاص العصمة بهم ، حتّى يتّهموا غيرهم بالافساد و سفك الدّماء ؟ وأنّى لنا أن نعرف أنّ الأمر كان كذلك ؟ !

٥ ـــ انّ المكانة الّتي خصّ الله بها الملائكة في هذا الكون الهائل العظيم ليست أقلّ شأنا من أن يكونوا خلفاء الجنّ في هذه الأرض ، بل لعلّها أعزّ و أشرف و أخطر شأنا من هذه الخلافة ألف مرّة ، فهل من الممكن أو من المعقول أن يزهد الملائكة في مكانتهم تلك و يرغبوا عنها أو يزدروها حتّى يروعهم و يقلق بالهم أنّ ربّهم آثر غيرهم بأن يكون خليفة في الأرض ؟ !

٦ ـــ لا شكّ أنّ الملائكة يسبّحون لربّهم باللّيل والنّهار وهم لا يفترون ولا يسأمون . فقد شهد القرآن بذلك ، وشهدت به الأحاديث الصّحيحة الثّابتة ، ويعتبر هذا الأمر من المسلّمات عند الجميع . ولكن مع ذلك فهل يتصوّر أن ينوّه الملائكة هم أنفسهم بطاعتهم وعبادتهم أو بتسبيحهم و تقديسهم ، و يستدلّوا بذلك على أحقّيّتهم بالخلافة ؟ ! كلاّ ثمّ كلاّ !!

ولعلّ هذا الاشكال هو الّذى حمل من حمل على أن يقول ، انّ قوله تعالى (ونحن نسبّح) جاء على جهة الاستفهام ، كأنّهم أرادوا : ونحن نسبّح بحمدك الآية أم نتغيّر عن هذه الحال ؟ ولكنّ الّذين قالوا ذلك كانوا أشبه حالا بالمستجير من الرّمضاء بالنّار !

يقول أبوحيّان : " وقد أبعد من ذهب الى أنّ هذه الجملة من قوله : ونحن نسبّح استفهاميّة حذف منها أداة الاستفهام ، وانّ التقدير : أونحن نسبّح

بحمدك أم نتغيّر بحذف الهمزة من غير دليل و بحذف معادل الجملة المقدّرة دخول الهمزة عليها ، وهي قوله أم نتغيّر ؟ " (١)

٧ ــ انّ القرآن واضح صريح في أنّ قوله تعالى ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدّماء ﴾ من كلام الملائكة فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نؤوّله الى قول ابليس ؟ ولا ندرى كيف استساغ الامام أبو حيّان مثل هذا القول واستحسنه ثمّ التمس له مايبرّر ذلك !

تلك عيون الاشكالات أو التّساؤلات الّتي تثورفي نفس الباحث اذا تأمّل في تلك المحاولات الثلاث الّتي بذلت في سبيل تحرير هذا الموضوع . وليس الأمر مقصورا على تلك المحاولات الثّلاث ، فبقيّة المحاولات أيضا لا تختلف في وضعها عن هذه المحاولات .

وهنا يبرز سؤال : فماهي الصّورة الصّحيحة الواضحة لهذا الموقف ؟

ونحن سنحاول أن نجلّى تلك الصورة الصحيحة الواضحة للموقف باذن الله ، الاّ أنّنا نريد قبل ذلك أن ندرس مذاهب النّاس في تأويل (الأسماء) الّتي ورد ذكرها في الآية التّالية :

﴿ وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . ﴾

فالاطّلاع على تأويل تلك الأسماء سيساعدنا في التّوصّل الى مانرومه باذن الله .

ماقيل في تأويل الأسماء :

يقول ابن عطيّة ــ رحمه الله ــ :

" واختلف المتأوّلون في قوله تعالى : (الأسماء) ، فقال جمهور الأمة : علّمه التّسميات ، وقال قوم : عرض عليه الأشخاص . والأول أبين ، ولفظة علّمه تعطي ذلك . ثمّ اختلف الجمهورفي أى الأسماء علّمه ؟ ، فقال ابن عباس وقتادة و مجاهد : علّمه اسم النّجوم فقط ،

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١٤٣/١

وقال الربيع بن خثيم : علّمه أسماء الملائكة فقط ، وقال ابن زيد : علّمه أسماء ذرّيّته فقط ، وقال الطّبرى : علّمه أسماء ذرّيّته والملائكة ، واختار هذا و رجّحه بقوله تعالى : ﴿ ثمّ عرضهم ﴾ وحكى النّقاش عن ابن عباس : أنّه تعالى علّمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء ، وقال آخرون : علّمه أسماء الأجناس كالخيل و الجبال والأودية ونحو ذلك دون أن يعين ما سمّته ذريته منها ، وقال ابن قتيبة : علّمه أسماء ماخلق في الأرض ، وقال قوم : علّمه الأسماء بلغة واحدة ثمّ وقع الاصطلاح من ذريته في سواها ، وقال بعضهم : بل علّمه الأسماء بكلّ لغة تكلّمت بها ذريته. وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جنّي عن أبي عليّ الفارسيّ أنّه قال : علّم الله تعالى آدم كلّ شيئ حتّى أنّه كان يحسن من النّحو مثلما أحسن سيبويه و نحو هذا من القول الّذى هو بيّن الخطأ من جهات. وقال أكثر العلماء : علّمه تعالى منافع كلّ شيئ و لما يصلح ، وقال قوم : عرض عليه الأشخاص عند التعليم ، وقال قوم : بل وصفها له دون عرض أشخاص ، وهذه كلّها احتمالات قال النّاس بها . " (١)

ويقول أبو حيّان - رحمه الله - :

" لمّا أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في خلق آدم و ذرّيته على سبيل الاجمال أراد أن يفصّل فبيّن لهم من فضل آدم مالم يكن معلوما لهم ، وذلك بأن علّمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم فتأكّد الجواب الاجماليّ بالتفضيل . " (٢)

و يقول - رحمه الله - :

" وفيما علّمه أقوال * أسماء جميع المخلوقات قاله ابن عباس وابن جبير و مجاهد و قتادة * أو اسم ماكان وما يكون الى يوم القيامة وعزى الى ابن عباس وهو قريب من الأول ، أو جميع اللّغات ثمّ كلّم كلّ واحد من بنيه بلغة فتفرّقوا في البلاد واختصّ كلّ فرقة بلغة، أو كلمة واحدة

---

(١) المحرّرالوجيز : ١/٢٢٢ - ٢٢٣ (٢) تفسيرالبحرالمحيط: ١/١٤٥

تفرّع منها جميع اللّغات ، أو أسماء النّجوم فقط قاله ابن عبّاس ومجاهد وقتادة ، أو أسماء الملائكة فقط قاله الربيع بن خثيم ، أو أسماء ذريّته قاله الربيع بن زيد ، أو أسماء ذريته والملائكة قاله الطّبرى واختاره ، أو أسماء الأجناس الّتي خلقها علّمه أنّ هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا وعلّمه أحوالها وما يتعلّق بها من المنافع الدّينيّة والدّنيويّة واختاره الزمخشرى ، أو أسماء ما خلق في الأرض قاله ابن قتيبة ، أو الأسماء بلغة ثمّ وقع الاصطلاح من ذريته في سواها ، أو علّمه كلّ شيء حتى نحو سيبويه قاله أبو علي الفارسي ، أو أسماء الله عزّوجلّ قاله الحكيم الترمذى ، أو أسماء من أسمائه المخزونة فعلم بها جميع الأسماء قاله الجريرى ، أو التسميات ومعنى هذا علّمه أن يسمّى الأشياء وليس المعنى علّمه الأسماء لأنّ التسمية غير الاسم قاله الجمهور . " (١)

ويقول أبو السعود - رحمه الله - :

" الاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه الى الذهن من الألفاظ والصّفات والأفعال واستعماله عرفا في اللّفظ الموضوع لمعنى مفردا كان أو مركّبا ، مخبرا عنه أو خبرا أو رابطة بينهما واصطلاحا في المفرد الدّال على معنى في نفسه غير مقترن بالزمان والمراد هنا امّا الأول أو الثّاني وهو مستلزم للأول اذ العلم بالألفاظ من حيث الدّلالة على المعاني مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة عبارة عن فعل يترتّب عليه العلم بلا تخلّف عنه ولا يحصل ذلك بمجرّد افاضة المعلّم بل يتوقّف على استعداد المتعلّم لقبول الفيض وتلقّيه من جهته كما مرّ في تفسير الهدى ، وهو السرّ في ايثاره على الاعلام والانباء فانّهما انّما يتوقّفان على سماع الخبر الّذى يشترك فيه البشر والملك وبه تظهر أحقّيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أنّ جبلّتهم غير مستعدّة للاحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبرا . فمعنى تعليمه

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١/١٤٥ - ١٤٦

تعالى اياه أن يخلق فيه اذ ذاك بموجب استعداده علما ضروريّا تفصيليا بأسماء جميع المسمّيات وأحوالها وخواصّها اللائقة بكلّ منها، أو يلقى في روعه تفصيلا انّ هذا فرس وشأنه كيت وكيت وذاك بعير وحاله ذيت وذيت الى غير ذلك من أحوال الموجودات فيتلقّاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرّعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة، قال ابن عبّاس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم علّمه أسماء جميع الأشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وأنحى منفعة كلّ شيء الى جنسه. وقيل أسماء ماكان وماسيكون الى يوم القيامة، وقيل معنى قوله تعالى وعلّم آدم الأسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعدّا لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيّلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصّها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصّناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيّات استعمالاتها، فيكون مامر من المقاولة قبل خلقه عليه السلام، وقيل: التعليم على ظاهره ولكنّ هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقه فسوّاه ونفخ فيه الروح وعلّمه الخ. " (١)

تساؤلات حول تلك التّأويلات:

هذه هي مذاهب النّاس في تأويل تلك الأسماء الّتي تعلّمها آدم من ربّه.

واذا تأمّل المتأمّل في هذه التّأويلات فانّه يجد نفسه أمام عدد من التساؤلات:

١ ــ لماذا عُلِّم آدم هذه الأسماء؟

٢ ــ هل عُلِّمها ليَظهر شرفه على الملائكة؟ فهذه الأسماء ليست مناط شرف عند الله، وقد قال تعالى: ﴿ انّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

٣ ــ أم علّمها ليقتنع الملائكة بكفاءته للخلافة؟ فالملائكة

---

(١) تفسير أبي السعود: ١٠٣/١ ــ ١٠٤

ماكانوا ليقتنعوا بكفاءته لكونه عالما بأسماء الخيل والجبال والأودية، أو لكونه عالما بمصالح الحياة ومنافع الأشياء، أو لكونه عالما بقوانين الصّناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيّات استعمالاتها، وما الى ذلك ممّا ذكره المفسّرون - رحمهم الله - ، فانّه لم يكن مبعث قلقهم أنّ هذا الخليفة سينقصه العلم وسعة الاطّلاع ولا يكون مزوّدا بما يضمن له النّجاح في تسيير دفّة الحياة، وانّما الّذى أقلقهم هو أنّه يفسد في الأرض ويسفك الدّماء .

٤ - أم علّمها لأنّها تتّصل اتّصالا مباشرا بمهمّة الخلافة، وما كان لآدم أن يقوم بتلك الأمانة لولا أنّه زوّد بعلم تلك الأسماء ؟

ولئن أجبنا على هذا السّؤال بنعم فهذا لا يعني الاّ أنّ تلك العلوم الّتي ذكرها المفسّرون - رحمهم الله - أكبر أهمية عند الله من العلم الّذى نزلت به الكتب وجاءت به الأنبياء !! ولذلك زوّد هذا الخليفة بتلك العلوم قبل أن يزوّد بالكتاب والنّبوة .

ثمّ ان كان آدم قد زوّد بتلك العلوم قبل أن يزوّد بأىّ شيء آخر فلماذا لم يزوّد بها من خلف من بعده من الأنبياء والرسل ؟ فانّ الأمر كان يقتضي أن يكون خلفاؤه قدوة واماما في تلك العلوم ان كان هو قدوة واماما في تلك العلوم !

ولكنّ الأمر كان على العكس كما يتبيّن ممّا رواه مسلم حيث قال : حدّثنا أبوبكر بن أبي شيبة وعمرو النّاقد، كلاهما عن الأسود بن عامر. قال أبوبكر : حدّثنا أسود بن عامر حدّثنا حمّاد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة وعن ثابت، عن أنس، أنّ النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - مرّ بقوم يلقّحون فقال :(لولم تفعلوا لصلح) قال فخرج شيصا فمرّبهم فقال (مالنخلكم ؟) قالوا : قلت كذا وكذا . قال : (أنتم أعلم بأمر دنياكم) .[1]

---

(١) كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره - صلّى الله عليه وسلّم - من معايش الدّنيا على سبيل الرأى، ١٨٣٦/٢ ، رقم الحديث (٢٣٦٣) .
(فخرج شيصا) هو البسر الرديء الّذى اذا يبس صار حشفا .

٥ ـ ثمّ ان كان آدم خليفة من سبقه من الجنّ في عمارة الأرض أليس ذلك يدلّ على أنّ الجنّ أيضا علّموا في فترتهم تلك الأسماء الّتي علّمها آدم في نوبته ، وهم أيضا زوّدوا بالأمس بكلّ ما زوّد به اليوم آدم ؟ فانّ اتّحادهما في المهمّة والمجال يوجب اتّحادهما في قدراتهما ومواهبهما .

ولكنّ الّذى حدث يدلّ على غير ذلك ، فانّ ابليس أيضا لم ينبئ بتلك الأسماء ، كما لم تنبئ بها الملائكة .

وهذا يدلّ على أحد أمرين ؛ فامّا أن نقول انّ تلك الأسماء لم تكن لها صلة بمهمّة الخلافة حتّى يعلمها كلّ من خلعت عليه الخلافة ، أو نقول انّ آدم كان أوّل خليفة في الأرض فلذلك كان أوّل من علّم تلك الأسماء .

٦ ـ لقد حكى ابن عطيّة عن الجمهور أنّ المراد بتعليم آدم الأسماء تعليمه التسميات .(١)

ويقول أبو حيّان وهو يذكر ما قيل في تأويل (الأسماء) :

" ... أو التسميات ومعنى هذا علّمه أن يسمّى الأشياء وليس المعنى علّمه الأسماء ، لأنّ التسمية غير الاسم قاله الجمهور ."(٢)

ونرى الاستاذ سيّد قطب ـ رحمه الله ـ أيضا قد وضع ثقله في كفّة هذا التأويل حيث قال :

" ها نحن أولاء ـ بعين البصيرة في ومضات الاستشراف ـ نشهد ما شهده الملائكة في الملأ الأعلى .. ها نحن أولاء نشهد طرفا من ذلك السرّ الالهيّ العظيم الّذى أودعه الله هذا الكائن البشرى ، وهو يسلمه مقاليد الخلافة . سر القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات . سر القدرة على تسمية الأشخاص والأشياء بأسماء يجعلها ـ وهى ألفاظ منطوقة ـ رموزا لتلك الأشخاص والأشياء المحسوسة . وهى قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الانسان على الأرض . ندرك قيمتها حين نتصوّر الصّعوبة الكبرى ،

---

(١) المحرّر الوجيز : ٢٢٢/١ (٢) تفسير البحر المحيط: ١٤٦/١

لولم يوهب الانسان القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات ، والمشقّة في التفاهم والتعامل ، حين يحتاج كلّ فرد لكى يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه .. الشأن شأن نخلة فلا سبيل الى التفاهم عليه الاّ باستحضار جسم النّخلة ! الشأن شأن جبل . فلا سبيل الى التفاهم عليه الاّ بالذهاب الى الجبل ! الشأن شأن فرد من النّاس فلا سبيل الى التفاهم عليه الاّ بتحضير هذا الفرد من النّاس ... انّها مشقّة هائلة لا تتصوّر معها حياة ! وانّ الحياة ما كانت لتمضى في طريقها لولم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات .

فأمّا الملائكة فلا حاجة لهم بهذه الخاصية ، لأنّها لا ضرورة لها في وظيفتهم . ومن ثمّ لم توهب لهم . فلمّا علّم الله آدم هذا السرّ ، وعرض عليهم ما عرض لم يعرفوا الأسماء . لم يعرفوا كيف يضعون الرموز اللّفظيّة للأشياء والشخوص .. وجهروا أمام هذا العجز بتسبيح ربّهم ، والاعتراف بعجزهم ، والاقرار بحدود علمهم ، وهو ما علمهم .. وعرف آدم .. ثمّ كان هذا التعقيب الّذى يردهم الى ادراك حكمة العليم الحكيم :

" قال : ألم أقل لكم : انّي أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ " .. (١)

وهنا يثور سؤال : هل يصحّ تأويل (الأسماء) الى القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات ؟

فانّ (الأسماء) جمع الاسم . والاسم غير التسمية . ولم نعثر على شاهد واحد لاستعمال الاسم بمعنى التسمية .

ويتأكّد لدينا هذا الاشكال حين نتأمّل في قوله تعالى :(كلّها) فانّ تلك الزيادة تؤكّد في (الأسماء) معنى الاستيعاب والاستغراق . ولا تظهر لهذا التوكيد أيّة فائدة اذا أوّلنا (الأسماء) الى معنى التسمية .

ثمّ القدرات كلّها ، ومنها القدرة على التسمية ، لم توضع في آدم الاّ في أثناء خلقه ، وأمّا هذا التعليم الّذى تذكره الآية (وعلّم آدم الأسماء كلّها ... الآية) فانّه لم يتمّ الاّ بعد خلقه ، بعدما أعربت الملائكة عن قلقهم

---

(١) في ظلال القرآن : ٥٧/١

في شأنه . اذا فكيف يصحّ تأويل هذا التعليم الى ايجاد القدرة فيه على التسمية ؟

ثمّ القول بأنّ القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات ممّا يتميّز به الانسان على غيره قول لا ينهض به دليل .

فما الّذى يدرينا أنّ الملائكة لم توهب لهم هذه الخاصية ؟

واذا كانت الملائكة لم توهب لهم هذه الخاصية ، فهم كيف يدبّرون أمر هذا الكون الهائل الرحيب ؟

وكيف يراقبون هذه البشرية الهائلة وكيف يكتبون حركاتها وسكناتها ؟

فان كنّا نعتقد أنّ الملائكة ليست وظيفتهم التسبيح والتقديس المجرّد بل من وظيفتهم أيضا تدبير هذا الكون ، فانّ تدبير هذا الكون الواسع الرحيب لا يتمّ أبدا الاّ بالمقدرة الفائقة على التسمية وعلى الرمز بالأسماء للمسمّيات .

ثمّ الأمر ليس مقصورا على الملائكة ، فقد أثبتت الأبحاث والدّراسات والتّجارب الحديثة وبرهنت أنّ هذه المقدرة الّتي نحسبها من ميزات الانسان وخصائصه تملكها الحيوانات والطّيور أيضا ، حتّى الدّيدان والحشرات الصّغيرة أيضا تتمتّع بهذه القوّة ـ قوّة التسمية والتعبير ـ بشكل مذهل !

والمقام لا يسمح لنا بأن نخوض في تلك الأبحاث والدّراسات القيّمة الّتي تزخر بها المكتبات الحديثة ، ولا ضير ، ففي قرآننا ما يغنينا عن تلك الأبحاث ويعطينا فكرة واضحة عن هذا الموضوع ، فلنتدبّر قوله تعالى :

﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيّها النّاس علّمنا منطق الطّير وأوتينا من كلّ شيء ، انّ هذا لهو الفضل المبين . و حشر لسليمان جنوده من الجنّ و الانس والطّير فهم يوزعون . حتّى اذا أتوا على واد النّمل قالت نملة يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان و جنوده وهم لا يشعرون .

فتبسّم ضاحكا من قولها وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصّالحين. وتفقّد الطّير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذّبنّه عذابا شديدا أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بمالم تحط به و جئتك من سبأ بنبأ يقين . انّي وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كلّ شيءٍ ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله و زيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألاّ يسجدوا لله الّذى يخرج الخبءَ في السّموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا اله الاّ هو ربّ العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثمّ تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون . * (١)

فسيّدنا داود و سيّدنا سليمان قد علّما منطق الطّير. وماكان منطق الطّير ؟ هل كان ذلك خاليا من الأسماء والرموز ؟

ولقد ذكر ربّنا ـ سبحانه وتعالى ـ نموذجين له في تلك الآيات: نموذج لمنطق النّمل و نموذج لمنطق الهدهد .

واذا تأمّلنا في هذين النّموذجين فهل نكاد نصدّق أنّهما من كلام النّمل و كلام الطّير ؟ ولكنّهما ـ بالخبر اليقين ـ من كلام النّمل وكلام الطّير .

فهذا الشبه الشديد بين منطق الانسان ومنطق الطّير لا يدع لنا مجالا للقول بأنّ القدرة على التسمية أو القدرة على الرمز بالأسماء للمسمّيات ممّا يخصّ الانسان دون غيره من الخلائق .

اذا فهذا التأويل الّذى ينسب الى الجمهور لا يخلو من ضعف .

وبعد هذه الدّراسة السريعة الوافية لما قيل في تأويل تلك الآيات ، نريد أن ندلى بدلونا في تحرير هذا الموضوع ، ونريد أن نجلى الصّورة الصّحيحة الواضحة للموقف ، والله ولىّ التوفيق .

---

(١) سورة النّمل : ١٦ ـ ٢٨

تأويل الآيات كما يمليه علينا السياق :

الّذى يظهر لنا بعد التأمّل الطّويل المتكرّر في سياق تلك الآيات هو أنّ ربّنا ـ سبحانه وتعالى ـ لمّا أعلم الملائكة بقرار جعل الخليفة في الأرض استغربوه .

ولم يكن السبب في استغرابهم أنّهم حسبوه منقصة لشأنهم وغضّا من مكانتهم وايثارا لغيرهم عليهم كما قيل .

وانّما كان السبب في استغرابهم أنّهم كانوا يدركون معنى الخليفة . إنّهم كانوا يدركون جيّدا أنّ الخلافة تعني الملك والسلطة وحرّيّة الرأى و التصرّف . فاذا كان هناك خلق توهب لهم السلطة والحرّية ، فالسلطة والحرّيّة لهما ضراوة ستجرّ ـ ولا محالة ـ الى الافساد و سفك الدّماء .

فهم ظنّوا ذلك من لفظ الخليفة . وقد كانوا المعنيّين في ذلك الظنّ ولا شكّ . الاّ أنّ الصّورة الّتي استلهموها من لفظ (الخليفة) لم تكن هى كلّ المشروع .

فقد كان من تمام المشروع أنّ الله سيمنحهم هذه السلطة والحرية الاّ أنّه لا يلقي حبلهم على غاربهم ولا يتركهم و شأنهم بل يرسل اليهم رسلا ويبعث فيهم الأنبياء ، و يجعل فيهم أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون . ويجعل فيهم قوما يحاربون الفساد و يحافظون على الأرواح ويجاهدون لتمكين الخير و الصّلاح .

فيكون هناك صراع مستمرّ دائم بين الخير والشرّ وبين الحقّ والباطل.

فهذا الجزء من المشروع ظلّ خافيا على الملائكة ، لأنّه لم يكن ممّا يدلّ عليه لفظ (الخليفة) فهم استغربوا هذا القرار ولم يستقبلوه بفرح و استبشار . و أظهروا قلقهم وانزعاجهم و لكن بأسلوب ينبئ بحسن أدبهم مع ربّهم و ينبئ بخضوعهم لمشيئته وارادته :

﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح

بحمدك و نقدّس لك ٠ ﴾

فقولهم : ﴿ ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ﴾ لم يكن تنويها بتسبيحهم وتقديسهم وماكان لهم أن ينوّهوا هم أنفسهم بتسبيحهم و تقديسهم - كما نبّهنا اليه سابقا - وانّما كان ذلك تقريرا لطاعتهم و خضوعهم لمشيئة ربّهم وكان دفعا لما قد يوحي سؤالهم هذا من معنى الحرج ممّا قضى الله من جعل الخليفة في الأرض ٠

وأمّا القول بأنّهم كانوا يريدون بذلك عرض أحقّيتهم بالخلافة ، فهذا قول لا يستقيم الّا اذا ثبت أنّ الخلافة الّتي رشّح لها آدم كانت أرفع شأنا و أعظم خطرا من مكانة الملائكة في هذا الكون ، حتّى زهدت الملائكة في مكانتهم تلك و تطلّعوا الى نيل الخلافة في الأرض ٠ والى الآن لم نطّلع على دليل يثبت ذلك ، والّذى اطّلعنا عليه يثبت غير ذلك ، حيث قال تعالى وهو يذكّر الانسان بما حباه به من فضل وكرامة :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ و البحر و رزقناهم من الطّيّبات و فضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلا ٠ ﴾ (١)

فهذه الآية صريحة في أنّ الانسان لم يفضّل على جميع الخلائق و انّما فضّل على كثير منهم ٠

وبالتّالي هى صريحة في أنّ الانسان لم يفضّل على الملائكة ، فانّه لوكان فضّل عليهم لكان قد فضّل على الجميع ٠ حيث انّه لا يبقى بعدهم من يقال بفضله على الانسان ٠

قد يقال : انّ الله تعالى أسجد الملائكة لآدم وهذا دليل على شرفه و فضله عليهم ٠

ونحن نقول : انّه دليل على شرفه وكرامته ، ودليل على رفيع شأنه و عظيم مكانته - ولا شكّ - ولكنّه ليس دليلا على تفضيله عليهم ٠ فالتكريم غير التفضيل ٠

---

(١) سورة الاسراء : ٧٠

ومثال ذلك ما حدث ليوسف مع أبويه :

﴿ ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّدا ﴾ ٠ (١)

يقول الامام ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ :

"(وخرّوا له) يعني أبويه و اخوته ٠ وفي هاء (له) قولان ، أحدهما : أنّها ترجع الى يوسف ، قاله الجمهور ٠ قال ابن الأنبارى: سجدوا له على جهة التحيّة ، لا على معنى العبادة ٠ وكان أهل ذلك الدّهر يحيّي بعضهم بعضا بالسجود والانحناء ٠ " (٢)

فسجد سيّدنا يعقوب لابنه سيّدنا يوسف ـ عليهما السلام ـ ولكن لم يستدلّ به أحد على فضل يوسف على سيّدنا يعقوب ٠

اذا فليس لدينا ما يثبت فضل آدم على الملائكة ٠ بل الظاهر أنّ الأمر على العكس ٠ والمقام لا يسمح لنا بأن نسترسل في هذا الموضوع٠

فاذا لم يكن هناك دليل على أنّ الخلافة الّتي رشّح لها آدم كانت أرفع شأنا وأعظم خطرا من مكانة الملائكة في هذا الكون ، فكيف نقول : انّ الملائكة تمنّوا أن ينالوا تلك الخلافة الّتي أرادها الله لآدم ، وأرادوا أن يثبتوا أحقّيتهم بها فقالوا ما قالوا ؟

وانّما القول في ذلك هو ما أسلفناه من أنّ الملائكة لم يريدوا بقولهم ذلك الاّ تقريرا لطاعتهم و خضوعهم لمشيئة الله ٠

فلمّا أبدت الملائكة قلقهم و انزعاجهم لهذا القرار مع الالتزام الكامل بحسن الأدب وحسن الخضوع لمشيئة ربّهم ـ وكان ذلك نتيجة طبيعيّة لفطرتهم البريئة ، الّتي لا ترضى لربّها الاّ الخشوع والبرّ والانقياد ـ أحبّ ربّهم أن يمسح عنهم هذا القلق والانزعاج ، فطمّنهم أوّلا بقوله تعالى : ﴿ انّي أعلم ما لا تعلمون ﴾ أى هوّنوا عليكم واطمئنّوا فانّ الأمر على غير ما قدّرتموه ٠ ولمّا يتّضح لكم القرار على جليّته ٠ ثمّ علّم آدم أسماء ذرّيته ، وكان فيهم الرسل والأنبياء ، وكان فيهم الشهداء والصّدّيقون والصّلحاء ، و رأى آدم الأنبياء والرسل فيهم مثل السرج

---

(١) سورة يوسف : ١٠٠ (٢) زاد المسير : ٤/٢٩٠

عليهم النّور . (١)

ولمّا علّم آدم أسماء ذرّيته الطّيّبين الطّاهرين و عرفهم عرضهم ربّنا ـ سبحانه و تعالى ـ على الملائكة المقرّبين وقال لهم : ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . ﴾ أى ان كنتم صادقين في ظنّكم الّذى ظننتم بهم من أنّهم جميعا يفسدون في الأرض و يسفكون الدّماء . فأنبئوني من هؤلاء ؟ هل تلك الوجوه النّيرة المشرقة الوضيئة أيضا وجوه المفسدين في الأرض !!

ثمّ بعد ذلك أمر آدم أن ينبئهم بأسمائهم ، فأنبأهم آدم ـ مثلا ـ بأنّ هذا نوح ، وذاك ابراهيم . وهذا من أعماله كيت وكيت ، وذاك من بطولاته ذيت و ذيت .

فلمّا علم الملائكة ذلك فرحوا واستبشروا ، واطمأنّوا الى روعة القرار .

وبعد هذا الحوار الّذى جرى بين ربّنا ـ سبحانه وتعالى ـ وبين الملائكة حول خلافة آدم تأتي هذه الآيات :

﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس ، أبى و استكبر وكان من الكافرين . وقلنا ياآدم اسكن أنت و زوجك الجنّة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظّالمين . فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما ممّا كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ . ولكم في الأرض مستقرّ و متاع الى حين . فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه انّه هو التوّاب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فامّا يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والّذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . ﴾

وهذه الآيات ـ كما هو ظاهر من سياقها ـ تكملة للمشهد ، فانّ سجود الملائكة لآدم لم يكن الاّ تطبيقا لفكرة الخلافة في صورتها العمليّة البدائية .

---

(١) انظر زوائد المسند : ١٣٥/٥ ، و سنده حسن موقوف ولكنّه في حكم المرفوع لأنّه لا يقال من قبل الرأى .

وكذلك إسكان آدم في الجنّة لم يكن إلا تدريباً عمليّاً لمهمّة الخلافة ، فقد عرف آدم هناك جسامة المسئوليّة الّتي ألقيت على عاتقه ، كما أدرك تلك الصّعوبات والمحن ، الّتي ستعترض طريقه .

وبعد أن اطّلع آدم على مخاطر الطّريق وعرف كيف ينجو منها اذا وقع فيها ، أهبط من الجنّة الى الأرض وقد زوّد بهذه الوصيّة الغالية :

﴿ فامّا يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والّذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . ﴾

ثمّ القصّة هنا بسياقها وأسلوب عرضها تنبّه على بالغ رعاية الله وعظيم ربوبيته وحسن تكريمه لآدم .

وبيانه أنّ فكرة خلافة آدم لم تلقَ في أوّل أمرها ذلك القبول والترحيب فانّ ملائكة القدس أبدَوا قلقَهم واستغرابَهم حين سمعوا بها ، لأنّهم خافوا من الخليفة ، أنّه سيفسد في الأرض ويسفك الدّماء . فخلق الله آدم ثمّ خلق الصّالحين من ذرّيته ، حتّى يقتنع الملائكة اقتناعاً كاملاً بحكمة ارادة الله وعظمتها ، ويشاهدوا عياناً أنّ الأمر على غير ما قدّروه .

وكان من شدّة تكريمه لآدم أنّه - تعالى - لم ينبئ الملائكة بأسماء ذرّيته ابتداءً ، بل علّم آدم أوّلاً ، ثمّ جعل آدم هو الّذى ينبئهم اظهاراً لفضله واشعاراً بمكانته وجلالة قدره .

ثمّ خصّه بتكريم آخر ، حيث أمر الملائكة كلّهم أن يسجدوا له زيادة في تكريمه وتنويهاً برفيع شأنه ، ولمّا لم يسجد ابليس أنحى باللاّئمة عليه :

﴿ فسجدوا الاّ ابليس ، أبى واستكبر وكان من الكافرين . ﴾

ثمّ أسكنه الجنّة وتركه يتقلّب في نعيمها حيث يشاء . ولمّا أزلّه الشيطان بتحريضه على الأكل من الشجرة الممنوعة وأخرجه ممّا كان فيه

من رغد العيش وطيب المقام أسرعت اليه العناية الالهيّة الحانية وألهمته كلمات تنجيه من سخط الله و ترجعه الى ما كان فيه من رعايته. و وعدته في نفس الوقت أنّ هذه الرعاية وهذه العناية بذرّية آدم ستستمرّ لمن أراد :

* قلنا اهبطوا منها جميعا فامّا يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والّذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . *

وهكذا نرى السياق يحكي القصّة كلّها بأسلوب يوحي بالتّكريم المتواصل والرعاية الدّائمة والعناية البالغة بشأن آدم و ذرّيته .

نظم الآيات (٤٠ ـ ٦٢)

****

وبعد ما ينتهي السياق من ذكر هذه القصّة التّاريخيّة الهامّة يتوجّه بالخطاب الى بني اسرائيل بأسلوب يملأه العطف واللّين ويشوبه الزّجر والموعظة :

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون · وآمنوا بما أنزلت مصدّقا لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا واياى فاتّقون · ولا تلبسوا الحقّ بالباطل و تكتموا الحقّ و أنتم تعلمون · وأقيموا الصّلوة و آتوا الزّكوة واركعوا مع الراكعين · أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون · ﴾

لقد رأينا فيما مضى كيف أكرم الله سبحانه وتعالى آدم و ذرّيته ، وكيف أنعم عليهم وخصّهم بالمنزلة الرفيعة والمكانة العالية في هذا الكون · ولا شكّ أنّه كان لبني اسرائيل من ذلك التكريم ومن تلك النّعم نصيب وافر ، ولكنّهم قابلوه دائما بالعنجهيّة والجحود و الكفران ·

ولقد كانت هذه البعثة الجديدة احدى تلك النّعم ، بل كانت على رأسها ، فانّ الخلافة في الأرض قائمة على أساس هذه الرسالات ، ولا يتصوّر أن ينهض الانسان بتلك الأمانة العظمى بعيدا عن هذه الرسالات ·

بالاضافة الى أنّ بني اسرائيل كانوا يمتّون بصلة خاصّة الى هذه الرسالة الجديدة ، فقد بشّرت بها كتبهم ونادت بها رسلهم منذ قديم الزّمان ، ولقد أخذ منهم العهد والميثاق أن يكونوا أسبق النّاس الى هذا الدّين اذا سمعوا به ، فكان يملي عليهم الواجب أن يكونوا أسرع النّاس اليه ويكونوا أوّل مؤمن به ·

ولكنّهم عكسوا الأمر واتّخذوا موقفا غير الموقف الّذى كان ينتظر منهم ·

فجاءت هذه الآيات تذكّرهم بواجبهم نحو هذه البعثة المباركة، الّتي ما ظهرت الاّ لاتمام النّعمة عليهم باقامة خلافة الله في الأرض في أروع صورة وأكملها .

وكان من فضائحهم أنّهم لم يرقبوا عهد الله في يوم من أيّامهم، بل كتموا الحقّ وكذبوا الرسل وأضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشهوات . وبعد ذلك كانوا ينتظرون من الله أن يوفى بعهدهم، مع أنّ عهدهم كان مشروطا بعهد الله، حيث قال تعالى :

* ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، وقال الله انّي معكم لئن أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولأدخلنّكم جنّات تجرى من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السّبيل . * (١)

على الرغم من هذا البيان الصّريح هم تمنّوا على الله الأماني، ولم ينهضوا لأداء ما كان عليهم من شرط الايفاء بعهد الله .

ثمّ انتهى بهم الأمر الى أن يطلبوا من النّبيّ وأصحابه كذلك أن يبرّوهم ويحسنوا اليهم، ويدوموا لهم على هذا البرّ والاحسان، على الرغم من مخالفاتهم ونقضهم لعهودهم ومواثيقهم .

كان هذا شأنهم وكانت هذه مواقفهم، مع أنّهم كانوا يتلون الكتاب، وكانوا يعرفون سنن الله في العباد .

فقيل لهم على سبيل النّصح والموعظة :

* أوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايّاى فارهبون . *

وقيل لهم على سبيل الزّجر والعتاب :

* أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟ *

وهنا ينصرف الخطاب بسرعة عجيبة الى هؤلاء النّاس، الّذين كان يأمرهم بنوا سرائيل بالبرّ ولا يأتمرون به، وهم ذلكم الركب الكريم

(١) سورة المائدة : ١٢

الّذين هداهم الله للايمان ، والّذين كانوا يعانون من بني اسرائيل ما يعانون :

﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلوة ، وانّها لكبيرة الاّ على الخاشعين. الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم اليه راجعون . ﴾

أمر هؤلاء المؤمنون أن يستعينوا ضدّ من يعارضهم بالصّبر والصّلاة . فهذا هو السّلاح النّاجع والدّرع الواقي لكلّ من أراد أن يسلك هذا الطّريق وأراد أن يصحبه النّجاح والتوفيق .

ولقد تكرّر هذا التوجيه الكريم في نفس السورة وبنفس السياق حيث قال تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلوة . انّ الله مع الصّابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات . بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع و نقص من الأموال والأنفس والثّمرات ، وبشّر الصّابرين ، الّذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انّا لله وانّا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . ﴾ (1)

الاّ أنّ هناك فرقا بين الموضعين ،حيث انّ التوجيه الأول ينبّه الى تلك الشّحنة الدّاخليّة، الّتي اذا تعبّأ بها المسلم تمكّن من الاستعانة بالصّبر والصّلاة ، وهي الايمان بلقاء الله والايمان برجوعه الى الله.

وجاء هذا التوجيه في أوانه ، قبل احتدام المعركة ، حين كان المسلمون في فترة الاعداد والتربية .

وأمّا التّوجيه الثّاني فهو يرشد الى الصّبر والصّلاة ، و يركّز على الصّبر بصفة خاصّة ، فانّ المسلمين قد دخلوا في المعمعة ، وكثر فيهم القتلى والجرحى ، وكانوا بأمسّ حاجة الى توجيه يحثّهم على الصّبر و يثبّتهم على الطّريق .

---

(1) سورة البقرة : ١٥٣ ـ ١٥٧

وبعدما يزوّد السياق جماعة المسلمين بهذا الزّاد الكريم ، يتوجّه مرّة أخرى الى بني اسرائيل و يواصل معهم الحديث ، فانّ الآيتين (٤٥ ـ ٤٦) ماجاءتا الاّ كالجملة المعترضة في أثناء الحديث معهم للغرض الّذى أشرنا اليه آنفا · قال تعالى :

* يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين · واتّقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون · واذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبّحون أبناءكم و يستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم · واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون · واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون · ثمّ عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون· واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون · واذ قال موسى لقومه ياقوم انّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خيرلكم عند بارئكم فتاب عليكم ، انّه هو التوّاب الرحيم · واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون · ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون · وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى ، كلوا من طيّبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون · واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطّة نغفرلكم خطاياكم وسنزيد المحسنين · فبدّل الّذين ظلموا قولا غير الّذى قيل لهم فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزا من السّماء بما كانوا يفسقون · واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا · قد علم كلّ أناس مشربهم · كلوا و اشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ·واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربّك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها و قثّائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير · اهبطوا مصرا فانّ لكم ما سألتم · وضربت عليهم الذلّة

والمسكنة و باءوا بغضب من الله . ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النّبيّين بغير الحقّ ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . انّ الّذين آمنوا والّذين هادوا و النّصارى و الصّابئين من آمن بالله واليوم الآخر و عمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . *

انّ هذه الفقرة بكاملها جاءت شرحا و تفصيلا للآية الّتي مضت معنا في الفقرة السالفة ،وهى قوله تعالى :

* يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايّاى فارهبون . *

فهى تفسّر تلك النّعم الجسام ،الّتي تتابعت على بني اسرائيل، وتفصّلها تفصيلا بعد ما أشارت اليها تلك الآية الكريمة اشارة مجملة خاطفة .

فالأسلوب هنا أسلوب التّفصيل بعد الاجمال . وهو أسلوب شائع في القرآن .

وممّا يجدر بالانتباه أنّ النّعم في هذه الفقرة مصحوبة بذكر عاقبة كفرانها ، فهى تعدّد أوّلا تلك النّعم الكبار الّتي أسبغت على بني اسرائيل في فترة تعتبر أقسى فترة و أحرجها في تاريخهم .

ثمّ تتبعها عقوبة نكرانها ، حتى تبرز ناحية الدّينونة والجزاء ، و يتلاءم السياق تماما مع قوله تعالى :

* واتّقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون . *

ثمّ هناك ناحية أخرى يتبادر اليها ذهن المتأمّل في نظم هذه الآيات ، وهى ناحية لطيفة تحتاج الى شيء من الايضاح .

لقد مضى معنا في الفقرة السابقة أنّ بني اسرائيل نبذوا عهد الله و نقضوه . ومع ذلك كانوا يحلمون أن يتقلّبوا في نعيم الله وكانوا يتمنّون أن تبقى لهم مكانتهم عند الله .

وهم كلّما عاهدوا عهدا مع النّبيّ وأصحابه نقضوه ، ومع ذلك كانوا ينتظرون منهم أن يبرّوهم و يحسنوا اليهم ، فقيل لهم :

﴿ أوفوا بعهدى أوف بعهدكم ٠ ﴾

وقيل لهم :

﴿ أتأمرون النّاس بالبرّ و تنسون أنفسكم ٠ ﴾

وهنا يوحي الينا السياق أنّه بلغت بهم وقاحتهم الى أن ظنّوا بهذه الرسالة الجديدة المباركة ظنّ السوء ٠ وأشاعوا عنها أنّها ليست نعمة ولا رحمة للنّاس ، وانّما هى رسالة تتّسم بالقسوة والغلظة والاعتداء ، فالنّبيّ - صلّى الله عليه و سلّم - يعاملهم دائما معاملة قاسية ، ويؤاخذهم على تصرّفاتهم مؤاخذة شديدة ، فلا برّ هناك ولا مجاملة ، وانّما هو ظلم و اعتداء ٠

فهذه الآيات تذكّرهم تاريخهم و تنبّههم الى طبيعة الرسل والرّسالات ٠ فالرّسل لا يعاملون النّاس على أحسابهم و أنسابهم ،وانّما يعاملونهم حسب أعمالهم و تصرّفاتهم ٠

وتاريخهم ان كان حافلا بنعم الله المتواليات ، فهو حافل كذلك بعقوباته المتلاحقات ٠

أليس أنّ موسى عليه السلام - وهو نبيّهم الّذى يعتزّون به - قد أمرهم بقتل أنفسهم حين ظلموا أنفسهم باتّخاذهم العجل ؟

أليس أنّهم قالوا لنبيّهم : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم ؟

أليس أنّهم ظلّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسّلوى ، ولكنّهم قابلوا هذه النّعم بالكفران ، فذاقوا وبال أمرهم ؟

أليس أنّهم قيل لهم ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجّدا وقولوا حطّة ، فبدّلوا قولا غير الّذى قيل لهم فأنزل عليهم رجز من السماء بما كانوا يفسقون ؟

أليس أنّهم قالوا لنبيّهم : لن نصبر على طعام واحد فزجرهم نبيّهم و عنّفهم وقال لهم : أتستبدلون الّذى هو أدنى بالّذى هو خير، اهبطوا مصرا فانّ لكم ما سألتم ؟

فاذا كان هذا تاريخهم وكانت هذه أيّامهم ، فما بالهم يحملون الحقد على هذا النّبيّ وأصحابه ؟ فانّهم كلّما أصابتهم نفحة من عذاب ربّهم بسبب سوء تصرّفاتهم اتّهموا النّبيّ وأصحابه وقالوا هؤلاء هم الّذين جلبوا علينا هذا السوء . مع أنّ السبب فيما يعانون اليوم هو هو ، لم يتغيّر عمّا كان عليه بالأمس ، وهو أنّهم نسوا الله ونسوا نعمه المتواليات و نقضوا عهده ، فنسيهم و تخلّى عن عهدهم وتركهم و حصائد أعمالهم .

وبعد ما ينتهي السّياق من ذكر بعض فضائحهم ، الّتي اقترفوها في تاريخهم القديم ، وينتهي من الاشارة الى بعض العقوبات الّتي حلّت بهم لقاء تمرّدهم و عصيانهم ، يجمل القول و يذكر تلك النتيجة الرهيبة الّتي ترتّبت على سوء تصرّفاتهم و سوء مواقفهم :

﴿ وضربت عليهم الذلّة و المسكنة وباءُوا بغضب من الله ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النّبيّين بغير الحقّ ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ﴾

وهنا يقف السياق وقفة قصيرة ليستدرك ما قد يعلق بالأذهان بعد سماع هذه الآية ، وهو أنّ باب التوبة والرجوع الى الله قد سكّر أمام اليهود و أعوانهم مطلقا ، فلا يمكن أحدهم أن يعود الى الطّريق ويصل حبله بالله اذا أراد . ولا يمكن أحدهم أن يخرج ممّا قد أحاط به من غضب الله ، ولا يمكنه أن يتخلّص ممّا قد ضرب عليه من الذلّة والمسكنة :

﴿ انّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والنّصارى والصّابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربّهم و لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ﴾

فهذه الآية تردّ هذا الوهم وتدخل برد الاطمئنان الى كل قلب يريد أن يقلع عن المعصية و يثوب الى الرشد .

انّها تفسح المجال لكلّ من أراد أن يتوب ، كائنا من كان ، ومن أيّ فرقة أو طائفة كان .

انّها تفتح الطّريق لكلّ من أراد أن يقترب من الله وينال جنّته و رضوانه ، سواء كان هذا الشّخص من الّذين آمنوا ، أو كان من اليهود، أو النّصارى ، أو الصّابئين .

انّما المهمّ أن يؤمن المرء بالله واليوم الآخر ويعمل صالحا ، فاذا توفّرت هذه الشروط في أيّ شخص فلا يضرّه ان كان - في السابق - يهوديّا أو نصرانيّا ، أو ... أو ..

وممّا لا يخفى أنّ كلمة (الّذين آمنوا) جاءت في الآية كَعَلَمٍ لطائفة معيّنة أو جماعة معيّنة ، مثل (الّذين هادوا) و مثل (النّصارى و الصّابئين) فاذا كان الرجل من طائفة تعرف باسم من هذه الأسماء فهذه الصّلة أو هذا الانتماء لا ينفعه ولا يضرّه . فانّما الاعتبار عند الله للعقيدة الصّافية والأعمال الصّالحة ، دون هذه الأسماء أو لغيرها من الأسماء .

نظـــم الآيـــات (٦٣ ـ ٨٢)

****

وبعد ما ينتهي السياق من هـذا الاستدراك يرجع الى ما كان فيه من الحديث عن فضـائح اليهود :

﴿ واذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطّور خـذوا ما آتيناكم بقوّة واذكـروا ما فيه لعلّكم تتّقون ٠ ثمّ تولّيتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم و رحمته لكنتم من الخاسـرين ٠ ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قـردة خاسئين ٠ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظـة للمتّقين ٠ واذقال موسى لقومه انّ الله يأمركم أن تذبحـوا بقرة ، قالوا أتتّخـذنا هـزوا ، قال أعوذ بالله أن أكـون من الجاهلين ٠ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى ، قال انّه يقول انّها بقرة لا فارض ولا بكـر ، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمـرون ٠ قالـوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها ، قال انّه يقول انّها بقرة صـفراء فاقـع لونهـا تسرّ النّاظـرين ٠ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى انّ البقر تشابه علينا ، وانّا ان شـاء الله لمهتدون ٠ قال انّه يقول انّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحـرث مسلّمة لا شـية فيها ، قالوا الآن جئت بالحقّ فذبحـوها وما كادوا يفعلون ٠

واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخـرج ما كنتم تكتمون٠ فقلنا اضـربوه ببعضها ، كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلّكـم تعقلون ٠ ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشـدّ قسوة ، وانّ من الحجارة لما يتفجّـر منه الأنهار ، وانّ منها لما يشّقق فيخـرج منه الماء ، وانّ منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عمّا تعملون ٠ ﴿

لقد ذكـر في الفقرة السالفة موقف بني اسرائيل ازاء تلك النّعم الماديّة الّتي أفيضت عليهم ، فذكرت نعمـة أو جملة من النّعم ثمّ ذكـر موقفهم منها ٠

أمّا هذه الفقرة فقد ذكـر فيها الصّنف الثّاني من نعم الله ، وهى النّعمة الروحيّة المعنويّة المتمثّلة في وحى الله وتنزيله ورسالاته وشرائعه ٠

لقد ذكرت فيها هذه النّعمة ، الّتي هى في الواقع أكبر نعمة أفيضت عليهم ، ثمّ ذكر موقفهم المخجل منها ٠

نعم ، لقد ذكرت هذه النّعمة في الفقرة السالفة كذلك حيث قال تعالى :

* واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون ٠ *

ولكنّها ذكرت هناك عرضا في ضمن بيان عفوالله عنهم ، حين اتّخذوا العجل ، حيث انّه عفا عنهم ، ولم يمسك عنهم هذا العطاء الكريم بسبب مااقترفوه من الاثم ٠ فكان هذا من دلائل العفو عنهم ٠

ومن ناحية أخرى فقد كانت النّعم الّتي أفيضت عليهم ،والّتي ذكرت في الفقرة السالفة ، بمثابة مواثيق أخذت منهم ، الاّ أنّها كانت مواثيق مفهومة صامتة ٠

فبعد تلك المواثيق المفهومة الصّامتة ذكر هذا الميثاق النّاطق الصّريح :

* واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور ، خذوا ماآتيناكم بقوّة ، واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ٠ *

ثمّ ذكر موقفهم منه كما ذكرت مواقفهم من أمثاله من المواثيق٠

ولقد تناول القرآن هذا الحديث بأسلوب تهتزّله النّفس ،حيث ذكر في الآية الأولى كيفيّة أخذ الميثاق على التمسّك بالكتاب ، و ذكر ذلك الاهتمام البالغ بشأنه ٠

ثمّ ذكر في الآية الثّانية كيف تولّوا عنه على الرغم من هذا التأكيد، وهذا الاهتمام البالغ الّذى بذل فيه ٠

وبسرعة عجيبة مذهلة يفاجئ السامعين بذكر المنّة العظيمة والنّعمة السابغة الّتي أفاضها عليهم حيث أنزل اليهم هذا الكتاب بفضل منه ورحمة ، فأعطاهم بذلك فرصة جديدة لاكتساب الفلاح وللابتعاد عن الخسران بعد مافاتتهم الفرصة فيما مضى بسبب غفلتهم واعراضهم عن كتاب الله :

﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . ﴾

ولقد روى عن أبي العالية في تأويل الآية مثل هذا القول .

قال ابن جرير حدّثني المثنّى بن ابراهيم ، قال : ثنا أبو النضر، عن الربيع ، عن أبي العالية (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) قال: فضل الله : الاسلام ، ورحمته : القرآن .[١]

ويبدو أنّ صاحب الظلال أيضا يميل الى هذا التأويل حيث قال :

"ولكن هيهات ! لقد أدركت اسرائيل نحيزتها ، وغلبت عليها جبلّتها :

﴿ ثمّ تولّيتم من بعد ذلك ﴾ ..

ثمّ أدركتها رحمة الله مرّة أخرى ، وشملها فضله العظيم ، فأنقذها من الخسار المبين :

﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . ﴾ ".[٢]

لكنتم من الخاسرين كما خسر اخوانكم الّذين اعتدوا في السبت ، فحلّ بهم ما حلّ من سخط الله .

مناسبة ذكر المعتدين في السبت :

وخصّ بالذكر هنا أهل السبت ،

لأنّ اعتداءهم في السبت انّما كان اعتداء على كتاب الله ، فانّه ما جعل السبت عليهم الّا ليتفرّغوا فيه لكتاب الله ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويعكفون عليه و يجدّدون صلتهم به و ينشطون للنّهوض بأحكامه .

فلمّا اعتدوا فيه ، كان هذا اعتداء مباشرا على كتاب الله .

فاقتضت المناسبة أن تذكر قصّتهم هنا تحذيرا من عاقبة التفريط في جنب كتاب الله وتخويفا من مغبّة الاعتداء على حقّه .

ومثل هذا النّظم نرى في سورة الأعراف ، حيث ذكرت نفس القصّة بشيء من التفصيل ، ثمّ جاءت هذه الآيات :

---

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن : ٣٢٨/١

(٢) في ظلال القرآن : ٧٦/١

* وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، انّ ربّك لسريع العقاب وانّه لغفور رحيم ٠ وقطّعناهم في الأرض أمما ، منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك ٠ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلّهم يرجعون ٠ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ٠ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الاّ الحقّ ودرسوا ما فيه ٠ والدّار الآخرة خير للّذين يتّقون ، أفلا تعقلون ٠ والّذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصّلاة انّا لا نضيع أجر المصلحين ٠ واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة و ظنّوا أنّه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ٠ * (١)

وهذه الآيات تدور في مجموعها حول موضوع الكتاب ، حيث انّها تذمّ الّذين فرّطوا في جنب كتاب الله ، وأخلدوا الى الدّنيا وشهواتها ونسوا عهودهم و مواثيقهم ، وتثني على المصلحين الّذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصّلاة ، ثمّ هى تذكر الميثاق الّذى تمّ في ظلّ الجبل بشأن كتاب الله والّذى تشير اليه الآيات الّتي نحن بصدد الكلام عليها من سورة البقرة ٠

ولا شكّ أنّ النّظر في نظم هذه الآيات وسياقها يساعدنا في التوصّل الى أبعاد قصّة أهل السّبت و طبيعتها ، ويكشف لنا عن حقيقتها ودلالاتها ، ويزيدنا اطمئنانا الى ما أشرنا اليه سابقا من أنّ الاعتداء في السّبت انّما كان اعتداء مباشرا في شأن كتاب الله ٠ ولذلك اشتدّ غضب الله عليهم ، وجعلوا نكالا لمن خلفهم وموعظة للمتّقين ٠

وبعد التلويح الى سوء عاقبة التفريط في جنب كتاب الله أو الاعتداء على حقّه يعود السياق ، فيذكر نموذجين مخجلين من تاريخ بني اسرائيل للتّلاعب بكتاب الله والاستهزاء بأوامره ٠

وتاريخهم وان كان يعجّ بمثل هذه القصص الشّائنة المخجلة الاّ أنّ لهاتين القصّتين طبيعة خاصّة ومناسبة ماسّة بالموضوع ٠

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٧ ـ ١٧١

النّموذج الأوّل :

انّ بني اسرائيل - كما نعلم ويعلمه الجميع - قد أشربوا في قلوبهم العجل . و كان هذا حجر عثرة في طريقهم الى الله ، وكان يعوقهم عن التمسّك بكتابه والخضوع لأوامره . ولقد أشار القرآن في نفس السورة الى هذا الواقع المؤلم :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطّور ، خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين . ﴾ (١)

ولم يكن لمرضهم هذا علاج الاّ أن يؤمروا بذبح بقرة !

ويقارب هذا ما ذهب اليه الأستاذ المودودى - رحمه الله - حيث قال ،وهو يفسّر هذه الآيات :

" كان بنو اسرائيل - في فترة اقامتهم بمصر - جيرة قوم يعبدون البقر، ويبذلون لها كلّ تعظيم وتقديس . ومن هنا تعدّى هذا المرض اليهم واستشرى فيهم فأمروا أن يذبحوا بقرة .

ولم يكن هناك طريق أفضل لاختبار صدقهم في ايمانهم من أن يؤمروا بتحطيم ذلك الصّنم الّذى كانوا يعبدونه ، قبل أن يدخلوا في حظيرة الايمان ، بأيديهم .

وكان هذا الاختبار بالنسبة اليهم صعبا جدّا . واذلم يكن الايمان قد استقرّ في قلوبهم ، فقد حاولوا أن يتملّصوا من هذا التكليف وراحوا يسألون و يسألون .

وكلّما ازدادت أسئلتهم ، ازداد الأمر عليهم ضيقا وتعقّدا . حتى انتهى الأمر بأن كلّفوا بذبح بقرة ذهبية كانت تختار عندهم وتخصّص للتقديس والعبادة .

ونجد في العهد القديم اشارات الى تلك الواقعة لاّ أنّه لا يذكر تلكّأ بني اسرائيل في تنفيذ هذا الأمر وروغانهم للتملّص منه (انظر سفر العدد ١٩ : ١-١٠) (٢)

---

(١) سورة البقرة : ٩٣ (٢) تفهيم القرآن : ١/٨٥ - ٨٦

وعلى أيّة حال فقد جاءهم الأمر بالذبح وأبلغهم نبيّهم أنّ الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة ·

وكان الأمر موضع جدّ و صرامة ولكنّهم أخذوه مأخذ الهزل و أتعبوا نبيّهم بأسئلتهم اللاغية المحرجة ·

وبلغت بهم الوقاحة أنّهم أرادوا أن يظهروا في نفس الوقت وكأنّهم جادّون مخلصون في تلك الأسئلة وحريصون غاية الحرص على أن ينفّذوا ما أمرهم الله به حيث قالوا :﴿ وانّا ان شاء الله لمهتدون﴾

وبعد تردّد و مماطلة و نقاش طويل ذبح هؤلاء البقرة ، ولكنّهم ذبحوها وكأنّهم لم يذبحوها :

﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾

فانّ ذبحهم لها ، اذ لم يكن في أوانه و فور سماع أمره قد فقد روحه و فقد معناه ·

وعلى هذا فلا يعتبر هذا الذبح تنفيذا و امتثالا لأوامر الله ، وانّما هو استهزاء و سخرة و تلاعب بكتاب الله !

النّموذج الثّاني :

والقصّة الأخرى أيضا تدلّ ـ كأختها ـ على تلاعبهم بكتاب الله ، واستخفافهم بأوامر الله ، فقد حدث أنّهم قتلوا نفسا منهم ، ثمّ جعل كلّ فريق منهم يدرأ عن نفسه التّهمة ويبرّئها من تلك الجريمة · فالّذى عرف القضيّة أو تلبّس بها أسدل عليها ستور الكتمان ، والّذى لم يعرفها لم يتعب نفسه في البحث عن حقيقتها ، واقتصر على درء التّهمة عن نفسه الى غيره ·

علما بأنّهم كانوا ملزمين جميعا بأن يكشفوا القاتل بدون مواربة ولا محاباة ، و يطبّقوا قانون القصاص الّذى كان موجودا عندهم في التوراة ، كما ينصّ عليه القرآن :

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنّه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعا ، ومن أحياها فكأنّما أحيا

النّاس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبيّنات ثمّ انّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون . ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص . فمن تصدّق به فهو كفّارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ﴾ (٢)

فلمّا تواطأ الجميع على كتمان الجريمة ، أظهر الله اسم القاتل ، فانّه قد قرّر أن يخرج ما كانوا يكتمون . وقال لهم : اضربوا هذا الشخص ببعض تلك النّفس المقتولة .

والى هذا المعنى ذهب صاحب تفسير المنار حيث قال وهو يفسّر هذه الآية :

" (فقلنا اضربوه ببعضها) المشهور أنّ معناه : اضربوا القتيل بجزء من البقرة ، ويرى بعض المدقّقين أنّ هذه قصّة غير قصّة البقرة ، فتلك انتهت بالاحالة على حكم التوراة المعروف ، وأنّ المراد في هذه ، ضرب المتّهم بالقتل ببعض أعضاء القتيل .... " (٣)

فكان أن دبّت الحياة في تلك النّفس المقتولة لمّا ضرب هذا الشخص ببعضها ، ونطقت و شهدت أنّ هذا الشخص الماثل أمامها هو القاتل.

وهكذا انكشف الأمر وافتضحت المؤامرة المشؤومة ضدّ كتاب الله !

هذا ما يظهر لنا في تأويل تلك الآيات ، حين نتأمّل في نظمها و سياقها وأسلوبها و ألفاظها .

ولقد ذهب النّاس في تأويلها مذهبا آخر .

فيقول - مثلا - الأستاذ سيّد قطب - رحمه الله - وهو بصدد تأويلها :

" هنا فقط .. وبعد أن تعقّد الأمر ، وتضاعفت الشروط ، وضاق

---

(١) سورة المائدة : ٣٢ (٢) سورة المائدة : ٤٥

(٣) مختصر تفسير المنار : ٦٥/١

مجال الاختيار :

* قالوا الآن جئت بالحقّ * ..

الآن ! كأنّما كان كلّ ما مضى ليس حقّا . أو كأنّهم لم يستيقنوا أنّ ما جاءهم به هو الحقّ الاّ اللحظة !

* فذبحوها وما كادوا يفعلون * !!

عندئذ - وبعد تنفيذ الأمر والنّهوض بالتكليف - كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف :

* واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ، فقلنا : اضربوه ببعضها . كذلك يحيي الله الموتى ، ويريكم آياته لعلّكم تعقلون . * ..

وهنا نصل الى الجانب الثّاني من جوانب القصّة . جانب دلالتها على قدرة الخالق ، وحقيقة البعث ، وطبيعة الموت والحياة . وهنا يتغيّر السياق من الحكاية الى الخطاب والمواجهة :

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة .. لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم ، ثمّ جعل كلّ فريق يدرأ عن نفسه التّهمة ويلحقها بسواه . ولم يكن هناك شاهد ، فأراد الله أن يظهر الحقّ على لسان القتيل ذاته ، وكان ذبح البقرة وسيلة الى احيائه ، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح .. وهكذا كان ، فعادت اليه الحياة ، ليخبر بنفسه عن قاتله ، وليجلو الرّيب والشّكوك الّتي أحاطت بمقتله ، وليحقّ الحقّ و يبطل الباطل بأوثق البراهين .

ولكن . فيم كانت هذه الوسيلة ، والله قادر على أن يحيي الموتى بلا وسيلة ؟ ثمّ ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل المبعوث ؟

انّ البقر يذبح قربانا كما كانت عادة بني اسرائيل .. وبضعة من جسد ذبيح تردّ بها الحياة الى جسد قتيل . وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الاحياء .. انّما هي مجرّد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ، الّتي لا يعرف البشر كيف تعمل . فهم يشاهدون آثارها

ولا يدركون كنهها ولا طريقتها في العمل و : ﴿ كذلك يحيي الله الموتى﴾٠٠ كذلك بمثل هذا الّذى ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع ، وبمثل هذا اليسر الّذى لا مشقّة فيه ولا عسر ٠ " (١)

هذا مايراه الأستاذ سيّد قطب ـ رحمه الله ـ في تأويل تلك الآيات ، وهو نفس التأويل الّذى ذهب اليه النّاس قديما و حديثا ٠ وكان أولى بنا كذلك أن نكون مع هذا التأويل، الاّ أنّ هناك أمورا تقسرنا قسرا على العدول عنه ، وهى كما يلي :

الأمر الأوّل :

انّ بني اسرائيل قد أشربوا في قلوبهم العجل كما ينصّ عليه القرآن ، وكما نعلم من تردّدهم و تلكّؤهم في ذبح البقرة ، الّتي أمروا بذبحها ٠ وهذا الّذى مكّن السّامرىّ من أن يعود بهم مرّة أخرى الى عبادة العجل ٠

وقد بلغ بهم الأمر الى أنّهم كلّما رأوا صنما يعبد من دون الله هاج بهم الشوق الى أن يعبدوه ، و يشهد لنا بذلك القرآن حيث قال تعالى:

﴿ وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ٠ قال انّكم قوم تجهلون ٠ انّ هؤلاء متبّر ماهم فيه و باطل ماكانوا يعملون ٠ قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضّلكم على العلمين ٠ ﴾ (٢)

تلك الأمّة الّتي لم تتخلّص من حبّ العجل وحبّ الصّنم ، رغم مارأت و شاهدت من آيات الله البيّنات المتواليات ، لا يتصوّر أنّ حكمة الله تجعل أمامها البقر وسيلة عودة الحياة الى تلك النّفس المقتولة ، فانّ هذا الحادث يغرس فيهم حبّ العجل و قداسة البقر و ينمّي فيهم نوازع الشرك و نوازع الكفر ، بينما القوم كانوا بأمسّ حاجة الى عمليّة تنزع من قلوبهم هذا الحبّ وهذه القداسة وتشعرهم أنّها ليست الاّ لأن تذبح و تؤكل ٠

---

(١) في ظلال القرآن : ٧٩/١ ـ ٨٠ (٢) سورة الأعراف : ١٣٨ ـ ١٤٠

وكان الأمر هكذا ، فانّهم ما أمروا بذبح البقرة الآ لينزع حبّها من نفوسهم و تحطّم قداستها في قلوبهم ، ويبيّن لهم أنّها ليست الها يعبد ، وانّما هى لحم يمضغ و يؤكل !

الأمر الثّاني :

انّ قصّة قتل النّفس ذكرت بعد قصّة ذبح البقرة . والظّاهر أنّ قصّة قتل النّفس لوكانت متقدّمة على قصّة ذبح البقرة، وكان الهدف من ذبح البقرة ذلك الّذى ذكروه لكان الترتيب على العكس .

وأمّا ما قاله الامام الرازى ـ رحمه الله ـ حيث قال :

"فاعلم أنّ وقوع القتل لا بدّ وأن يكون متقدّما لأمره تعالى بالذبح ، أمّا الاخبار عن وقوع ذلك القتل ، وعن أنّه لا بدّ وأن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدّما على الاخبار عن قصّة البقرة . فقول من يقول: هذه القصّة يجب أن تكون متقدّمة في التّلاوة على الأولى خطأ ، لأنّ هذه القصّة في نفسها يجب أن تكون متقدّمة على الأولى في الوجود ، فأمّا التّقدّم في الذكر فغير واجب ،لأنّه تارة يقدم ذكر السبب على ذكر الحكم ،وأخرى على العكس من ذلك فكأنّهم لمّا وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة ، فلمّا ذبحوها قال : واذ قتلتم نفسا من قبل . " (١)

أو ما قاله العلاّمة أبو السّعود حيث قال :

" وانّما غيّر الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ و تثنية التقريع ، فانّ كلّ واحد من قتل النّفس المحرّمة والاستهزاء برسول الله ـ صلّى الله عليه و سلّم ـ والافتيات على أمره وترك المسارعة الى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها . ولو حكيت القصّة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كلّ منها بما يخصّ بها من التوبيخ ."(٢)

فهذه أقوال لا ندرى كيف اقتنع بها أصحابها . فانّ الحكمة الّتي

---

(١) التفسير الكبير ٣/١٣٢ (٢) تفسير العلاّمة أبي السّعود : ١/١٣٨

أشار اليها الامام الرازى أو العلامة أبو السعود ليست واضحة .

و دعوى التقديم والتأخير في النظم الحكيم ليست أمرا هينا حتى نقول بها كلما تعرقل مسيرنا أو خفى علينا التأويل الصحيح للآيات .

الأمر الثالث :

ذكر الله تعالى المقتول بالنفس فقال : ﴿ واذ قتلتم نفسا ﴾ ثم جاء لها بضمير المؤنث حسبما كان يقتضيه اللفظ فقال : ﴿ فادارأتم فيها ﴾ فرجع ضميرا لمذكر في قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ﴾ الى تلك النفس على تأويل (المقتول) وان كان صحيحا سائغا من ناحية الاعراب ، الا أنه مع ذلك عدول عن الأصل وهو يحتاج الى دليل .

الأمر الرابع :

ان كلمة (اذ) تفصل الكلام الذى بعدها من الذى قبلها ، وتجعله كلا مستقلا قائما على حدة . فلا يجوز اذا أن يرجع الضمير الذى جاء بعدها الى الاسم الذى ذكر قبلها .

هكذا نعلم اذا تقصينا استعمالاتها في القرآن وفي كلام العرب .

وعلى هذا فلا يجوز رجع الضمير في قوله تعالى: (ببعضها) الى البقرة التي ذكرت قبل (اذ) ولم يرد لها ذكر بعدها .

هذه أربعة أمور تقسرنا قسرا على العدول عن ذلك التأويل .

ومع ذلك فلسنا ندعي العصمة من الخطأ . فالعصمة لله ، وهو الذى يعلم الصواب من الخطأ . وحسبنا أن بذلنا الجهد وتوكلنا على الله .

منظر رهيب لقسوة القلوب :

ومن عجيب المناسبة بين القصتين ـ ماعدا التي أشرنا اليها آنفا ـ أنهم استعظموا الأمر بذبح البقرة حين أمروا به ، وتلكأوا فيه وما رضوا أن يمتثلوا لهذا الأمر الا كرها و بضيق الأنفس .

ولكنّهم استهانوا بتلك النّفس البشريّة و تواطأوا على اهدار دمها ، ولم يروا بأسا بالتّلبّس بتلك الجريمة و كتمانها !

كأنّ دم الحيوان كان أغلى عندهم من دم الانسان !

وهكذا تنتكس العقول و تتبلّد النّفوس حين يتواطأ النّاس على التلاعب بكتاب الله ، وحينما يستخفّون بشأنه و يعدلون عن أحكامه .

وما برح بنوا سرائيل يتلاعبون بكتاب الله و يستخفّون بشأنه على الرغم من تلك الآيات المتواليات الّتي رأوها بأعينهم .

فماذا كانت النّتيجة ؟

كانت النّتيجة أن قست قلوبهم و قست ، وقست حتّى صارت كالحجارة أو أشدّ قسوة !!

﴿ ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة ﴾

وتلك هى النتيجة الطّبيعيّة الحتميّة لنبذ كتاب الله والاستخفاف بشأنه ، فما حمّل قوم كتابا من عند الله ثمّ تولّوا عنه وأعرضوا الاّ حلّت بهم تلك العقوبة .

وبعد ماينتهي السياق من ذكر موقف بني اسرائيل القدامى من كتابهم :التّوراة ، يأخذ في ذكر موقف أخلافهم من هذا الكتاب:(القرآن) الّذى أنزل اليهم مصدّقا لما معهم :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون . واذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا ، واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربّكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون . ومنهم أمّيّون لا يعلمون الكتاب الاّ أمانيّ وان هم الاّ يظنّون . فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون . وقالوا لن تمسّنا النّار الاّ أيّاما معدودة . قل أتّخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيّئة وأحاطت به

خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون . *

يقسم السياق هنا هؤلاء اليهود المعاصرين الى قسمين :

قسم منهم كان يمثّله الدّهاة الطّغاة من علماء السوء، الّذين يحرّفون الكلم عن مواضعه . والقسم الثّاني كان يمثّله الأمّيّون أو الهمج الرّعاع ، الّذين ليس لهم عقل ولا دين ، ولا يعلمون الكتاب الآ أمانيّ .

و كلا القسمين لا مطمع لطامع في ايمانهم .

فالرهبان والأحبار كان لهم حظّ أوفى من قسوة القلب كما كان لأسلافهم، فهم كانوا يسمعون كلام الله غضّا طريّا ، ثمّ كانوا يحرّفونه .

وكانوا يحرّفونه عن فهم وادراك لا عن جهل و غفلة .

وكانوا يحمّلونه ما لا يحتمله ويصرفونه الى ما لا ينصرف اليه.

كانوا يحرّفونه الى ما يتّفق و أهواءهم ، ويخدم مآربهم .

وكان من قسوة قلوبهم كذلك أنّهم كانوا يخادعون المؤمنين ، فكانوا يزعمون لهم اذا جلسوا اليهم أنّهم منهم ثمّ اذا رجعوا وخلا بعضهم الى بعض أقبلوا يتلاومون فيما بينهم ، ان كان فيهم من خرج - سهوا - عن أساليبهم الملتوية ، وأبدى رأيه المحض الصّريح بدون تحفّظ عن القرآن الّذى جاء به هذا النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم -

هكذا كانت مهمّة علمائهم و أحبارهم تجاه كتاب الله !

وأمّا الأمّيّون منهم فكان كتاب الله عندهم عبارة عن أماني وأحلام كاذبة فارغة عن التكاليف والواجبات ، فانّ الّذى كان بأيديهم وكان يملأ أسماعهم و أفئدتهم لم يكن كتاب الله ، وانّما كان ممّا يكتبه أحبارهم بأيديهم !

كان ممّا يكتبه أحبارهم الّذين كانوا يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ! كان ممّا يكتبه أحبارهم و يضمّنونه كلما تملي

عليهم أهواءهم ، وكان من شأنه أن يخدم مآربهم ، ثمّ يروّجونه بينهم باسم كتاب الله !

والأمّيّون يحتضنونه ، وكأنّه ـ في الواقع ـ كتاب الله ، مع أنّ كتاب الله في واد وهم في واد ! وهم أبعد ما يكونون من الكتاب في وقت يحسبون أنّهم مستمسكون بالكتاب !!

وكان من ضمن تلك الأماني ، الّتي تلقّوها من (كتابهم) وكانوا يعيشونها ، أنّهم لن تمسّهم النّار إلاّ أيّاما معدودة .

فردّ القرآن اليهم تلك الأمنية الفارغة ، الّتي لا تتلاءم مع العدل الالهي ، الّذى لا يعرف الأنساب والأحساب ، وانّما يعامل من يعامل حسب ما كسبوه من حسنات أو سيّئات :

* بلى من كسب سيّئة و أحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . والّذين آمنوا و عملوا الصّالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون . *

نظم الآيات (٨٣ ـ ٨٧)

وبعد ما يتّضح موقف اليهود من كتاب الله ، سواء كانوا محدثين أو قدامى ، وسواء كان موقفهم من القرآن أو من الكتب السالفة ، يعود السياق ، فيفصّل ذلك الميثاق الّذى ورد ذكره في مستهلّ الفقرة السابقة في قوله تعالى :

* واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور، خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ٠ *

كان الميثاق وكان ما آتاهم الله مجملا في تلك الآية ، فيتناوله السياق هنا بشيء من التفصيل ، و يتبعه كذلك ذكر موقفهم السّيئ من ذلك الميثاق ، حتى تكون الصّورة متكاملة :

* واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الاّ الله ، وبالوالدين احسانا ، وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للنّاس حسنا وأقيموا الصّلاة و آتوا الزّكاة ثمّ تولّيتم الاّ قليلا منكم و أنتم معرضون.واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تشهدون ٠ ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وان يأتوكم أسارى تفادوهم و هو محرّم عليكم اخراجهم ٠ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاّ خزى في الحياة الدّنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب ، وما الله بغافل عمّا تعملون ٠ أولئك الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون *

ولقد ذهب الأستاذ سيّد قطب ـ رحمه الله ـ في تأويل تلك الآيات الى ما أشرنا اليه ، حيث يقول :

" ولقد سبقت الاشارة الى الميثاق في معرض تذكير الله لبني اسرائيل باخلاف موقفهم معه في الدّرس الماضي ٠ فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق ٠

ومن الآية الأولى ندرك أنّ ميثاق الله مع بني اسرائيل ، ذلك الميثاق الّذى أخذه عليهم في ظلّ الجبل ، والّذى أمروا أن يأخذوه بقوّة ، وأن يذكروا ما فيه .. أنّ ذلك الميثاق قد تضمّن القواعد الثّابتة لدين الله . " (١)

وهنا يثور سؤال بطبيعة الحال :

ما الحكمة في ايراد هذا التفصيل بعد ذاك الاجمال ؟

انّ البحث عن هذه الحكمة يقتضي منّا أن نرجع قليلا ، ونتذكّر تلك الآية الكريمة ، الّتي مضت معنا قريبا وهى :

﴿ ومنهم أمّيّون لا يعلمون الكتاب الاّ أمانيّ وان هم الاّ يظنّون ﴾

لقد اقتضت الحكمة نظرا الى هذا الوضع ،الّذى تشير اليه الآية ، أن يؤتى ببعض التفصيل لما يحويه ذلك الكتاب أو لما يتضمّنه ذلك الميثاق ، حتى تنكشف لهؤلاء الأمّيّين حقيقة الأمر ،و يعرفوا أنّ الكتاب أو الميثاق لا يعني الأحلام و الأماني ، كما لقّنهم الرّبّانيّون والأحبار، وانّما هو عمل وجهاد و تكاليف و واجبات . وانّما يتحقّق وعد الله في الآخرة لمن ينهض بتلك التكاليف و يؤدّى تلك الواجبات .

وأمّا من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وتمنّى على الله الأماني ، بدون أن يتحرّك للعمل أو يبتعد من المنكرات ، فله في الدّنيا خزى ، وله في الآخرة أشدّ العذاب .

لفتة بارعة :

وهناك لفتة بارعة لفضيلة الدّكتور محمّد عبدالله دراز في ربط هذه الآيات بما قبلها حيث يقول - رحمه الله - :

" ولقد أمر النّبيّ أن يوسع هذا الزعم - أى قولهم : لن تمسّنا النّار الاّ أيّاما معدودة - دحضا و ابطالا ، وأن يتدرّج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا ، ثمّ ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الالهيّ

(١) في ظلال القرآن : ٨٧/١

الّذى لا يعرف شيئا من الظّلم والمحاباة لأحد ، بل الخلق أمامه سواء ، كلّ امرئ رهين بعمله ، ومن يعمل سوءًا أو حسنا يجز به ، ثمّ يعارضه بقلب القضيّة عليهم مبيّنا لهم أنّهم من أولئك الّذين كسبوا السيّئات وأحاطت
ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى، شدوا بإحسان إلى الناس فتوليتم ؟
بهم خطيئاتهم :/ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الاثم والعدوان فاعتديتم ؟ ثمّ آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض ، وحكّمتم أهواءكم في الشرائع . فكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم . " (١)

وبعد ما ينتهي السياق من تفصيل موقفهم من ميثاقهم وينتهي من تعنيفهم على اعراضهم وسفك دمائهم واعتدائهم على اخوانهم ، يزيد فيذكر تصرّفاتهم مع رسلهم وأنبيائهم :

* ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس . أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟ *

فقد بلغت بهم الضّراوة بالاثم والعدوان ، أنّهم لم يقنعوا بقتل خيارهم وعداء الصّالحين من اخوانهم، المتمسّكين بدينهم ، بل تجاوزوا ذلك الى تكذيب رسلهم وقتل أنبيائهم .

حقيقة هامّة تستفاد من نظم هذه الآيات :

ويوحي الينا نظم هذه الآيات أنّ القتل والاخراج الّذى عوتب عليه بنو اسرائيل في الفقرة السابقة ، انّما هو قتل الصّالحين منهم واخراجهم من ديارهم ، فتلك ميزتهم الّتي يتميّزون بها على مدى تاريخهم ، فهم دائما قتلوا الصّالحين منهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على اخراجهم ، وان أتاهم هؤلاء أسارى عاملوهم بالفدية (٢) وما رضوا أبدا أن يطلقوا سراحهم بدونها .

---

(١) النّبأ العظيم : ١٨١ - ١٨٢

(٢) يقول ابن عطيّة - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: (تفادوهم) :
" معناه في اللّغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئا ، قاله أبو علي . " (المحرّر الوجيز : ١/٣٤٣)
ويقول أبو حيّان - رحمه الله - :
" وقيل : تفادوهم : تطلبوا الفدية من الأسير الّذى في أيديكم من

=======

وتلك شنشنتهم التي مضوا عليها في جميع عصورهم . وفي يومهم الذى كان ينزل فيه القرآن كانوا يفعلون كذلك . فالصالحون منهم ، الذين آمنوا بالقرآن وانضموا الى كتيبة الاسلام ، لم يكونوا ليتخلصوا من من شراستهم و عدوانهم ، فكانوا يعانون منهم أشد العناء ، وكانوا ينالون نصيبهم من أذاهم .

ولقد روى ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهم - في سبب نزول هذه الآيات مايلي :

"{ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم و تخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان} الى أهل الشرك حتى تسفكوا دماءهم معهم ، وتخرجوهم من ديارهم معهم ، فقال : أنبهم الله من فعلهم ، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم و افترض عليهم فيها فداء أسراهم ، فكانوا فريقين ، طائفة منهم من بني قينقاع حلفاء الخزرج والنضير وقريظة حلفاء الأوس . فكانوا اذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج و خرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على اخوانه حتى يتسافكوا

======= أعدائكم ، ومنه قوله :

قفى فادى أسيرك ان قومي * وقومك ما أرى لهم اجتماعا

وقال أبوعلي : معنى (تفادوهم) في اللغة : تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئا . " (تفسير البحر المحيط : ٢٩١/١)

ولعل هذا المعنى هو أدنى الى الصواب نظرا الى صيغة المفاعلة ، ونظرا الى سياق الكلام ، ونظرا الى طبيعة اليهود ، الذين جبلوا على حب المال و شح النفس . ولا أصعب على أنفسهم من أن يدفعوا المال لانقاذ أسير ولو كان من ذوى أرحامهم ، فضلا عن أن يكون ممن قد تظاهروا على اخراجه .

والذين فسروا (تفادوهم) بغير هذا المعنى فقالوا :(أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء) فلعلهم ماذهبوا اليه الا لأن يأتوا بدليل على الايمان ببعض الكتاب في جنب الكفر ببعض الكتاب .

وهذا تكلف ماله لزوم ، فالكفر ببعض الكتاب يكفي لأن يقال لهم : (أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض ؟ !) .

دماء هم بينهم ، وبأيديهم التّوراة يعرفون منها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج أهل الشرك يعبدون الأوثان ، لا يعرفون جنّة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حراما ولا حلالا . فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم ، تصديقا لما في التّوراة وأخذا به بعضهم من بعض ، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدى الأوس ، وتفتدى النّضير وقريظة ما كان في أيدى الخزرج منهم ، ويطلّون ما أصابوا من الدّماء وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حين أنبأهم بذلك (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أى تفادونه بحكم التّوراة وتقتلونه ، وفي حكم التّوراة أن لا يقتل ولا يخرج من ذلك . ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض من عرض الدّنيا ، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصّة . " (١)

هذا ما رواه ابن جرير في سبب نزول هذه الآيات ، وممّا نلاحظه فيما رواه - رحمه الله - أنّه لا يتّفق مع السياق ولا ينسجم مع نظم الآيات.

فالكلام هنا دائر حول نقضهم ميثاق الله ، وتلاعبهم بكتاب الله ، واعتدائهم على أولياء الله ، ثمّ اعتدائهم على رسل الله ، وهذه الأمور كلّها حلقات متّصلة ، يطلب بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها بأعناق بعض .

ومن ناحية أخرى ، فانّ الميثاق الّذى أخذ من بني اسرائيل أنّهم لا يسفكون دماءهم ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم ، وان كان عامّا في لفظه ، الاّ أنّه من قبيل العموم الّذى أريد به الخصوص ، فانّه كان في أصله يخصّ الأنبياء والصّالحين الّذين درج بنو اسرائيل على قتلهم وسفك دمائهم .

ولقد صرّح به القرآن في موضع آخر حيث قال تعالى :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ،

---

(١) تفسير الطّبرى : ٣٩٧/١

فهذه الشواهد واضحة كلّ الوضوح في المعنى الّذى اخترناه في تأويل هذه الآية ٠ ولعلّ الّذين عدلوا عن هذا المعنى لم يعدلوا عنه الا للسبب الّذى سبق أن أشرنا اليه ٠

نظم الآيات (٨٨ ـ ١٠٣)

****

وبعد ما ينتهي السياق من ذكر موقف بني اسرائيل من ميثاق الله و رسله على مدى تاريخهم الطّويل المديد الى يومهم هذا ، يعود الى الحديث السّابق ، الّذى كان فيه ، وهو موقفهم من هذا الكتاب الجديد الّذى نزل على النّبيّ الجديد ، فقد جاءت تلك الآيات الخمس عرضا ، للمناسبة الّتي سبق أن أشرنا اليها .

قال تعالى :

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم ، فقليلا ما يؤمنون. ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا ، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحقّ مصدّقا لما معهم . قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . واذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطّور خذوا ماآتيناكم بقوّة و اسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين . قل ان كانت لكم الدّار الآخرة عند الله خالصة من دون النّاس فتمنّوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنّوه أبدا بما قدّمت أيديهم . والله عليم بالظّالمين . ولتجدنّهم أحرص النّاس على حياة . ومن الّذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر ، والله بصير بما يعملون .

قل من كان عدوّا لجبريل فانّه نزّله على قلبك باذن الله مصدّقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوّا لله وملائكته ورسله

و جبريل و ميكال فانّ الله عدوّ للكافرين ٠ ولقد أنزلنا اليك آيات بيّنات ، وما يكفر بها الاّ الفاسقون ٠ أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون ٠ ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون ٠ واتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ٠ وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا ، يعلّمون النّاس السّحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت و ماروت ٠ وما يعلّمان من أحد حتّى يقولا انّما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء و زوجه وما هم بضارّين به من أحد الاّ باذن الله ٠ و يتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ٠ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ٠ ولو أنّهم آمنوا و اتّقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ٠ *

لقد تكرّر في هذه المجموعة ذكر تصديق القرآن لما معهم أو لما بين يديه ثلاث مرّات :

* كتاب من عند الله مصدّق لما معهم * الآية : ٨٩

* وهو الحقّ مصدّقا لما معهم * الآية : ٩١

* مصدّقا لما بين يديه وهدى و بشرى للمؤمنين * الآية : ٩٧

ثمّ شفع ذلك بذكر تصديق الرسول لما معهم :

* ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم * الآية : ١٠١

هذا الوضع يساعدنا في تحديد طبيعة هذه المجموعة من الآيات ، فانّها تعنّف بني اسرائيل على موقفهم من كتاب الله من ناحية جديدة ، وهى أنّهم كذبوا بهذا الكتاب مع أنّه جاء مصدّقا لما معهم أو مصدّقا لما بين يديه ٠

* * ** * *

تحقيق معنى (مصدّقا لما معهم) أو (مصدّقا لما بين يديه) :

وقبل أن نمضي في الحديث نريد أن نقف هنا وقفة قصيرة ، ونتحقّق من معنى قوله تعالى : (مصدّقا لما معهم) أو (مصدّقا لما بين يديه) فانّ له تأثيرا كبيرا في تحديد اتّجاه هذه الآيات ، بالاضافة الى أنّ كثيرا من جلّة المفسّرين ـ رحمهم الله ـ قد حاروا في تفسيره ٠

ولقد تناول الامام الفراهي [1] ـ رحمه الله ـ هذه الكلمة بالبحث والتحقيق ، وهو أحسن ما اطّلعنا عليه في هذا الباب ٠ والمقام لا يتّسع لأن نذكره بكامله ، فلا أقلّ من أن نذكر نبذة منه ٠ يقول ـ رحمه الله ـ :

" (مصدّقا لما بين يديه) : كلمتان لم يفهمهما أكثر النّاس ، فظنّوا أنّ القرآن يشهد للكتب المحرّفة المبدلة ٠٠٠٠ ثمّ يقول ـ رحمه الله ـ :

فاعلم أنّ (صدّقه) له معنيان :

١ ـ شهد بصدق رجل أو كلام ٠٠

٢ ـ جعله صادقا فيما توقّع ٠ قال الحماسيّ :

فدت نفسي وما ملكت يميني * فوارس صدّقت فيهم ظنوني

وفي القرآن : ﴿ ولقد صدّق عليهم ابليس ظنّه فاتّبعوه الا فريقا من المؤمنين ﴾ ٠

---

(1) هو الامام العلاّمة عبد الحميد الفراهي ٠ ولد سنة ١٢٨٠ هـ في (فريها) ـ قرية من قرى الهند ـ وتوفّي في التّاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩ هـ ٠ وكان ـ رحمه الله ـ آية من آيات الله في تضلّعه من علوم القرآن ٠ وكانت له نظرة نافذة عميقة في الأدب العربي القديم ، كما كان له باع طويل في اللغة العبرانيّة ، فاطّلع على التوراة والانجيل والصّحف الأخرى في لغتها ٠ وأماط اللّثام عن كثير من زيغ اليهود وتحريفاتهم في كتبهم ٠
(انظر ما كتبه عنه صديقه العلاّمة السيد سليمان النّدوى في مقدّمة كتابه القيّم : " امعان في أقسام القرآن ") ٠

ثمّ اذا تأمّلت في مواقع هذا القول علمت أنّ المراد هو المعنى الثّاني ، فانّ النّبيّ والقرآن جاءا كما أخبرت بهما التّوراة ، فجعلاها صادقة ، فان كذبوا بالقرآن والنبيّ ، يكن ذلك تكذيبا لكتبهم ٠

وهذا أيضا يظهر اذا تأمّلت أنّ محمدا وعيسى - عليهما الصّلوات - يأتيان بهذا القول مستدلّين به على صحة نبوّتهما ، فأيّ استدلال في أنّهم يشهدون بصدق ما عند اليهود ٠

وان تنبّأ أحد في يومنا هذا وقال انّي آمنت بالأنبياء وأنا نبيّ مثلهم فهل يكون هذا حجّة على دعواه ٠

أمّا موقع الآية فقال تعالى : ﴿ ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الّذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون ﴾

أي لمّا جاءهم محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - حسب ما وجدوا في كتبهم أعرضوا عن كتبهم وأنكروه كأنّهم لا يعلمون ٠ " (١)

هذا ما قاله الامام الفراهيّ في تحقيق معنى هذه الكلمة ٠ ولا شكّ أنّ ما قاله - رحمه الله - في غاية الروعة والدقّة ٠ وهو يغنينا عن التدليل على ضعف ما قاله الامام الشوكاني - رحمه الله - مثلا حيث قال في تأويل الآية :

" وتصديقه لما معهم من التوراة والانجيل أنّه يخبرهم بما فيهما ويصدّقه ولا يخالفه ٠" (٢)

وكذا ما قاله صاحب الظّلال لا ينسجم مع السياق وان كان في نفسه قولا رائعا وجميلا ، حيث قال - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى: ﴿ مصدّقا لما بين يديه ﴾ :

" والقرآن يصدّق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية ، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الالهية ٠" (٣)

---

(١) مفردات القرآن : ٦٤ - ٦٥ (٢) فتح القدير: ١١٢/١
(٣) في ظلال القرآن : ٩٣/١

وبالجملة فهذه الآيات جاءت تعنّف بني اسرائيل على موقفهم السيّئ من كتاب الله مع أنّه جاء مصدّقا لما معهم، حيث انّه حقّق النّبوءات الّتي وردت بها كتبهم، وكان يحمل تلك الصّفات و تلك النّعوت الّتي بشّرت بها رسلهم .

نبوءات حول هذا النّبيّ وهذا القرآن :

ولا بأس بأن ندرس هنا بعض تلك النّبوءات، حتى تتسنّى لنا الرؤية الواضحة لدلالات قوله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا، فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ .

وحتّى نعرف مدى تعنّت بني اسرائيل و جحودهم و كنودهم، و نعرف أنّهم - قاتلهم الله - كيف ردّوا الكرامة الّتي ساقها الله اليهم، مع أنّهم كانوا أولى النّاس بالحرص عليها والمسارعة اليها .

وها هي بعض تلك النّبوءات :

" أقيم لهم نبيّا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به . و يكون أن الانسان الّذي لا يسمع لكلامي، الّذي يتكلّم به باسمي، أنا أطالبه . " (١)

" قال لهم يسوع : أما قرأتم قطّ في الكتب، الحجر الّذي رفضه البنّاءون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الربّ كان هذا، وهو عجيب في أعيننا . لذلك أقول لكم : انّ ملكوت الله ينزع منكم، ويعطى لأمّة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضّض، ومن سقط هو عليه يسحقه . " (٢)

" تنويهات في أفواههم و سيف ذو حدّين في يدهم، ليصنعوا نقمة في الأمم و تأديبات في الشعوب، لأسر ملوكهم بقيود و شرفائهم بكبول من حديد، ليجروا بهم الحكم المكتوب . كرامة هذا لجميع أتقيائه، هللوايا . " (٣)

---

(١) تثنية : باب (١٨)، آيات : ١٨ - ١٩ (٢) انجيل متّى ٢١/٤٢ - ٤٤
(٣) المزمور : ١٤٩/٦ - ٩

" وأمّا الآن فأنا ماض الى الّذى أرسلني ، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي ، لكن لأنّي قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ، لكنّي أقول لكم الحقّ ، انّه خير لكم أن أنطلق ، لأنّه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى ولكن ان ذهبت أرسله اليكم . ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطّية وعلى برّ وعلى دينونة . أمّا على خطّية فلأنّهم لا يؤمنون بي ، وأمّا على برّ فلأنّي ذاهب الى أبي . ولا ترونني أيضا ، وأمّا على دينونة فلأنّ رئيس هذا العالم قد دين . " (١)

لقد كانت هذه النّبوءات وأمثالها موجودة في كتبهم ، وكلّها كانت تنتظر هذا القرآن وهذا النّبيّ لتتحقّق وتبرز الى عالم الواقع.

وبنوا سرائيل كانوا يعرفون ذلك ، وكانوا يترقّبون بلهفة ذلك (الكلام) وذلك (المعزّى) وكانوا يعتقدون أنّه اذا ظهرت تلك البعثة الجديدة ، فستكون الكرّة للحقّ و ستتمّ تلك البشارات كلّها .

وعلى هذا (كانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا) ولكن لمّا جاء ذلك (المعزّى) وجعل الكلام في فمه ، وتحقّقت على يديه بعض تلك النّبوءات ، وبعضها كانت تنتظر أوانها المكتوب ، وهم عرفوا ذلك معرفة لا يشوبها شكّ ، تنكّروا للايمان به ، ووقفوا في وجهه ، وتظاهروا عليه وعلى أصحابه بالاثم والعدوان ، كما مرّ ذلك قريبا في الفقرة السابقة .

فهذه الآيات تلومهم على موقفهم السّيئ نحو كتاب الله ، ثمّ تكشف الدّاء الدويّ ، الّذى كانوا يعانون منه ، والّذى حملهم على اتّخاذ هذا الموقف المشين نحو كتاب الله ، ألا وهو البغى ، ذلك الدّاء القديم الّذى لم يفارقهم في فترة من فترات تاريخهم الطّويل المديد :

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾

وقد بلغ منهم البغى مبلغه ، حتّى أعمى قلوبهم كما أعمى أبصارهم ،

---

(١) انجيل يوحنّا : ١٦/٥ - ١١

فلم يقدّروا تلك النّتائج الّتي تترتّب على بغيهم ، فانّ هذا البغى لم يكن بغيا في شأن نبيّ دون نبيّ ، أو في شأن كتاب دون كتاب ، وانّما كان معناه التخلّي عن أصل الايمان وعن مبدأ الايمان ، فانّهم كفروا بالحقّ الّذى جاء مصدّقا لما معهم . وبذلك كفروا بجميع الكتب المنزّلة ، الّتي كانت عندهم ، والّتي كانت تبشّر بمجيء هذا النّبيّ وهذا القرآن .

ثمّ هذا البغى لم يكن ينمّ عن تخلّيهم عن الايمان في وقتهم الحاضر فقط ، بل كان ينمّ عن تخلّيهم عن الايمان في سالف أزمانهم على مدى تاريخهم ، فانّ كفرهم و بغيهم اليوم لم يكن الاّ نتيجة طبيعيّة لكفرهم و بغيهم بالأمس .

ولذلك نرى القرآن أخذ عليهم قولهم : (نؤمن بما أنزل علينا) ثمّ أشبع هذه الدّعوى الكاذبة ردّا و تفنيدا ، حيث وضع أمامهم تاريخهم الّذى يناقض دعواهم و يجلّلهم بعار لا يفارقهم :

﴿ قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . واذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطّور ، خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين . ﴾

وبعد ما انتهى النّصّ من تفنيد ما كانوا يدّعون من الايمان بما أنزل عليهم في ضوء واقعهم على مدى تاريخهم ، عاد ففنّد المفهوم الخاطئ لما أنزل عليهم — ذلك المفهوم الخاطئ ، الّذى يفسّر الكتاب بالأماني و يعد في الآخرة بالحسنى بدون عمل يعمل أو بدون جهد يبذل ، بل ومع سيّئة تكسب و خطيئة ترتكب !!

كما أنّه لا يمنع أن يعتبر الانسان نفسه من أهل الكتاب ، ومن المؤمنين بالكتاب ومن المستحقّين لكلّ ما يعد به الكتاب ، وان كان الواقع أنّ الكتاب نفسه يتبرّأ منه و يعاديه !

وكان وضع بني اسرائيل في يومهم ذاك أشبه بذلك ، فانّه قد لصق بأذهان كثير منهم ذلك المفهوم الخاطئ ، بل قد سيطر عليها ، فهم كانوا يعيشونه وكانوا يفسّرون الكتاب بتلك الأماني ، وكانوا يزعمون أنّهم أهل الكتاب ، ومن المؤمنين بالكتاب ، ومن المستحقّين لكلّ ما يعد به الكتاب ، كائنا ما كان عملهم ، كما قال تعالى :

﴿ ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب الّا أمانيّ وان هم الّا يظنّون ﴾

وقال تعالى :

﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة الّا من كان هودا أو نصارى ﴾

ولعلّ هذا التصور الخاطئ للايمان هو الّذى حدا بهم الى البغى ، وحدا بهم الى أن يقولوا : (قلوبنا غلف) ويقولوا : (نؤمن بما أنزل علينا !)

فتناول السياق زعمهم هذا أو تصوّرهم هذا بالردّ والتفنيد :

﴿ قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون النّاس فتمنّوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنّوه أبدا بما قدّمت أيديهم ، والله عليم بالظّالمين . ولتجدنّهم أحرص النّاس على حياة ومن الّذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر ، والله بصير بما يعملون ﴾

وبعد ما ينتهي السياق من تبكيتهم على بغيهم وكفرهم بما أنزل الله لغير ما سبب ، الّا أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده ، ينبّههم الى أنّ عدائهم لهذا النّبيّ ، أو لهذا القرآن ليس أمرا هيّنا ، بل هو عداء يمتدّ و يتّسع حتى يصل الى جبريل - عليه السلام - فانّه هو الّذى نزّل القرآن على قلب هذا النبيّ باذن ربّه .

فمن عادى هذا النبيّ أو هذا القرآن ، فكأنّه عادى جبريل .

ثمّ ليس هذا غاية الأمر ، بل يمتدّ عداؤه الى الله ، فانّ جبريل ما نزّل هذا القرآن من عند نفسه ، وانّما نزّله باذن الله ومن عند الله . فمن كان عدوّا لهذا النبيّ أو لهذا القرآن ، فهو في الحقيقة عدوّ لجبريل ، ثمّ عدوّ لله !

ثمّ هذا النبيّ و هذا القرآن جاءا مصدّقين لما بين يديهما من الكتب الالهية المقدّسة ، فمن كذب بهذا القرآن ، فكأنّه كذب بتلك الكتب كلّها ، ومن كذب هذا النّبيّ فكأنّه كذب أولئك الأنبياء كلّهم ٠

وكما أنّ عداء هذا النبيّ أو هذا القرآن يستلزم عداء جبريل الّذى نزّله على قلب هذا النّبي باذن ربّه ، فكذلك يستلزم عداء ميكال الّذى نزل بتلك الكتب السابقة ، الّتي تبشّر بمجيء هذا النّبيّ وهذا القرآن ٠

ثمّ الملائكة كلّهم أسرة واحدة ، كما أنّ الرسل والأنبياء كلّهم أسرة واحدة ٠ فمن كان عدوّا لأحد منهم فهو عدوّ للجميع !

وهكذا تجرّ عداوة هذا النّبي وهذا القرآن الى عداوة الله و رسله و ملائكته أجمعين ! فذلك قوله تعالى :

﴿ قل من كان عدوّا لجبريل فانّه نزّله على قلبك باذن الله مصدّقا لما بين يديه وهدى و بشرى للمؤمنين ٠ من كان عدوّا لله وملائكته و رسله وجبريل وميكال فانّ الله عدوّ للكافرين ٠ ﴾

سبب نزول الآيتين :

ولقد وردت في سبب نزول هاتين الآيتين روايات، منها ما روى عن ابن عبّاس - رضى الله عنهما - أنّه قال :

" أقبلت يهود على رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - فقالوا : يا أبا القاسم ، أخبرنا عن خمسة أشياء ، فان أنبأتنا بهنّ عرفنا أنّك نبيّ واتّبعناك — في حديث طويل — ثمّ قالوا : انّما بقيت واحدة ، وهى الّتي نتابعك ان أخبرتنا بها ، انّه ليس من نبيّ الا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : جبريل - عليه السلام - ٠ قالوا : جبريل ذاك الّذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوّنا ، لو قلت : ميكائيل، الّذى ينزل بالرحمة والقطر والنّبات لكان ، فأنزل الله تعالى :

﴿ قل من كان عدوّا لجبريل فانّه نزّله على قلبك باذن الله ﴾ الى آخر الآية [1] "

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٣٠/١

الاشكال الأوّل :

وهذه الرواية وأمثالها لا تخلو من اشكال . وموضع الاشكال فيها أنّنا اذا اعتبرناها تفسيرا لسبب نزول هاتين الآيتين ، فانّنا لا نجد محملا صحيحا للآية الأولى منهما .

وبيانه أنّ تلك الروايات تقتضي أن تكون الآية على نحو هذه العبارة : (قل من كان عدوّا لجبريل فانّ الله وملائكته ورسله وميكال عدوّ للكافرين) وأمّا قوله تعالى : ﴿ فانّه نزّله على قلبك باذن الله مصدّقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ فانّنا لا نكاد نجد له محملا واضحا ، ولا نكاد نطّلع على سرّ هذه الزّيادة .

الاشكال الثّاني :

وهناك اشكال آخر غير هذا الاشكال وهو أنّ جبريل - عليه السلام - ليس من شأنه أن ينزل بالحرب والقتال والعذاب ، كما أنّ ميكال - عليه السلام - ليس من شأنه أن ينزل بالقطر والنّبات ، وانّما الواقع أنّ كليهما من ملائكة الوحي .

فأمّا جبريل فأمره أشهر من أن يذكر .

وأمّا ميكال فانّ هذه الآيات تشير بنظامها الى اختصاصه بالوحي . وسنزيده بيانا فيما بعد .

وقد نستأنس هنا بقول ورقة بن نوفل حيث قال :

وجبريل يأتيه وميكال معهما * من الله وحي يشرح الصّدر منزل (١)

وقال جرير :

عبدوا الصّليب وكذبوا بمحمّد * وبجبرئيل وكذبوا ميكالا (٢)

هذان البيتان ان دلّا على شيء فانّما يدلّان على أنّ ميكال كان معروفا عند النّاس بكونه من ملائكة الوحي .

---

(١) زاد المسير : ١١٧/١
(٢) شرح ديوان جرير للصّاوي : ص/ ٤٥٠

ثمّ نرى (العهد الجديد) يذكر في وصف ميكال أنّه رئيس الملائكة .[(١)] ولا يبعد أن يكون هذا الوصف باعتبار أنّه كان ينزل بالوحي على أنبياء بني اسرائيل ، كما أنّ جبريل معروف عندنا بهذا الوصف باعتبار أنّه كان ينزل بالوحي على نبيّنا - عليه الصّلاة والسّلام -

ثمّ انّ القرآن نصّ على كون جبريل (مكينا مطاعا) في سياق أنّه هو الّذى نزل بهذا القرآن ، حيث قال تعالى :

﴿ انّه لقول رسول كريم . ذى قوّة عند ذى العرش مكين . مطاع ثمّ أمين . ﴾[(٢)]

وبناءا على هذا النّصّ يتبادر الى الذهن أنّ جبريل - عليه السلام - هو رئيس الملائكة وسيّدهم . وربّنا سبحانه وتعالى ادّخره حتّى ينزل بالوحي على سيّد ولد آدم - عليهما الصّلاة والسلام - تشريفا له و تنويها بشأنه و مكانته .

وأرسل ميكال - وهو واحد من وزراء جبريل - الى أنبياء بني اسرائيل . فزعم بنو اسرائيل أنّه (رئيس الملائكة) باعتبار أنّه كان ينزل بالوحي الى أنبيائهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

روايات تؤكّد نزول ميكال بالوحي :

وممّا يدلّ على أنّ ميكال هو الّذى كان ينزل بالوحي على أنبياء بني اسرائيل ما أخرجه سفيان بن عيينة عن عكرمة قال : (كان عمر يأتي يهود يكلّمهم فقالوا : انّه ليس من أصحابك أحد أكثر اتيانا الينا منك ، فأخبرنا من صاحب صاحبك الّذى يأتيه بالوحي ؟ فقال : جبريل . فقالوا : ذاك عدوّنا من الملائكة ، ولو أنّ صاحبه صاحب صاحبنا لاتّبعناه ، فقال عمر : من صاحب صاحبكم ؟ قالوا : ميكائيل .[(٣)]

---

(١) انظر يهوذا : ٩
(٢) سورة التكوير : ١٩ - ٢١
(٣) انظر الدّرّ المنثور : ٢٢٣/١

وأخرج ابن جرير عن السّدّى قال : "لمّا كان لعمر أرض بأعلى المدينة فكان يأتيها ، وكان ممرّه على مدارس اليهود ، وكان كلّما مرّ دخل عليهم فسمع منهم ، وانّه دخل عليهم ذات يوم فقال لهم : أنشدكم بالرحمن الّذى أنزل التّوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمّدا عندكم ؟ قالوا : نعم ، انّا نجده مكتوبا عندنا ولكن صاحبه من الملائكة ، الّذى يأتيه بالوحى جبريل وجبريل عدوّنا وهو صاحب كلّ عذاب و قتال و خسف ، ولوكان وليّه ميكائيل لآمنّا به ، فانّ ميكائيل صاحب كلّ رحمة و كلّ غيث ." (١)

وعن أنس قال : " سمع عبدالله بن سلاّم بقدوم رسول الله ـ صلّى اللهعليهوسلّم ـ وهو في أرض يخترف ، فأتى النّبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فقال : انّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ الاّ نبيّ ، فما أوّل أشراط السّاعة ، وماأوّل طعام أهل الجنّة ، وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمّه ؟ قال : أخبرني بهنّ جبريل آنفا . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدوّ اليهود من الملائكة . " (٢)

فالرواية الأولى واضحة في أنّ ميكال هو الّذى كان ينزل بالوحى على سيّدنا موسى .

وكذا الرواية الثّانيةتشير الى ذلك اشارة واضحة .

وأمّا الرواية الثّالثةفهى تفيد أنّ نزول جبريل بالوحى لم يكن معهودا عندهم . ولذلك استغرب عبدالله بن سلاّم لمّا قال النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ :"أخبرني جبريل بهنّ آنفا" وقال : جبريل ؟

وأمّا نظام الآيات ، فهو أيضا يدلّ على أنّ التوراة والانجيل وما عداهما كان من وحى ميكال ، كما أنّ القرآن من وحى جبريل ـ عليهما الصّلاة والسّلام ـ .

---

(١) تفسيرالطّبرى : ٤٣٤/١ (باختصار في العبارة) .
(٢) صحيح البخارى : كتاب تفسيرالقرآن ، باب : ٦ ، ١٤٨/٥

وكما أنّ عدوّ القرآن هو عدوّ جبريل ، لأنّه هو الّذى نزل بالقرآن ، فكذلك عدوّ التوراة والانجيل هو عدوّ ميكال ، لأنّه هوالذى نزل بهما .

ثمّ انّ القرآن جاء مصدّقا لما بين يديه من التوراة والانجيل فتلزم من عداوته عداوة التوراة والانجيل ، وبالتّالي عداوة ميكال ، ثمّ عداوة الله و رسله و ملائكته أجمعين .

فهذا النّظم ، نعني ذكر القرآن من حيث انّه مصدّق لما بين يديه ، ثمّ ذكر عداوة جبريل بعد ذكر الكفر بالقرآن ، ثمّ قران عداوة ميكال بعداوة جبريل ، هذا النّظم يدلّ دلالة واضحة على ما أشرنا اليه . ولله الحمد وله الشكر على ما هدانا اليه .

الاشكال الثّالث :

ثمّ هناك اشكال آخر من ناحية الأسلوب ، وهو أنّ هاتين الآيتين (٩٨،٩٧) جاءتا على أسلوب واحد ، فلا بدّ أن تفسّر الأولى بما تفسّر به الأخرى .

فان فسّرت الآية الأولى بأنّهم كانوا على عداوة سابقة مع جبريل فلا بدّ أن تفسّر الآية الأخرى كذلك بأنّهم كانوا على عداوة سابقة مع الله وملائكته و رسله و جبريل وميكال . وهذا خلاف الواقع ،ولم يقل به أحد .

فلا بدّ أن نفسّر الآية الأولى بما تستقيم به الأخرى ، وهو أنّهم كفروا بالقرآن و صاروا له أعداء ، ولم يتفكّروا أنّ هذه العداوة لن تظلّ عداوة واحدة ، بل تجلب عليهم العداوات كلّها : عداوة جبريل، و ميكال ، وعداوة الله و رسله و ملائكته أجمعين .

وعلى هذا فالروايات الّتي وردت في سبب نزول هاتين الآيتين توقفنا أمام عدّة اشكالات . وليس أمامنا بعد ذلك الاّ أن نقول : ان صحّت تلك الروايات فانّها لا تفسّر لنا السبب الحقيقيّ لنزول هاتين الآيتين ،

بل الآيتان نزلتا قبل أن يقول اليهود ما قالوا للمناسبة الّتي أشرنا اليها .

ثمّ قرأهما النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - استشهادا بهما على مصير اليهود ، حين قالوا تلك الكلمة الكاذبة الخاطئة .

ولم يكن الأمر في الواقع كما تذكر لنا تلك الروايات ، ولكنّ المكابرة والعزّة بالاثم هى الّتي أنطقتنهم بما نطقوا .

فكانت هذه الواقعة أيضا ممّا تشمله الآية بعمومها ، ولم تكن السبب الحقيقي لنزولها .

وبعد ما ينتهي السياق من انذار هؤلاء اليهود سوء مغبّة الكفر بالقرآن، يزيدهم فيلومهم و يعنّفهم على ولعهم بنبذ العهود و تعوّدهم عليه ، فانّ عادتهم هذه أو طبيعتهم هذه هى الّتي حملتهم على الكفر بالقرآن و تكذيب الرسول كما حملتهم على مثله فيما مضى من تاريخهم القديم :

﴿ ولقد أنزلنا اليك آيات بيّنات وما يكفر بها الاّ الفاسقون . أوكلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون . ولمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الّذين أوتوا الكتاب ، كتاب الله وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون . ﴾

فهم نبذوا القرآن و كذبوا الرسول ، مع أنّهم كانوا على موعد معهما ، وقد بشّرت بهما كتبهم ووصّت بهما رسلهم ، ولم يكن أمرهما خافيا عليهم ، بل عرفوهما معرفة لا يشوبها شكّ .

ولكن - مع ذلك - قد كان لتصرّفهم هذا نوع من المعقوليّة ، أو كان موقفهم هذا مفهوما الى حدّ ما ، لو أنّهم عدلوا عن القرآن والنّبيّ الى ما يعادلهما أو يقاربهما في السّموّ و الشّرف ان لم يكن يفوقهما ، ولكنّهم - قاتلهم الله - تبدّلوا الخبيث بالطّيّب ، وتبدّلوا الهابط بالرفيع .

انّهم تبدّلوا ماتتلو الشياطين بما أنزل على الرسل والنّبيّين ، وتبدّلوا ما أنزل على الملكين فتنة لهم ، بما جاءهم مصدّقا لما معهم وهدى و بشرى للمؤمنين :

﴿ واتّبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا ، يعلّمون النّاس السّحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت و ماروت ، وما يعلّمان من أحد حتّى يقولا انّما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ٠ وما هم بضارّين به من أحد الاّ باذن الله ، ويتعلّمون ما يضرّهم و لا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ٠ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ٠ ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾

انّهم (كانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا) فلمّا استجيبت دعوتهم ، وجاءهم ذلكم النّبيّ وذلكم القرآن - وكان من شأنهما أن يجلبا اليهم النّصر و يعيدا اليهم المجد الضّائع والكرامة المفقودة - ناصبوهما العداء و عدلوا عنهما الى السّحر ، ظنّا منهم أنّ هذا يغني غناءهما ، فقد أوحى اليهم شياطينهم - كذبا وافتراء - أنّ ملك سليمان - ذلكم الملك الواسع العريض - كان كلّه يعتمد على السحر ٠

وكذلك اعتقدوا فيما أنزل على هاروت و ماروت أنّه يساعدهم في الانتصار على من عاداهم ، ويساعدهم في الحاق الضّرر بهاذا أرادوا ، فكانوا يفرّقون به بين المرء و زوجه ، مع علمهم بأنّ الملكين ماجاءا الاّ فتنة لطغاتهم ، المتلاعبين بكتاب ربّهم ، وكلّ ماتلقّوه منهما سيكون وبالا عليهم ٠

وبالجملة فهم عدلوا عن كتاب الله و عن رسول الله الى السحر والى ما أنزل على الملكين ، ولم يتفكّروا أنّ أىّ واحد منهما لا يغني غناءهما ، بالاضافة الى أنّهما كفر ، وأنّهما يجلبان عليهم سخط الله في الدّنيا والآخرة ٠

ويالها من تجارة بائرة و صفقة خاسرة !

﴿ لبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾

نظـــم الآيـــات (١٠٤ ـ ١١٠)

****

هنا نرى في السورة أوّل مـرة أنّ السياق يتوجّـه بالخطاب المباشـر الى الّذين آمنوا ، بوصفهم أنّهم آمنوا ، حيث يقول :(يا أيّها الّذين آمنوا)

يتوجّـه بالخطاب اليهم بعد ما نبذ بنوا سرائيل هذا القرآن ، ولم يتركوا مطمعا لطامع في ايمانهـم :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا ، وقولوا انظـرنا واسمعوا وللكافرين عـذاب أليم . ما يودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربّكم . والله يختصّ برحمته من يشاء . والله ذو الفضـل العظيم . ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلهـا ، ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير . ألم تعلم أنّ الله له ملك السّموات والأرض ، وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير. أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدّل الكفر بالايمان فقد ضلّ سواء السبيل . ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفّارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ ، فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى الله بأمـره ، انّ الله على كلّ شيء قدير . وأقيموا الصّـلاة وآتوا الزّكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجـدوه عند الله . انّ الله بما تعملون بصير. ﴾

يكشف التّأمّل في هذه الآيات أنّ بني اسرائيل لم يقتصروا على نبذ كتاب الله وراء ظهورهم ، بل تجـاوزوا ذلك الى بلبلة أفكار المسلمين، وزعـزعة ثقتهم بالرسالة الجـديدة. انّهم بدأوا يغزون المسلمين في معتقداتهم ، حتّى يردّوهم من بعد ايمانهم كفّارا حسدا من عند أنفسهم.

وقد ساعدهم على ذلك أنّ القرآن قد نسخ كثيرا من مقولاتهـم الغريبـة الشّاذة ، الّتي كانوا مستمسكين بها ، وعاملين على اشاعتهـا في النّاس ، وكأنّها من عند الله ، وما هي من عند الله .

وكان من تلك المقولات ـ مثلا ـ أنّهم اشتغلوا بالسحـر ـ كما مرّ

معنا في الفقرة السابقة - وزيّنوه للنّاس بأنّ نبيّ الله سليمان كان يشتغل بالسحر . وملكه العظيم ، الّذى لم يؤت أحد مثله ، كان كلّه يعتمد على السحر .

فجاء القرآن ونسخ هذه الافتراءات الباطلة ونصّ على أنّ السحر كفر، وأنّ نبيّ الله سليمان كان بريئا من هذا الكفر .

وكذلك شغلوا أنفسهم بما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، مع علمهم بأنّهما ماجاءا بماجاءا به الاّ فتنة لهم . وأنّ ماجاءا به كفر ، ولكنّهم اشتغلوا به محتجّين بأنّه علم أنزل على الملكين ، وأنّه من عندالله ، وهكذا .

فنسخ القرآن هذه الأقوال وأمثالها ، بالاضافة الى مانسخ من الشرائع السابقة ، الّتي كانت بحاجة الى تعديل حسب الظّروف والملابسات المتجدّدة ، و ستأتي بعض النّماذج لهذا النّسخ في محلّها في نفس السورة .

فاستغلّ أعداء الله هذه الفرصة ، ونفثوا في روع الضّعفاء أنّ هذا الرجل ان كان نبيّا فلماذا ينسخ الشرائع السابقة ؟ ولماذا يخالف ملّة الأنبياء الآخرين ؟

وكانت هذه الحملة الماكرة الخبيثة ناجحة في بعض قلوب المسلمين ، فهم وجّهوا هذه الأسئلة المريبة الى الرسول ، وكأنّهم قد خالجهم الشكّ فيما جاء به - صلّى الله عليه وسلّم - .

فجاءت تلك الآيات تعالج هذا الوضع ، وتبيّن للنّاس حقيقة هذه الحملة المسعورة الماكرة ، مع التنبيه الى مايليق بهم في مثل هذا الوضع من السمع والطّاعة والاذعان للرسول .

وقد كان هذا التنبيه أوّل مابدأت به هذه الآيات . قال تعالى : ﴿ ياأيّها الّذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ، وللكافرين عذاب أليم . ﴾

تأويل (راعنا) كما وردت به الروايات :

لقد اختلف النّاس في تأويل هذه الآية وذهبوا مذاهب شتّى .

فمنهم من قال : تأويله لا تقولوا خلافا .

ومنهم من قال : تأويله أرعنا سمعك : أي اسمع منّا ونسمع منك.(١)

ومنهم من قرأه (راعنا) بالتنوين ، قال ابن قتيبة في تفسيره : ومن قرأها راعنا بالتنوين ، أراد : اسما مأخوذا من الرعن والرعونة ، أي لا تقولوا : حمقا ولا جهلا .(٢)

ثمّ اختلف أهل التأويل في سبب هذا النّهي ، فمنهم من قال :

هي كلمة كانت اليهود تقولها على وجه الاستهزاء والمسبّة ، فنهى الله تعالى ذكره المؤمنين أن يقولوا ذلك للنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - كما روى عن قتادة وعطيّة وابن عبّاس وابن زيد . وقال بعضهم : بل كان ذلك كلام يهودي من اليهود بعينه ، يقال له رفاعة بن زيد ، كان يكلّم النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - به على وجه السّبّ له ، وكان المسلمون أخذوا ذلك عنه ، فنهى الله المؤمنين عن قيله للنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم -

ومنهم من قال : بل هي كلمة كانت الأنصار في الجاهليّة تقولها ، فنهاهم الله في الاسلام ، أن يقولوها للنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - كما روى عن عطاء وأبي العالية .(٣)

تلك الأقوال المعروفة في تأويل قوله تعالى :(لا تقولوا راعنا) ولا نريد أن نقف عندها طويلا ، فقد كفانا الامام ابن جرير - رحمه الله - مئونة الكلام عليها ، ووضعها في نصابها بعد ما أفاض فيها القول من شتّى نواحيها .

---

(١) انظر تفسير الطّبري : ٤٦٩/١

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : ص / ٦٠

(٣) انظر تفسير الطّبري : ٤٦٩/١ - ٤٧٠

وانّما نريد هنا أن نضيف الى ما قاله - رحمه الله - كلمة واحدة ، وهى أنّ هذه التأويلات كلّها لا تتلاءم مع سياق الآيات ، بل هى تصرفها عن وجهها و تقطعها عمّا بين يديها وما خلفها .

وهذا السبب وحده يكفي للحكم عليها ، بغضّ النّظر عن الموانع الأخر ، الّتي نبّه اليها ابن جرير - رحمه الله - .

اختيار الامام ابن جرير :

واذ كانت هذه التأويلات لا ترضيه - رحمه الله - فهو يعدل عنها ، ويذكر لنا تأويلا آخر يترجّح عنده فيقول :

" والصّواب من القول في نهى الله جلّ ثناؤه المؤمنين أن يقولوا لنبيّه : راعنا أن يقال انّها كلمة كرهها الله لهم أن يقولوها لنبيّه - صلّى الله عليه وسلّم - نظير الّذى ذكر عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أنّه قال : (لا تقولوا للعنب الكرم ، ولكن قولوا الحبلة ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى) وما أشبه ذلك من الكلمتين اللّتين تكونان مستعملتين بمعنى واحد في كلام العرب ، فتأتي الكراهة أو النّهى باستعمال احداهما و اختيار الأخرى عليها في المخاطبات . " (١)

هذا ما يراه ابن جرير في تأويل الآية . والجدير بالذكر أنّ تأويله هذا لا يختلف كثيرا عن التأويلات الأخر ، الّتي عدل عنها ، فانّه أيضا - كغيره من الأقوال - لا يتلاءم مع السياق ، ولا يستقيم معه النّظام .

بالاضافة الى أنّه لا يستند الى دليل ، ولا يزيد على أن يكون قياسا ليس له أساس .

وهنا يثور سؤال : فما هو التأويل الصّحيح اذا ؟

انّ تأويل الآية واضح و ميسّر باذن الله ، ولكن قبل أن نخوض في تأويل الآية نريد أن نعرف معنى قوله تعالى : (لا تقولوا راعنا) ،

---

(١) تفسير الطّبرى : ٤٧١/١

فانّ الخطأ في تفسير (راعنا) هو الّذى يوقعنا في حيرة، ويحجب عنّا تأويل الآيــة .

تحقيق القول في معنى(راعنا) و(انظرنا) :

انّ لفظ المراعاة يتضمّن فيما يتضمّن معنى التبرّم والاستثقال وعدم الثّقة و سوء الظّنّ . فاذا قال التلميذ لأستاذه ـ مثلا ـ أوالجندى لأميره :(راعنا) فمعنى ذلك أنّه متضجّــر من معاملته، مستثقل لتصرّفاته، غيرواثق من حبّه ورعايته، فهو يسأله الرعاية و يطالبه بها .

هذه هى طبيعة هذه الكلمة كما نستوحي من مواقع استعمالهــا في كلام العرب .

ولا بأس بأن نزيد فنقول : انّ هــذه الكلمة قد تقارب فــي طبيعتها كلمة (العصيان) أو تحمل في طيّها رائحــة العصيان . ولذلك نراها قد قرنتها في قوله تعالى :

﴿ من الّذين هادوا يحــرّفون الكلم عن مواضعــه ويقولون سمعنا و عصينا ، واسمع غير مسمع و راعنا ليّا بألسنتهم و طعنا في الدّين ولو أنّهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظــرنا لكان خيرا لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهــم ، فلا يؤمنون الاّ قليلا . ﴾ (١)

فهم كانوا يلوون ألسنتهم بـ(عصينا)، حتّى يوهموا السامعين أنّهم يقولون (أطعنا) وكانوا يقولون (راعنا) وبذلك كانوا يطعنون في الدّين، و يظهرون أنّه أصبح عبئا ثقيلا عليهم ، بحيث انّهم لا يكادون ينهضون بتكاليفه .

وكما أنّ كلمة (راعنا) نسيب العصيان ، فكذلك كلمة (انظرنا) نسيب الشوق والمودّة وكمال الخضوع و تمام الثّقة و طلب المزيد ، فتلك المعاني كلّها داخلة في كلمة (انظــرنا) كما نستوحيها من مواقع استعمالها . و بتلك المعاني تكــرّر استعمالها في القرآن . قال تعالى :

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ (٢)

---

(١) ســورة النّساء : ٤٦ (٢) ســورة الحديد : ١٣

لقد فسّرت كلمة (انظرونا) بمعنى (انتظرونا) وهذا التفسير قد يصحّ على وجه التقريب ، والاّ فمعنى (انظرونا) أوسع و أدقّ من معنى (انتظرونا) ٠

اللّهمّ الاّ أن يقال : انّ الانتظار أيضا يوحي بمعنى المودّة والثّقة المتبادلة بين الطّرفين ، فانّ الشخص لا ينتظر الاّ من يحبّ ، ولا يطلب من غيره أن ينتظره الاّ اذا كان هو يحبّه ٠

فيكون معنى الآية ـ اذا أردنا التعبير الشامل عن ايحاءاتها ـ انتظرونا ، ارحمونا ، تكرّموا علينا ، ساعدونا ، دعونا نقتبس من نوركم ٠

وعلى هذا فلا يصحّ القول بأنّ كلمة (راعنا) مرادفة لكلمة (انظرنا) ، بل الصّحيح أنّ العلاقة بينهما كالعلاقة بين الضّدّين ولا تقارب بينهما ٠

تأويل الآية كما يمليه علينا السياق :

والآن نعود الى تأويل الآية فنقول :

بعد ما انتهى السياق من تاريخ بني اسرائيل ـ التاريخ الّذى يعجّ بالمخالفات والانحرافات والاباء والتمرّد والعصيان ـ جاءت هذه الآية تحذر المؤمنين من أن يقفوا من نبيّهم موقف بني اسرائيل من أنبيائهم ، حيث انّهم درجوا على قولهم : (سمعنا وعصينا) واستثقلوا دائما ماجاءت به رسلهم من عند الله ، وقد مرّ معنا في الفقرة السّالفة قولهم المرذول هذا ، حيث قال تعالى :

﴿ واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور، خذوا ما آتيناكم بقوّة واسمعوا ، قالوا سمعنا و عصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾

فجاءت هذه الآية تحذر المؤمنين من هذا الموقف السيّء ، و ترغّبهم في السمع و الطّاعة والاذعان للرسول ، بل واظهار الشوق والتلهّف والاستزادة ممّا جاء به الرسول :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ٠ ﴾

و نُبِّهَ المسلمون في نفس الوقت الى موضع الخطر ، وأمروا أن يكونوا دائما على حذر من هؤلاء الكفّار ، فانّهم ما يرضيهم أن يسعد المسلمون بهذا الخير، الّذى نزل اليهم من ربّهم في صورة القرآن ،فهم يسعون سعيهم ليشكّكوهم فيه و يصرفوهم عنه ٠

وكان الّذى أمدّهم في هذا الغزو الفكرى الرهيب ، هو أنّ القرآن قد نسخ كثيرا ممّا كانوا عليه ٠ فاستغلّه هؤلاء الأعداء لبلبلة أفكار المسلمين و زعزعة ثقتهم بالنّبيّ و بالقرآن ٠

فحسم القرآن جذور هذه الفتنة ، وطمّن المسلمين أنّ هذا النّسخ ليس شيئا مريبا ، كما يصوّره الأعداء المغرضون ٠ وانّما هو سلّم الى الخير الّذى أراده الله لهم ٠

و يمزج النّصّ هذا الخطاب بشيءٍ من العتاب ، و يزجر المسلمين عن الاستجابة لكلّ ناعق ، و عن ازعاج الرسول بأسئلة لا تتناسب الّا مع طبيعة الطّغاة من اليهود، الّذين آذوا موسى بجماحهم و عصيانهم وكثرة سؤالهم ٠

ثمّ يعهد الى المسلمين أن يكونوا على حذر من أهل الكتاب ، لأنّهم لا يثيرون ما يثيرون في صدورهم من مثل هذه الأسئلة ، ولا يزرعون ما يزرعون في نفوسهم من هذه الشكوك والشبهات مودّة و نصيحة لهم ٠ وانّما هم يحسدونهم و يريدون أن يعودوا بهم الى الكفر من بعد ايمانهم ٠

ولتلك المناسبة توجه الوصيّة الى المسلمين باقام الصّلاة وايتاء الزّكاة ، فانّهما هما الحصنان المنيعان أو الدّرعان الواقيان من وساوس كلّ وسواس ، سواء كان من الجنّة أو كان من النّاس ٠

سبب نزول :(مانسخ من آية أو ننسها ٠٠٠ الآية) :

وقبل أن ننتقل من هذه الآيات الى ما بعدها نودّ أن تكون لنا وقفة عند ماورد في سبب نزولها ٠ فانّه يختلف اختلافا كبيرا عمّا فسّرنا به تلك الآيات ٠

فقد ورد في سبب نزول قوله تعالى :(مانسخ من آية أو ننسها ٠٠ الآية) مايلي :

" أخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عبّاس ، قال : كان ممّا ينزل على النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - الوحي بالليل وينساه بالنّهار، فأنزل الله عزّوجلّ : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) " (١)

ولقد ورد عن جماعة من أهل التأويل ما يقارب هذا المعنى ، فقد ورد عن قتادة في تأويل هذه الآية ، قال : كان ينسخ الآية بالآية بعدها ، ويقرأ نبيّ الله - صلّى الله عليه وسلّم - الآية أو أكثر من ذلك ثمّ تنسى و ترفع .

وعن الحسن أنّه قال في قوله (أو ننسها) قال : انّ نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم - أقرئ قرآنا ثمّ نسيه . وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يتأوّل الآية لأنّه كان يقرأها (أو تنسها) بمعنى الخطاب لرسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - ، كأنّه عنى : أو تنسها أنت يا محمّد . (٢)

هذا ما ورد في سبب نزول هذه الآية وفي تأويلها ، فلننظر ما مدى صحّة هذه الروايات وما مدى قوّتها ، وأنّها هل تصلح لأن تكون حجّة على من عدل عنها ؟

فأمّا الرواية الأولى فقد قال عنها الامام الشوكاني - رحمه الله - بعد ما ذكرها في تفسيره :

" وفي اسناده الحجّاج الجزرى ينظر فيه . " (٣)

وأمّا بقيّة الروايات فيكفينا لعدم حجّيتها أنّ الأئمّة الثّقات لم يلتزموا بها . فهذا الامام ابن الجوزى - رحمه الله - يعدل في تفسيره عن هذه الروايات كلّها ، ويذكر لنزول تلك الآية سببا آخر، فيقول :

" سبب نزولها أنّ اليهود قالت لمّا نسخت القبلة : انّ محمّدا يحلّ لأصحابه اذا شاء، ويحرّم عليهم اذا شاء ، فنزلت هذه الآية . " (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٥٠/١ (٢) تفسير الطّبرى : ٤٧٦/١
(٣) فتح القدير : ١٢٧/١ (٤) زاد المسير : ١٢٧/١

ويشبه ذلك ما قاله الامام القرطبي - رحمه الله - في سبب نزول تلك الآية ، حيث قال :

" وهذه آية عظمى في الأحكام ، وسببها أنّ اليهود لمّا حسدوا المسلمين في التوجّه الى الكعبة و طعنوا في الاسلام بذلك ، وقالوا : انّ محمّدا يأمر أصحابه بشيء ثمّ ينهاهم عنه ،فما كان هذا القرآن الا من جهته ، ولهذا يناقض بعضه بعضا ، فأنزل الله : (واذا بدّلنا آية مكان آية) وأنزل : (ماننسخ من آية) .(١)

ويقارب ذلك ما قاله الامام الزمخشري والامام الرازي - رحمهما الله - في تأويل تلك الآية .(٢)

تأويل الامام ابن جرير وعدد من كبار المفسّرين :

وكذلك الوضع عند الامام ابن جرير - رحمه الله - فانّه وان كان قد ذكر هذه الروايات كلّها في تفسيره ، الا أنّه لم يلتزم بها في تأويل الآية ، يقول - رحمه الله - :

" فتأويل الآية اذا : ألم تعلم يا محمّد أنّ لي ملك السموات والأرض و سلطانهما دون غيري أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء ، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء . وأنهى عمّا أشاء ، وأنسخ و أبدّل وأغيّر من أحكامي ، التي أحكم بها في عبادي ما أشاء اذا أشاء ، وأقرّ منها ما أشاء . وهذا الخبر وان كان من الله عزّ و جلّ خطابا للنبيّه محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - على وجه الخبر عن عظمته ، فانّه منه جلّ ثناؤه تكذيب لليهود الّذين أنكروا نسخ أحكام التّوراة وجحدوا نبوّة عيسى ، وأنكروا محمّدا - صلّى الله عليه وسلّم - لمجيئهما بما جاءا به من عند الله ، بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة ، فأخبرهم الله أنّ له ملك السموات والأرض و سلطانهما ، فانّ الخلق أهل مملكته و طاعته ، عليهم السمع له ، والطّاعة لأمره ونهيه ، وانّ له أمرهم بما شاء ، ونهيهم عمّا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٦١/٢

(٢) انظر الكشّاف : ٣٠٣/١ ، والتفسير الكبير : ٣/ ٢٢٦

شاء ، ونسخ ما شاء ، واقرار ما شاء ، وانساء ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه ." (١)

فيرى الامام ابن جرير - رحمه الله - كما نعلم من كلامه ، أنّ هذه الآية لا تتعرّض لموضوع النّسخ في القرآن ، وانّما هي تتّصل بموضوع نسخ القرآن لما قبله من الشّرائع .

وممّن قال بهذا القول من المفسّرين المحدثين فضيلة الدّكتور عبد الله دراز في كتابه العظيم : (النّبأ العظيم)(٢)، وفضيلة الشيخ أمين أحسن الاصلاحي (٣) في تفسيره القيّم :(تدبّر قرآن) (٤)

ولا شكّ أنّ هذا القول أحسن ما قيل في تأويل الآية ، لأنّه هو الّذي يتّفق مع جوّ الآية وسياقها .

وقول الامام ابن الجوزي والامام القرطبيّ - رحمهما الله - أيضا لا يختلف عن هذا القول اختلافا كبيرا ، بل لعلّهما يتّجهان في اتّجاه واحد ، وانّما الفرق بينهما في العموم والخصوص ، فانّ نسخ القبلة وتحويلها الى الكعبة أيضا كان في أصله نسخا لشريعة سابقة ، قد اتّخذها النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - تمشّيا مع أهل الكتاب ، فانّه - عليه السلام - ماكان يختلف مع أهل الكتاب الاّ في شيء يرد به الوحي .

وعلى هذا فانّه - عليه السلام - اتّخذ بيت المقدس قبلة له ، ومع ذلك كان يقلب وجهه في السماء انتظارا لحكم جديد .

---

(١) تفسير الطّبري : ٤٨٢/١ - ٤٨٣ (٢) النّبأ العظيم : ص ١٨٣

(٣) هو الشيخ أمين أحسن الاصلاحي ، علم من أعلام باكستان . وقد ألّف تفسيرا كبيرا في اللّغة الأرديّة وأسماه (تدبّر قرآن). والجدير بالذكر أنّ الشيخ أمين أحسن كان من تلاميذ الامام الفراهي - رحمه الله - ومن هنا يعتبر تفسيره هذا المرجع الوحيد لأفكار الفراهي وآرائه الّتي لم يقدّر لها أن تسجّل بيمينه . ويقع هذا التفسير في عشرة مجلّدات ، وقد طبع عدّة مرّات .

(٤) تدبّر قرآن : ٢٥٢/١ - ٢٥٣

ومما يؤيد ذلك ما أخرجه الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عثمان بن عبد الرحمن قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا قام يصلي انتظر أمر الله في القبلة ، وكان يفعل أشياء لم يؤمر بها ولم ينه عنها من فعل أهل الكتاب .(١)

وأيضا أخرج السمهودى في (وفاء الوفاء) عن ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن مثله .(٢)

ومن ذلك أيضا ما أخرجه أبوداود في ناسخه عن أبي العالية من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نظر نحو بيت المقدس فقال لجبريل :

" وددت أن الله صرفني عن قبلة اليهود الى غيرها ." فقال له جبريل : " انما أنا عبد مثلك ، ولا أملك لك شيئا الا ما أمرت ، فادع ربك وسله ." فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديم النظر الى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذى سأل .(٣)

وقد روى مثل ذلك السمهودى في كتابه :(وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى) .(٤)

جماع القول في تأويل الآية :

وعلى أية حال فنحن نميل في تأويل الآية الى ما مال اليه الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ ونفصله فيما يلي بعض التفصيل فنقول :

ان الشرائع السابقة كانت تنقسم الى قسمين : فقسم منها كانت باقية معروفة عند الناس ، و قسم منها قد نسيت كما نص عليه القرآن حيث قال :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم

---

(١) الدر المنثور : ٣٤٦/١ (٢) انظر وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: ٣٦٠/١
(٣) الدر المنثور : ٣٤٣/١ ـ ٣٤٤ (٤) ٣٦٣/١

عن مواضعه و نسوا حظّا ممّا ذكّروا به ، ولا تزال تطّلع على خائنة منهم الاّ قليلا منهم فاعف عنهم و اصفح ، انّ الله يحبّ المحسنين ، ومن الّذين قالوا انّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّا ممّا ذكّروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون . * (١)

ثمّ هذا القسم الثّاني كان ينقسم الى قسمين : فقسم منه كان سارى المفعول ، وكان يصلح لأن يبقى في شريعة الاسلام ،وقسم منه قد انتهى وقته ، وفقد صلاحيته لهذا الزّمان .

فالّذى كان صالحا للبقاء أحياه الاسلام و أبقاه ،والّذى كان قد نسى ، وقد انتهى وقته ، تركه الاسلام كما كان في عالم النّسيان . وقد أشار اليه القرآن حيث قال :

* ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيرا ممّا كنتم تخفون من الكتاب و يعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . * (٢)

وأمّا القسم الأوّل ، الّذى كان باقيا معروفا عند النّاس ، فهو أيضا كان ينقسم الى قسمين : فقسم منه كان يصلح لأن يبقى في شريعة الاسلام فأبقاه القرآن ، وقسم منه قد انتهت صلاحيته ، ولم يكن يناسب العصر المعاصر لنزوله ، أو كان ممّا قد ابتدعه النّاس ، فنسخه القرآن و جاء بخير منه .

فالّذى نسخه القرآن من تلك الشرائع جاء بخير منه ، والّذى أحياه وقد نسى جاء به أو بمثله . فذلك قوله تعالى :

* ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها *

قوله تعالى: أم تريدون أن تسألوا رسولكم ... الآية :

وكما رأينا الوضع في سبب نزول تلك الآية ، نراه في سبب نزول قوله تعالى:

---

(١) سورة المائدة : ١٣ ـ ١٤ (٢) سورة المائدة : ١٥

﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدّل الكفر بالايمان فقد ضلّ سواء السبيل ﴾ ٠

فقد ورد في سبب نزول هذه الآية عدّة روايات ، منها مايلي :

١ ــ أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال رافع بن حريملة و وهب بن زيد لرسول الله : يامحمّد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه ، أو فجّر لنا أنهارا نتبعك و نصدّقك ، فأنزل الله في ذلك :

﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم ـ الى قوله ـ سواء السبيل ﴾ (١)

٢ ــ وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : سألت قريش محمّدا أن يجعل لهم الصّفا ذهبا ، فقال نعم ، وهو لكم كالمائدة لبني اسرائيل ان كفرتم ، فأبوا و رجعوا ، فأنزل الله :(أم تريدون)الآية ٠ (٢)

٣ ــ وأخرج عن السّدى قال : سألت العرب محمّدا ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة ، فنزلت ٠ (٢)

٤ ــ وأخرج عن أبي العالية قال : قال رجل يارسول الله لوكانت كفّاراتنا ككفّارات بني اسرائيل ، فقال النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : ماأعطاكم الله خير٠ كانت بنو اسرائيل اذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفّارتها ٠ فان كفّرها كانت له خزيا في الدّنيا ، وان لم يكفّرها كانت له خزيا في الآخرة ، وقد أعطاكم الله خيرا من ذلك ٠ قال تعالى : (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية ، والصّلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفّارات لما بينهنّ ، فأنزل الله :(أم تريدون أن تسألوا رسولكم) الآية ٠ (٢)

ذلك بعض ماروى في سبب نزول تلك الآية ٠

وهذه الروايات ان دلّت على شئ فانّما تدلّ على أنّه ليس هناك شئ ثابت ومحدّد في سبب نزول تلك الآية ، اذا فالأمر فيه سعة ٠

---

(١) لباب النّقول : ص ٢٥

(٢) تفسير الطبري : ١/٤٨٤

هـذه ناحية ، ومن ناحية أخرى فانّ تلك الروايات توقفنا أمام عـدّة اشكالات ، وهي كما يلي :

* انّ الخطاب في هذه الآية موجّه الى الّذين آمنوا ، والروايات الثّلاث الأول تصرفه عن المؤمنين الى الكفّار .

* هذه الآية مدنيّة وليست مكّيّة حتّى نربطها بمطالبة قريش أو مطالبة العرب .

* انّ كفّارات بني اسرائيل لم تكن الاّ عقوبة لهم لقاء بغيهم وتعنّتهم ، وما كان لأحد من المؤمنين أن يتمنّى لنفسه تلك العقوبة .

* هذه الروايات لا تتّفق مع سياق الآية . وهي تجعل الآية غريبة بين جاراتها .

ثمّ أسناد هذه الروايات ليست بتلك القوّة ، حتّى نقبلها على ما فيها من علاّت واشكالات .

اذا فليس لنا أن نعتبر تلك الروايات تفسيرا حقيقيّا لسبب نزول تلك الآية .

اللّهم الاّ أن يقال : انّ الآية بعموم ألفاظها ـ وبعموم ألفاظها فقط ـ تشمل جميع هذه الحالات ، كما تشمل حالات أخرى لم ترد بها الرواية . وهذا ممّا لا بأس به . والاّ فالسبب الحقيقيّ لنزول الآية ـ كما يظهر بعد التأمّل في سياقها ـ هو الّذي سبق أن أشرنا اليه ، وهو أنّ بعض ضعفاء المسلمين قد انخدعوا بطعن أهل الكتاب في أمر النّسخ وطفقوا يسألون الرسول عنه ، كما سأل اليهود نبيّهم موسى عن لون البقرة وسنّها ونوعيّتها مثلا ، وقد مرّ ذلك قريبا في هذه السورة .

ولم يكن الدّافع الى هذا السؤال، الحرص على الاستفادة أو طلب القناعة . وانّما كان الدّافع اليه قلّة الثّقة بالرسول والشّك والريبة فيما جاء به الرسول . وعلى هذا كان هذا السؤال أقرب الى الكفر منه الى الايمان ، فجاء التحذير :

﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل . ومن يتبدّل الكفر بالايمان فقد ضلّ سواء السبيل . ﴾

نظم الآيات (١١١ ـ ١٢١)

****

وبعد ما ينتهي السياق من تحذير المسلمين من وساوس أهل الكتاب ، و تشكيكاتهم في أمر النّسخ ، يزيد فينبّههم إلى خطورة الموقف ، وينبّههم إلى خطّة مشئومة دبّرها لهم أهل الكتاب لا غوائهم عن دينهم ، وهي تواضعهم ضدّهم على كلمة ما كادوا يتواضعون عليها لولا بغضهم الشديد للقرآن و حملة القرآن ·

فبغضهم الشديد للقرآن قد أنساهم أحقادهم الّتي نشأوا عليها ، وجمعهم على موقف واحد ، حتّى تمكنهم مقاومة هذا الخطر ، الّذى يهدّد كيانهم و يكاد يهدم دينهم ، فجاءت هذه الآيات :

* وقالوا لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا أو نصارى · تلك أمانيّهم · قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين · بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون · وقالت اليهود ليست النّصارى على شيءٍ وقالت النّصارى ليست اليهود على شيءٍ وهم يتلون الكتاب · كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون · ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و سعى في خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الاّ خائفين · لهم في الدّنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم · ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله ، انّ الله واسع عليم · وقالوا اتّخذ الله ولدا ، سبحانه ، بل له ما في السموات والأرض ، كلّ له قانتون · بديع السموات والأرض ، واذا قضى أمرا فانّما يقول له كن فيكون · وقال الّذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الّذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بيّنّا الآيات لقوم يوقنون · انّا أرسلناك بالحقّ بشيرا ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم · ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ، قل انّ هدى الله هو الهدى · ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم ، مالك من الله من وليّ ولا نصير· الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته ، أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون · *

تأويل الآية : وقالوا لن يدخل الجنّة .. الخ

يقول الامام ابن جرير – رحمه الله – وهو يفسّر الآية الأولى من هذه الآيات ، وهو قوله تعالى : (وقالوا لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا أو نصارى) الآية :

" فان قال قائل: وكيف جمع اليهود والنّصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين ، واليهود تدفع النّصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب ، والنّصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك ؟ قيل : انّ معنى ذلك بخلاف الّذى ذهبت اليه ، وانّما عنى به : وقالت اليهود : لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا ، وقالت النّصارى : لن يدخل الجنّة الاّ النّصارى . ولكن معنى الكلام لما كان مفهوما عند المخاطبين به ،معناه جمع الفريقان في الخبر عنهما ، فقيل : (قالوا لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا أو نصارى) الآية . أى قالت اليهود : لن يدخل الجنّة الاّ من كان يهوديّا ، وقالت النّصارى : لن يدخل الجنّة الاّ من كان نصرانيّا ."(١)

هذا ما قاله الامام ابن جرير – رحمه الله – في تأويل الآية .

وهناك عدد من المفسّرين – رحمهم الله – قد ذهبوا الى ما ذهب اليه ، محتجّين بنفس الحجّة الّتي احتجّ بها هو – رحمه الله – .

ولكنّنا اذا تأمّلنا في سياق الآية ، ماكدنا نطمئنّ الى ما ذهبوا اليه . والّذى يوحي الينا سياق الآيات هو أنّ الموقف قد جمع اليهود والنّصارى في موقف واحد ، فقد قيل قديما : عند الشدائد تذهب الأحقاد.

فهم كانوا يضجّون في وجه القرآن وماجاء به من النّسخ ضجيج رجل واحد . وكانوا يهتفون بأنّ هناك طريقين الى الجنّة لا غير، وهما اليهوديّة أو النّصرانيّة .

أمّا الدّين الجديد الّذى يعرضه القرآن وهو دين الاسلام ، ففيه الخسران كلّ الخسران .

---

(١) تفسير الطّبرى : ٤٩١/١ – ٤٩٢

فقولهم : لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا أو نصارى كان مفهومه بدليل المخالفة : أنّه لن يدخل الجنّة من دخل في دين الاسلام ، فجاء الردّ على دعواهم هذه :

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

ثمّ أشير الى طبيعتهم اللّجوج اللّدود على مدى تاريخهم الطّويل المديد :

﴿ وقالت اليهود ليست النّصارى على شيء وقالت النّصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الّذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

فقد كان هؤلاء اليهود والنّصارى حزبين متناحرين على مدى تاريخهم ، يتبادلون التّهم ، و يتقاذفون بالشتائم ، بل وقد حصلت بينهم معارك دامية كادت تطحنهم و تبيدهم .

ثمّ لمّا ظهر هذا النّبيّ اجتمعوا كلّهم على عداوته و أصبحوا حربا عليه وعلى أتباعه ، فهم يرمونهم اليوم عن قوس واحدة ، ويقولون لهم ما قال بعضهم لبعضهم بالأمس .

وليس هذا كلّه بسبب أنّ القرآن قد نسخ ما نسخ من شريعتهم ، كما يزعمون . كلاّ ! فقد سبق أنّهم جميعا كانوا يتلون التّوراة ، ولم يكن هناك أيّ نسخ أو تبديل ، ومع هذا كانوا في حرب مستمرّة وصراع دائم .

فلو كان الاختلاف في الكتاب أو الاختلاف في الشريعة هو السبب في خلافهم هذا لم يوجد هذا الخلاف فيما بينهم ليوم واحد ، فكيف وتاريخهم كلّه عبارة عن حروب و صراعات !

ومن ناحية أخرى فانّهم تبادلوا فيما بينهم التّهم مع أنّهم كانوا أولى النّاس بحسن الألفة فيما بينهم ، لأنّهم كان يجمعهم كتاب واحد ، وكلّهم كانوا يتلون التّوراة .

ثمّ جاء هذا الكتاب مصدّقا لما معهم ، فكان حقّا عليهم كذلك أن يفتحوا له صدورهم و ينضمّوا الى أهله وأتباعه من المسلمين ، ولكنّهم عاملوهم اليوم كما عامل بعضهم بعضا بالأمس . فهم تواطأوا جميعا على عداوتهم و صاروا حربا عليهم .

والمراد بـ" الّذين لا يعلمون " هنا - كما نرى - هم اليهود والنّصارى المعاصرون لنزول القرآن ، خلاف من ذهب الى أنّ المراد بهم كفّار العرب ، الّذين لا كتاب لهم .

وقد كان في السلف من يرى ذلك ، كما ذكر الامام الشوكاني - رحمه الله - حيث قال :

" وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنّصارى ، وهم الّذين لا علم عندهم . " (١)

فاليهود والنّصارى ذكروا أوّلا باسمهم ، ثمّ ذكروا مرّة أخرى بوصفهم . وكما أنّ هذا الاسم يشمل الجميع ، فكذلك هذا الوصف يشمل الجميع .

وهل يشكّ في أنّ الّذين حمّلوا التّوراة ، ثمّ لم يحملوها كانوا من الّذين لا يعلمون ؟ وهل هذا بحاجة الى دليل بعد ما شبّههم القرآن بالحمار يحمل أسفارا ؟ حيث قال :

﴿ مثل الّذين حمّلوا التّوراة ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . ﴾ (٢)

فالمذكورون بهذا الوصف هم اليهود المعاصرون لنزول القرآن، كما أنّ المذكورين بالاسم هم أسلافهم .

وكان من بلاغة القرآن ، الّتي تهتزّ لها الحاسّة البيانيّة ، أنّه ذكر الأوّلين بالاسم و ذكر المعاصرين بالوصف ، حتّى يستحيوا من موقفهم هذا ، ان كان فيهم رمق من حياة ، أو ذرّة من حياء .

---

(١) فتح القدير : ١٣٠/١ (٢) سورة الجمعة : ٥

وبعد ما ينتهي النّص من هذه الاشارة العابرة الى طبيعتهم اللّجوج اللّدود ، والى تاريخهم الحافل بالعداوات والصّراعات ، يمضي في بيان مواقفهم العدائيّة الراهنة ضدّ المسلمين ، الّذين آمنوا بهذا القرآن :

﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الّا خائفين ٠ لهم في الدّنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم ٠ ﴾

تأويل الآية كما يراه الامام الرّازى :

لقد ذكر الامام الرّازى - رحمه الله - في تأويل الآية أربعة وجوه ٠ وهى الوجوه الّتي ذكرها ، أو ذكر بعضها أغلبيّة المفسّرين - رحمهم الله - ثمّ قال :

" وعندى فيه وجه خامس ، وهو أقرب الى رعاية النّظم ، وهو أن يقال انّه لمّا حوّلت القبلة الى الكعبة ، شقّ ذلك على اليهود ، فكانوا يمنعون النّاس عن الصّلاة عند توجّههم الى الكعبة ، و لعلّهم سعوا أيضا في تخريب الكعبة ، بأن حملوا بعض الكفّار على تخريبها ،وسعوا أيضا في تخريب مسجد الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - لئلاّ يصلّوا فيه متوجّهين الى القبلة ٠ فعابهم الله بذلك ، وبيّن سوء طريقتهم فيه ٠ وهذا التأويل أولى ممّا قبله ٠ وذلك لأنّ الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية الاّ قبائح أفعال اليهود والنّصارى ، وذكر أيضا بعدها قبائح أفعالهم ، فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدّهم الرسول عن المسجد الحرام ٠

وأمّا حمل الآية على سعى النّصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضا على ما شرحه أبوبكر الرّازى ، فلم يبق الاّ ما قلناه ٠"(١)

---

(١) التفسير الكبير : ٩/٤ - ١٠

رأى الأستاذ سيّد قطب :

ونرى صاحب الظّلال أيضا يميل الى هذا التأويل ، حيث قال - رحمه الله - :

" وأقرب مايتوارد الى الخاطر أنّ هاتين الآيتين تتعلّقان بمسألة تحويل القبلة و سعى اليهود لصدّ المسلمين عن التوجّه الى القبلة .. أوّل بيت وضع للنّاس وأوّل قبلة .. وهناك روايات متعدّدة عن أسباب نزولهما غيرهذا الوجه .. " (١)

تأويل الآية كمايمليه علينا السياق :

انّ هذا التأويل ، الّذى ذهب اليه الامام الرّازى والامام سيّدقطب - رحمهما الله - تأويل وجيه ولا شك . ولعلّه أرجح من غيره ممّا ذهب اليه النّاس .

ولكنّنا نزيد فنقول :

لا داعى هناك لربط هذه الآية بمسألة تحويل القبلة ، فانّ القبلة ماحوّلت بعد . ثمّ صدّ المسلمين عن التوجّه الى الكعبة شيءٌ ، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، شيءٌ آخر .

والّذى يترجّح عندنا هو أنّ المسلمين قد منعوا من الصّلاة في المسجد الحرام قبل تحويل القبلة ، بل قدمنعوا منه ، وهم في أحضان مكّة ، ولم يهاجروا بعد الى المدينة .

والّذين كانوا وراء هذا الظّلم ، هم اليهود والنّصارى بصفة خاصّة ، فانّ كفّار قريش - وفيهم مافيهم ! - لم يكونوا يعرفون هذا النّوع من الظّلم ، كما ورد في الأثر :

" ماكان أحد يصدّ عن هذا البيت . وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه و أخيه فلا يصدّه . " (٢)

ولكنّ اليهود والنّصارى - قاتلهم الله - حرّضوا المشركين على هذا العدوان ، وألجأوهم الى أن يصدّوا المسلمين عن المسجد الحرام .

---

(١) في ظلال القرآن : ١٠٤/١ (٢) تفسير ابن كثير : ١٥٦/١

وإذ تمّ هذا الظّلم وهذا المنع بتحريضهم وتحريشهم، وكان لهم النّصيب الأوفى في هذا الاثم، فهم الّذين ألبسوا هذا الظّلم، وحمّلوا هذا الاثم، وسجّل هذا في سجلّ أعمالهم، حتّى لا يفوتهم عارهم وجزاؤهم!

وهذا كما يفهم من نظم هذه الآيات، فكذلك يفهم من نظم الآيات الّتي وردت في سورة الحجّ. فقد جاءت في سورة الحجّ هذه الآية:

﴿ انّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصّابئين والنّصارى والمجوس والّذين أشركوا انّ الله يفصل بينهم يوم القيامة. انّ الله على كلّ شيءٍ شهيد. ﴾ (١)

وبعدها بقليل جاءت تلك الآية:

﴿ انّ الّذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الّذى جعلناه للنّاس سواء العاكف فيه والباد، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم. ﴾ (٢)

وسنفصّل هذا الموضوع ونزيده بيانا في الفقرة التالية، حين نتناول الآيات الّتي وردت في شأن بيت الله الحرام.

وبعد ذكر هذا الظّلم الصّارخ يجيءُ العزاء والسلوى للمسلمين الّذين منعوا من المسجد الحرام:

﴿ ولله المشرق والمغرب، فأينما تولّوا فثمّ وجه الله. انّ الله واسع عليم. ﴾

تأويل الآية: ولله المشرق والمغرب .. الخ:

لقد اختلف النّاس في تأويل هذه الآية على عشرة أوجه أو أكثر. ولعلّ أقربها للسياق وأدناها الى الصّواب، هو ما قاله الامام الزّمخشرىّ ـ رحمه الله ـ حيث قال:

" ولله المشرق والمغرب: أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلّها لله، هو مالكها ومتولّيها، (فأينما تولّوا) ففي أىّ مكان فعلتم التولية

---

(١) سورة الحجّ: ١٧ (٢) سورة الحجّ: ٢٥

يعني تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : — فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره — (فثمّ وجه الله) أى جهته الّتي أمر بها ورضيها . والمعنى : أنّكم اذا منعتم أن تصلّوا في المسجد الحرام وفي بيت المقدس ، فقد جعلت لكم الأرض مسجدا فصلّوا في أىّ بقعة شئتم من بقاعها ، وافعلوا التولية فيها ، فانّ التولية ممكنة في كلّ مكان ، لا يختصّ امكانها في مسجد دون مسجد ولا في مكان دون مكان (انّ الله واسع) الرحمة يريد التوسعة على عباده والتيسير عليهم (عليم) بمصالحهم . " (١)

ويشبهه ماقاله الامام القرطبي - رحمه الله - حيث قال بعد ماذكر عدّة وجوه في تأويل الآية :

" وقيل : هى متّصلة بقوله تعالى : (ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) الآية ، فالمعنى أنّ بلاد الله أيّها المؤمنون تسعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرّب مساجد الله أن تولّوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه ." (٢)

ونحن - كما قلنا - نميل الى هذا التأويل و نرجّحه على غيره ثمّ نزيد فنقول :

منشأ الوهم :

لعلّ منشأ الوهم في تأويل الآية هو قوله تعالى :* فأينما تولّوا * فقد وهم في تأويله عامّة المفسّرين - رحمهم الله - فانّ (التولية) اذا كان لازما غير متعدّ الى مفعول ، فانّه لا يأتي بمعنى : توجيه الوجه الى جهة ، كما ذهبوا اليه ، وانّما هو يأتي بمعنى اللّجوء والذهاب والانطلاق وما شابه ذلك .

ولا بأس بأن نذكر هنا بعض استعمالاته في القرآن ، حتى يتّضح الأمر ، قال تعالى :

---

(١) الكشّاف عن حقائق التنزيل : ٣٠٦/١ - ٣٠٧
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٨٣/٢

* لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدّخلا لولّوا اليه وهم يجمحون *[(١)]

* واذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا * [(٢)]

* فلمّا قضى ولّوا الى قومهم منذرين * [(٣)]

* فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ ولّى مدبرا ولم يعقّب * [(٤)]

فنرى هذه المادّة في تلك الآيات ، ما جاءت الاّ على احدى تلك المعاني ، الّتي أشرنا اليها .

بالاضافة الى أنّ كلمة (أينما) لا تفيد معنى الجهة ، كما ذهب اليه الامام الشوكاني وغيره من المفسّرين - رحمهم الله - ، يقول الامام الشوكاني - رحمه الله - :

" (فأينما تولّوا) أى أىّ جهة تستقبلونها فهناك وجه الله ... وذلك يكون عند التباس جهة القبلة الّتي أمرنا بالتوجّه اليها . "[(٥)]

ولقد كان الزّمخشرىّ منتبها لهذه النّاحية فقال في تفسير الآية :

" (ففي أىّ مكان فعلتم التولية ، يعني تولية وجوهكم شطر القبلة . " (٦)

فأصاب - رحمه الله - في مراعاة كلمة (أينما) ولكنّه وهم كغيره من المفسّرين - رحمهم الله - في تفسير لفظة (تولّوا) .

وكان هذا الوهم نابعا من وهم آخر وهو أنّهم ظنّوا - خطأ - أنّ الحديث هنا دائر حول القبلة ، مع أنّ هذه الآية لا علاقة لها بموضوع القبلة .

وانّما موضوع الحديث هنا أنّ المسلمين منعوا من المسجد الحرام فاغتمّوا لذلك ، فتقدّم الوحى اليهم بهذا العزاء .

وبيانه أنّكم ان منعتم من المسجد الحرام فلا تبتئسوا ،

---

(١) سورة التّوبة : ٥٧ (٢) سورة الاسراء : ٤٦

(٣) سورة الأحقاف : ٢٩ (٤) سورة النّمل : ١٠

(٥) فتح القدير : ١٣١/١ (٦) الكشّاف : ٣٠٧/١

فانّ الكون كلّه لله . وهو ليس متحيّزا في مكان دون مكان ، فتحسبوا أنّكم انقطعتم من الله بانقطاعكم من المسجد الحرام ، بل هو معكم أينما كنتم . (أينما تولّوا) أى أينما تذهبوا والى أىّ مكان تقبلوا (فثمّ وجه الله) أى : الله سبحانه وتعالى حاضر وموجود هناك .

ويتوارد الى الخاطر أنّ هذه الآية هى مأخذ قول النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ :

(وجعلت لنا الأرض كلّها مسجدا ...) (١)

وبعدما ينتهي السياق من ذكر هذا الموقف العدائيّ لليهود والنّصارى ضدّ المسلمين ، يتبعه موقفا آخر مثله :

﴿ وقالوا اتّخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما في السموات والأرض، كلّ له قانتون . بديع السموات والأرض ، واذا قضى أمرا فانّما يقول له كن فيكون . ﴾

هذا موقف آخر من مواقف اليهود والنّصارى ضدّ القرآن و نبيّ القرآن . فانّهم لمّا سمعوا القرآن يعرض دعوة الاسلام ، وهى دعوة التوحيد الخالص النّقيّ ، عارضوه بدعوى الشرك البشع القبيح .

وهذا الشرك وان كان موجودا فيهم منذ قديم ولكنّهم لمّا رأوا الاسلام ينسخ دينهم و يهدّد كيانهم أعلنوا ورفعوا أصواتهم بتلك الاعتقادات الباطلة .

وهذه العمليّة كما أنّها أثارت الشبهة حول الاسلام وحول القرآن فكذلك ساعدتهم في كسب ثقة المشركين و مودّتهم . وبذلك استطاعوا أن يهوّلوا أمامهم أمر المسلمين واستطاعوا أن يصدّوهم عن المسجد الحرام ، بل استطاعوا أن يفرضوا عليهم قانون حظر الدّخول والتجوّل في حدود مكّة .

ثمّ هم أمدّوا هذه الشبهة بشبهة أخرى حول الرسالة الجديدة :

﴿ وقال الّذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية ﴾

---

(١) صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة ، رقم الحديث (٥٢٢) ٣٧١/١ .

ولقد سبق أن قلنا في الآية (١١٣) أنّ المراد بالّذين لا يعلمون هم أهل الكتاب المعاصرون لعهد نزول القرآن · وأشرنا هناك الى سبب اختيار هذا اللّقب لهم · وهنا نريد أن ننبّه الى دليل آخر من السياق يدعم هذا القول ، وهو قوله تعالى بعد هذا القول :

﴿ كذلك قال الّذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ﴾

فالمراد بـ"الّذين من قبلهم" ـ كما هو المتبادر الى الذهن ـ هم أسلافهم من اليهود والنّصارى ـ قاتلهم الله ـ ولقد ذكر ذلك ـ فيما ذكر ـ الامام القرطبي والامام الشوكاني ـ رحمهما الله ـ (١)

وبعد ماينتهي السياق من تفنيد هاتين الشبهتين ، يلتفت الى النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يعظه أن يلزم حدّ الاعتدال في التبليغ ، ولا يحملنّه الحرص على هدايتهم الى أن يرضى معهم بأنصاف الحلول ، فانّ مهمّته هى التبشير والانذار فقط ، وهو ليس مسئولا عنهم ان صار هؤلاء حطب الجحيم ·

بالاضافة الى أنّ هذه المحاولة لا تجدى معهم ، فانّهم لم يكونوا منفكّين عن ملّتهم — وهى خليط من أهوائهم ، ولا صلة لها بالعلم ، ولا صلة لها بهدى ربّهم ·

انّهم ليسوا منفكّين عن ملّتهم الى هدى ربّهم · وانّما همّهم أن يتنازل هو! عن هدى الله الى ملّتهم :

﴿ انّا أرسلناك بالحقّ بشيرا ونذيرا · ولا تسأل عن أصحاب الجحيم · ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم · قل انّ هدى الله هو الهدى ، ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير · ﴾

ثمّ يذكر بازاء هذا الموقف السيّء المظلم ، الّذى وقفه اليهود والنّصارى من كتاب ربّهم ، ذلكم الموقف المشرق الجميل ، الّذى وقفه منه أمّة من علماء أهل الكتاب حيث انّهم استقبلوه بحنين القلب ورحابة الصّدر ،

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٩٢/٢ ، وفتح القدير : ١٣٤/١

فهم يؤمنون به و يتلونه حقّ تلاوته :

* الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته .

أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون . *

نظـــم الآيتين (١٢٢ ـ ١٢٣)

بعد هـذا الحديث الطّويل المستفيض مع بني اسرائيل وعـن بني اسـرائيل ـ هذا الحديث الّذى بدأ من الآية (٤٠) واستمرّ الى هنا ، تتكـرّر هاتان الآيتان :

﴿ يا بني اسرائيل اذكـروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم ، وأنّي فضّلتكم على العلمين • واتّقوا يوما لا تجـزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عـدل ولا تنفعهـا شفاعـة ولا هم ينصـرون • ﴾

سـرّ تكـرار الآيتين :

وهنا يثور سؤال : ماهو السرّ في تكرارهاتين الآيتين ؟ أوما هى الفائدة الّتي أراد أن يكسبها السياق من تكرار هاتين الآيتين ؟

والعجيب في الأمـر أنّ هذا السؤال ـ مع أهمّيّته ـ لم يشغل الاّ بال القليلين من علماء القرآن و دارسيه •

ولقد وقف عندها لأستاذ سيّد قطب والدّكتور عبدالله دراز ـ رحمهما الله ـ وقفـة رائعـة مشكورة • فلا بأس بأن نبدأ حـديثنا هذا بدراسة ماجادت به قريحتهما ، حيث انّه سيوسّع أمامنا آفاق البحث و سيساعدنا في استيعاب الموضـوع ، بالاضـافة الى ما يوفّرلنا من متعة النّفس وتغييرالجوّ•

كلمة الأستاذ سيّد قطب :

يقول الأستاذ سيّد قطب ـ رحمـه الله ـ بعد ماينتهي من قوله تعالى : (الّذين آتيناهم الكتاب •• الآية) :

" بعد هذا التقريرالحاسـم الجازم ينتقل السياق بالخطاب الى بني اسرائيل ، كأنّما ليهتف بهم الهتاف الأخير ، بعدهـذه المجابهة ، وهـذا الجـدل الطّويل ، وبعد استعراض تاريخهم مع ربّهم و مع أنبيائهم وبعد الالتفات عنهم الى خطاب النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ و خطاب المؤمنين •• هنا يجيء الالتفات اليهم كأنّه الدّعوة الأخيرة ، وهم على أبواب الاهمال والاغفال والتجريد النّهائيّ من شرف الأمانـة ••

أمانة العقيدة .. الّتي نيطت بهم من قديم .. وهنا يكرّر لهم الدّعوة ذاتها ، الّتي وجّهها اليهم في أوّل الجولة .. يا بني اسرائيل ..

* يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين . واتّقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون . *"(١)

كلمة الأستاذ عبدالله دراز :

ويقول الدّكتور عبدالله دراز - رحمه الله - وهو يتناول نفس الموضوع :

" شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزّارع ، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقّيها من حشائشها الضّارّة قبل أن يلقى فيها البذور الصّالحة أو يغرس فيها الأشجار النّافعة ، وكذلك الدّاعي الحكيم ، يبدأ بالنّفوس فيلويها عن الباطل والفساد ، ثمّ يوجّهها الى طريق الحقّ والهدى . فهذان دوران يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية وفي الثّاني بالتكميل و التحلية . وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني اسرائيل قد مضى الى هذا الحدّ في بيان عوج الطّريق الّذى يسلكونه و رأيته قد أوسع البيان في ذلك حتّى أتى على نهاية الدّور الأول : أليس من الحقّ اذا أن يبدأ بالدّور الثّاني ، فيبيّن الطّريق السويّ ، الّذى يجب أن يسلكوه ؟

ثمّ رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله والعلم الّذى علّمه لنبيّه وذكر الفريق الّذى يرجى ايمانهم به من أهل الكتاب ، وهم الّذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته ، أليس هذا الاختتام نفسه مطلعا تشرف النّفس منه على هذا الافتتاح ؟ "

ويستمرّ - رحمه الله - في بيان ما يوجد في الكلام من حسن التّقابل و روعة المناسبة الى أن يقول :

---

(١) في ظلال القرآن : ١/١٠٩

" وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين ، اللتين صدّر بهما أوّل الحديث هناك قد صدّر بهما أوّل الحديث هنا ، ليدعوهم الى اعتناق الحقّ ، بمثل ما دعاهم به الى اجتناب الباطل ، و ليتقرّر في نفس السامع من أوّل الأمر أنّ الحديث سيعود كما بدأ ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطّريق ، وبمعنى جديد هو عدل لذلك المعنى القديم (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين · واتّقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون · واذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات ··"(١)

هذا ما دبجته يراعة الأستاذين الجليلين في تحرير هذا الموضوع ، فلنتقدّم بخالص الدّعاء الى الله - جلّ و علا - أن يتغمّد أرواحهما بواسع رحمته ، وأن يجزيهما عنّا خير الجزاء ، فقد فتحا أمامنا مجالا واسعا للتأمّل في حكمة هذا التكرار ·

سرّ التكرار كما يمليه علينا السياق :

وبعد هذا نودّ أن نشير الى ما يتوارد الى خاطرنا من الفوائد والحكم ، الّتي ألمع السياق اليها بتكرير هاتين الآيتين ·فنقول وبالله التوفيق :

انّ هاتين الآيتين لا ترتبطان بما يجاورهما من الآيات ارتباط الجار بالجار ، بل هما أعمّ من ذلك و أشمل · فهما ترتبطان بكلّ ما سبقهما من الآيات وبما يأتي بعدهما ، وسواء كانت تلك الآيات الّتي تتحدّث مع بني اسرائيل ، أو الّتي تتحدّث عنهم ، فكلّها داخلة في متناولهما ·

وبعبارة أخرى فانّ هاتين الآيتين تحلاّن ممّا قبلهما من الآيات و ممّا بعدهما محلّ واسطة العقد ، فلهما بريق خاصّ ولهما تأثير كبير في تحديد طبيعة هذه الآيات أو المجموعة من الآيات ·

---

(١) النّبأ العظيم : ١٨٣ - ١٨٥

وبيانه أنّ الآيات الّتي سبقتهما تحمل - في أغلبها - طابع الغلظة والشدّة ، و تنضح بسخونة اللّوم و التعنيف ، مع أنّ الكلام قد بدأ معهم بأسلوب كلّه عطف و مودّة و رقّة و حنان :

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم و ايّاى فارهبون . ﴾ (١)

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين . ﴾ (٢)

ولكنّ ذلك الأسلوب الحلو اللّطيف أخذ يشتدّ شيئا فشيئا ، حتّى صار الأمر كما قال الأستاذ سيّد قطب :

" انّ الأسلوب هنا يعنف و يشتدّ ، و يتحوّل - في بعض المواضع - الى صواعق و حمم . " (٣)

فتكرّرت هاتان الآيتان في هذا الجوّ حتّى تلقيا على هذا العنف و هذه الشدّة ثوبا فضفاضا من العطف والمودّة ، وحتّى تقذفا في روع المخاطبين أنّ هذه الضّربات الشديدة العنيفة ، وان كانت في ظاهرها قاسية مؤلمة ، ولكن ليس وراءها الاّ النّصح والارشاد وارادة الخير. فلا تأخذنّهم العزّة بالاثم ، ولا يجعلن في قلوبهم الحميّة ،حميّة الجاهليّة ، وليثوبوا الى رشدهم قبل أن تفوتهم الفرصة .

ثمّ انّ هاتين الآيتين كما أنّهما تمسحان على الوحشة الّتي دخلت القلوب بخصوص ما أسلف من القول ، فكذلك تهيّئان النّفوس لسماع ما سيأتي بعدهما ، ولا شكّ أنّ ما جاء بعدهما كان أدهى وأمرّ،وكان أثقل على النّفوس ، وكان بحاجة ماسّة الى أن تمهّد له الأرض ، و يهيّأ له الجوّ ، فانّ تلك الآيات تقطع صلتهم من تاريخهم المجيد الّذى كانوا يفتخرون به ، و يعتزّون بالانتماء اليه ، اللّهمّ الاّ أن يفيقوا من غفلتهم و يثوبوا الى رشدهم .

---

(١) سورة البقرة : ٤٠ (٢) سورة البقرة : ٤٧

(٣) في ظلال القرآن : ٨٩/١

بخلاف الآيات الّتي سبقتهما ، فانّها لا تزيد على أن تلومهم على سوء تصرّفاتهم و تعنّفهم على قبيح مواقفهم ، وتنذرهم وخامة العاقبة الّتي تنتظرهم . و سيأتي له بعض التفصيل فيما بعد باذن الله .

ثمّ هناك نكتة أخرى في تكرير هاتين الآيتين ، وقد كرّرتا بعد ذكر مواقفهم المنكرة القبيحة من ربّهم ومن كتاب ربّهم ومن مواثيق ربّهم .

وهي أنّ هذا التكرار على هذا الأسلوب ـ أسلوب العود على البدء ـ يدلّ على دائهم الّذى كانوا يعانون منه ، والّذى كان يحملهم على تلك المواقف المنكرة ، الّتي وقفوها من ربّهم ومن كتاب ربّهم . ألا وهو الغفلة عن ذكر الله ، والكفران بنعم الله .

ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ هذه الأمّة المسلمة النّاشئة لمّا استخلفت في الأرض بعدهم زوّدت بنفس الوصيّة :

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (1)

فهذه الوصيّة ـ مع اختلاف لفظها ـ لا تختلف في روحها ومعناها عن الوصيّة الّتي زوّد بها بنو اسرائيل ، وذكّروا بها مرّة بعد مرّة :

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايّاى فارهبون ﴾

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين ﴾

وبعد هاتين الآيتين اللّتين وردتا كالجملة المعترضة ، واللّتين تحلّان ممّا حولهما من الآيات ، محلّ واسطة العقد ، عاد الأمر الى ما كان عليه . وارتبط الكلام بما قبلهما من الآيات ارتباطا عجيبا . و سنفصّله فيما يلي باذن الله .

---

(1) سورة البقرة : ١٥٢

نظـــم الآيــات (١٢٤ ـ ١٤١)

****

قال تعالى :

﴿ واذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ · قال انّي جاعلك للنّاس اماما · قال ومن ذرّيّتي ، قال لا ينال عهدى الظّالمين · واذ جعلنا البيت مثابة للنّاس وأمنا · واتّخذوا من مقام ابراهيم مصلّى · وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهّرا بيتى للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود · واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر · قال ومن كفر فأمتّعه قليلا ثمّ أضطرّه الى عذاب النّار و بئس المصير · واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل · ربّنا تقبّل منّا انّك أنت السميع العليم · ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انّك أنت التّوّاب الرّحيم · ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم انّك أنت العزيز الحكيم · ومن يرغب عن ملّة ابراهيم الاّ من سفه نفسه · ولقد اصطفيناه في الدّنيا وانّه في الآخرة لمن الصّالحين · اذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العلمين · ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنىّ انّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ الاّ وأنتم مسلمون · أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم و اسمعيل واسحق ، الها واحدا ونحن له مسلمون · تلك أمّة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون · وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا · قل بل ملّة ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين · قولوا آمنّا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النّبيّون من ربّهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون · فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولّوا فانّما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو

السميع العليم. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون. قل أتحاجّوننا في الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون. أم تقولون انّ ابراهيم واسمعيل واسحق و يعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى. قل أأنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عمّا تعملون. تلك أمّة قدخلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون. *

لقد قلنا في نهاية الفقرة السابقة : انّ الآيتين(١٢٢-١٢٣) وردتا كالجملة المعترضة، ثمّ عاد الأمر الى ما كان عليه. وارتبط الكلام بما قبلهما من الآيات ارتباطا عجيبا.

فلننظر الآن تصديق ذلك، حيث ارتبطت تلك الآيات بما قبل هاتين الآيتين ارتباطا تهتزّ له النّفس و يطرب له القلب.

فالآية الأولى من هذه الآيات تهدم دعوى اليهود والنّصارى الّتي مضت معنا في الفقرة السابقة في قوله تعالى :

* وقالوا لن يدخل الجنّة الاّ من كان هودا أو نصارى *

فالله سبحانه وتعالى لا يعامل العباد حسب عروقهم وأنسابهم وانّما العبرة عنده بأعمالهم و تصرّفاتهم، حتى انّ ابراهيم - عليه السلام - ما نال ما نال من مكانة وكرامة عند الله الاّ بعد ما امتحن واختبر وابتلاه ربّه بكلمات فأتمّهنّ.

ثمّ انّ ابراهيم لمّا دعا ربّه - سبحانه وتعالى - أن يحوط ذرّيته بالنّعمة والكرامة استجاب الله دعاءه في حقّ الصّالحين. وأمّا الظّالمون منهم، فقد رفض أن يكون لهم من نعمته نصيب : * قال لا ينال عهدى الظّالمين *

وأمّا الآيتان : الثانية والثالثة من هذه الآيات وهما الآيتان (١٢٥-١٢٦) فهما تنكران على أهل الكتاب صدّ المسلمين عن المسجد الحرام.

وقد مضت الاشارة الى موقفهم هذا في قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ... الآية ﴾

فانّ هذا البيت جعل مثابة للنّاس وأمنا ، وجعل لهم قبلة ومصلّى ، ولكنّهم ظاهروا المشركين على صدّ المسلمين عن هذا البيت .

وليس هذا فحسب ، بل أسهموا في تدنيسه بالأصنام ، مع أنّ ابراهيم واسمعيل قد عُهِدَ اليهما أن يطهّرا هذا البيت للطّائفين والعاكفين.

وقد كان من اهتمام ابراهيم بهذا البيت أنّه دعا ربّه أن يجعل هذا البلد آمنا لتمكن زيارته بأمن وسلام و يُرجَعَ عنه بأمن وسلام .

وكان من شدّة اهتمامه به كذلك أنّه دعا لأهله بالرزق ورغد العيش حتّى يعمروا هذا البيت ولا يسأموا جواره .

ولكنّ هؤلاء الظّالمين ، الّذين يزعمون أنفسهم من أبناء ابراهيم وأحفاده ! لم يراعوا شيئا من ذلك ، بل لم يألوا سعيا في خرابه ، ولم يدّخروا جهدا في منع النّاس عن طوافه وزيارته .

ثمّ هؤلاء ينادون بالشرك ويدعون اليه ويردّون دعوة الاسلام ويريدون لها العفاء كما مرّ في الفقرة السابقة في قوله تعالى :

﴿ وقالوا اتّخذ الله ولدا سبحانه . بل له ما في السموات والأرض كلّ له قانتون ﴾

مع أنّ ابراهيم واسمعيل – عليهما السلام – كانا أحرص النّاس على الاسلام ، حيث انّهما كانا يرفعان القواعد من البيت ، وكانت تلك الأمنيّة تجول في خاطرهما ، وتتردّد على لسانهما بتلك الكلمات الضّارعة :

﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك ﴾

ثمّ هؤلاء يثيرون الشبهات حول هذا النّبيّ ويسخرون منه ويقولون :

﴿ لولا يكلّمنا الله أو تأتينا آية ؟ ! ﴾

مع أنّ هذا النّبيّ ما جاء الاّ استجابة لتلك الدّعوة الكريمة ، الّتي دعا بها ابراهيم واسمعيل، وهما يبنيان البيت :

﴿ ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم ، انّك أنت العزيز الحكيم ٠ ﴾

ثمّ قد مضى معنا في الفقرة السابقة اصرار أهل الكتاب على ملّتهم الجائرة ، حيث قال تعالى :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ﴾

فجاءت هذه الآيات تبيّن لهم أنّ ملّتهم هذه لا تمتّ بصلة الى ملّة ابراهيم ، وان كانوا يزعمون أنّها ملّة ابراهيم ، فملّة ابراهيم في واد و ملّتهم في واد ، ولا لقاء بينهما في أىّ مرحلة من مراحل الطّريق ٠ انّ ملّة ابراهيم هى الاسلام :

﴿ ومن يرغب عن ملّة ابراهيم الاّ من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدّنيا وانّه في الآخرة لمن الصّالحين ٠ اذ قال له ربّه أسلم ،قال أسلمت لربّ العلمين ٠ ﴾

هذه هى الملّة الّتي رضيها ابراهيم لنفسه ، ووصّى بها بنيه ، ثمّ جاء بعده أبوهم يعقوب ، فسلك نفس الطّريق ، فعاش على تلك الملّة وترك بنيه عليها :

﴿ ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنىّ انّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ الاّ وأنتم مسلمون ٠ أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ، اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا ، ونحن له مسلمون ﴾

ثمّ بيّن لهم أنّ ملّة الاسلام ليست هى ملّة ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب فحسب، بل هى ملّة الرسل والأنبياء أجمعين ، فلم يأت نبيّ ولا رسول من لدن ابراهيم الى يومهم هذا ،الاّ و دعا الى ملّة الاسلام ، وأمّا اليهوديّة أو النّصرانيّة فلا عهد لهم بها ٠ انّهم لم يعرفوها ولم يوصوا بها :

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ٠ قل بل ملّة ابراهيم

حنيفا ، وما كان من المشركين . قولوا آمنّا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم و اسمعيل و اسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى و عيسى وما أوتى النّبيّون من ربّهم . لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون *

بُيِّنَتْ لهم هذه الحقيقة على لسان النّبيّ وأصحابه ، ثمّ قيل لهم : ان آمن هؤلاء بمثل ما آمنتم به ، واحتذوا مثالكم حذو القذة بالقذة ، من غير نقص فيه أو زيادة ، ومن غير تبديل فيه أو تغيير ، فقد استقاموا على الطّريق ونالوا نصيبهم من الهدى ، والاّ فهم في شقاق ، والله يتولّى أمرهم و يكفي شرّهم :

* فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولّوا فانّما هم في شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم *

تأويل قوله تعالى : (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به .. الآية) :

وهنا نودّ أن تكون لنا وقفة عند هذه الآية قبل أن نغادرها الى ما بعدها . فقد تحيّر النّاس في تأويلها بين عدّة وجوه ، منها ما يلي :

١ ــ (بمثل ما آمنتم به) أى بما آمنتم به ، و(مثل) صلة .(1)

٢ ــ فان أتوا بايمان كايمانكم وتوحيد كتوحيدكم (فقد اهتدوا) والمعنى : ان حصلوا دينا آخر يساوى هذا الدّين في الصّحة والسداد فقد اهتدوا ، ولكن لمّا استحال أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدّين في الصحة والسداد ، استحال الاهتداء بغيره ، لأنّ هذا الدّين مبناه على التوحيد والاقرار بكلّ الأنبياء وما أنزل اليهم .(1)

٣ ــ معناه : فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا .(1)

٤ ــ ويجوز أن لا تكون الباء صلة وتكون باء الاستعانة كقولك كتبت بالقلم وعملت بالقدوم ، أى فان دخلوا في الايمان بشهادة مثل شهادتكم ، الّتي آمنتم بها .(2)

لقد فسّرت الآية بهذه الأقوال وما شابهها ، ولكنّ الّذى يترجّح عندنا هو ما ذكرناه ، فانّ السياق لا يقبل هذه الأقوال .

---

(1) انظر تفسير الخازن : ١/١١٦ (2) انظر الكشّاف : ١/٣١٥

تحقيق معنى (مثل) :

ولعلّ منشأ الوهم في تأويل الآية هو عدم التثبّت في دلالات كلمة (مثل) ، فانّ (مثل) لا يدلّ دائما على المغايرة كما قيل ، فهم امّا أوّلوه الى غير ما يقتضيه السياق ، وامّا ألغوه بقولهم : انّه صلة . وبذلك أبطلوا تلك الفائدة ، الّتي سيقت لأجلها هذه الكلمة .

والتأمّل في استعمالات هذه الكلمة يرشدنا الى أنّ (مثل) ربّما يأتي ليمثّل الشيء بأوصافه وأبعاده و يشخّصه بميزاته وخصائصه ، أو ليبرز الجانب الوصفي أو المعنوى ، الّذى قد يذهل عنه .

فاذا قلنا - مثلا - لرجل يقوم بعمل عظيم : مثلك ينهض بعظائم الأمور ، أو مثلك يصنع الأعاجيب ، فلا نقصد بذلك الاّ أن نشيد بصفاته وخلاله العجيبة ، الّتي يتحلّى بها ، والّتي هى مصدر أعماله الّتي يقوم بها .

ويشبه ذلك ما ورد عن أمّ الأحنف أنّها كانت ترقّصه وتقول :

والله لولا حنف برجله * ودقّة في ساقه من هزله

ماكان منكم أحد كمثله (١)

أى ماكان منكم أحد يضاهيه في مواهبه و صفاته .

ومن ذلك ما قالت الخنساء وهى ترثي أخاها :

فمثل حبيبي أبكى العيون * وأوجع من كان لا يوجع

فهى لم تقصد بقولها (فمثل حبيبي) الاّ أن تبرز للنّاس تلك الخصال الّتي كان يملكها حبيبها ، و تشخص لهم تلك الخصائص الّتي كان يتمتّع بها .

وممّا يؤيّد ذلك أنّها ذكرت بعد ذلك عيون صفاته الّتي كانت تريد أن تشيد بذكرها ، والّتي تؤهّله لأن يبكى عليه :

أخ لى لا يشتكيه الرفيق * ولا الركب في الحاجة الجوّع

ويهتزّ في الحرب عند النّزال * كما اهتزّ ذو الرونق المقطع (٢)

---

(١) التفسير الكبير : ٨٤/٤

(٢) ديوان الخنساء : ص/٩٤ ، ذو الرونق : أرادت به السيف ، المقطع : الماضي

ومن ذلك أيضا ما قاله بشر بن المغيرة بن المهلّب بن أبي صفرة :

أنا السيف الا أنّ للسيف نبوة * ومثلى لا تنبو عليه مضاربه (١)

فهو لم يرد بقوله (مثلى) الا أن ينوّه بصفاته و شمائله الّتي كان يتميّز بها من بين أقرانه .

وممّا يؤيّد ذلك أنّ هذا البيت من تلك الأبيات الّتي قالها الشاعر حينما كان بخراسان مع المهلّب . وكان يطمع أن يوليه ولاية ولكنّه أبى أن يستجيب لرغبته . فقال الشاعر تلك الأبيات ليستميله اليه و يقنعه بكفاءته لما يشتهيه . (٢)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (ليس كمثله شيءٌ) (٣)

ونحن لا نستريح الى قول الّذين قالوا في تأويله :(أى ليس كهو شيءٌ) (٤)، فانّ معناه - كما نرى - ليس هناك شيءٌ يعادله في أسمائه ويكافئه في صفاته ، يصنع صنعه ، و يخلق خلقه ، وينشئ انشاءه .

فالمقصود بسوق كلمة (مثل) هنا - والله أعلم - هو التركيز على ابراز تفرّده - تعالى - بتلك الصّفات .

ويصبح هذا واضحا جليّا اذا نظرنا الى كامل الآية ، وهو قوله تعالى :

* فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيءٌ ، وهو السميع البصير * (٣)

والآن نعود الى الآية الّتي كنّا فيها فنقول : انّ قوله تعالى:

* فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا * معناه : ان آمنوا بنفس الشيء الّذى آمنتم به ، واحتذوا على مثالكم حذو النّعل بالنّعل ، من غير زيادة فيه ولا نقصان ، ولا تغيير فيه ولا تبديل ، ولا نفاق فيه ولا شقاق فقد اهتدوا .

وبناء على هذا الحصر وهذا التحريض قد يخالج الأذهان أنّ هذا

---

(١) الحماسة لأبي تمّام : ١٥١/١، رقم (٧٣) .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى : ٢٥٨/١
(٣) سورة الشّورى : ١١ (٤) زاد المسير : ٢٧٦/٧

انحياز الى قوم دون قوم ، ومحاولة لتغليب عنصر على عنصر. وهنا يبادر السياق بازالة هذا الوهم على لسان المؤمنين أنفسهم :

﴿ صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾

بالاضافة الى أنّ الجوّ كان مهيّئا من قبل لمثل هذه النّصيحة ، حيث انّ اليهود كانوا ينادون باليهوديّة ، والنّصارى كانوا يبشّرون بالنّصرانيّة فكلّ قد اختار لنفسه طريقا من الطّرق بعيدا عن الله. وهنا جاء النّداء الالهيّ الكريم على لسان المؤمنين :

﴿ صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون ﴾

أى اتركوا هذه الطّرق كلّها ، فهى مرذولة قبيحة . ولا صلة لها بملّة ابراهيم . انّما ملّة ابراهيم أن تصطبغوا بصبغة الله ، وتسلموا وجوهكم لله ، وتخلصوا عباداتكم لله فعليكم بها ! ونحن أيضا تركنا الطّرق كلّها ولجأنا الى صبغة الله فنحن له عابدون .

فدعوة الاسلام ليست دعوة قوميّة ولا عنصريّة ولا ... ولا... وانّما هى صبغة الله وهل أحد أحسن من الله حتى يصطبغ بصبغته ؟

ثمّ الثّورة على الاسلام لا تقوم الاّ على أحد أمرين :

١ ـ فامّا أن ينفوا عن الله الربوبيّة و أحقيته باخلاص العبادة ،ـ فهى الحقائق الّتي جاء الاسلام لتأكيدها وهى لا تقبل الجدل ولا النّقاش للحظة واحدة .

٢ ـ وامّا أن يقولوا انّ سلفهم الصّالحين ، الّذين يفتخرون بهم و يعتزّون بالانتماء اليهم كانوا على غير ملّة الاسلام ، وهى اليهوديّة أو النّصرانيّة ، مع أنّ اليهوديّة أو النّصرانيّة ما نجمت الاّ بعدهم بقرون !

وعلى هذا فيفحمهم النّص قبل أن ينهى معهم الحديث من هاتين النّاحيتين :

﴿ قل أتحاجّوننا في الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون انّ ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب والأسباط

كانوا هودا أو نصارى · قل أأنتم أعلم أم الله ، ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عمّا تعملون ﴾

ثمّ تأتي الآية الفذة ، الّتي يمكن أن يقال ، انّها الكلمة الأخيرة الحاسمة في شأن اليهود والنّصارى في هذه السورة :

﴿ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون · ﴾

ولقد تكرّرت الآية في هذه الفقرة مرّتين ، ولكن قبل أن نميط اللّثام عن سرّ تكرارها ، وقبل أن نلتمس وجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها نريد أن نتحرّى عن صحيح تأويلها ·

تأويل الآية كما وردت به كتب التفسير :

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية :

" يعني تعالى ذكره بقوله (تلك أمّة) ابراهيم واسمعيل واسحاق و يعقوب والأسباط ··· "

ثمّ يقول - رحمه الله - :

" وقد بيّنّا فيما مضى أنّ الأمّة : الجماعة ·

فمعنى الآية اذا : قل يا محمّد لهؤلاء الّذين يجادلونك في الله من اليهود والنّصارى ان كتموا ما عندهم من الشهادة في أمر ابراهيم ومن سمّينا معه ، وأنّهم كانوا مسلمين ، وزعموا أنّهم كانوا هودا أو نصارى فكذبوا أنّ ابراهيم و اسمعيل واسحاق ويعقوب والأسباط أمّة قد خلت : أى مضت لسبيلها ، فصارت الى ربّها ، وخلت بأعمالها وآمالها ، لها عند الله ما كسبت من خير في أيّام حياتها ، وعليها ما اكتسبت من شرّ لا ينفعها غير صالح أعمالها ، ولا يضرّها الاّ سيّئها ، فاعلموا أيّها اليهود والنّصارى ذلك ، فانّكم ان كان هؤلاء هم الّذين بهم تفتخرون و تزعمون أنّ بهم ترجون النّجاة من عذاب ربّكم مع سيّئاتكم وعظيم خطيئاتكم ، لا ينفعهم عند الله غير ما قدّموا من صالح الأعمال ، ولا يضرّهم غير سيّئها ، فأنتم

كذلك أحرى أن لا ينفعكم عند الله غير ما قدّمتم من صالح الأعمال ، ولا يضرّكم غير سيّئها ، فاحذروا على أنفسكم و بادروا خروجها بالتوبة والانابة الى الله ممّا أنتم عليه من الكفر و الضّلالة والفرية على الله و على أنبيائه ورسله ، و دعوا الاتّكال على فضائل الآباء والأجداد ، فانّما لكم ماكسبتم وعليكم ما اكتسبتم ، ولا تسألون عمّا كان ابراهيم و اسمعيل واسحق و يعقوب والأسباط يعملون من الأعمال ، لأنّ كلّ نفس قدمت على الله يوم القيامة ، فانّما تسأل عمّا كسبت وأسلفت دون ما أسلف غيرها ." (١)

هذا ما حرّره الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية .

وهذا هو التأويل المفضّل عند الآخرين كذلك ، على رغم ما يكتنفه من ضعف .

فلنقف هنا وقفة نكشف فيها هذا الضّعف ، حتّى يُفتَحَ لنا الطّريق الى التأويل الصّحيح للآية . فلنعلم أنّ الضعف في هذا التأويل من ناحيتين .

<u>النّاحية الأولى :</u>

انّ هذا التأويل لا يتّفق مع سياق الآية ، فانّ الحديث هنا لايدور حول موضوع (الاتّكال على فضائل الآباء والأجداد) كما ذهب اليه ابن جرير ومن يرى رأيه من المفسّرين - رحمهم الله - وانّما الموضوع هنا أنّ جميع الأنبياء والرسل كانوا على ملّة الاسلام ، ولم تكن لهم أيّ صلة بملّة اليهوديّة أو النّصرانيّة ، كما يزعمه هؤلاء افتراء عليهم . ولم يكن يدفعهم الى هذا الافتراء (اتّكالهم على فضائل الآباء والأجداد) وانّما كان الدّافع اليه عداءهم للمسلمين وحرصهم على أن يعزّزوا موقفهم العدائيّ هذا باثبات أنّ جميع الأنبياء والمرسلين - عليهم ألوف التحيّة والتسليم - بعثوا على ملّتهم ، ولم تكن لهم أيّ صلة بملّة الاسلام أو ملّة المسلمين .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٥٧٦/١

النّاحية الثّانيــة :

انّ هذا الأسلوب الّذى وردت به الآيــة ـ وهوقولـه تعالى :(لها ماكسبت ولكم ماكسبتم) ـ لا يجيءُ في القرآن للمعنى الّذى ذهب اليه الامام ابن جــرير وغيره ، وانّما يطّــرد استعماله في معنى المنابذة واظهار البراءة .

ونسوق هنا بعض الأمثلة لكى يتّضح الأمر. قال تعالى :

﴿ وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا برىءٌ ممّا تعملون ﴾ (١)

﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغــي الجاهلين . ﴾ (٢)

﴿ الله ربّنا وربّكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجّــة بيننا وبينكم .الله يجمع بيننا واليه المصير . ﴾ (٣)

﴿ قل أتحاجّوننا في الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ (٤)

﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ (٥)

ثمّ قوله تعالى :(ولا تسألون عمّا كانوا يعملون) لا يذهب بنا الى المعنى الّذى ذهب اليه النّاس ، فانّ هذه العبارة تشبه في دلالتها تلك الآية الّتي مضت معنا في نفس السورة ، وهى قولــه تعالى :

﴿ انّا أرسلناك بالحقّ بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ (٦)

يقول صاحب الكشّاف وهو يفسّر هذه الآية :

" هــذه تسلية لرسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وتسرية عنه لأنّه كان يغتمّ و يضيق صــدره لاصرارهم و تصميمهم على الكفــر، ولا نسألك (عن أصحاب الجحيم) مالهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت وبلغت جهدك في دعوتهم كقوله : (فانّما عليك البلاغ وعلينا الحساب) " (٧)

---

(١) ســورة يونس : ٤١
(٢) ســورة القصص : ٥٥
(٣) ســورة الشورى : ١٥
(٤) ســورة البقرة : ١٣٩
(٥) ســورة الكافرون : ٦
(٦) ســورة البقرة :١١٩
(٧) الكشّاف : ٣٠٨/١

ويقاربه قوله تعالى في سورة سبأ :

﴿ قل لا تسألون عمّا أجرمنا ولا نسأل عمّا تعملون · قل يجمع بيننا ربّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ ، وهو الفتّاح العليم · ﴾ (١)

أي ليس عليكم من مسئوليتنا شيء وليس علينا من مسئوليتكم شيء ·

منشأ الوهم :

ويبدو أنّ منشأ الوهم في هذا التأويل هو كلمة (خلت) فانّهم توهّموا أنّها لا تطلق الاّ على الّذين انقرضوا وانخرطوا في سلك الأموات ، مع أنّ الكلمة أعمّ من هذا ، فهى لا تستلزم الموت وانّما تدلّ في أصلها على المضىّ فقط ، والموت صورة من صور المضىّ ، فقد يكون مع المضىّ الموت وقد لايكون ·

ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والانس في النّار· كلّما دخلت أمّة لعنت أختها ، حتّى اذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذابا ضعفا من النّار· قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون · ﴾ (٢)

فقد ذكر الامام ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : (قد خلت من قبلكم) قولين ، أحدهما : (مضت الى العذاب) (٣)

تأويل يتّفق مع سياق الآية :

ويجدر بنا الآن ـ وقد عرفنا سقم هذا التأويل ـ أن نبحث عن تأويل آخر ، يتّفق مع سياق الآية ، ويتّفق مع أسلوبها ·

فما هو ذلكم التأويل اذا ؟

نحن نرى أنّ الامام الفراهىّ ـ رحمه الله ـ كان حليفه التوفيق ، حيث قال في تأويل هذه الآية :

" وانّها أمّة قد خلت بما كسبت وبعثتم خلائف فلكم ماتكسبون ،

---

(١) سورة سبأ : ٢٥ ـ ٢٦ (٢) سورة الأعراف : ٣٨

(٣) زاد المسير : ١٩٤/٣

وليس عليكم من ذنوبهم شيء . " (١)

وأوضح من ذلك وأروع ما قاله الأستاذ محمد قطب وهو يدرس المناسبة في هذه الآيات :

" ثمّ تجيء (المفاصلة) بين الأمّتين على اثر اعلان تلك الوثيقة الهامّة :

﴿ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾

لقد انتهت صفحة تلك الأمّة وبدأت صفحة جديدة لأمّة جديدة .. هي الّتي سيتناولها السياق منذ هذه اللّحظة و يوجّه اليها البيان ! " (٢)

ويكرّر فيقول حين تكرّرت هذه الآية :

" ثمّ يختتم السياق مرّة أخرى بصيغة المفاصلة ، الّتي تفصل بين الأمّتين ، وتعلن انتهاء عهد الأمّة الأولى ليبدأ عهد الأمّة الثانية :

﴿ تلك أمّة قدخلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾ " (٣)

وعلى هذا فالمراد بالأمّة هم أهل الكتاب من اليهود والنّصارى .

ولقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي المليح في تأويل هذه الآية ، قال :

(الأمّة ما بين الأربعين الى المائة فصاعدا) (٤)

فكأنّ أبا المليح يقصد بهذا ، الرّد على من قالوا ، انّ المراد بالأمّة هم ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، فانّهم لا يبلغون هذا العدد ، بل ولا يبلغون نصفه ، ولا ثلثه .

---

(١) مذكّرات القرآن للفراهي (مخطوط) (٢) دراسات قرآنيّة : ص/٢٩٦
(٣) دراسات قرآنيّة : ص/٢٩٩ (٤) الدّرّ المنثور : ٣٤٢/١

واذا كان هذا فلم يبق أمامنا الاّ أن نقول : انّ المراد بالأمّة عنده هم اليهود والنّصارى .

وبذلك يكون أبو المليح قد سبق الفراهي و محمد قطب الى هذا التأويل، وهو تأويل وجيه ولا شكّ ، لكونه متلائما مع سياق الآيات .

فالأمّة هم اليهود والنّصارى . والمراد بخلوّهم ،أنّهم انتهى دورهم وظهر فشلهم ، فهم أبعدوا عن شرف الأمانة ، ونزعت منهم كرامة الخلافة .

وأمّا قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون . ﴾ فهو عبارة عن البراءة منهم .

فالمسلمون برءاء منهم ومن تصرّفاتهم . وقد تقطّعت أسبابهم ورمامهم ، فلا ترجى عودتهم الى الطّريق وهم ليسوا بمسئولين عن أودهم وانحرافهم ، فهم الّذين يحصدون ما يزرعون ويذوقون ما يجترحون.

السرّ في تكرار الآية :

وبعد ما توصّلنا الى التأويل الّذى يتّفق مع سياق الآية وأسلوبها نعرّج الى السؤال الّذى يفرض نفسه علينا ، وهو ما هو السرّفي تكرار هذه الآية ؟

والجواب عليه سهل وميسّر، باذن الله ، اذا تأمّلنا في نظم هذه الآيات .

والّذى يظهر لنا بعد التأمّل في نظمها ، هو أنّ السياق أراد بتكرار هذه الآية أن يلفت الانتباه الى جريمتين عظيمتين من جرائم أهل الكتاب ، فانّهم ما صاروا الى ما صاروا اليه الاّ بسببهما .

وقد كانت كلّ واحدة منهما من الفظاعة ، بحيث تكفي وحدها لأن يصيروا الى ما صاروا اليه ، فكيف وقد اجتمعت الاثنتان ؟

أمّا الجريمة الأولى ، فهى أنّهم رغبوا عن ملّة ابراهيم ونسوا ما وصّاهم به أبواهم ابراهيم و يعقوب ، من الموت على ملّة الاسلام ،

حيث قالا لهم :

﴿ يا بنيّ انّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ الاّ وأنتم مسلمون ﴾

وكذلك نقضوا العهد الّذى أبرموه مع أبيهم يعقوب ، اذ قال لهم حين حضره الموت : ﴿ ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون ﴾

فهم خالفوا تلك الوصيّة ونقضوا ذلك العهد ، وبذلك استحقّوا أن يبعدوا عن شرف الأمانة وتنزع منهم كرامة الخلافة ، فجاءت هذه الآية :

﴿ تلك أمّة قد خلت . لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾

وأمّا الجريمة الثانية ، فهى أنّهم مارغبوا عن ملّة ابراهيم فحسب ، بل أرادوا أن يقطعوا صلة ابراهيم نفسه بملّته . وأرادوا أن يقطعوا صلة الأنبياء كلّهم بملّته ، مع أنّ الأنبياء الّذين جاءوا من بعده ، كلّهم بعثوا على ملّته .

فهم قالوا ـ كذبا ومينا ـ انّ الأنبياء كلّهم بعثوا بملّة اليهوديّة أو النّصرانيّة حتّى سيّدنا ابراهيم بعث بملّة اليهوديّة أو النّصرانيّة !! كما يشير اليه قوله تعالى :

﴿ أم تقولون انّ ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ﴾

وهم لم يقولوا ذلك عن جهل وعدم اطّلاع ،بل كانوا يعرفون الحقّ وكانوا يكتمون ، كما يشير اليه قوله تعالى :

﴿ ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله ؟ ﴾

فهم أرادوا أن يقطعوا صلة الأنبياء كلّهم بملّة ابراهيم ، ثمّ أرادوا أن يغووا النّاس أجمعين ، وأن يعدلوا بهم عن هدى الله الى

أهوائهم ، كما تشير اليه الآية الكريمة :

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملّة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ ٠

فهاتان جريمتان من جرائم أهل الكتاب ، وما أعظمهما من جريمة وما أشنعهما !!

وكلّ واحدة منهما كانت تكفي لأن تُبعِدَهم عن شرف الأمانة وتخلع عنهم تاج الخلافة وترمي بهم في هاوية الهوان ، فكيف بهم ، وقد اجتمعت فيهم الاثنتان ؟!

فتكرّرت هذه الآية بعد ذكر كلّ من هاتين الجريمتين تنبيها الى فظاعتهما و فداحة خطبهما !

مناسبة تلك الآيات فيما بينهما :

وبعد ما علمنا وشائج الربط بين هذه الآيات وما قبلها ، نعود اليها مرّة أخرى لنعرف ما في هذه الآيات نفسها من التحام متين وتناسق عجيب :

﴿ واذ ابتلى ابراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ ٠ قال انّي جاعلك للنّاس اماما ، قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدى الظّالمين ﴾ ٠

لقد جمعت هذه الآية ابتلاء ابراهيم و جمعت ما أعقبه من جزاء عظيم ، وتكريم يفوق كلّ تكريم ، فقد جعله الله امام النّاس أجمعين ٠ جعله امام عصره وامام العصور المتأخّرة الى يوم الدّين ٠

ثمّ جاءت الآية التالية تدلّ على أعظم مظهر من مظاهر امامته العامّة الشاملة :

﴿ واذ جعلنا البيت مثابة للنّاس وأمنا ، واتّخذوا من مقام ابراهيم مصلّى ٠ وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل أن طهّرا بيتى للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود ﴾ ٠

فقد جعل الله بيته مثابة يثوب اليها النّاس جميعا ، وجعله

أمنا يأمنون فيه على أنفسهم و أرواحهم ، وجعله قبلة ومصلّى يتوجّهون اليه في صلاتهم ، وعهد بتطهيره للرّكّع السّجود من المقيمين هناك أو الوافدين اليه .

السرّ في تسمية البيت مقام ابراهيم :

وسمّى الله هذا البيت مرّة (مقام ابراهيم) ومرّة أخرى سمّاه (بيتي) . وهذا النّظم كما أنّه يشعر بتكريم بيت ابراهيم وتشريفه ، ينبّه الى حقيقة هذا البيت ، الّتي قد يغفل عنها الغافلون .

فقد سمّاه الله (مقام ابراهيم) من حيث انّ ابراهيم هو الّذى أقام هذا البيت ، ثمّ قام فيه يدعو ربّه ويعبده ويتضرّع اليه .

ومن حيث انّ هذا البيت مظهر من مظاهر امامته العامّة الشاملة المستمرّة الى يوم القيامة .

ومن حيث انّ هذا البيت يذكّرنا بتاريخه الطّويل ، الحافل بالمواقف الجادّة والبطولات الرائعة ، ويذكّرنا بشخصيّته الفذة العجيبة ،المسلمة المؤمنة القانتة ، فانّه ما أمر ببناء هذا البيت الاّ بعد ما ابتلاه ربّه مرّة بعد مرّة ، وفي كلّ مرّة أبلى ابراهيم بلاء حسنا . فكان هذا البيت أثرا خالدا و تذكرة باقية لتلك الأمثلة الرائعة ، الّتي ضربها ابراهيم في طاعة الله وعبادته والامتثال لأوامره والتضحية في سبيله بنفسه ونفيسه .

ثمّ سمّاه الله (بيتي) حتّى لا يخطر ببال أحد أنّه اذا اتّخذ مقام ابراهيم قبلة ومصلّى ، وتوجّه اليه بصلاته وعباداته ، فهى تصل الى ابراهيم ولا تصل الى الله ، فانّ هذا البيت في حقيقته بيت الله ، وما سمّى هذا البيت مقام ابراهيم الاّ بعد ما أسلم ابراهيم وجهه لله .

وما كان القصد بتلك التسمية - والله أعلم بما قصد - الاّ ربط هذا البيت بتلك المعاني السامية النبيلة ، الّتي كانت تتمثّل في شخصيّة ابراهيم ،حتّى يتذكّر النّاس كلّما طافوا بالبيت أو توجّهوا اليه بالصّلاة

تلك المعاني السامية ، فيحرصوا على التحلّي بها والاتيان بمثلها .

ومن هنا تتبيّن أرجحيّة موقف الّذين يفسّرون المقام بالبيت كلّه ، فلا شكّ أنّ موقفهم أقرب لسياق الآيات وأوفق لطبيعة الموضوع من موقف غيرهم .

الروايات الواردة في شأن مقام ابراهيم :

وأمّا الروايات الّتي وردت في سبب نزول هذه الآية ، والّتي تقول : (انّ المراد بالمقام انّما هو الحجر الّذى كان ابراهيم - عليه السلام - يقوم عليه لبناء الكعبة . لمّا ارتفع الجدار أتاه اسمعيل - عليه السلام - به ليقوم فوقه ، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار . وكلّما كمّل ناحية انتقل الى النّاحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه . كلّما فرغ من جدار نقله الى النّاحية الّتي تليها ، وهكذا حتّى أتمّ جدران الكعبة .) (١)

فهذه الروايات قد وقف منها أعلام الأمّة موقفين متقابلين .

فمنهم من تمسّك بها ، وفسّر الآية في ضوئها .

ومنهم من عدل عنها ولم يرض أن يفسّر الآية بها .

وممّن عدل عنها ولم يفسّر الآية بها الشعبى والنخعى وعطاء ومجاهد وابن عبّاس - رضى الله عنهم - فانّهم فسّروا مقام ابراهيم بغير ما فسّرت به الروايات . (٢)

ولقد قال فريق من العلماء انّ المراد بالمقام هو المسجد الحرام . (٣)

و يقول صاحب تفسير المنار :

" ومقام ابراهيم موضع قيامه في مكّة لبناء المسجد ، فهو يشمل المسجد الحرام كلّه ، كما قال المحقّقون من الفقهاء . " (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير : ١٧٠/١

(٢) تفسير الطّبرى : ٥٣٦/١ ، والكشّاف : ٣١٠/١

(٣) المحرّر الوجيز : ٤١٥/١ ، و تفسير البحر المحيط : ٣٨١/١

(٤) مختصر تفسير المنار : ٩٩/١

ويقول صاحب الظّلال :

" لقد أمروا أن يتّخذوا من مقام ابراهيم مصلّى — ومقام ابراهيم يشير هنا الى البيت كلّه ، وهذا ما نختاره في تفسيره - فاتّخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطّبيعيّ ، الّذى لا يثير اعتراضا ."(١)

وبالجملة فقد وقف الأئمّة الأعلام من تلك الروايات موقفين متقابلين . ونحن قد اخترنا من الموقفين ما رأيناه أقرب لسياق الآيات ، بعد ما عجزنا من التوفيق بينها وبين الروايات .

*　　　*　　　*

والآن نعود الى حديثنا السابق فنقول :

لمّا جعل الله البيت - وهو مقام ابراهيم - مثابة للنّاس وأمنا ، وأمر باتّخاذه قبلة ومصلّى ، توجّه ابراهيم الى ربّه بالدّعاء ، وسأله - تبارك وتعالى - أن يجعل البلد الّذى هو محلّ هذا البيت ، بلدا آمنا حتّى يتمّ الأمن فيه ويعمّ ، وسأله أن يرزق أهله من الثمرات حتى لا يسأموا جوار هذا البيت ، ولا يرغبوا عن عمارته وسدانته ، ويكونوا عونا في جعله مثابة للنّاس :

﴿ واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثّمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال ومن كفر فأمتّعه قليلا ، ثمّ أضطرّه الى عذاب النّار وبئس المصير . ﴾

كانت هذه دعوة ابراهيم بعد ما انتهى من بناء البيت ، ولكن ما هى المشاعر وما هى التمنّيات ، الّتي كانت تضطرب في نفسه وفي نفس اسمعيل حين كانا يرفعان قواعد هذا البيت :

﴿ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ، ربّنا تقبّل منّا انّك أنت السميع العليم . ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا . انّك أنت التّوّاب الرّحيم . ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم .

---

(١) في ظلال القرآن : ١/١١٣

انّك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

تلك المشاعر القدسيّة أو التمنّيات المباركات ، الّتي كانت تجول و تضطرب في نفوس ابراهيم و اسمعيل أثناء بناء هما هذا البيت .

لماذا كان ذكرمشهد بناء الكعبة ختام هذا الحديث ؟

وهنا يثور سؤال :

لماذا أخّر بيان هذا المشهد الى آخر القصّة ، مع أنّه من ناحية ترتيبه الزّماني لم يكن آخر القصّة ؟

هذا سؤال لا بدّ أن يثور في ذهن الباحث ، ولا سيّما اذا كان ممّن يقولون بفكرة النّظام . والجواب أيضا يكمن في نظام هذه الآيات .

انّ الموضوع الأساسيّ الّذى كان موضع خلاف وموضع نقاش بين المسلمين وأهل الكتاب في تلك الساعة هوموضوع (الملّة)

فاليهود والنصارى كانوا في نزاع حادّ عنيف مع النّبيّ وأصحابه ، وكانوا يزعمون أنّهم هم على ملّة ابراهيم ! و أنّ ملّتهم هى الملّة السّويّة المستقيمة المفضّلة عندالله !

واليه تشيرالآية الكريمة ، الّتي مضت معنا قبل قليل :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم ﴾

والّتي جاءت بعدها بقليل :﴿ وقالوا كونوا هودا أونصارى تهتدوا ﴾

فجاءت هذه الآيات تفصّل لهم هذا الموضوع وتذكرلهم بهذه المناسبة قصّة امامة ابراهيم ، وتذكر تاريخها وتاريخ بناء الكعبة ، وكونها قبلة ومثابة للنّاس ، وتذكرالدّعوات الّتي كانت تتردّد على لسان ابراهيم وكانت تضطرب في جوانحه وهويرفع قواعد هذا البيت .

وبما أنّ هذه الدّعوات كانت تعكس اتّجاهاته واهتماماته ، وكانت تعبّر عن مشاعره وأحلامه ، وكانت خيروثيقة للاستدلال على طريقته وملّته ، الّتي كانت موضع خلاف وموضع جدال بين النّاس ، جاء بهاالسياق

ـ على غير ترتيبها الزّمني ـ في آخر القصّة واختار لها أسلوبا أيّ أسلوب ! ليظهر شأنها ويلفت الأنظار نحوها ٠

وقفة موفّقة للأستاذ سيّد قطب :

ولقد وقف الأستاذ سيّد قطب عند هذا الأسلوب وقفة موفّقة ، واستمتع بها استمتاعا ، حيث قال ـ رحمه الله ـ :

" انّ التعبير يبدأ بصيغة الخبر ٠٠ حكاية تحكي :

﴿ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ﴾

وبينما نحن في انتظار بقيّة الخبر ، اذا بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا ايّاهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال ٠ انّهما أمامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان :

﴿ ربّنا تقبّل منّا انّك أنت السميع العليم ٠ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انّك أنت التّوّاب الرّحيم ٠٠ ربّنا ٠٠ ﴾

فنغمة الدّعاء ، وموسيقى الدّعاء ، وجوّ الدّعاء ٠٠ كلّها حاضرة كأنّها تقع اللّحظة حيّة شاخصة متحرّكة ٠٠ وتلك احدى خصائص التعبير القرآنيّ الجميل ٠ ردّ المشهد الغائب الذاهب ، حاضرا يسمع ويرى ، ويتحرّك و يشخص ، وتفيض منه الحياة ٠٠ انّها خصّيصة (التصوير الفنّي) بمعناه الصّادق ، اللائق بالكتاب الخالد ٠"(١)

ولا شكّ أنّ الأستاذ سيّد قطب ـ رحمه الله ـ كان موفّقا في ابراز ناحية التصوير الفنّي في هذه الآيات ، ولقد أحسن وأجاد ٠

نظم الكلام له دور ملموس في روعة هذا الأسلوب :

ولكنّ الموقف يزداد روعة وجمالا ، ويزداد الأسلوب قيمة واعتبارا ، حين نتأمّل في نظم هذه الآيات ، ونعرف الغرض الّذى استخدم له هذا الأسلوب ٠ فانّنا نشعر حينئذ كأنّ هذا الأسلوب قد طوى تلك المسافات الهائلة ، الّتي كانت حائلة بيننا وبين أبوينا ابراهيم واسمعيل ،

---

(١) في ظلال القرآن : ١/١١٤

وكشف لنا عنهما حتّى يعلنا عن حقيقة ملّتهما في حين قدتراكمت عليها الظّلمات، وتضاربت فيها الآراء ، والنّاس أحوج ما يكونون الى صوت يحسم هذا النّزاع ويقشع هذا الظّلام ٠

وبالجملة فقد اختار السياق هذا الأسلوب ليتعاون مع نظم الكلام في ابراز تلك الآيات الّتي هى بمنزلة (بيت القصيد) في مجموعتها ، والّتي تعالج الموضوع الأساسي الّذى كان وقتئذ (موضوع الساعة) ولذلك جاء بعد هذه الآيات مباشرة :

﴿ ومن يرغب عن ملّة ابراهيم الاّ من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدّنيا وانّه في الآخرة لمن الصّالحين ٠ اذ قال له ربّه أسلم ، قال أسلمت لربّ العلمين ٠ ﴾

ويستمرّ هذا الموضوع الى نهاية هذه الفقرة ، نعني قوله تعالى:

﴿ أم تقولون انّ ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ٠ قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عمّا تعملون ٠ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ٠ ﴾

ولقد أسلفنا الكلام على نظم هذه الآيات كلّها فيما مضى ٠ وفيه غنية وكفاية باذن الله ٠

ولقد طال بنا الوقوف عند هذه المجموعة من الآيات ، ولم ينته الحديث بعد ، فانّ هناك جملة من الحقائق تستنبط من نظم هذه الآيات ، وهى قيّمة ومهمّة جدّا ٠

فلا يسعنا الاّ أن نحمد الله على أن منّ علينا بتلك الحقائق ، ثمّ نأخذ في تسجيلها باختصار ٠ والله وليّ التوفيق :

الحقيقة الأولى :

انّ هذه الآيات توحي الينا بنظمها وسياقها أنّ هذا البيت وضع على ملّة الاسلام ٠ بل هو قطب رحا هذه الملّة ٠

ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ ابراهيم واسمعيل - عليهما السلام - كانا يركّزان - وهما يرفعان قواعد البيت - على دعوة الاسلام ، فهما دعوا في تلك اللّحظة المباركة لأمّة الاسلام ونبيّ الاسلام :

﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك . وأرنا مناسكنا وتب علينا ، انّك أنت التّوّاب الرّحيم . ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم . انّك أنت العزيز الحكيم . ﴾

ولقد ضلّت اليهود والنّصارى عن هذه الملّة ، مع أنّ الله أرسل اليهم رسله تترى . وهؤلاء الرسل كلّهم بعثوا على هذه الملّة ، ودعوا النّاس اليها .

ولعلّ ضلالهم هذا عن هذه الملّة برغم تتابع الدّعاة اليها ، ليس الاّ لأنّهم قطعوا صلتهم بهذا البيت .

وأمّا بنو اسمعيل فهم بقوا على بقايا ملّة الاسلام ، وكانوا أقرب اليها من غيرهم مع أنّهم ما جاءهم بشير ونذير قبل نبيّنا - عليه الصّلاة والسلام - علما بأنّ هذه الفترة تمتدّ الى قرون لا يعلمها الاّ الله .

وليس ذلك فيما نرى ، الاّ لحرصهم على هذا البيت واعتزازهم بجواره واهتمامهم بخدمته وسدانته .

الحقيقة الثّانية :

لقد اختلف النّاس في أوّل أمر الكعبة ، وأكثروا فيه الكلام ، ولكن لم نطّلع عند أحد منهم على شيء تطمئنّ اليه النّفس .

ولقد كان موقف صاحب تفسير البحر المحيط موقفا لا بأس به ، حيث قال - رحمه الله - :

" ذكر المفسّرون في ماهية هذا البيت ، وقدمه وحدوثه ، ومن أيّ شيء كان بابه ، وكم مرّة حجّه آدم ، ومن أيّ شيء بناه ابراهيم ، ومن ساعده على البناء قصصا كثيرة . واستطردوا من ذلك للكلام في البيت

المعمور، وفي طول آدم والضّلع الّذى عرض له ولولده، وفي الحجر الأسود ، وطوّلوا في ذلك بأشياء لم يتضمّنها القرآن ولا الحديث الصحيح، وبعضها يناقض بعضا . وذلك على جرى عاداتهم في نقل مادبّ ومادرج ولا ينبغي أن يعتمد الاّعلى ماصحّ في كتاب الله و سنّة رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - " (١)

ولقد كان موقف ابن عطيّة قبل ذلك شبيها بهذا الموقف ،حيث قال - رحمه الله - بعد ماأشار الى ماقيل وماروى في هذا الباب :

" والّذى يصحّ من هذا كلّه أنّ الله أمر ابراهيم برفع قواعد البيت وجائز قدمه و جائز أن يكون ذلك ابتداء . ولا يرجح شيءٌ من ذلك الاّ بسند يقطع العذر . " (٢)

وهذا الموقف - ولا شكّ - كان أقرب للحقّ وأولى بالصّواب ، وكان أجدر بالاتّباع ، لولا أنّ القرآن نفسه قد دلّنا بنظمه على حقيقة الأمر ، فانّ هذه الآيات تدلّ بنظمها و سياقها على أنّ سيّدنا ابراهيم - عليه الصّلاة والسلام - هو الباني الأوّل أو المؤسّس الأول لهذا البيت .

وبيان ذلك أنّ الله تعالى اصطفى ابراهيم ليكون اماما للنّاس حيث قال :

﴿ انّي جاعلك للنّاس اماما ﴾

ولم تكن هذه الامامة خاصّة بفترة من الزّمان ، أو بجيل من النّاس ، وانّما كانت امامة النّاس أجمعين ، الى أن يقوم النّاس لربّ العلمين . ولذلك جعل الله تعالى ملّة ابراهيم ملّة الرسل والأنبياء أجمعين ، وقال - عزّ من قائل - :

﴿ ومن يرغب عن ملّة ابراهيم الاّ من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدّنيا ، وانّه في الآخرة لمن الصّالحين . ﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٣٨٧/١ (٢) المحرّر الوجيز : ٤٢١/١

وحتّى نبيّنا – عليه الصّلاة والسلام – بعث بملّة ابراهيم ، وكان مأمورا باتّباعها والالتزام بها ، حيث قال تعالى :

* وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملّة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . *

يقول العلاّمة أبو السعود وهو يفسّر قوله تعالى : (انّي جاعلك للنّاس اماما) :

" الامام اسم لمن يؤتمّ به . وكلّ نبيّ امام لأمّته ، وامامته – عليه السلام – عامّة مؤبّدة ، اذ لم يبعث بعده نبيّ الاّ كان من ذرّيته مأمورا باتّباع ملّته . " (١)

فاعلان امامة ابراهيم ، ثمّ اعلان كون البيت مثابة للنّاس وأمنا ، وتسميته في نفس الوقت مقام ابراهيم ، والأمر باتّخاذه قبلة ومصلّى ، ثمّ ذكر بناء ابراهيم واسمعيل لهذا البيت ، هذه الحلقات كلّها ، اذا ضمّت بعضها الى بعض فانّها تؤدّى الى أنّ ابراهيم هو الّذى أسّس هذا البيت . وجعل بيته هذا مثابة للنّاس وقبلة ومصلّى باعتباره امام النّاس أجمعين .

وتسمية البيت هنا مقام ابراهيم – كما ذهب اليه طائفة من أعلام المفسّرين – لها دلالتها الخاصّة في هذا الموضوع . ولقد سبق أن أشرنا اليها .

الحقيقة الثّالثة :

ثمّ هناك أمر آخر يستنبط من نظم هذه الآيات وهو أنّ سيّدنا ابراهيم ما رشّح لتلك الامامة العظمى الاّ بعد واقعة الذبح ، فانّه بعد ما اجتاز هذا الامتحان – وكان هو الامتحان الأخير – بنجاح وتوفيق باهر ، خلعت عليه تلك الكرامة ، وجعلت ملّته هى الملّة الّتي يأتمّ النّاس بها الى يوم القيامة .

(١) تفسير العلاّمة أبي السعود : ١/١٨٥

وبيان ذلك أنّ هذه الواقعة كانت تمثّل - في حقيقتها - ذروة الاسلام فعبّر عنها بلفظة الاسلام ، حيث قال تعالى :

﴿ ومن يرغب عن ملّة ابراهيم الاّ من سفه نفسه ۰ ولقد اصطفيناه في الدّنيا وانّه في الآخرة لمن الصّالحين ۰ اذ قال له ربّه أسلم ، قال أسلمت لربّ العلمين ۰ ﴾

فقوله تعالى : ﴿ اذ قال له ربّه أسلم ، قال أسلمت لربّ العلمين ﴾ تلميح رائع الى تلك الواقعة ۰

ولقد استخدم نفس التعبير في موضع آخر ، حيث ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل ۰ قال تعالى :

﴿ فبشّرناه بغلام حليم ۰ فلمّا بلغ معه السّعى قال يا بنىّ انّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصّابرين ۰ فلمّا أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدّقت الرؤيا ، انّا كذلك نجزى المحسنين ۰ انّ هذا لهو البلاء المبين ۰ ﴾ (١)

فقوله تعالى : ﴿ فلمّا أسلما وتلّه للجبين ﴾ يشبه قوله تعالى : ﴿ اذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العلمين ۰ ﴾

اذا عرفنا هذا فنقول : انّ نظم الكلام ، أعني ذكر ملّة ابراهيم بما يدلّ على علوّ شأنها ، ثمّ ذكر اصطفائه بأسلوب خاصّ : ﴿ ولقد اصطفيناه في الدّنيا ﴾ ثمّ التلميح الى واقعة الذبح ، هذا النّظم ان دلّ على شئ فانّما يدلّ على أنّ واقعة الذبح كانت هى الحلقة الأخيرة في سلسلة الابتلاءات الّتي ابتلى بها ابراهيم ۰ وبعدها مباشرة تمّ اصطفاؤه لامامة النّاس ، كما تقرّر لملّته أن تكون هى الملّة المفضّلة الباقية الى يوم القيامة ۰

وممّا يؤيّد هذا أنّ اسمعيل أيضا كان له نصيب أوفى من هذه الامامة ، حيث انّه كان شريك أبيه في بناء البيت الّذى كان من آيات امامته ، وليس ذلك الاّ لأنّه كان شريكه في واقعة الذبح ، الّتي كانت آخر

---

(١) سورة الصّافّات : ١٠١ - ١٠٦

الابتلاءات وأشدّها .

وبعد هذه الواقعة الفذة الفريدة ـ وكانت أروع نموذج لحقيقة الاسلام ـ أمر ابراهيم ببناء البيت ، الّذى أراد الله له أن يكون أوّل حصن ، وأكبر مركز لملّة الاسلام .

الحقيقة الرابعة :

وممّا يستنبط من نظم هذه الآيات أنّ حياة الأمّة المسلمة منوطة ببقاء هذا البيت ، فهى تبتدئ برفع قواعده ، حيث انّ ابراهيم واسمعيل ـ عليهما السلام ـ كانا مسلمين ، وكانا من قواعد هذه الأمّة . وستنتهي بقلع أحجاره ،حيث ذكر نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسلام ـ من ضمن أشراط الساعة :

(كأنّي به أسود أفحج يقلعها ـ أى الكعبة ـ حجرا حجرا .)[1]

فلتحرص الأمّة الاسلامية على كرامة هذا البيت وبقائه ، لأنّ كرامتها من كرامته وبقاءها من بقائه .

الحقيقة الخامسة :

وأيضا يستنبط من نظم هذه الآيات أنّ العنصر الأساسي في معنى (الاسلام) هو البذل والتضحية في سبيل الله . فانّ قول ابراهيم واسمعيل ـ عليهما السلام ـ ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ بعد قولهما ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك ﴾ يقودنا الى هذه النّكتة .

ولقد اختلف النّاس في تأويل قولهما : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ على عدّة أقوال . ولعلّ أرجحها هو ما روى عن عطاء ومجاهد و عبيد بن عمير أنّ المراد به : (وأرنا مذابحنا).[2]

ولقد فسّر ابن جرير ـ رحمه الله ـ هذا التأويل بما يلي :

" فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك : وأرنا كيف ننسك لك يا ربّنا نسائكنا فنذبحها لك . " [3]

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الحجّ ، باب هدم الكعبة ، ٢/١٥٩

(٢)و(٣) تفسير الطّبرى : ١/٥٥٤

ويبدو أنّ الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ لم يكن دقيقا في تفسير قولهم هذا ، فانّ (مذابح) جمع مذبح ، وهو ظرف مكان . وتفسيره بكيفيّة نسك النّسائك أو كيفيّة ذبح الذبائح ، بعيد جدّا .

بالاضافة الى أنّهم قالوا (مذابحنا) ولم يقولوا (مذابح ذبائحنا) .

ولعلّ التفسير الصّحيح لتأويلهم هكذا :

(وأرنا مذابح أنفسنا ، أى أرنا المواضع الّتي نبذل فيها مهجنا ونضحّي فيها بأنفسنا)

وعلى هذا يكون قولهما ـ عليهما السلام ـ ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ بيانا لقولهما : ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّة مسلمة لك ﴾

ومن هنا نعرف أنّ حقيقة الاسلام أو ذروة الاسلام هى بذل المهج والتضحية بالنّفس والنّفيس في سبيل الله .

ومن هنا كانت واقعة الذبح هى فاتحة ملّة الاسلام . وكان ابراهيم واسمعيل ـ عليهما السلام ـ أوّل من رفع راية الاسلام .

ومن هنا كانت السمة البارزة لهذه الأمّة ، الّتي دعا لها ابراهيم واسمعيل ـ عليهما السلام ـ أنّها أمّة تقاتل في سبيل الله .

فقد جاءت صفتها في التوراة والانجيل والقرآن هكذا ، حيث قال تعالى:

﴿ انّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يقتلون . وعدا عليه حقّا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الّذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم . ﴾ (١)

الحقيقة السادسة :

لقد دعا سيّدنا ابراهيم لنبيّنا ـ صلّى الله عليهما وسلّم ـ وللأمّة المسلمة وهو يبني الكعبة .

وكما أنّ القرآن ذكر هذه الدّعوة في سياق بناء الكعبة ، فكذلك

---

(١) سورة التوبة : ١١١

الكتب القديمة أيضا التزمت بهذا السياق في ذكر دعوة ابراهيم ٠

هذا النّظم وهذا السياق يشير الى أنّ هناك سببا خاصّا بين هذا البيت وبين هذا النّبيّ وأمّته ٠

وبهذا يمكن أن يفسّر تقلّب وجه النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في السماء ، كما ورد في الآية الكريمة :

﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينّك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ... الآية ﴾ (١)

وأهل العلم من الملل السابقة أيضا قد فطنوا بهذا السياق الى هذه الصّلة الخاصّة بين البيت وبين هذا النّبيّ وأصحابه ٠ وفطنوا الى أنّ أرض هذا البيت ستكون مبعث هذا النّبيّ وأصحابه ٠ وهذا البيت نفسه سيكون منطلق هذه الدّعوة ٠

فالصّالحون منهم حاولوا أن ينتقلوا من البلاد النّائية ويلتفّوا حول هذا البيت ، كما يذكر لنا التاريخ القديم لبني اسرائيل ٠ (٢)

وأمّا الأشرار منهم ، فهم لم يألوا جهدا في طمس معالم هذه النّبوّة ، وفي تحريف الكلم عن مواضعه ، حتّى يوهموا النّاس أنّ ذلك (البيت) هو بيت المقدس ٠ وأنّ ابراهيم بنى البيت الّذى في أورشليم ، لا هذا البيت الّذى هو واقع في مكّة ٠ وأنّ شريكه في بناء هذا البيت هو اسحق وليس اسمعيل ٠ وأنّ الذبيح كذلك هو اسحاق وليس اسمعيل ، الى غيرها من المحاولات الخاطئة الكاذبة ، الّتي بذلوها في هذا الطّريق ٠

الحقيقة السّابعة :

انّ سيّدنا ابراهيم دعا ربّه لأمّة مسلمة ، وهذه الأمّة المسلمة لم تكن كأحد من الأمم ، بل السياق يوحي الينا أنّ الأمّة الّتي دعا لها ابراهيم كانت أمّة متفرّدة ، لها شأنها ولها وظيفتها !

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤

(٢) انظر للتفصيل (دلائل النّبوّة) لأبي نعيم ، بتحقيق الدكتور محمد روّاس قلعه جي : ١/٨٥، ٩٥، ٣٣٧

انّ ابراهيم دعا لأمّة تقوم في الدّنيا بمهمّة الرسل والأنبياء، والدّليل على هذا هو نظم الكلام وسياقه ·

فانّه - عليه السلام - دعا لأمّة مسلمة مستميتة في سبيل الله، قبل أن يدعو لبعثة الرسول · وهذا الترتيب له دلالته وايحاءاته ·

ثمّ انّه - عليه السلام - دعا - لمّا دعا لبعث الرسول - بأسلوب له دلالاته وايحاءاته كذلك ·

ولايضاح كلامنا هذا نلجأ الى مثال من نفس القرآن، فسيّدنا زكريا - عليه السلام - أيضا دعا ربّه لاستمرار النّبوّة في ذرّيّته كما دعا ابراهيم، ولكن شتّان بين أسلوبهما ·

ولا بأس بأن نضع أمامنا كلا الأسلوبين حتّى ندرك الفرق بينهما ·

قال سيّدنا زكريا - عليه السلام - وهو يسأل ربّه نفس السؤال :

* قال ربّ انّي وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيبا · ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا · وانّي خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا، فهب لي من لدنك وليّا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربّ رضيّا · * (1)

فسيّدنا زكريا - عليه السلام - لم يزد في هذا الدّعاء على أن سأل ربّه وليّا يرثه ويرث من آل يعقوب وسأله أن يجعله رضيّا ·

بينما نرى سيّدنا ابراهيم - عليه السلام - لم يقتصر على الدّعاء لبعث الرسول بل حدّد للرسول وظيفته ومهمّته كذلك، حيث قال :

* ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، انّك أنت العزيز الحكيم *

فذكر لذلك الرسول في دعائه أربع وظائف :

١ - يتلو آيات الله على تلك الأمّة ·

٢ - ويعلّمهم الكتاب ·

٣ - ويعلّمهم الحكمة ·

٤ - ويزكّيهم ·

---

(1) سورة مريم : ٤ - ٦

وبعد التأمّل في مطالب هذا الدّعاء يتبيّن لنا أنّ جلّ اهتمام ابراهيم كان منصبّا على تربية تلك الأمّة المسلمة وتنشئتها واعدادها وصياغتها على مثال الأنبياء، حتّى تقوم بمهمّتها الجسيمة في هذا الكون. وانطلاقا من اهتماماته تلك دعا لبعثة رسول يحقّق تلك الغاية، ويقوم بذلك العمل العظيم أحسن قيام.

ثمّ يشدّ انتباهنا كذلك قوله - عليه السلام -: ﴿ ويعلّمهم الكتاب والحكمة ﴾ فهذا شيء لم يرد ذكره في سياق ذكر أيّ أمّة من الأمم. وانّما كان هذا من اختصاص الأنبياء - عليهم السلام - فورد - مثلا - في شأن المسيح - عليه السلام - حين بشّرت به أمّه مريم - عليها السلام -:

﴿ قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانّما يقول له كن فيكون. ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ﴾ (١)

فلمّا سأل ابراهيم ربّه أن يبعث في تلك الأمّة رسولا يعلّمهم الكتاب والحكمة فكأنّه أراد من ربّه أن يرشّح تلك الأمّة المسلمة بكاملها لمهمّة الأنبياء.

ونحن نرى أنّ هذه الحقيقة، الّتي تشير اليها تلك الآيات بنظمها وسياقها قد جاءت واضحة ومصرّحا بها في نفس السورة في قوله تعالى:

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا. ﴾ (٢)

وسنفصّل القول في تأويل تلك الآية في محلّها باذن الله.

الحقيقة الثّامنة:

لقد ذكرت للنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في هذه الآية أربع وظائف، وآخرها هي (التزكية) والتأمّل في نظم هذه الآية

---

(١) سورة آل عمران: ٤٧ - ٤٨ (٢) سورة البقرة: ١٤٣

ولهذا كان ابراهيم أوّل من بدأ هذه العمليّة - أى عمليّة اعداد وتحضير لظهور تلك الأمّة المسلمة - حيث انّه وصّى بنيه بملّة الاسلام:

* يا بنيّ انّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ الاّ وأنتم مسلمون *

واستمرّت هذه السنّة فيمن جاء بعده . فيعقوب أيضا وصّى بنيه بتلك الوصيّة كما نصّ عليه القرآن .

ثمّ الرسل الّذين جاءوا من بعدهم كلّهم وصّوا بملّة الاسلام، وبشّروا بظهور أمّة الاسلام، وأخذوا ميثاق قومهم أن يؤمنوا بتلك الرسالة المباركة الخالدة اذا أدركهم أوانها .

ونرى هذه الحقيقة واضحة ماثلة في قوله تعالى :

* واذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولّى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون . *(١)

<u>الحقيقة العاشرة :</u>

انّ هذه الآيات توحي الينا بنظمها أنّ بني اسرائيل استقاموا على الطّريقة الى عهد الأسباط ، ثمّ عدلوا عن الطّريق ، ودبّت فيهم الموبقات ، حتّى أرسل اليهم موسى - عليه صلوات الله وسلامه - .

فمن قبل موسى يبتدأ تاريخ انحرافهم . ثمّ مازالوا في جماحهم وانحرافهم وعصيان رسلهم ، ومازالوا في كفرهم وفسوقهم وشقاقهم، حتّى ضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ القرآن لمّا أراد في هذه السورة أن يذكر تاريخ مساوئهم وانحرافهم بدأ من عهد موسى الى ما بعده . ثمّ أجمل تاريخهم البغيض في آية واحدة حيث قال تعالى :

* ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا

---

(١) سورة آل عمران : ٨١ - ٨٣

عيسى بن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس . أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . ﴾ (١)

ثمّ بعد ما أشبعهم لوما و تعنيفا على سوء تصرّفاتهم ، وأراد أن يذكر لهم الملّة السويّة المستقيمة ، الّتي عدلوا عنها بدأ من عهد ابراهيم الى عهد الأسباط ، حيث قال تعالى :

﴿ ومن يرغب عن ملّة ابراهيم الاّ من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدّنيا وانّه في الآخرة لمن الصّالحين . اذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العلمين . ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، يا بنيّ انّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ الاّ وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ، اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل و اسحق ، الها واحدا ، ونحن له مسلمون . ﴾

الحقيقة الحادية عشرة :

ونعرف من نظم الآيات كذلك أنّ سيّدنا موسى ومن بعده من الرسل والأنبياء جاءوا - مع ما جاءوا به من البيّنات والهدى - بالآيات الحسّيّة ، الّتي يسمّيها النّاس (المعجزات) بخلاف من كانوا قبلهم .

وليس ذلك الاّ لما قد توغّل في بني اسرائيل من السوء والانحراف ابتداء من عهد موسى الى ما بعده .

ونقول ذلك استنباطا من قوله تعالى :

﴿ قولوا آمنّا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النّبيّون من ربّهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾

فقد اختار السياق للتعبير عمّا جاء به ابراهيم ومن بعده من الرسل والأنبياء لفظة (أنزل) حيث قال تعالى : ﴿ وما أنزل الى ابراهيم ... الخ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : ٨٧

كما اختار للتعبير عمّا جاء به موسى ومن بعده من الرسل والأنبياء كلمة (أوتي) حيث قال تعالى : ﴿ وما أوتي موسى .... الخ ﴾

ولقد تكرّرت هذه الآية في سورة آل عمران مع فرق يسير ومع الاحتفاظ بهذا الاختلاف في التعبير حيث قال تعالى :

﴿ قل آمنّا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيّون من ربّهم ، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ (١)

ولا يخفى أنّ كلمة (أوتي) أعمّ وأشمل من كلمة (أنزل) حيث أنّ الأولى منهما تشمل الآيات الحسّيّة المشاهدة مع غيرها من الآيات المتلوّة المنزّلة ، بخلاف الأخرى ، فانّها لا تشمل الّا ما جاء عن طريق الوحي .

وما كان لنا أن ندرك سرّ هذا الاختلاف في التعبير ونفسّر الكلمتين بهذا التفسير الّا بالتأمّل في نظم الكلام وسياقه .

فنرى ابن عطيّة - مثلا - يفسّر (وما أوتي موسى) بالتوراة وآياته وما أوتي عيسى بالانجيل وآياته . (٢)

وكذلك نسمع أبا حيّان يقول :

" وجاء (وما أنزل الينا) وجاء (وما أوتي موسى وعيسى) تنويعا في الكلام وتصرّفا في ألفاظه وان كان المعنى واحدا ، اذ لو كان كلّه بلفظ الايتاء أو بلفظ الانزال لما كان فيه حلاوة التنوّع في الألفاظ ." (٣)

فهما لم يفرّقا بين مدلول الكلمتين ، كما أنّ الّذين سبقوهما ، ولم يهتمّوا بنظام الآيات لم يفرّقوا بينهما .

الحقيقة الثّانية عشرة :

وينكشف لنا بالتأمّل في نظم هذه الآيات أنّ بني اسرائيل لمّا عدلوا عن الطّريق وتغلغل فيهم الشرّ والفساد ، صاروا شيعا وأحزابا بطبيعة الحال .

---

(١) سورة آل عمران : ٨٤ (٢) المحرّر الوجيز : ١/٤٣١

(٣) تفسير البحر المحيط : ١/٤٠٨

. ثمّ طفقوا يفرّقون بين الرسل والأنبياء فآمنوا ببعضهم وكفروا ببعضهم الآخرين . فحبيب حزب كان بغيضا عند الآخرين ، وبغيضهم كان حبيبا عند غيرهم .

وبما أنّهم دبّ فيهم هذا الانحراف من عهد موسى - عليه السلام - لم يبق عندهم الاحترام والتوقير الا لمن سبقوا موسى . وهم : ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط . فهؤلاء كانوا يتمتّعون بالاحترام والتوقير وحسن الثناء عند الجميع ، والجميع كانوا ينظرون اليهم بعين الاعتبار والتقدير .

ولعلّ هذا هو السرّ في أنّ القرآن لمّا أراد أن يحتجّ على يهوديّتهم أو نصرانيّتهم احتجّ بهؤلاء حيث قال تعالى :

﴿ أم تقولون انّ ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى . قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممّن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عمّا تعملون ﴾

فالقرآن اقتصر على الاحتجاج بهؤلاء الأنبياء نظرا لهذا الوضع والّا فغيرهم أيضا لم يكونوا هودا أو نصارى وانّما كانوا مسلمين .

ولذلك لمّا أراد القرآن أن يذكر عن ملّة الاسلام أنّها ملّة ابراهيم وملّة جميع الأنبياء والمرسلين ، لم يغادر منهم أحدا ، وجمعهم جميعا في آية واحدة حيث قال تعالى :

﴿ قولوا آمنّا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النّبيّون من ربّهم . لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾

هذا ما فتح الله علينا عن طريق التأمّل في نظم تلك الآيات ، فله الحمد أوّلا وآخرا ، وله الحمد ملء الأرض وملء السموات .

والآن ، وقد انتهينا من تلك الآيات ، نبدأ فيما بعدها ، سائلين الله - عزّ وجلّ - أن يتولّانا ويسدّد خطانا . انّه وليّنا ومولانا .

نظـــم الآيـــات (١٤٢ ـ ١٥٢)

****

قال ربّنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ سيقول السفهاء من النّاس ما ولاّهم عن قبلتهم الّتي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب ، يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الاّ على الّذين هدى الله . وما كان الله ليضيع ايمانكم ، انّ الله بالنّاس لرءوف رحيم . قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينّك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره . وانّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم وما الله بغافل عمّا يعملون . ولئن أتيت الّذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض . ولئن اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انّك اذا لمن الظّالمين . الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وانّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون . الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين . ولكلّ وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا ، انّ الله على كلّ شيءٍ قدير . ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وانّه للحقّ من ربّك ، وما الله بغافل عمّا تعملون . ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ، لئلاّ يكون للنّاس عليكم حجّة الاّ الّذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلّكم تهتدون . كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

لقد مرّ معنا في الآيات السالفة أنّ سيّدنا ابراهيم دعا ـ وهو يرفع قواعد البيت ـ لأمّة مسلمة ، ودعا لرسول يبعث فيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم .

فانّه - عليه السلام - رضى لنفسه ملّة الاسلام . وأراد أن تستمرّ هذه الملّة في ذرّيّته من بعده .

فأخرجت هذه الأمّة وبعث هذا النّبيّ استجابة لدعوته ، حتى يواصلوا المسير على ملّته وعلى طريقته ، بعد أن رغب عنها بنو اسرائيل ، وتخلّوا عنها وتعلّقوا بأهداب اليهوديّة أو النّصرانيّة ما اليها .

وكانت الكعبة هى عماد هذه الملّة وأساسها ، وكانت بمنزلة القلب في جسدها ، وقد أمر الله باتّخاذها قبلة ومصلّى، كما مرّ ذلك بشيءٍ من التفصيل في الفقرة السالفة .

ولكنّ بني اسرائيل - على الرغم من هذا كلّه - عدلوا عنها بعدما ضربت السفاهة فيهم بجرانها ورست فيهم أوتادها .

فلمّا أنشأ الله هذه الأمّة ، استجابة لدعوة ابراهيم ، وأراد أن يقيمها على ملّته ، أعادها - بطبيعة الحال - الى قبلته .

وكانت هذه الاعادة الى قبلة ابراهيم دليلا على أنّ هذه الأمّة هى تلك الأمّة الّتي دعا لها ابراهيم .

وما لبث القرآن أن أومأ اليها ايماءا ، حيث ذكّرهم بهذه المناسبة تلك المهمّة الّتي كان يريدهم لها ابراهيم . قال تعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

ولقد ذهب النّاس في تأويل هذا الشطر من الآية عدّة مذاهب ،ولكنّ أوفقها للسياق وأقربها للصواب قول من قال في تأويله :

" معناه لتنقلوا اليهم ما علمتموه من الوحى والدّين كما نقله رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم- " (١)

ويشبهه ما ذكره ابن عطيّة في تأويل قوله تعالى :﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ حيث قال :

" وقيل أى يشهد عليكم بالتبليغ اليكم . " (٢)

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٤٢٢/١ (٢) المحرّر الوجيز : ٤٣٩/١

ويقارب هذا ما قاله الأستاذ الشيخ أمين أحسن في تأويل هذا الشطر من الآية ، حيث قال :

" هذا بيان وظيفة الأمّة الوسط وبيان ما دعا الى اخراجها ٠

لقد علمنا فيما مضى أنّ القوم الّذين اختارهم الله لمهمّة القيادة ، نقضوا عهد الله وعبثوا بشريعته وتناولوها بالتحريف والتبديل ، وضلّوا عن صراطه المستقيم ، وعدلوا عن قبلته الّتي رضيها لهم ، وكتموا الحقّ الّذى ائتمنوا عليه وأمروا باعلانه والشهادة به ٠

ولم تكن في مثل هذا الوضع ضرورة أشدّ من أن تبعث أمّة تستقيم على صراط الله وتتلقّى من رسوله الدّين الحقّ ، ثمّ تشهد على النّاس بذلك الدّين و تظلّ تشهد به الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ٠

وقوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ صريح في أنّ فريضة الشهادة على النّاس ، الّتي كلّف بها الرسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ باعتباره رسول الله ، انتقلت من بعده الى أمّته ٠

فأصبح من واجب هذه الأمّة من بعده أن تشهد على النّاس بالحقّ في كلّ عصر وفي كلّ قطر وفي كلّ لغة ٠

وان تخلّت الأمّة عن واجبها أو قصّرت فيه ، وتركت البشريّة تتيه و تتخبّط في الظّلام بعيدا عن هدى ربّها ، فهى لا تكون أقلّ مسئوليّة وأخفّ عقوبة من غيرها ٠ " (١)

والى مثل هذا التأويل مال صاحب الظّلال في تفسيره وفصّله تفصيلا حيث قال ـ رحمه الله ـ :

" انّها الأمّة الوسط ، الّتي تشهد على النّاس جميعا ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدى فيهم رأيها ، فيكون هو الرأى المعتمد ، وتزن قيمهم و تصوّراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم ، فتفصل في أمرها ، وتقول : هذا حقّ منها وهذا باطل ، لا الّتي تتلقّى

---

(١) تدبّر قرآن : ١/٣٢٠ ـ ٣٢١

من النّاس تصوّراتها و قيمها و موازينها وهى شهيدة على النّاس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم .. وبينما هى تشهد على النّاس هكذا ، فانّ الرسول هو الّذى يشهد عليها ، فيقرّرلها موازينها وقيمها ، ويحكم على أعمالها وتقاليدها ، ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة .. وبهذا تتحدّد حقيقة هذه الأمّة ووظيفتها .. لتعرفها ، ولتشعر بضخامتها ، ولتقدر دورها حقّ قدره ، وتستعدّ له استعدادا لائقا .. " (١)

ويشبه ذلك ما قاله الأستاذ محمد قطب في وقفته الرائعة عند هذه الآية :

" انّ هذه الأمّة ليست مكلّفة أن تعيش لذاتها فحسب ، ولا في حدود ذاتها فحسب ! انّها مكلّفة بمهمّة أخرى هى قيادة البشريّة .

﴿ لتكونوا شهداء على النّاس ﴾

والأمّة القائدة الرائدة ينبغي أن تكون لها مواصفات غير الأمم العادية الّتي تعيش لذاتها فحسب ، وفي حدود ذاتها فحسب !

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا ... ﴾

والوسط في لغة العرب المخاطبين بهذا القرآن أوّل مرّة تحمل معانى كثيرة ، فالوسط هو الأفضل . والوسط هو المعتدل . والوسط هو المستوى . والوسط هو المتوسط بين الأطراف ..

وكلّ هذه المعاني توفّرت في تلك الأمّة القائدة الرائدة ، لتكون شهيدة على النّاس . " (٢)

ويؤيّد هذا التأويل ما رواه ابن جرير قال حدّثني يونس ، قال أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد (وكذلك جعلناكم أمّة وسطا) قال : (هم وسط بين النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وبين الأمم) (٣)

ويزداد هذا المعنى وضوحا و سفورا حين نضع في اعتبارنا نظير هذه الآية في سورة الحجّ ، حيث قال تعالى :

---

(١) في ظلال القرآن : ١/١٣٠ - ١٣١ (٢) دراسات قرآنيّة : ص/٣٠١

(٣) تفسير الطّبرى : ٢/٨

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون . وجاهدوا في الله حقّ جهاده . هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدّين من حرج . ملّة أبيكم ابراهيم . هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على النّاس، فأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النّصير . ﴾ (١)

فهذا الخطاب الالهيّ الكريم يكشف لنا عدّة أمور وهي كما يلي :

١ ــ انّ الأمّة المسلمة ، وهم صحابة رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ ، كانوا أمّة مجتباة .

٢ ــ انّ أباهم ابراهيم سمّاهم مسلمين ، وربّهم أيضا سمّاهم مسلمين في هذا القرآن ، واجتباهم على العالمين ليكونوا شهداء على النّاس في هذه الدّنيا .

٣ ــ انّ هذه الشهادة لا تتمّ الاّ بأن يجاهدوا في الله حقّ جهاده .

٤ ــ لا بدّ لأداء هذه الشهادة من اعداد سابق باقام الصّلاة وايتاء الزّكاة والاعتصام بالله . وبعد هذا الاعداد يكون الله معهم و ينصرهم في انجاز هذه الشهادة .

انّ هذه الأمور كلّها تسوقنا سوقا الى ما أشرنا اليه مسبقا ، وهو أنّ هذه الشهادة عبارة عن القيام بتلك المهمّة الّتي بعث لأجلها الرسل والأنبياء . وسيّدنا ابراهيم دعا لهذه الأمّة ، حتى تقوم هي الأخرى بتلك المهمّة على صعيد عالميّ ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كلّه لله .

ولقد ذكّر المسلمون بمهمّتهم هذه أكثر من مرّة حيث قال تعالى:

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ﴾ (٢)

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ﴾ (٣)

﴿ ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيّام نداولها

---

(١) سورة الحجّ : ٧٧ ــ ٧٨ (٢) سورة المائدة : ٨
(٣) سورة النّساء : ١٣٥

بين النّاس وليعلم الله الّذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء . والله لا يحبّ الظّالمين . ﴾ (١)

وعلى هذا فيكون هذا الشطر من الآية تنبيها من الله - تبارك وتعالى - الى تلك الكرامة الّتي خصّ بها الأمّة المسلمة ، حيث رفعها - استجابة لدعوة أبينا ابراهيم - الى منزلة الأنبياء - عليهم السلام - وناط بها ما ناط بهم من مهمّة الارشاد والتوجيه والشهادة على النّاس .

ومن هنا قال النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - فيما رواه أبان وليث عن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصّامت - :

(أعطيت أمّتي ثلاثا لم تعط الاّ الأنبياء .... (منها) وكان الله اذا بعث النّبيّ جعله شهيدا على قومه وجعل هذه الأمّة شهداء على النّاس) خرّجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله في (نوادر الأصول) . (٢)

وبما أنّ هذه الأمّة قامت في هذه الدّنيا بدور الأنبياء فسيكون لها - باذن الله - شأن خاصّ عند الله يوم القيامة ، كما روى ابن جرير قال حدّثنا الحسن بن يحيى ، قال أخبرنا عبد الرزّاق ، قال أخبرنا معمر ، عن زيد بن أسلم أنّ الأمم يقولون يوم القيامة :

(والله لقد كادت هذه الأمّة أن تكون أنبياء كلّهم لما يرون الله أعطاهم) (٣)

هذا ، وهناك وجوه أخر في تأويل هذه الآية (٤) ، ولكنّ الّذى يتلاءم مع السياق وينهض به الدّليل هو الّذى ذكرناه .

وأمّا بقيّة الوجوه فهى ضعيفة جدّا ، بحيث انّها تخلّ بالنّظام وتفكّك الكلام ولا تعتمد على أساس قوىّ من البرهان .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٠ (٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٥٥/٢

(٣) تفسير الطّبرى : ١٠/٢ ، ولقد وردت هذه الرواية عند الامام أحمد بهذا اللّفظ :(وتقول الأمم : كادت هذه الأمّة أن تكون أنبياء كلّها . انظر مسند الامام أحمد : ٢٩٦/١

(٤) تفسير البحر المحيط : ٤٢٢/١

ولا يمكننا في مقامنا هذا أن نتناول تلك الوجوه كلّها بالبحث والنّقاش فنحصر الكلام على واحد منها ، وهو الوجه الّذى نال اعجاب المفسّرين ـ رحمهم الله ـ فانّه اذا ظهر الضّعف في هذا ، كان ذلك مقياسا لما عداه .

يقول الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تأويل ما نحن فيه من قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ :

" فمعنى ذلك : وكذلك جعلناكم أمّة وسطا عدولا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ ، أنّها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي الى أممها ، ويكون رسولي محمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ شهيدا عليكم بايمانكم به و بما جاءكم به من عندى ، كما حدّثني أبو السائب ، قال : حدّثنا حفص ، عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : (يدعى بنوح ـ عليه السلام ـ يوم القيامة ، فيقال له : هل بلّغت ما أرسلت به ؟ فيقول : نعم ، فيقال لقومه : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من نذير ، فيقال له : من يعلم ذلك ؟ فيقول : محمّد وأمّته ، فهو قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ "(١)

هذا ما اختاره الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تأويل ما نحن فيه . وتبعه في هذا التأويل عدد غير قليل من المفسّرين ـ رحمهم الله ـ .

ونحن لا نرتضي هذا التأويل لسببين اثنين :

السبب الأوّل :

انّ هذا التأويل يفكّك نظام الكلام . لا نقول: انّه يفكّك نظام الآيات ، بل يفكّك نظام آية واحدة ، فضلا عن نظام الآيات ، فانّ قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ليس آية كاملة ، بل هو جزء من الآية ، وكامل الآية هكذا :

---

(١) تفسير الطّبرى : ٨/٢

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا . وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الاّ على الّذين هدى الله . وماكان الله ليضيع ايمانكم ، انّ الله بالنّاس لرءوف رحيم . ﴾

فقبول هذا التأويل لا يعني الاّ أن نقول : انّ الآية الواحدة تشتمل على مضامين متنافرة متباعدة ، بحيث لا يمكن التوفيق بينها ، وهذا لا يقوله أحد ، حتّى ولا الّذين لا يقولون بفكرة المناسبات أو فكرة النّظام بين الآيات .

السبب الثّاني :

انّ هذا التأويل لا يتّفق مع نصوص القرآن ، بل يخالفها مخالفة واضحة . وها هي بعض تلك النّصوص :

١ ـ ﴿فكيف اذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(١)

٢ ـ ﴿ ويوم نبعث من كلّ أمّة شهيدا ، ثمّ لا يؤذن للّذين كفروا ولا هم يستعتبون . ﴾ (٢)

٣ ـ ﴿ ويوم نبعث في كلّ أمّة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ﴾ (٣)

٤ ـ ﴿ ونزعنا من كلّ أمّة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أنّ الحقّ لله ، وضلّ عنهم ماكانوا يفترون . ﴾ (٤)

تلك النّصوص تدلّ دلالة واضحة على أنّ كلّ نبيّ يكون شهيدا على أمّته ، ثمّ يفصل بينهم حسب شهادته . والشهيد لا يكون بحاجة الى شهيد ، فلا ندري كيف نوفّق بين هذا التأويل و بين تلك النّصوص !

ثمّ يمكننا كذلك ـ بناء على تلك النّصوص ـ أن نحكم على تلك الروايات الّتي ذهبت بالنّاس الى ذلك التأويل ، والله الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) سورة النّساء : ٤١

(٢) سورة النّحل : ٨٤

(٣) سورة النّحل : ٨٩

(٤) سورة القصص : ٧٥

والآن ، وقد تبيّن لنا التأويل الصحيح ، نرجع الى حديثنا الأول ، فنقول : انّ تحويل المسلمين الى قبلة ابراهيم لم يكن أمرا يسيرا ، وانّما كان هذا اعلانا بظهور أمّة كانت دعوة ابراهيم ، وهو يرفع قواعد البيت ، وكان اعلانا بمهمّتها السامية الجليلة ، الّتي ستقوم بها في رحاب هذا الكون :

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

وهنا يثور سؤال : اذا كانت هذه الأمّة قد ظهرت استجابة لدعاء ابراهيم ، وكان من مهمّتها أن ترفع لواء ملّته ، فلماذا كان هذا التأخير في تحويلها الى قبلته ؟

فقد كان من المفروض أن تستقيم الأمّة على قبلتها قبل أن تبدأ مسيرها الى غايتها .

فيجيب السياق على هذا السؤال و يبيّن الحكمة في هذا التأخير:

﴿ وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الاّ على الّذين هدي الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم ، انّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم ﴾

* * *

ويحسن بنا أن نتناول تلك الحكمة ببيان و توضيح ، فقد أشكل على الكثيرين هذا الشطر الثاني من الآية ، كما أشكل الشطر الأول منها . وليس ذلك الاّ لقلّة اهتمامهم بنظام الآيات .

واذ كان موضع الاشكال هنا قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ نريد أن نقف هنا مليّا ، ونبحث عن التأويل الصحيح للآية ، حتى ينحلّ هذا الاشكال ، وتبرز لنا تلك الحكمة .

لقد ذكر الامام ابن جرير - رحمه الله - في سبب نزوله ما يلي:

" حدّثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع و عبيد الله ، وحدّثنا سفيان ابن وكيع قال : ثنا عبيد الله بن موسى ، جميعا عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : لمّا وجّه رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم -

الى الكعبة قالوا : كيف بمن مات من اخواننا قبل ذلك ، وهم يصلّون نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله جلّ ثناؤه : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾"

ثمّ يقول - رحمه الله - بعد سرد جملة من تلك الروايات :

" قد دللنا فيما مضى على أنّ الايمان التصديق ، وأنّ التصديق قد يكون بالقول وحده وبالفعل وحده و بهما جميعا . فمعنى قوله : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ على ما تظاهرت به الرواية من أنه الصّلاة ، وما كان الله ليضيع تصديق رسوله - عليه الصّلاة والسلام - بصلاتكم الّتي صلّيتموها نحو بيت المقدس عن أمره ، لأنّ ذلك كان منكم تصديقا لرسولي ، واتّباعا لأمري ، وطاعة منكم لي ، قال : واضاعته ايّاه جلّ ثناؤه لو أضاعه ترك اثابة أصحابه و عامليه عليه ، فيذهب ضياعا ويصير باطلا ، كهيئة اضاعة الرجل ماله ، وذلك اهلاكه ايّاه فيما لا يعتاض منه عوضا في عاجل ولا آجل . فأخبر الله جلّ ثناؤه أنّه لم يكن يبطل عمل عامل عمل له عملا وهو له طاعة فلا يثيبه عليه ، وان نسخ ذلك الفرض بعد عمل العامل ايّاه على ما كلّفه من عمله . " (١)

هذا ما يراه الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية . وقبل أن ندرس هذا الرأي نريد أن نعرف ما أثبته الامام الرازيّ - رحمه الله - في تفسيره بخصوص هذا الموضوع ، فانّه - رحمه الله - اختار نفس التأويل ، و شيّده بما ظهر له من الدّلائل والبراهين . بالاضافة الى أنّه ذكر وجوها أخر لم يذكرها الامام ابن جرير .

يقول - رحمه الله - :

" انّ رجالا من المسلمين كأبي أمامة و سعد بن زرارة والبراء ابن عازب والبراء بن معرور ، وغيرهم ماتوا على القبلة الأولى فقال عشائرهم : يا رسول الله ، توفّى اخواننا على القبلة الأولى فكيف حالهم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(١) تفسير الطّبرى : ١٨/٢

واعلم أنّه لا بدّ من هذا السبب ، والاّ لم يتّصل بعض الكلام ببعض ، ووجه تقرير الاشكال أنّ الّذين لم يجوّزوا النسخ الاّ مع البداء يقولون : انّه لمّا تغيّر الحكم وجب أن يكون الحكم مفسدة وباطلا ، فوقع في قلبهم بناء على هذا السؤال ، أنّ تلك الصّلوات الّتي أتوا بها متوجّهين الى بيت المقدس كانت ضائعة ، ثمّ انّ الله تعالى أجاب عن هذا الاشكال وبيّن أنّ النسخ نقل من مصلحة الى مصلحة ومن تكليف الى تكليف . والأوّل كالثّاني في أنّ القائم به متمسّك بالدّين ، وأنّ من هذا حاله فانّه لا يضيع أجره . ونظيره : ما سألوا بعد تحريم الخمر عمّن مات وكان يشربها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس على الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جناح ﴾ فعرّفهم الله تعالى أنّه لا جناح عليهم فيما مضى لما كان ذلك باباحة الله تعالى . فان قيل : اذا كان الشكّ انّما تولّد من تجويز البداء على الله تعالى فكيف يليق ذلك بالصحابة ؟ قلنا : الجواب من وجوه . (أحدها) أنّ ذلك الشكّ وقع لمنافق فذكر الله تعالى ذلك ليذكره المسلمون جوابا لسؤال ذلك المنافق (وثانيها) لعلّهم اعتقدوا أنّ الصّلاة الى الكعبة أفضل ، فقالوا : ليت اخواننا ممّن مات أدرك ذلك ، فذكر الله تعالى هذا الكلام جوابا عن ذلك .

(وثالثها) لعلّه تعالى ذكر هذا الكلام ليكون دفعا لذلك السؤال لو خطر ببالهم .

(القول الثاني) وهو قول ابن زيد أنّ الله تعالى اذا علم أنّ الصلاح في نقلكم من بيت المقدس الى الكعبة فلو أقرّكم على الصّلاة الى بيت المقدس كان ذلك اضاعة منه لصلاتكم لأنّها تكون على هذا التقدير خالية عن المصالح ، فتكون ضائعة ، والله تعالى لا يفعل ذلك.

(القول الثالث) أنّه تعالى لمّا ذكر ما عليهم من المشقّة في هذا التحويل عقّبه بذكر ما لهم عنده من الثواب وأنّه لا يضيع ما عملوه . وهذا قول الحسن.

(القول الرابع) كأنّه تعالى قال : وفّقتكم لقبول هذا التكليف لئلّا يضيع

ايمانكم ، فانّهم لو ردّوا هذا التكليف لكفروا ، ولو كفروا لضاع ايمانهم ، فقال : ﴿ وماكان الله ليضيع ايمانكم ﴾ فلا جرم وفّقكم لقبول هذا التكليف وأعانكم عليه . " (١)

تلك الوجوه الأربعة الّتي ذكرها الامام الرازيّ ـ رحمه الله ـ في تأويل قوله تعالى. وهو جملة ما وصل الينا في هذا الباب ، فانّ عموم المفسّرين ـ رحمهم الله ـ يحومون حول هذه الوجوه الأربعة ، ولا سيّما الوجه الأوّل ، فانّ الأغلبيّة منهم مالوا اليه واختاروه ، وكان هو الوجه المفضّل عندهم . الاّ أنّنا حين نتأمّل في هذه الوجوه نحسّ فيها عدّة اشكالات . وهى كما يلي :

الاشكال الأوّل :

انّ هذه الوجوه لا تتّفق مع نظم الآية و سياقها . وهى تقطعها ممّا بين يديها وما خلفها وتجعلها غريبة بين جاراتها .

الاشكال الثّاني :

الوجوه الثلاثة الأول تنبني على أنّ الله تعالى كنى بالايمان عن الصّلاة ،مع أنّ لفظة الايمان وردت في القرآن في مختلف صورها و مشتقّاتها أكثر من ثمانمائة وخمسين مرّة ، ولكنّها لم ترد في معنى الصّلاة أبدا . فالقول بأنّ المراد هنا بالايمان هى الصّلاة ليس أمرا يسيرا . ولا يلجأ اليه الاّ اذا لم يكن هناك ملجأ منه الاّ اليه .

الاشكال الثّالث :

ان قبلنا هذا القول وقلنا انّ الله تعالى كنى بالايمان عن الصّلاة يكون اذاً تقدير العبارة هكذا : (وماكان الله ليضيع صلاتكم).

ومعلوم أنّ (اضاعة الصّلاة) لم تستعمل في القرآن بمعنى احباطها أو اضاعة أجرها أو عدم الاثابة عليها ، وانّما استعملت بمعنى اهمالها والتقصير فيها وعدم اقامتها كما قال تعالى عن بني اسرائيل : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا ﴾. (٢)

---

(١) التفسير الكبير: ٤/١٠٦ ـ ١٠٧ (٢) سورة مريم : ٥٩

وبهذا المعنى استعملها النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - حيث قال:

(خمس صلوات كتبهنّ الله عزّوجلّ على العباد فمن جاء بهنّ ، لم يضيّع منهنّ شيئا ، استخفافا بهنّ ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنّة .) (١)

وبهذا المعنى استعملها سيّدنا عمر - رضى الله عنه - حين كتب الى عمّاله :

(انّ أهمّ أمركم عندى الصّلاة . فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع .) (٢)

<u>الاشكال الرابع :</u>

ان قلنا انّ قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ جاء تطمينا للّذين أقلقهم تحويل القبلة ، حيث انّهم خافوا على اخوانهم الّذين ماتوا وهم يصلّون نحو بيت المقدس . فهذا يفضي بنا الى القول بأنّ هذه الآية جاءت بعد تحويل القبلة ، بينما الواقع على العكس ، فانّ هذه الآية والّتي قبلها جاءت كمقدّمة لتحويل القبلة . والأمر بتحويل القبلة انّما جاء بعد هذه الآية ، حيث قال تعالى :

﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينّك قبلة ترضاها ، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾

يقول صاحب تفسير البحر المحيط - رحمه الله - :

" و (سيقول) ظاهر في الاستقبال وأنّه اخبار من الله تعالى لنبيّه - صلّى الله عليه وسلّم - أنّه يصدر منهم هذا القول في المستقبل . وذلك قبل أن يؤمروا باستقبال الكعبة . وتكون هذه الآية متقدّمة في النزول على الآية المتضمّنة الأمر باستقبال الكعبة . فتكون من باب الاخبار بالشيء قبل وقوعه ليكون ذلك معجزا ، اذ هو اخبار بالغيب ، ولتتوطّن النّفس على ما يرد من الأعداء و تستعدّ له فيكون أقلّ تأثيرا

---

(١) الموطّأ للامام مالك : باب الأمر بالوتر : ١٢٣/١

(٢) الموطّأ للامام مالك : باب وقوت الصّلاة : ٦/١ ، رقم الحديث (٦)

منه اذا فاجأ ولم يتقدّم به علم وليكون الجواب مستعدّا لمنكر ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ "

وهذا كلام صحيح ومضبوط ولا شكّ . ثمّ يزيد ـ رحمه الله ـ فيقول:

" وذهب قوم الى أنّها متقدّمة في التلاوة متأخّرة في النّزول وأنّه نزل قوله : (قد نرى تقلّب وجهك .. الآية) ثمّ نزل (سيقول السفهاء من النّاس) نصّ على ذلك ابن عبّاس وغيره . ويدلّ على هذا ويصحّحه حديث البراء المتقدّم ، الّذى خرّجه البخارى . " (١)

وهذا كلام لا يخلو من ضعف ، ولعلّه نسب الى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ خطأ . وكم من الروايات نسبت اليه خطأ !!

فالقول بأنّ هذه الآية متقدّمة في التّلاوة متأخّرة في النّزول ، من غير أن يكون هناك دليل واضح قاطع ، أمر خطير جدّا ، ولا يجوز في شأنه التسامح أبدا .

وأمّا رواية البراء بن عازب ، الّتي يستند إليها أبو حيّان ، فلا يقوم بها الدّليل . والرواية هكذا :

(عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ صلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يحبّ أن يوجّه الى الكعبة فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء ﴾ فتوجّه نحو الكعبة. وقال السفهاء من النّاس ، وهم اليهود ، ما ولاّهم عن قبلتهم الّتي كانوا عليها . قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .) (٢)

فهذه الرواية لا تفيد أبدا أنّ قوله تعالى : ﴿ سيقول السفهاء من النّاس ... الآية ﴾ نزل بعد قوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء ... الآية ﴾ كما قيل .

وانّما الّذى تفيده هو أنّ الأمر الّذى قد أخبرت الآية بوقوعه

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٤١٩/١ ـ ٤٢٠

(٢) صحيح البخارى : كتاب الصّلاة ، باب 31 التوجّه نحو القبلة : ١٠٤/١

مسبقا وقع فعلا وتحقّق .

فقد أخبرت الآية أنّ السفهاء سيقولون كذا وكذا . وهم قالوا كما أخبرت به الآية .

ومن العجيب أنّ الامام القرطبي ـ رحمه الله ـ أيضا لم ينتبه لهذه النّكتة ، وقال كغيره : " انّ الآية : قد نرى تقلّب وجهك ... الخ مقدّمة في النّزول على قوله تعالى : (سيقول السفهاء من النّاس) " (١)

ثمّ زاد الطّين بلّة حين قال :

" و (سيقول) بمعنى " قال " ، جعل المستقبل موضع الماضي، دلالة على استدامة ذلك ، وأنّهم يستمرّون على ذلك القول . " (٢)

وسقم هذا القول أوضح من يقام عليه دليل ، فكتاب الله جاء على أفصح الأساليب ، وهو بريء من مثل هذه التّمحّلات .

ولقد أحسن أبو حيّان حين قال وهو بصدد تضعيف هذا القول :

" وليس عندنا من وضع المستقبل موضع الماضي ، وأنّ معنى " سيقول " " قال " كما زعم بعضهم ، لأنّ ذلك لا يتأتّى مع السين لبعد المجاز فيه ، ولو كان عاريا من السين لقرب ذلك . " (٣)

اذا فالقول بتقدّم آية في النّزول وتأخّرها في الترتيب قول لا ينهض به دليل .

وأمّا ما ورد في سبب نزول هذه الآية ممّا سبق معنا في كلام ابن جرير والرازى ـ رحمهما الله ـ فالظّاهر أنّه ليس سببا حقيقيّا لنزول تلك الآية . وانّما هو ممّا تصدق عليه الآية وتشمله بعمومها .

وكانت الآية قد نزلت قبل أن يثور ذلك السؤال . فلمّا ثار في الأذهان ذلك السؤال ، كانت تلك الآية هي الّتي سكبت في قلوبهم برد الاطمئنان .

وكون تلك الآية ردّا على سؤالهم ومبعث الطّمأنينة في قلوبهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٥٨/٢ (٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٤٧/٢ـ١٤٨
(٣) تفسير البحر المحيط : ٤٢٠/١

لا يستلزم أبدا أن نؤوّل كلمة (الايمان) الى معنى الصّلاة .

بل الصّلاة داخلة في عموم هذا اللّفظ ، لكونها شعبة من شعب الايمان ، فكون الله لا يضيع ايمانهم دليل على أنّه لن يضيع عملا من أعمالهم ، الّتي لها صلة بايمانهم .

ثمّ تَذَكُّرُهم أنّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم يكفي لأن يعالج قلقهم ، ويهدّئ جأشهم و يلقي في روعهم أنّه ليس من شأن الرؤوف الرحيم أن يجعل على عباده المؤمنين من حرج في دينهم . اذا فليستبشروا وليطمئنّوا الى عاقبة اخوانهم .

تأويل الآية: وهنا يثور سؤال : فما هو تأويل هذه الآية ؟

وللاجابة على هذا السؤال نحيل الى السؤال والجواب الّذى أشرنا اليه مسبقا ، وهو أنّ هذه الأمّة اذا كانت قد ظهرت استجابة لدعوة ابراهيم ، وكان من مهمّتها أن ترفع لواء ملّته ، فلماذا كان هذا التأخير في تحويلها الى قبلته ؟

فقد كان من المفروض أن تستقيم الأمّة على قبلتها قبل أن تبدأ مسيرها الى غايتها .

فيجيب النّص على هذا السؤال ويبيّن الحكمة في هذا التأخير :

* وماجعلنا القبلة الّتي كنت عليها الّا لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه . وان كانت لكبيرة الّا على الّذين هدى الله . وماكان الله ليضيع ايمانكم . انّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم *

وبيانه أنّ الله تعالى لم يأمر باستقبال بيت المقدس الّا ليختبر النّاس ويعلم من يسلم لأمره ممّن لا يسلم . فانّ هذه القبلة - وهى بيت المقدس - كانت ثقيلة على النّفوس ، وماكان ليتوجّه اليها من غير أهل الكتاب الّا من استنار قلبه بالهدى والايمان .

ولقد كان الدّكتور دراز - رحمه الله - موفّقا كلّ التوفيق حيث قال وهو يدرس هذه الآيات :

" انّ تشريع تلك القبلة الوقتيّة ماكان الاّ اختبارا لايمان المهاجرين ليتبيّن من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه . " (١)

والاستاذ الامام سيّد قطب أيضا يرى نفس الرأى . ولقدتناول - رحمه الله - هذا الموضوع بالبيان والايضاح ، وكتب كلاما في غاية الروعة والجمال ، حيث قال :

" واذن يكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة الّتي كانوا عليها ، بمناسبة تحويلهم الآن عنها :

﴿ وماجعلنا القبلة الّتي كنت عليها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه . ﴾

ومن هذا النّص تتّضح خطّة التربية الربّانيّة الّتي يأخذ الله بها هذه الجماعة النّاشئة ، الّتي يريدلها أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة . انّه يريد لها أن تخلص له ، وأن تتخلّص من كلّ رواسب الجاهليّة ووشائجها ، وأن تتجرّد من كلّ سماتها القديمة ومن كلّ رغابها الدّفينة ، وأن تتعرّى من كلّ رداء لبسته في الجاهليّة ، ومن كلّ شعار اتّخذته ، وأن ينفرد في حسّها شعار الاسلام وحده لا يتلبّس به شعار آخر ، وأن يتوحّد المصدر الّذى تتلقّى منه لا يشاركه مصدر آخر .

ولمّا كان الاتّجاه الى البيت الحرام قد تلبّست به في نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة ، وشابت عقيدة جدّهم ابراهيم شوائب من الشرك ، ومن عصبيّة الجنس ، اذ كان البيت يعتبر في ذلك الحين بيت العرب المقدس .. والله يريده أن يكون بيت الله المقدّس ، لا يضاف اليه شعار آخر غير شعاره ، ولا يتلبّس بسمة أخرى غير سمته .

لمّا كان الاتّجاه الى البيت الحرام قد تلبّست به هذه السمة الأخرى ، فقد صرف الله المسلمين عنه فترة ، ووجّههم الى بيت المقدس ، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبّس القديم أوّلا ، ثمّ ليختبر طاعتهم

---

(١) النّبأ العظيم : ص / ١٨٧

و تسليمهم للرسول - صلّى الله عليه وسلّم - ثانيا ، ويفرز الّذين يتّبعونه لأنّه رسول الله ، والّذين يتّبعونه لأنّه أبقى على البيت الحرام قبلة ، فاستراحت نفوسهم الى هذا الابقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدّساتهم القديمة .

انّها لفتة دقيقة شديدة الدّقة .. انّ العقيدة الاسلاميّة لا تطيق لها في القلب شريكا ، ولا تقبل شعارا غير شعارها المفرد الصّريح ، انّها لا تقبل راسبا من رواسب الجاهليّة في أيّة صورة من الصّور . جلّ أم صغر . وهذا هو ايحاء ذلك النّص القرآنيّ : ﴿ وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه ﴾ .. والله - سبحانه - يعلم كلّ ما يكون قبل أن يكون . ولكنّه يريد أن يظهر المكنون من النّاس ، حتّى يحاسبهم عليه ، ويأخذهم به . فهو - لرحمته بهم - لا يحاسبهم على ما يعلمه من أمرهم ، بل على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم .

ولقد علم الله أنّ الانسلاخ من الرواسب الشعوريّة ، والتجرّد من كلّ سمة وكلّ شعار له بالنّفس علقة .. أمر شاقّ ، ومحاولة عسيرة .. الاّ أن يبلغ الايمان من القلب مبلغ الاستيلاء المطلق ، والاّ أن يعين الله هذا القلب في محاولته فيصله به و يهديه اليه :

﴿ وان كانت لكبيرة الاّ على الّذين هدى الله ﴾ ..

فاذا كان الهدى فلا مشقّة ولا عسر في أن تخلع النّفس عنها تلك الشعارات ، وأن تنفض عنها تلك الرواسب ، وأن تتجرّد لله تسمع منه وتطيع ، حيثما وجّهها الله تتّجه ، وحيثما قادها رسول الله تقاد ." (١)

وعلى هذا فالّذين هداهم الله استجابوا لأمره ، وبادروا الى تنفيذه ، وأمّا من سواهم فهم لم يرضخوا لأمر الله ، ولم يتّبعوا الرسول وانقلبوا على أعقابهم . واليها الاشارة في قوله تعالى :

﴿ وان كانت لكبيرة الاّ على الّذين هدى الله ﴾

---

(١) في ظلال القرآن : ١٣٢/١ - ١٣٣

فكان هذا القول ، حسبما يوحيه الينا السياق ، تعليلا لاختيار هذه القبلة كمادّة للاختبار ، فانّها بكونها ثقيلة على النّفوس - والاختبار دائما يكون بشيءٍ يثقل على النّفوس - مازت من يتّبع الرسول ممّن لا يتّبعه .

قول في غاية الضعف:

ومن هنا يتبيّن ضعف ما قاله الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل ما نتحدّث عنه من قوله تعالى : ﴿ وان كانت لكبيرة الاّ على الّذين هدى الله ﴾ حيث قال :

" قال بعض نحويّي البصرة : أنّثت الكبيرة لتأنيث القبلة ، واياها عنى جلّ ثناؤه بقوله : (وان كانت لكبيرة) . وقال بعض نحويّي الكوفة : بل أنّثت الكبيرة لتأنيث التولية والتحويلة .

فتأويل الكلام على ما تأوّله قائلو هذه المقالة : وما جعلنا تحويلتنا ايّاك عن القبلة الّتي كنت عليها وتوليتناك عنها الاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه ، وان كانت تحويلتنا ايّاك عنها و توليتناك لكبيرة الاّ على الّذين هدى الله .

وهذا التأويل أولى التّأويلات عندي بالصّواب ، لأنّ القوم انّما كبر عليهم تحويل النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وجهه عن القبلة الأولى الى الأخرى لا عين القبلة ولا الصّلاة ، لأنّ القبلة الأولى والصّلاة قد كانت وهي غير كبيرة عليهم الاّ أن يوجّه موجّه تأنيث الكبيرة الى القبلة ، ويقول : اجتزئ بذكر القبلة من ذكر التولية والتحويلة لدلالة الكلام على معنى ذلك ، كما قد وصفنا لك في نظائره فيكون ذلك وجها صحيحا و مذهبا مفهوما . " (١)

ولا ندري كيف يذهب ابن جرير - رحمه الله - الى هذا القول !

فهذا القول لا يستقيم مع العبارة كما لا يستقيم مع السياق .

أمّا العبارة فهي لا تقبل أبدا تلك التقديرات الّتي قدّرها - رحمه الله - ، فليست هناك أيّة قرينة تدلّ على أنّ المراد بـ "القبلة" في قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها ﴾ هو التحويلة عن

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٦/٢

القبلة والتولية عنها حتى نقول : (بل أنّث الكبيرة لتأنيث التولية والتحويلة .

وأمّا السياق فهو لا يقبل قوله : (لأنّ القوم انّما كبر عليهم تحويل النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وجهه عن القبلة الأولى الى الأخرى لا عين القبلة ولا الصّلاة ، لأنّ القبلة الأولى والصّلاة قد كانت وهي غير كبيرة عليهم)، فالسياق ينادي بصراحة أنّ القبلة الأولى هي الّتي كبرت على النّفوس وكانت غصّة لا يستسيغها الا من هداهم الله وتولّاهم بعنايته وتوفيقه .

واذا أردنا أن نعرف مدى ثقل هذه القبلة على النّفوس فيكفينا أن نتذكّر ما أخرجه أبوداوُد في ناسخه عن أبي العالية من أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - نظر نحو بيت المقدس فقال لجبريل : " وددت أنّ الله صرفني عن قبلة اليهود الى غيرها " فقال له جبريل :" انّما أنا عبد مثلك ، ولا أملك لك شيئا الا ما أمرت ، فادع ربّك وسله ." فجعل رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يديم النّظر الى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالّذى سأل . (1)

فاذا كان النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - نفسه يسمّي تلك القبلة (قبلة اليهود) وكان يودّ أن يصرفه الله عنها ، فما ظنّنا بمن سواه من أصحابه !

وقلق المسلمين و خوفهم على اخوانهم الّذين قتلوا أو ماتوا قبل تحويل القبلة أيضا يؤكّد لنا هذا الوضع .

فانّهم ما كان يحزنهم الا شعورهم بأنّ هذه النّعمة العظيمة السابغة الّتي ساقها الله اليهم بتحويلهم الى قبلة ابراهيم ، لم يكن لاخوانهم الماضين منها نصيب . وانّما كان من نصيبهم أن يموتوا على قبلة لم تكن تزيد على أن تكون وسيلة للاختبار :

﴿ وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها الا لنعلم من يتّبع الرسول ممّن

---

(1) الدّرّ المنثور : ١/٣٤٣ - ٣٤٤ ، و وفاء الوفاء : ١/٣٦٣

ينقلب على عقبيه ﴾

وأمّا القول بأنّ تحويل القبلة هو الّذى كبر على المؤمنين ، فهذا قول يردّه الواقع .

فالواقع أنّ القوم استقبلوا أمر تحويل القبلة - لمّا حوّلت - بلهفة وحنين و شوق عجيب كما يظهر ممّا رواه البخارى وغيره من أنّ رجلا صلّى مع النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - ثمّ مرّ على أهل المسجد وهم راكعون، فقال أشهد بالله لقد صلّيت مع النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - قبل مكّة ، فداروا كما هم قبل البيت . (١)

هذه المبادرة العجيبة الى تنفيذ هذا الأمر ان دلّت على شيء فانّما تدلّ على لهفة القوم و شوقهم الى هذا التحويل بخلاف ما ذهب اليه ابن جرير .

وأمّا الّذين كبر عليهم هذا التحويل فهم سفهاء اليهود ، الّذين نصّ عليهم القرآن :

﴿ سيقول السفهاء من النّاس ما ولّاهم عن قبلتهم الّتي كانوا عليها ﴾

ثمّ قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم . انّ الله بالنّاس لرءوف رحيم ﴾

أى هذا الاختبار وهذا الابتلاء كان ضروريّا للحفاظ على ايمان المؤمنين ، فانّ الجماعة اذا كانت تضمّ اليها الكاذب والصّادق والمؤمن والمنافق فانّ هذا سيكون - ولا محالة - مجلبة شرّ و ضياع لصدق الصّادقين وايمان المؤمنين ، ولا يلبث داء الكذب والنّفاق أن يعمّ و ينتشر ويتعدّى الى الجميع .

ولذلك كان من سنّة الله الجارية - لشدّة رأفته ورحمته بعباده المؤمنين - أن يبتلى أتباعَ الرُّسُل الفينةَ بعد الفينة حتى يميز الخبيث من الطّيب و يعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه .

فتكون هذه الابتلاءات رحمة للمؤمنين الصّادقين ووبالا على الكاذبين المنافقين .

---

(١) صحيح البخارى: كتاب تفسير القرآن ، باب "قولوا آمنّا بالله وما أنزل الينا : ١٥١/٥

وعلى هذا فقوله تعالى :

﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ٠ انّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم ﴾

يشبه في معناه قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطّيّب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله ، وان تؤمنوا وتتّقوا فلكم أجر عظيم ﴾ (١)

وبعد ما ينتهي السياق من بيان حكمة التأخير في شأن تحويل القبلة يتوجّه الى النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - فيأمره وبالتالي يأمر الأمّة المسلمة بتولية وجوههم شطر المسجد الحرام ويبيّن في نفس الوقت حقيقة الخلاف والشقاق واللّجاج الّذى سيواجهه المسلمون من قبل أهل الكتاب حتى يكونوا على بيّنة من أمرهم ويعتصموا بالصّمود و صدق العزيمة اذا اشتدّ ضغط الظّروف عليهم ٠

و يستمرّ هذا الحديث الى أن تنتهى الفقرة بقوله تعالى :

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾

** ** ** **

وقبل أن نبدأ في الفقرة التالية نريد أن نلمع الى أمور و حقائق تستنبط من نظم هذه الآيات ، فانّها هامّة جدّا ، وهى كما يلي:

الحقيقة الأولى :

كان الأصل في هذه الأمّة - كما نستوحي ممّا سبق من الآيات - أن تبدأ رحلتها الى ملّة ابراهيم باستقبال المسجد الحرام الّذى هو قبلة ابراهيم ٠ وكان المفروض أن تكون هذه هى أوّل خطوتها في هذا الطّريق ، ولكن أجّل هذا الأمر الى ما شاء الله لحكمة أرادها ٠ فبدأ الله هذا الباب - وهو الباب الّذى يمتاز بإبراز معالم هذه الملّة - بموضوع تحويل القبلة ، حتى ننتبه عن طريق النّظم لحقيقة الأمر ونعرف مكانة هذه القبلة في هذه الملّة ٠ فالتّوجه الى هذه القبلة هو المدخل الى ملّة الاسلام ٠ وبقدر تعظيم المرء لهذا البيت وحنينه اليه يكون له نصيبه من نعمة الاسلام ٠

(١) سورة آل عمران : ١٧٩

الحقيقة الثّانية :

لقد اختلف النّاس في تفسير تقلّب وجه النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في السماء على عدّة أقوال . يقول ابن عطيّة - رحمه الله - :

" قال قتادة والسّدى وغيرهما : كان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يقلب وجهه في الدّعاء الى الله تعالى أن يحوّله الى قبلة مكّة . وقيل : كان يقلب ليؤذن له في الدّعاء . ومعنى التقليب نحو السماء أنّ السماء جهة قد تعوّد العالم منها الرحمة كالمطر والأنوار والوحى ، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالت النّعم . و (ترضاها) معناه : تحبّها و تقرّ بها عينك . وكان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يحبّ الكعبة والتحوّل عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رويت ، فقال مجاهد : لقول اليهود ما علم محمّد دينه حتى اتبعنا . وقال ابن عبّاس : وليصيب قبلة ابراهيم عليه السلام . وقال الربيع والسّدى : ويستألف العرب لمحبّتها في الكعبة . " (١)

ولقد أضاف الامام الرازى - رحمه الله - الى هذه الوجوه وجها آخر حيث قال :

"(الرابع) أنّه عليه السلام أحبّ أن يحصل هذا الشرف للمسجد الّذى في بلدته ومنشئه لا لمسجد آخر . " (٢)

ولقد أشار الأستاذ المودودى - رحمه الله - الى وجه آخر غير هذه الوجوه . يقول - رحمه الله - :

" والآية ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السماء فلنولّينّك قبلة ترضاها ﴾ يظهر منها أنّ النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - ظلّ يدعو ربّه أن يحدث هذا التحويل وكان ينتظر تحقيقه لأنّه كان يشعر بانتهاء فترة زعامة بني اسرائيل وبالتالي توقّف بيت المقدس عن مهمّته في أن يكون مركزا للهداية وقبلة للمؤمنين ، وضرورة أن تصبح الكعبة الّتي رفع قوائمها ابراهيم عليه السلام قبلة و مركزا . " (٣)

---

(١) المحرّر الوجيز : ٤٤٣/١ - ٤٤٤ (٢) التفسير الكبير : ١٠٩/٤

(٣) تفهيم القرآن : تعريب : أحمد ادريس : ١١٠/١

تلك عدّة وجوه في تفسير تقلّب وجه النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في السماء . وقد تكون هناك وجوه غير تلك الوجوه . الاّ أنّ ما يوحيه الينا نظم الكلام وسياقه هو أنّ النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - قد أدرك من الآيات الّتي مضت معنا في الفقرة السابقة أنّ القبلة - في الواقع - هي الكعبة . والّذين اتّخذوا بيت المقدس قبلة لهم انّما اتّخذوه لسفاهتهم ورغبتهم عن ملّة ابراهيم ، كما أدرك - عليه السلام - أنّ القرآن لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة الاّ ليعيد الأمر الى نصابه . وكان - عليه السلام - على يقين من هذا الأمر ولكنّه كان ينتظر الوحي بذلك .

وممّا يؤيّد ذلك ما أخرجه أحمد والبهقي في سننه عن أمّ المؤمنين عائشة أنّها قالت : قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - :

(انّهم - يعني أهل الكتاب - لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة الّتي هدانا الله لها وضلّوا عنها ، وعلى القبلة الّتي هدانا الله لها وضلّوا عنها ، وعلى قولنا خلف الامام آمين .) (١)

والجزء الأخير من هذه الآية نفسها يلمع بنظمه الى هذه الحقيقة حيث قال تعالى :

﴿ وانّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم . ﴾

فما كان تطلّع النّبيّ - عليه السلام - وحنينه الى هذه القبلة الاّ لما عرف أنّه هو الحقّ . وأيّ شيء يكون أحبّ الى النّبيّ وآثر عنده من الحقّ ؟

ولا يفوتنا التنبيه هنا الى أنّ تقلّب الوجه في السماء ليس عبارة عن الرغبة أو التمنّي أو الدّعاء ، وانّما هو عبارة عن الانتظار والترقّب في غاية الشوق والرضا . وما كان - عليه السلام - ليملي على ربّه شيئا يشتهيه ويهواه ، وانّما كان يشتهي ما يمليه عليه ربّه ويوحيه .

والآيات الّتي مضت معنا في الفقرة السابقة كانت واضحة الاشارة

---

(١) مسند الامام أحمد : ٦/ ١٣٥

الى أنّ القبلة ستحوّل الى البيت الّذى بناه ابراهيم . فكان ـ عليه السلام ـ ينتظر بلهفة ماقد توقّع وقوعه وعرف حدوثه من نفس القرآن .

الحقيقـــة الثّالثـة :

لقدمضت معنا في أوّل السورة موعظة ربّنا لبني اسرائيل بعدم كتمان الحقّ حيث قال تعالى :

* وآمنوا بما أنزلت مصدّقا لما معكم ، ولا تكونوا أوّل كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وايّاى فاتّقون . ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون . *

ثمّ وصمهم الله هنا بتلك الجريمة حيث قال تعالى :

* الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . وانّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون . *

وما وصم هؤلاء بكتمان الحقّ في هذه السورة الّا في أمر القبلة .

ثمّ تكرّرت كلمة " الحقّ " هنا في سياق القبلة الابراهيميّة أربع مرّات :

* وانّ الّذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم *

* وانّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون *

* الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين *

* وانّه للحقّ من ربّك وما الله بغافل عمّا تعملون *

هذا النّظم وهذا التكرار يبيّن لنا مدى جهد اليهود لكتمان أمر القبلة ، ويبيّن لنا مدى اهتمامهم بمحو معالمها وآثارها ، كما يبيّن لنا أنّ هذا الكتمان هو الّذى قطع عليهم الطّريق وكان سدّا منيعا في طريق اقبالهم الى الحقّ . فكلّما أرخوا سدول الكتمان على هذا الحقّ كرههم الحقّ وعاداهم . حتى انفصلوا من ملّة ابراهيم انفصالا لا وصلة بعده . كما قال تعالى :

* ولئن أتيت الّذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك *

والآن لا سبيل لهم الى التخلّص من هذا الشقاء ولا طريق لهم الى الدّخول في حظيرة الايمان الاّ أن يصلوا ما قطعوا من صلتهم بقبلة ابراهيم .

الحقيقة الرابعة :

قال تعالى :

﴿ ولكلّ وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات ﴾

فأمرنا ربّنا باستباق الخيرات . ثمّ أردفه قائلا :

﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾

هذا النّظم يدلّ على أنّ المسجد الحرام هو جماع الخيرات كلّها . فمن أراد أن يستبق الخيرات فليقوّ صلته بهذا المسجد .

ولعلّ هذا هو السرّ في تسمية الكعبة بـ" الكوثر" في رأى من يفسّر " الكوثر" بالكعبة ، كما ذهب اليه بعض أئمّة التفسير مثل الامام الفراهي ـ رحمه الله ـ (١)

الحقيقة الخامسة :

قال ربّنا ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام . وحيث ماكنتم فولّوا وجوهكم شطره . لئلّا يكون للنّاس عليكم حجّة الاّ الّذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ﴾

ثمّ قال تعالى :

﴿ ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلّكم تهتدون . ﴾

هذا النّظم يفيد أنّ النّعمة والهداية لهما ارتباط خاصّ بهذا البيت . فمن سرّه أن يكون في موكب الهداية والنّعمة فلا بدّ له أن يصل حبله بهذا البيت . هكذا نستنبط من نظم هذه الآية .

ثمّ اذا رجعنا قليلا وألقينا النّظر فيما سبقها من الآيات تأكّد لنا صحّة هذا القول .

---

(١) انظر تفسير سورة الكوثر للفراهي ـ رحمه الله ـ : ص/١ ـ ٣

وبيانه أنّ الله تعالى قال في سورة الفاتحة على لسان هذه الأمّة المسلمة الخاشعة:

﴿ اهدنا الصّراط المستقيم. صراط الّذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين. ﴾

ثمّ نادى في هذه السورة هؤلاء الّذين ضلّوا وجلبوا على أنفسهم غضب الله ثلاث مرّات. ودعاهم الى أن يتذكّروا ما كانوا يتقلّبون فيه من عظيم فضل الله وسابغ نعمته. وناداهم أن يرجعوا عمّا هم فيه من نقض العهد وكتمان الحقّ، حتى يعودوا الى ما كانوا فيه من جديد:

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وايّاي فارهبون .... ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون. ﴾ (١)

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين ﴾ (٢)

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي الّتي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العلمين ﴾ (٣)

ثمّ وصّى في هذه الآية تلك الأمّة المسلمة النّاشئة، المتطلّعة الى النّعمة والهداية، أن يولّوا وجوههم شطر المسجد الحرام حتى يتمّ عليهم النّعمة و يربطهم بمركز الهداية :

﴿ ولأتمّ نعمتي عليكم و لعلّكم تهتدون ﴾

كما وصم قبل ذلك بني اسرائيل أنّهم كتموا أمر هذا البيت وارتكبوا جريمة كتمان الحقّ - وقد حذروا منها في هذه السورة عدّة مرّات - وكأنّهم بذلك رفضوا أن يعودوا الى ما كانوا فيه من النّعمة والهداية :

﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وانّ فريقا

---

(١) سورة البقرة : ٤٠ - ٤٢ (٢) سورة البقرة : ٤٧
(٣) سورة البقرة : ١٢٢

منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ، الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين *

اذا جمعنا هذه الأمور بعضها الى بعض تبيّن لنا – كما ذكرنا – أنّ الله تعالى ربط النّعمة والهداية بهذا البيت ٠ فمن وصل حبله بهذا البيت كان في ظلّ النّعمة والهداية ومن قطع حبله عنه انقطعت عنه النّعمة والهداية ٠

وهذا الّذى حصل مع أهل الكتاب ، فانّهم مالبثوا أن قطعوا حبلهم عن هذا البيت فزالت عنهم النّعمة وانقطعت عنهم الهداية ، حتى أتى الله بهذه الأمّة و ربطها بهذا البيت ليتمّ عليها النّعمة ويسكب عليها من فيض الهداية ٠

<u>الحقيقة السّادسة :</u>

قال ربّنا – تبارك وتعالى – بعد ما أمر بالتوجّه الى البيت :

* ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلّكم تهتدون *

ثمّ قال تعالى :

* كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ٠٠٠ الآية *

هذا النّظم يفيد أنّ هذا البيت و هذا الرسول كليهما صنوان فالهداية والنّعمة مرتبطتان بهذا الرسول كما أنّهما مرتبطتان بهذا البيت ٠ ولقد أنعم الله على هذه الأمّة بهذا الرسول كما أنعم عليها بهذا البيت ٠

<u>الحقيقة السابعة :</u>

لقد ذكرت هناك أربع وظائف لنبيّنا – عليه الصّلاة والسلام – وهى تلاوة الآيات ، والتزكية ، وتعليم الكتاب ، وتعليم الحكمة ، كما قال تعالى:

* كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوعليكم آياتنا ويزكّيكم و يعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون ٠ *

وهى نفس الوظائف الّتي ذكرها سيّدنا ابراهيم – عليه الصّلاة والسلام – حين دعا لهذا الرسول وهو يرفع قواعد البيت ، حيث قال تعالى:

﴿ ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم ۰ انّك أنت العزيز الحكيم ۰ ﴾

ولكنّ النّظم يختلف في كلا الموضعين ، حيث انّ " التزكية "ذكرت هنا بعد تلاوة الآيات ثمّ ذكر تعليم الكتاب والحكمة ، بينما نرى في دعوة سيدنا ابراهيم - عليه الصّلاة والسلام - أنّ التزكية هى رابعة الأربعة ۰ فقد ذكرت فيها تلاوة الآيات ، ثمّ تعليم الكتاب ، ثمّ تعليم الحكمة ثمّ التزكية ۰

ثمّ انّ هذا المضمون ذكر في موضعين آخرين من القرآن غير هذين الموضعين وهما سورة آل عمران و سورة الجمعة ۰

فقد ذكر في سورة آل عمران هكذا :

﴿ لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ۰ ﴾ (١)

كما ذكر في سورة الجمعة هكذا :

﴿ هو الّذى بعث في الأمّيّين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ۰ وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ۰ ﴾ (٢)

والأمر الّذى يستدعي الانتباه هو أنّ هذا المضمون ذكر في المواضع الثّلاثة على نظم واحد ، وهو غير النّظم الّذى ذكر عليه في دعوة سيدنا ابراهيم - عليه الصّلاة والسلام - ۰

ولقد دلّنا القرآن بهذا النّظم ، أو بهذا الاختلاف في النّظم على حقائق مهمّة جدّا ۰ فقد دلّنا بنظمه الأوّل - وهو النّظم الّذى وردت عليه دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام - على أنّ التزكية هى غاية الغايات ۰ وهى أقصى ما يطالب به العبد ۰ ولأجلها بعثت الرسل والأنبياء ، ولأجلها بعث نبيّنا - عليه الصّلاة والسلام - ، ولقد صرّح النّبيّ - عليه الصّلاة والسلام - بهذا الأمر حيث قال :

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٤   (٢) سورة الجمعة : ٢

(بعثت لأتمّم حسن الأخـــلاق) (١)

كما دلّنا بنظمه الثّاني – وهو النّظم الّذى وردت عليه الآيات الثّلاث الأخـر – على أنّ التزكية، وان كانت غاية الغايات، فانّها في تحقّقها وظهورها ليست خاضعة للترتيب المنطقيّ البحت، بل هى تتحقّق – اذا تحقّقت – أو تظهر – اذا ظهرت – من أوّل الطّريق، وهى تكون أوّل زاد للمقبل الى الله .

وبيان ذلك أنّ تلاوة الآيات وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة، هذه الأمور كلّها بمنزلة الوسائل الموصلة الى الغاية المنشودة وهى التزكية . ولكن ليس معنى ذلك أنّ هذه الغاية تنتظر لوجودها أو تحقّقها أن تتحقّق أوّلا تلك الوسائل كلّها تحقّقا كاملا، ثمّ تتبعها هذه، كما هو المعهود في شأن الوسائل والغايات، بل هذه الغاية تتفاعل مع تلك الوسائل من أوّل أمرها وتخدمها وتنمّيها وتحدوبها الى الأمام وتبلغ بكمالها الى كمالها .

وعلى هذا اذا تخلّفت هذه الغاية ولم يقدّر لها أن تلازم تلك الوسائل فانّ تلك الوسائل لن تعمل عملها ولن تؤتي أكلها .

وبعبارة أدقّ، فانّ علم الكتاب والحكمة يتوقّف أمره على أن يكون الدّافع اليه هو الحرص على التزكية . ولو أراد انسان أن يكسب هذا العلم بدون تصحيح النّيّة أو بدون الحرص على التزكية فلن يبلغ ما يؤمّله ولن يعطى ما يتمنّاه .

وهكذا تكون النتيجة اذا عكس الأمر فلو أراد انسان أن يتزكّى وهو يستهين بما أنزل الله من الكتاب والحكمة، وحاول أن يبلغ مناه عن طريق غير هذا الطّريق كما فعل المتصوّفة – مثلا – فلن يجنى الا النّدم ولن يملأ يديه الا التعب والنّصب . وسيكون مثله كباسط كفّيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

(١) الموطّأ للامام مالك : باب ماجاء في حسن الخلق : ٢/٩٠٤

وبعد الاطّلاع على ما يوحيه الينا هذا النّظم من تلك الحقائق القيّمة ، نريد أن نعلم مناسبة كلّ من هذين النّظمين لسياقهما وللملابسات الّتي تحيط بهما ، فنقول وبالله التوفيق :

انّ التزكية اذا كانت فكرة مجرّدة تعيش في الذهن ، أو أمنيّة خالصة تجول في القلب ، أو بندا من بنود مخطّط العمل فمحلّها في الأخير ولا شكّ .

محلّها في الأخير باعتبارها هدف الأهداف وغاية الغايات . فانّ الغاية من شأنها أن تذكر في الختام ، ومن شأنها أن تكون هي نهاية القائمة ، اذا عملت للأعمال قائمة ، كما نرى في دعوة سيّدنا ابراهيم - عليه الصّلاة والسلام - .

وأمّا اذا كانت الدّعوة قد سبقت هذه المرحلة - مرحلة كونها فكرة مجرّدة ، وكانت قد بدأت فعلا ، وأصبحت حقيقة عمليّة واقعيّة ، وكان الرسول أو الدّاعي واقفا في مجال العمل والجهاد ، كما نرى في المواضع الثّلاث الأخر ، حيث انّ هذه الآيات نزلت والنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في جهد جاهد وشغل شاغل من تلكم الأعمال الّتي بعث لأجلها ، فانّ التزكية لا تكون اذا آخر الأمور ظهورا وتحقّقا ، بل تواكب الدّعوة خطوة خطوة وتنضج شيئا فشيئا حتى تبلغ كمالها حينما تصل الدعوة الى نضجها وكمالها .

ولذلك اختلف النّظم في تلك المواضع الثّلاث ، وقدّم فيها ذكر التزكية عن موضعها في الآية الأولى .

هذا ، وقد تكون هناك أسباب أخر لاختلاف هذا النّظم في تلك المواضع الثّلاث ، فيمكن - مثلا - أن نقول في هذه الآية ، الّتي نتحدّث عنها ، انّ السياق هنا أراد بهذا التقديم والتأخير أن يركّز على ناحية العلم وينوّه بشأنه . ولذلك جعل تعليم الكتاب والحكمة في آخر الآية . والزيادة الّتي جاءت في آخر الآية ترشدنا الى ذلك حيث قال تعالى :

﴿ ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾

ويمكن أن نستأنس لقولنا هذا بما سبق هذه الآية من قوله تعالى :

﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، انّك اذا لمن الظّالمين ﴾

ومثله ما جاء قبل هذه الآية :

﴿ ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الّذى جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير ٠ ﴾

فالجوّ هنا جوّ التنويه بما جاء من العلم من عند الله ٠

الحقيقة الثّامنة :

وبعد ما انتهى السياق من ذكر تحويل القبلة جاءت هذه الآية :

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾

وهذه الآية ـ كما لا يخفى ـ آية عهد و ميثاق بيننا وبين ربّنا ٠ وهى تشبه بمضمونها قوله تعالى لبني اسرائيل :

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايّاى فارهبون ٠ ﴾

فمجيءُ هذه الآية بعد ذكر تحويل القبلة يدلّ عن طريق النّظم على أنّ القبلة هى معقد ميثاق بيننا وبين ربّنا ٠

ومن هنا اعتبرت الصّلاة ـ لما لها من صلة خاصّة بهذه القبلة ـ عنوان هذا العهد ٠ وقال نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسلام ـ :

(العهد الّذى بيننا وبينهم الصّلاة ، فمن تركها فقد كفر)[1]

وقال ـ عليه الصّلاة والسلام ـ :

(خمس صلوات كتبهنّ الله عزّوجلّ على العباد ، فمن جاء بهنّ ، لم يضيّع منهنّ شيئا ، استخفافا بحقّهنّ ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنّة ٠ ومن لم يأت بهنّ فليس له عند الله عهد ، ان شاء عذبه وان شاء أدخله الجنّة)[2]

---

(١) سنن الترمذى : باب ما جاء في ترك الصّلاة : ١٤/٥ ، رقم الحديث (٢٦٢١)
(٢) الموطّأ للامام مالك : باب الأمر بالوتر : ١٢٣/١ ، رقم الحديث (٢١٤)

ثمّ ربط هذا الميثاق بهذه القبلة في سياق ذكر أهل الكتاب يشير الى أنّ أهل الكتاب نقضوا - أوّل مانقضوا - عهدهم بتخلّيهم عن هذه القبلة و رغبتهم عنها ·

ثمّ رغبتهم عن هذه القبلة هي التي أفضت بهم الى اضاعة الصّلاة، فهم أضاعوها أىّ اضاعة ! حتى لم يبقوا لها أثرا ولا تركوا لها ذكرا في شريعتهم !!

وبعد ما انتهينا من بيان مايستفاد من نظم هذه الآيات نأخذ فيما بعدها من الآيات ·

نظم الآيات (١٥٣ ـ ١٦٢)

****

قال تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة ٠ انّ الله مع الصّابرين ٠ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ٠ بل أحياء ولكن لا تشعرون ٠ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمرات وبشّر الصّابرين ٠ الّذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انّا لله وانّا اليه راجعون ٠ أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ٠ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله ٠ فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ومن تطوّع خيرا فانّ الله شاكر عليم ٠ انّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ٠ الاّ الّذين تابوا و أصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التّوّاب الرحيم ٠ انّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين ٠ خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ٠ ﴾

** * **

لقد ذهب النّاس مذاهب شتّى في ربط هذه الآيات بما قبلها ، فيقول ـ مثلا ـ صاحب تفسير البحر المحيط ـ رحمه الله ـ :

" قيل سبب نزول هذه الآية أنّ المشركين قالوا سيرجع محمّد الى ديننا كما رجع الى قبلتنا ٠ هزّهم بهذا النّداء المتضمّن هذا الوصف الشريف وهو الايمان مجعولا فعلا ماضيا في صلة الّذين ، دالاّ على الثبوت والالتباس به في تقدّم زمانهم ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم من الأمر و التكليف الشاقّ لأنّ الصبر والصّلاة هما ركنا الاسلام ٠ فالصّبر قصر النّفس على المكاره والتكاليف الشاقّة وهو أمر قلبيّ ، والصّلاة ثمرته وهي من أشقّ التكاليف لتكرّرها ٠

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لأنّهم سمعوا من طعن الكفّار على التوجّه الى الكعبة والصّلاة اليها أذى كثيرا فأمروا

عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة ." (١)

ويقول الامام ابن كثير - رحمه الله - :

" لما فرغ الله تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر والارشاد والاستعانة بالصبر والصلاة ، فان العبد اما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها كما جاء في الحديث (عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء الا كان خيرا له : ان أصابته سراء فشكر كان خيرا له وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له .) وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين . ﴾ " (٢)

و حذا حذوه الامام الشوكاني - رحمه الله - حيث قال وهو يبرز مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

" لما فرغ سبحانه من ارشاد عباده الى ذكره و شكره ، عقب ذلك بارشادهم الى الاستعانة بالصبر والصلاة ، فان من جمع بين ذكر الله و شكره ، واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به ، و دفع ما يرد عليه من المحن فقد هدى الى الصواب و وفق الى الخير . " (٣)

و يجيء بعدهم الأستاذ المودودى - رحمه الله - فيذكر لنا وجها جديدا لمناسبة هذه الآيات لما قبلها حيث قال - رحمه الله - :

" بعد أن عين الله المؤمنين أئمة و زعماء بدأ سبحانه وتعالى يخاطبهم و يسدى اليهم النصائح والتعاليم و التوجيهات الهامة اللازمة لتدريبهم و تمكينهم من القيام بما يفرضه عليهم المنصب الجديد . وأول أمر نبههم الله اليه هو أن الامامة والزعامة

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٤٤٨/١ (٣) فتح القدير : ١٥٨/١

(٢) تفسير ابن كثير : ١٩٦/١

ليست مقام نعيم قد فرش سندسا ونثر ورودا بل هى منصب يحفه الشوك و تملؤه المصاعب والمخاطر و سوف تظهر لكم في هذا الطريق أقسى أنواع العوائق والصعوبات وأكدر ألوان الفتن و المثبطات حيث تتجرعون المعاناة و تذوقون الآلام والخسائر الكبرى . فان تحملتم كل هاتيك المحن بصبر و ثبات و واصلتم السير في طريق الله فسوف يمطر الله عليكم نعمات و بركات و منا و عطاءات لا تعد ولا تحصى . " (١)

و يقارب هذا ماذهب اليه الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - حيث قال :

" بعد تقرير القبلة وافراد الأمة المسلمة بشخصيتها المميزة، التي تتفق مع حقيقة تصورها المميزة كذلك .. كان أول توجيه لهذه الأمة هو الاستعانة بالصبر والصلاة على تكاليف هذا الدور العظيم . والاستعداد لبذل التضحيات التي يتطلبها هذا الدور من استشهاد الشهداء و نقص الأموال والأنفس والثمرات ، والخوف والجوع ، و مكابدة أهوال الجهاد لاقرار منهج الله في الأنفس ، واقراره في الأرض بين الناس ، و ربط قلوب هذه الأمة بالله ، و تجردها له ، و ردّ الأمور كلها اليه .. كل أولئك في مقابل رضى الله و رحمته و هدايته ، وهى وحدها جزاء ضخم للقلب المؤمن ، الذى يدرك قيمة هذا الجزاء.. "(٢)

تلك عدة وجوه لمناسبة هذه الآيات لما قبلها كما ذكرها هؤلاء الأعلام . وقد يكون لكل من تلك الوجوه وجه من الوجاهة لا بأس به .

ولسنا الآن بصدد تقويمها ومقارنة بعضها ببعض . وانما نقصد هنا أن نضيف الى تلك الوجوه وجها آخر يمليه علينا السياق ثم نترك الأمر للقارئ يتخير منها مايشاء .

لقد بينا فيما مضى أن الكعبة بنيت على ملة الاسلام ، بل هى

---

(١) تفهيم القرآن : ١١٢/١ (٢) في ظلال القرآن : ١٤١/١

قطب رحا هذه الملّة . وبيّنّا كذلك أنّ العنصر الأساسيّ في معنى " الاسلام " هو البذل والتضحية في سبيل الله ، وبيّنّا أنّ تحويل المسلمين الى الكعبة المشرّفة لم يكن خطبا يسيرا ، بل كان ذلك اعلانا بظهور أمّة قد دعا لها ابراهيم و هو يرفع قواعد البيت . وكان اعلانا بمهمّتها السامية الجليلة الّتي ستقوم بها في رحاب هذا الكون ، وهى الشهادة بالحقّ على النّاس ـ المهمّة الّتي بعث لأجلها الرسل والأنبياء .

فبعد ما انتهى السياق من تقرير القبلة التفت الى المسلمين يذكّرهم مهمّتهم تلك و يحفزهم الى القيام بها والتهيّؤ لها .. المهمّة الّتي بنيت لها الكعبة ، وأنشئت لأجلها هذه الأمّة :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة . انّ الله مع الصّابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات . بل أحياء ولكن لا تشعرون . ﴾

ثمّ ابراهيم ، الّذى أنشأ هذه البنية ودعا لهذه الأمّة ، ما بلغ ما بلغ الاّ بعد ما ابتلى بكلمات فأتمّهنّ ، فأحرى بالأمّة الّتي أنشئت استجابة لدعوته واجتبيت لرفع لواء ملّته ، أن تبتلى وأحرى بها أن تمحّص ، فذلك قوله تعالى :

﴿ ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمرات وبشّر الصّابرين . الّذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انّا لله وانّا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون . ﴾

ومثله ما جاء في سورة محمّد حيث قال تعالى :

﴿ ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين و نبلو أخباركم ﴾ (١)

---

(١) سورة محمّد : ٣١

وعلى هذا فتلك الآيات الخمس جاءت كالجملة المعترضة في هذا السياق لاستجاشة همم المسلمين وتحريضهم على القيام بتلك المهمّة الجليلة الّتي نيطت بهم ولتذكيرهم برسالة القبلة الّتي يستقبلونها في صلاتهم .

ثمّ عاد الكلام الى ما كان فيه من أمر البيت وما يتّصل به :

﴿ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ، ومن تطوّع خيرا فانّ الله شاكر عليم ﴾

ولقد ذكر الامام ابن جرير - رحمه الله - في سبب نزول هذه الآية مايلي :

" حدّثنا محمّد بن عبدالملك بن أبي الشوارب ، قال : ثنا يزيد بن زريع ، قال : ثنا داود ، عن الشعبي أنّ وثنا كان في الجاهليّة على الصّفا يسمّى اساف ، ووثنا على المروة يسمّى نائلة ، فكان أهل الجاهليّة اذا طافوا بالبيت مسحوا الوثنين ، فلمّا جاء الاسلام وكسرت الأوثان ، قال المسلمون : انّ الصّفا والمروة انّما كان يطاف بهما من أجل الوثنين ، وليس الطّواف بهما من الشعائر ، قال : فأنزل الله : انّهما من الشعائر ﴿ فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ﴾

وقال حدّثني المثنّى : ثنا عبدالله بن صالح قال : حدّثني اللّيث ، قال : حدّثني عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : حدّثني عروة بن الزّبير ، قال : سألت عائشة فقلت لها : أرأيت قول الله ﴿ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ﴾ وقلت لعائشة : والله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصّفا والمروة ، فقالت عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختي ، انّ هذه الآية لو كانت كما أوّلتها كانت لا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنّها انّما أنزلت

في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطّاغية الّتي كانوا يعبدون بالمشلل ، وكان من أهلّ لها يتحرّج أن يطوف بين الصّفا والمروة ، فلمّا سألوا رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - عن ذلك فقالوا : يا رسول الله انّا كنّا نتحرّج أن نطوف بين الصّفا والمروة أنزل الله تعالى ذكره ﴿ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ﴾ قالت عائشة : ثمّ قد سنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - الطّواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطّواف بينهما ." (١)

هذا ما رواه ابن جرير - رحمه الله - في سبب نزول هذه الآية وعليه بنى تأويلها . ثمّ الّذين جاؤوا من بعده حذوا حذوه و نسجوا على منواله .

ولكنّ المتأمّل في نظم الآية و سياقها لا يسعه الاّ أن يقول : انّ هذه الآية - بعموم لفظها - وان كانت تعالج تلك الشبهات الّتي وردت بها الروايات ، الاّ أنّ تلك الشبهات ليست هى السبب الحقيقي لنزولها ، فقد جاءت هذه الآية لتفضح بني اسرائيل وتكشف ما أرادوا كتمانه من أمر الصّفا والمروة وكونهما من شعائر الله ، فانّهم كما أرخوا سدول الكتمان على بيت الله الحرام حيث قال تعالى :

﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وانّ فريقا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون ﴾ (٢)

فكذلك أرخوها على جميع معالمه وأرخوها على كلّ شيء يمتّ اليه بصلة ويوشك أن يبوح بسرّهم و يكشف عن دسائسهم .

فكتموا " المروة " الّتي اختارها الله لأن تكون موضع قربان سيدنا اسمعيل - عليه الصّلاة والسلام - وحرّفوها في كتبهم عن " مروة " الى " موريا " و" مورة " و"مريا " وادّعوا أنّ هذا المكان يوجد في أورشليم لا في مكّة الّتي يعمرها بنو اسمعيل .

---

(١) تفسير الطّبرى : ٤٦/٢ - ٤٨ (٢) سورة البقرة : ١٤٦

لفتات بارعة للامام الفراهي :

وللامام الفراهي ـ رحمه الله ـ لفتات بارعة وجولات رائعة في هذا الموضوع . ولا بأس بأن نذكر هنا نُبَذاً منها . يقول ـ رحمه الله ـ :

" قدمرّ آنفا أنّ " مورة " هي تحريف " مروة " . وقد اعترف المحقّقون منهم بأنّ هذا الموضع لم يكن في الشام في مساكن اليهود . وانّما أدخلوا هذا الاسم في صحفهم واخترعوا له موضعا لم يثبت عند المحقّقين وجوده . بل نصوص صحفهم قد دلّت على أنّه في أرض الحجاز في مساكن بني اسمعيل .

فبعد ذلك أىّ شيءٍ بقى من دعواهم : أنّه على جبل أورشليم ؟ أم أىّ شيءٍ يدفع مالم يزل الاسماعيليّون يعرفونه بالمروة ، وكانت عندهم أشهر من نار على علم ، وكانوا يطوفون بها في حجّهم ؟

وحين خاطبهم القرآن في أمر الطّواف لم يحتج الى تعريفها ، ولكن بيّن أنّها من شعائر الله . وهناك أشار الى تحريف أهل الكتاب في أمرها وسوء صنيعهم فيما يكتمون من آيات الله ، من بعد ما بيّنها الله تعالى في كتابهم .

وقد جاء في صحيح الحديث أنّ النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أشار الى المروة حين رأى البدن واقفة عندها ، فقال :

" هذا المنحر . وكلّ فجاج مكّة وطرقها منحر "

وقال مرّة : " هذا المنحر وكلّ منى منحر " (١)

وبذلك بيّن أنّ " منى " من طرق مكّة .

وانظر كيف سمّى النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ كلّ ذلك منحرا وأمّا المروة فسمّاها المنحر (مع لام التعريف) أى هى المنحر الحقيقي .

ثمّ على ذلك دلالة من القرآن حيث قال تعالى في أمر البدن :

﴿ ثمّ محلّها الى البيت العتيق ﴾ (٢) وأيضا ﴿ هديا بالغ الكعبة ﴾ (٣)

---

(١) الموطّأ للامام مالك : باب ماجاء في النحر في الحجّ : ٣٩٣/١، رقم الحديث (١٧٨) . (٢) سورة الحجّ : ٣٣ (٣) سورة المائدة : ٩٥

أى لا بدّ للبدن أن تبلغ الكعبة ، فانّ محلّها جانب الكعبة الّتي هى البيت القديم الّذى وضع لذلك أولا كما صرّح به في موضع آخر. والمروة هى بجانب الكعبة وهى المنحر الأول . ولكن لمّا توسّع نطاق الأمّة جعل للمنحر سعة .

واذ لا خلاف بيننا وبين أهل الكتاب أنّ المنحر الابراهيميّ عند بيت الله كما جاء في سفر التكوين (١٢: ٦ - ٩) فتلك هى المذبح الّذى عند بيت الله الّذى بناه ابراهيم .

ثمّ انّ هذه المروة هى الّتي تصدق عليها الصّفات المذكورة في قصّة الذبح الّتي لا تصدق باعترافهم على جبل الهيكل الّذى سمّوه " موريا " و" مورة " و" المريّا " مراء وكتمانا للحقّ .

فتطابق الأمور يدلّ على أنّ ابراهيم -عليه السلام- جاء من جهة الشرق وترك غلاميه على جبل قريب ، و ذهب بابنه الوحيد اسمعيل -عليه السلام- الى المروة ساعيا وملبّيا لدعوة الربّ .

وكان مسكن ابراهيم الى جانب الصّفا كما جاء في سفر التكوين (١٢: ١ - ٨) [1] حيث جاء ذكر رحلته الى أرض مورة في رواية أخرى لقصّة الذبح ،

---

(١) العبارة الّتي أشار اليها الفراهي من سفر التكوين هكذا :
" وقال الربّ لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض الّتي أريك . فأجعلك أمّة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولا عنك ألعنه . وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض . فذهب أبرام كما قال له الربّ وذهب معه لوط . وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لمّا خرج من حاران . فأخذ أبرام ساراى امرأته ولوطا ابن أخيه وكلّ مقتنياتهما الّتي اقتنيا والنّفوس الّتي امتلكا في حاران . و خرجوا ليذهبوا الى أرض كنعان . فأتوا الى أرض كنعان . واجتاز أبرام في الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة . وكان الكنعانيّون حينئذ في الأرض . وظهر الربّ لأبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض . فبنى هناك مذبحا للربّ الّذى ظهر له . ثمّ نقل من هناك الى الجبل شرقى بيت ايل ونصب خيمته . وله بيت ايل من المغرب وعاى من المشرق . فبنى هناك مذبحا للربّ و دعا باسم الربّ . "

ولكنّهم أسقطوا منها ذكر هذا الذبح واكتفوا بذكر رحلته . فلم تزل الصّفا والمروة في بني اسمعيل قائمتين من لدن ابراهيم - عليه السلام - الى يومنا هذا مع الاسم والرسم والمناسك الدّالّة على تلبية ابراهيم للرّبّ وسعيه لاتمام أمره .

وليس لليهود ولا للنّصارى شيء من هذه المناسك . " (١)

عرفنا من هذا التفصيل أنّ بني اسرائيل لم يألوا جهدا في كتمان مكان الصّفا والمروة وفي تعمية أمرهما باعتبارهما من أبرز معالم القبلة الابراهيميّة ، الّتي رغبوا عنها لمجرّد كونها في أرض بني اسمعيل .

فجاءت هذه الآية تكشف عن تلك المحاولة الخبيثة ، وتعلن للنّاس أمرهما وتبيّن لهم أنّهما من شعائر الله :

﴿ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما ، ومن تطوّع خيرا فانّ الله شاكر عليم . ﴾

<u>كلمة موفّقة للأستاذ عبدالله دراز :</u>

وممّا يسرّنا ويدخل البهجة في نفوسنا أنّ الأستاذ عبدالله دراز أيضا وصل بفضل التأمّل في نظم الآية وسياقها الى نفس التأويل ، فلله الحمد .

يقول - رحمه الله - في كتابه " النّبأ العظيم " وهو يتكلّم عن نظام هذه الآيات :

" ثمّ أخذ يأمر النّبيّ تارة ، والمؤمنين تارة ويأمرهما معا تارة أخرى ، في أسلوب مؤكّد مفصّل أن يثبتوا على هذه القبلة حيث هم وفي كلّ مكان يقيمون فيه حضرا وفي كلّ مكان يخرجون منه سفرا .

وطفق ينثر في تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد ، فيقول انّ تشريع تلك القبلة الوقتيّة ما كان الّا اختبارا لايمان المهاجرين ليتبيّن من يتّبع الرسول

---

(١) الرأى الصحيح فيمن هو الذبيح : ص / ٢١ - ٢٢

ممّن ينقلب على عقبيه ، وأمّا تشريع هذه القبلة الباقية فانّه ينطوي على الحكم البالغة والمقاصد الجليلة ، فهي القبلة الوسطى الّتي تليق بكم أيّتها الأمّة الوسطى ، وهي القبلة الّتي ترضاها يا أيّها النّبيّ والّتي طالما قلبت وجهك في السماء مستشرفا الى الوحي بها ، وهي القبلة الّتي يعلم أهل الكتاب أنّها الحقّ من ربّهم وان كانوا يكتمون ذلك حسدا و عنادا ، وهي القبلة الّتي يشهد الله بأنّها الحقّ من عنده . وأخيرا هي القبلة الّتي لا يبقى لأحد من المنصفين حجّة عليكم . أمّا الظّالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم . ولكن لا تخشوهم بل وطّنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله ، واصبروا ولا تحزنوا على من سيقتل منكم في هذه السبيل ، فانّ الموت فيها هو الحياة الباقية .

ثمّ أومأ الى أنّ الجدال في هذه القبلة ليس صدّا عن الشعائر الّتي في داخل المسجد الحرام فحسب ، بل هو كذلك صدّ عمّا حوله من الشعائر . ﴿ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله ﴾

ثمّ أكّد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكّد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الّذين يعلمون أصلهما في تاريخ ابراهيم ، ولكنّهم يكتمون ما أنزله الله من البيّنات وهم يعلمون . " (١)

وبعد ما ينتهي النّص من تقرير القبلة وتأكيد أمر هاتين الشعيرتين يتوجّه الى أهل الكتاب يشبعهم لوما وتعنيفا على كتمانهم ما أنزل الله من البيّنات والهدى و يتوعّدهم بسوء مصيرهم ان لم ينتهوا عمّا هم فيه من الكفر والكتمان :

﴿ انّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعدما بيّنّاه للنّاس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللّاعنون . الّا الّذين تابوا وأصلحوا و بيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التّوّاب الرحيم . انّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين . خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾

---

(١) النّبأ العظيم : ص / ١٨٧ ــ ١٨٨

وقبل أن نبدأ في الفقرة التالية نودّ أن نشير الى بعض الحقائق الّتي تستنبط من نظم هذه الآيات فنقول وبالله التوفيق :

الحقيقة الأولى :

قال ربّنا تبارك وتعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصبر والصّلاة . انّ الله مع الصّابرين . ﴾

يستفاد من نظم هذه الآية أنّ الصّلاة هى الّتي تمدّ المؤمن بالصّبر. وبقدر لجوء المرء الى الصّلاة تنشأ فيه قوّة الصّبر . ولعلّ هذا هو السّرّ في أنّ نبيّنا - عليه الصّلاة والسلام - كان يكثر من الصّلاة وكان يفزع اليها اذا حزبه أمر . فقد روى أبو داود عن حذيفة رضى الله عنه أنّه قال :

" كان النّبيّ - صلى الله عليه وسلّم - اذا حزبه أمر صلّى ." (١)

الحقيقة الثّانية :

ويستفاد كذلك أنّ الصّبر على لأواء الكفاح و شدائد الجهاد في سبيل الله هو الغاية من الصّلاة . وهو المقياس الدّقيق لحسن صلاة المرء وكمالها ، فكلّما حسنت الصّلاة واستكملت شروطها زوّدت المرء بزاد الصّبر والصمود في سبيل الله . وان كان المرء هلوعا جزوعا جبانا هرّابا وهو يصلّي ، فهذا يعني أنّه يصلّي ولا يصلّي . وصلاته تلك لا تغنيه ولا تقنيه ولا ترضيه عند ربّه لكونها فاقدة النّتيجة .

وهذا يستفاد من نظم هذه الآية حيث جمع الله تعالى بين الصّبر والصّلاة في الوصيّة فقال :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصبر والصّلاة ﴾

ثمّ اقتصر في بيان النتيجة على ذكر الصّابرين ، فقال :

﴿ انّ الله مع الصّابرين ﴾

---

(١) مختصر سنن أبي داود : باب وقت قيام النّبيّ - صلى الله عليه وسلّم - من اللّيل : ٩٤/٢ ، رقم الحديث (١٢٧٤) .

فذكر الصابرين دون المصلّين يشعر أنّ الصبر والصمود في سبيل الله هو الغاية من الصلاة ، والصلاة وسيلة الى تلك الغاية .

الحقيقة الثالثة :

التأمّل في نظم هذه الآيات الخمس (١٥٣ - ١٥٧) ينبّهنا إلى أهمية الصلاة و ينبّهنا إلى رفيع منزلتها من ناحية جديدة حيث نرى أنّ هذه الصلاة تغذى المؤمن بالصبر وتغذيه و تغذيه ثمّ تسمو به الى أن تكون عليه صلوات من ربّه ورحمة . فصلاة العبد لربّه سُلّم الى أن تكون عليه صلوات من ربّه ورحمة !!

وهذا الشعور يهزّ المؤمن هزّا ، ويدخل في نفسه من البهجة والسرور ما يجلّ عن الوصف .

الحقيقة الرابعة :

قال تعالى : ﴿ انّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾

يرشد هذا النّظم الى أنّ السعي يبدأ من الصفا الى المروة . ولقد فعل نبيّنا - عليه الصلاة والسلام - هكذا استنباطا من هذا النّظم كما نعرف من رواية جابر بن عبدالله - رضى الله عنه - حيث قال وهو يحكي لنا قصّة حجّة الوداع :

(.... ثمّ خرج من الباب الى الصفا ، فلمّا دنا من الصفا قرأ : ﴿ انّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت .) (١)

الحقيقة الخامسة :

التأمّل في نظم هذه الآيات يكشف لنا السرّ في كون الصفا والمروة من شعائر الله ، فانّ الآية : ﴿ انّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ جاءت بعد التنويه بشأن الصابرين . وهذا النّظم يلحّ علينا أن نلتمس الصلة بين الصفا والمروة وبين هذه الصفة ، فاذا

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الحجّ ، باب حجّة النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - : ٨٨٨/١

بالموضعين لهما ارتباط بواقعة الذبح ، فانّ الصّفا ـ كما مرّ معنا قريبا ـ كان مسكن ابراهيم واسمعيل ـ عليهما السلام ـ والمروة هو المكان الّذى تمّت فيه واقعة الذبح ، وكانت هذه الواقعة أروع مثال للصبر في طاعة الله .

وقد نبّهنا القرآن الى هذا الجانب عند ذكره لنا هذه القصّة حيث قال تعالى :

﴿ فلمّا بلغ معه السعى قال يا بنيّ انّي أرى في المنام انّي أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدني ان شاء الله من الصّابرين . ﴾ (١)

الحقيقة السادسة :

قال تعالى : ﴿ الاّ الّذين تابوا و أصلحوا و بيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التّواب الرحيم ﴾ هذه الآية تدلّ بنظمها أنّ التوبة لا تتمّ باللّسان وانّما تتمّ باصلاح الحال والاقلاع عن السّيّئة الّتي اجترحها الانسان . فالنّطق بالتّوبة ، اذا لم يسانده العمل ، لا يعتبر توبة ، ولا تبرأ منه الذمّة .

الحقيقة السابعة :

قال تعالى : ﴿ انّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين . ﴾

يستفاد من نظم هذه الآية أنّ اللّعنة تبدأ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثمّ تنتقل منه ـ تعالى ـ الى الملائكة ثمّ منهم الى النّاس . ولا يبعد أن يكون الحديث الّذى رواه مسلم عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ مستفادا من نظم هذه الآية ، حيث قال ، قال رسول الله ـ صلّى الله عليه و سلّم ـ :

(انّ الله اذا أحبّ عبدا دعا جبريل فقال : انّي أحبّ فلانا فأحبّه قال : فيحبّه جبريل ، ثمّ ينادى في السماء فيقول : انّ الله يحبّ فلانا فأحبّوه ،

(١) سورة الصّافّات : ١٠٢

فيحبّه أهل السماء ، قال ثمّ يوضع له القبول في الأرض . واذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول : انّي أبغض فلانا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثمّ ينادى في أهل السماء: انّ الله يبغض فلانا فأبغضوه . قال: فيبغضونه ، ثمّ توضع له البغضاء في الأرض .) (١)

الحقيقة الثّامنة :

قال تعالى : ﴿ انّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار، أولئك عليهم لعنة الله و الملائكة و النّاس أجمعين ﴾

وقبله جاءت هذه الآية :

﴿ انّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب ،أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللّا عنون ﴾

يتبيّن لنا بعد الجمع بين الآيتين أنّ المراد بـ" الّذين كفروا " هم الّذين كتموا ما أنزل الله . ثمّ هذا النّظم يرشدنا الى حقيقة أخرى، وهى أنّ كتمان الحقّ كفر. وهو - بمفرده- يكفي لأن يخرط المرء في سلك الكفّار . فالّذى يكتم الحقّ و يصرّ على هذا الكتمان يخشى عليه الكفر وان لم ينطق بكلمة الكفر ، حتى ولو ادّعى أنّه مؤمن .

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نتوجّه الى ما بعدها .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب البرّوالصّلة والآداب ، باب اذا أحبّ الله عبدا حبّبه الى عباده ، رقم الحديث (٢٦٣٧) .

نظم الآيات (١٦٣ ـ ١٧٦)

****

قال تعالى :

﴿ والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم . ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . والذين آمنوا أشد حبا لله . ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ، أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب . اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار .

يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء . صم بكم عمى فهم لا يعقلون . يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون .

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه . ان الله غفور رحيم . ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النّار . ذلك بأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ وانّ الّذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد .

** * **

يقول الدّكتور دراز في مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

"لقد جاءت هذه الخطوة (أى تقرير وحدة الخالق المعبود) في أشدّ أوقات الحاجة اليها بين سابقها ولاحقها ، فانّ ما مضى من تعظيم أمر الكعبة والمقام والصّفا والمروة كان من شأنه أن يلقى في روع الحديث العهد بالاسلام معنى من معاني الوثنيّة الأولى في تعظيم الأحجار والموادّ، ولا سيّما وهذه الأماكن المقدّسة كانت يومئذ مباءة للأصنام والأنصاب من حولها ومن فوقها فوجب ألاّ يترك هذا التعظيم دون تحديد وتقييد ، وألاّ تترك هذه الخلجات النّفسيّة دون دفع و ابعاد ، حتى لا يبقى شكّ في أنّ قيام المصلّين عند مقام ابراهيم و توجيه وجوههم نحو الكعبة ، وتمسّح الطّائفين بأركانها و طواف الحجّاج والمعتمرين بين الصّفا والمروة، كلّ أولئك لا يقصد به الاسلام توجيه القلوب الى هذه الأحجار والآثار تزلّفا بعبادتها أو رجاء لرحمتها أو طلبا لشفاعتها ، وانّما يقصد تعظيم الاله الحقّ وامتثال أمره بعبادته في مواطن رحمته و مظانّ بركته ، الّتي تنزّلت فيها على عباده الصّالحين من قبل ، ثمّ تجديد ذكرى أولئك الصّالحين في النّفوس ، وتمكين محبّتهم في القلوب ، باقتفاء آثارهم والتأسّي بحركاتهم و سكناتهم ، حتى يتّصل حاضر الأمّة بماضيها ، وحتى تنتظم منها أمّة واحدة تدور حول محور واحد ، و تتّجه الى مقصد واحد هو أعلى المقاصد و أسماها (والهكم اله واحد لا اله الاّ هو) أتدرون من هو ..؟ انّه ليس الكعبة ، وليس الصّفا والمروة ، وليس ابراهيم ولا مقام ابراهيم ، ولكنّه (الرحمن الرحيم) الّذى وسع كلّ شئ رحمة و نعمة (انّ في خلق السموات الأرض .. لآيات لقوم يعقلون)

والّذى بيده القوّة كلّها والبأس كلّه : لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد (ولو يرى الّذين ظلموا اذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعا و أنّ الله شديد العذاب) . " (١)

هذا ما جادت به قريحة الدّكتور محمّد عبدالله دراز بخصوص مناسبة تلك الآيات لما قبلها . ونحن ، وان كنّا لا نرتاح كثيرا الى تلك المناسبة الّتي نوّه بها ، نضرع الى الله - جلّ وعلا - أن يتغمّده بواسع رحمته و غفرانه ، حيث انّه عنى بالتماس هذه المناسبة حين لم يعن به الآخرون . ولذلك لا نجد عند أحد منهم شيئا يعتدّ به في هذا الموضوع .

والآن نعرج الى تسجيل ما يتوارد الى خاطرنا من وجوه المناسبة في تلك الآيات ، فنقول :

بعد ما انتهى موضوع القبلة ، وقد أعطى حقّه من البيان والايضاح و بعد ما توعّد أهل الكتاب و عنّفوا على ما كانوا متلبّسين به من جريمة كتمانها ، انساق الكلام الى التوحيد ، الّذى وضع عليه أساس هذه القبلة ، والّذى تركهم عليه أبوهم يعقوب وأخذ عليه منهم العهد والميثاق ، حيث قال تعالى :

﴿ أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا . ونحن له مسلمون . ﴾ (٢)

ولم يكن كتمانهم لهذه القبلة و عداءهم لهذه النّبوّة الاّ نتيجة لانخلاعهم عن هذا العهد ، وبعدهم عن التوحيد .

فذكّرهم ربّهم - تبارك وتعالى - هذا العهد حيث قال :

﴿ والهكم اله واحد لا اله الاّ هو الرحمن الرحيم . ﴾

ذكّرهم بأسلوب كلّه نصح ومودّة ورقّة و حنان .

---

(١) النّبأ العظيم : ص/ ١٩٠ (٢) سورة البقرة : ١٣٣

ثمّ ذكر طائفة من نعمه الجسام ، الّتي ينعمون بها ويتقلّبون فيها ، والّتي تدعو كلّ من كان فيه ذرّة من حياء أو ومضة من فكر سليم الى الشكر لنعمه، واللّجوء الى حبّه ، والخضوع لأوامره :

﴿ انّ في خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفلك الّتي تجرى في البحر بما ينفع النّاس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابّة و تصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾

ثمّ تعجّب من غباوتهم و سخافة عقولهم، حيث ينهلون من نعم الله ثمّ يجعلون له أندادا ،[1] ويحبّونهم كحبّ الله، مع أنّ هذا الحبّ كان من حقّ الله ٠

وهذا يشبه ما جاء في سورة التوبة حيث قال تعالى :

﴿ اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وما أمروا الاّ ليعبدوا الها واحدا ٠ لا اله الاّ هو٠ سبحانه عمّا يشركون ٠ ﴾

ثمّ ذكر أنّ هؤلاء الأنداد لا يملكون ثوابا ولا يدفعون عنهم عذابا ، و يتبرّءون منهم يوم القيامة ، و تعود أعمالهم كلّها حسرات عليهم٠ ويريدون أن يخرجوا من النّار وما هم بخارجين منها ٠

ثمّ انّ هذه النّدّية كانت لها أشكال وألوان ، منها أنّهم حرّموا كثيرا ممّا أحلّ الله لهم من الطّيّبات ٠

و يؤيّد ذلك ما رواه الترمذى عن عدىّ بن حاتم قال :

(أتيت النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال: يا عدىّ ، اطرح عنك هذا الوثن ٠ وسمعته يقرأ في سورة براءة :

﴿ اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ قال : أما انّهم لم يكونوا

---

(١) ذكر القرطبيّ عن ابن عبّاس والسدّى - رضى الله عنهم - أنّ المراد بالأنداد: الرؤساء المتبعون ، يطيعونهم في معاصي الله ٠ انظر الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٣/٢ ٠

يعبدونهم ، ولكنّهم كانوا اذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه واذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه .) (١)

وعلى هذا جاء الأمر الالهي :

﴿ يا أيّها النّاس كلوا ممّا في الأرض حلالا طيّبا ولا تتّبعوا خطوات الشيطن ، انّه لكم عدوّ مبين . انّما يأمركم بالسّوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون . ﴾

ثمّ تحسّر على غباوتهم و شدّة غفلتهم ، أنّهم كلّما دعوا الى الحقّ والهدى يرفضونه لمجرّد أنّه لم يؤثر عن آبائهم :

﴿ واذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . ومثل الّذين كفروا كمثل الّذى ينعق بما لا يسمع الّا دعاء و نداء . صمّ بكم عمى فهم لا يعقلون . ﴾ (٢)

ثمّ وعظ المؤمنين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من تحريم ما أحلّ الله ، فانّ هذا يتنافى مع الشكر و يتنافى مع العبادة :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم ايّاه تعبدون . انّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله . فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه . انّ الله غفور رحيم . ﴾

ثمّ توعّد الذين يكتمون ما أنزل الله ، و يبتغون به عرضا من الدّنيا :

﴿ انّ الّذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون في بطونهم الّا النّار ، ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى

---

(١) سنن الترمذى : كتاب تفسير القرآن : ٢٧٨/٥ ، رقم الحديث (٣٠٩٥) .

(٢) ذكر ابن كثير عن ابن عبّاس – رضى الله عنهما – أنّ هذه الآية نزلت في طائفة من اليهود . انظر تفسير ابن كثير : ٢٠٤/١ .

والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار. ذلك بأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ وانّ الّذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد. ﴾

وبيان ذلك أنّ اليهود قد حرّم عليهم كثير من الطّيّبات، وكان ذلك جزاء ببغيهم واعتدائهم كما قال تعالى:

﴿ وعلى الّذين هادوا حرّمنا كلّ ذى ظفر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما الاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهم ببغيهم وانّا لصادقون. ﴾ (١)

الاّ أنّ رأفة الله بهم لم تجعل هذا الجزاء دائما مستمرّا الى يوم القيامة، بل جعلته لفترة محدودة، وبشّرتهم بمجيئ نبيّ يخلّصهم ممّا هم فيه من شدّة و محنة، ويفتح عليهم أبواب الخير والسعادة، ويحلّ لهم الطّيّبات و يحرّم عليهم الخبائث و يضع عنهم الاصروالأغلال حيث قال تعالى:

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كلّ شيئ، فسأكتبها للّذين يتّقون و يؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون. الّذين يتّبعون الرسول النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحلّ لهم الطّيّبات و يحرّم عليهم الخبائث و يضع عنهم اصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم. فالّذين آمنوا به وعزّروه و نصروه واتّبعوا النّور الّذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون. ﴾ (٢)

فكان من واجب هؤلاء القوم أن يخرّوا سجّدا لله شكرا وامتنانا على هذه النّعمة الّتي أفيضت عليهم، ثمّ يكونوا أوّل النّاس ايمانا بهذا النّبيّ، وأسبقهم الى مساندته في مهمّته.

ولكنّهم نكسوا على رؤوسهم فكذبوه وخالفوه، و شكّكوا النّاس في نبوّته، وقالوا، ما بال هذا النّبيّ؟! فانّه ما ترك شيئا الاّ و خالفنا فيه

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٦ (٢) سورة الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧

و خالف رسلنا ، فأحلّ ما حرّموه و حرّم ما أحلّوه .

مع أنّهم كانوا يعرفون أنّ هذا النّبيّ ما جاء الاّ ليدخلهم في رحمة ربّهم بعد ما طال حرمانهم ، وطال شقاؤهم ، فهو يحرّم عليهم الخبائث و يحلّ لهم الطّيّبات . ويضع عنهم اصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم .

كانوا يعرفون هذا جيّدا ، ولكنّهم ما أرادوا أن يخرجوا من شقائهم و تمادوا في غيّهم وأصرّوا على كتمانهم .

فجاءت هذه الآيات تنذرهم ما ينتظرهم من سوء المصير و عذاب السعير !

** * **

والشيء الّذى نلاحظه في تلك الآيات هو أنّ هذا الموضوع .. موضوع الاحلال والتحريم ، أو موضوع طيّبات الطّعام و خبائثه .. جاء بعد موضوع تحويل القبلة الى المسجد الحرام . وعلى مثل هذا النّظم جاءت مطالع سورة المائدة . فقد استهلّت السورة بموضوع المسجد الحرام وما يتّصل به ممّا يناسب المقام ، حيث قال تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود . أحلّت لكم بهيمة الأنعام الاّ ما يتلى عليكم غير محلّي الصّيد وأنتم حرم . انّ الله يحكم ما يريد . يا أيّها الّذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربّهم و رضوانا ، واذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان . واتّقوا الله انّ الله شديد العقاب ﴾ (١)

ثمّ ذكر ما أحلّ للنّاس و ما حرّم عليهم من الطّعام ، غير أنّ السياق يميل هنا الى تفصيل المحرّمات أكثر ممّا يميل الى تفصيل الطّيّبات بخلاف سورة البقرة فانّ سياقها يميل الى التنويه بشأن الطّيّبات ، أكثر ممّا يميل الى تفصيل المحرّمات ، قال تعالى :

---

(١) سورة المائدة : ١ ـ ٢

﴿ حرّمت عليكم الميتة والدّم و لحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السبع الاّ ما ذكّيتم وما ذبح على النّصب وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فسق، اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الاسلام دينا. فمن اضطرّ في مخمصة غير متجانف لاثم فانّ الله غفور رحيم. يسألونك ماذا أحلّ لهم، قل أحلّ لكم الطّيّبات وما علّمتم من الجوارح مكلّبين تعلّمونهنّ ممّا علّمكم الله، فكلوا ممّا أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه، واتّقوا الله انّ الله سريع الحساب. اليوم أحلّ لكم الطّيّبات وطعام الّذين أوتوا الكتاب حلّ لكم و طعامكم حلّ لهم ﴾.(١)

ثمّ نلاحظ نفس الوضع في آخر سورة المائدة، حيث ذكر الله تعالى ما يحلّ من الصّيد في حالة الاحرام وما لا يحلّ، وذكر ما يناسب المقام من توجيهات و تشريعات :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ليبلونّكم الله بشيء من الصّيد تناله أيديكم و رماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يا أيّها الّذين آمنوا لا تقتلوا الصّيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمّدا فجزاء مثل ما قتل من النّعم، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفّارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره، عفا الله عمّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه. والله عزيز ذو انتقام. أحلّ لكم صيد البحر و طعامه متاعا لكم وللسيّارة و حرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرما. واتّقوا الله الّذي اليه تحشرون ﴾(٢)

و بعد تلك الآيات مباشرة جاء ذكر الكعبة وما اليها من الشهر الحرام والهدى والقلائد، حيث قال تعالى :

﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للنّاس والشهر الحرام

---

(١) سورة المائدة : ٣ ـ ٥ (٢) سورة المائدة : ٩٤ ـ ٩٦

والهدى والقلائد. ذلك لتعلموا أنّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، وأنّ الله بكلّ شيء عليم ﴾ (١)

ثمّ نلاحظ في سورة البقرة في سياق تحويل القبلة هذا التوجيه الالهيّ الكريم :

﴿ لئلا يكون للنّاس عليكم حجّة إلاّ الّذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلّكم تهتدون . ﴾ (٢)

كما نلاحظ نفس التوجيه في سورة المائدة في ختام ذكر المحرّمات حيث قال تعالى :

﴿ اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ (٣)

هذا الوضع ان دلّ على شيء فانّما يدلّ على ما يوجد من صلة وثيقة وسبب خاصّ بين المسجد الحرام وبين ما جاءت به هذه النّبوّة المباركة من احلال الطّيّبات وتحريم الخبائث من الطّعام .

والنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - نفسه جمع بين الأمرين، على ما رواه أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن نبيّنا - عليه الصّلاة والسلام - أنّه قال :

(من صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الّذى له ذمّة الله وذمّة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمّته .) (٤)

والآن نعود مرّة أخرى الى تلك الآيات لنرى ما يستفاد من نظمها من نفائس الفوائد والحكم، وهى كما يلي :

الفائدة الأولى :

قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يتّخذ من دون الله أندادا يحبّونهم كحبّ الله . والّذين آمنوا أشدّ حبّا لله . ولو يرى الّذين ظلموا اذ يرون العذاب

---

(١) سورة المائدة : ٩٧ (٢) سورة البقرة : ١٥٠

(٣) سورة المائدة : ٣

(٤) صحيح البخارى: كتاب الصّلاة، باب ٢٨ فضل استقبال القبلة : ١٠٢/١

أنّ القوّة لله جميعا ، وأنّ الله شديد العذاب ﴾

تنبئ هذه الآية بنظمها أنّ الحبّ المطلق من حقّ الله . ومن أحبّ غير الله كحبّ الله فقد ظلم . ومن هنا اعتبر الشرك ظلما عظيما كما قال تعالى : ﴿ انّ الشّرك لظلم عظيم ﴾ (١)

الفائدة الثّانية :

ثمّ قال تعالى بعد هذه الآية :

﴿ اذ تبرّأ الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ﴾

يتبيّن لنا من نظم هاتين الآيتين أنّ الاتّباع هو مقياس الحبّ ومظهره . فمن اتّبع أحدا فقد أحبّه ، ومن لم يتّبعه فقد رغب عنه وتخلّى عن حبّه ، وان كان يدّعي أنّه يحبّه ويرغب اليه . ومن هنا يعتبر حبّ الله باتّباع شرائعه وأوامره ، الّتي جاءت عن طريق رسله ، كما قال تعالى :

﴿ قل ان كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . ﴾ (٢)

فمن رمى بشرائع الله عرض الحائط واتّبع هواه ثمّ قال انّه يحبّ الله فهو أحد الكاذبين .

الفائدة الثّالثة :

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا الله ان كنتم ايّاه تعبدون . ﴾

توحي الينا الآية بنظمها أنّ أكل الطّيّبات من الشكر ، والشكر لله يستلزم الأكل من الطّيّبات ، فمن حرّم على نفسه شيئا من الطّيّبات - كائنا ما كان السبب - فقد أعلن عن نفسه أنّه ليس من الشّاكرين .

---

(١) سورة لقمان : ١٣
(٢) سورة آل عمران : ٣١

الفائدة الرابعة :

ونستوحي كذلك من نظم الآية أنّ الاستمتاع بالطّيّبات من مستوجبات العبادة ، فمن حرّم على نفسه شيئا منها ، فقد اختلّت عبادته ، وان كان نهاره صائما وليله قائما . ومن هنا نعرف أنّ الرهبانيّة - بجميع أشكالها وألوانها - لا مكان لها في دين الله ، وهى ليست من الاسلام في شيء .

الفائدة الخامسة :

قال تعالى : ﴿ انّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله ﴾

فقد ذكر تعالى في هذه الآية الميتة ، ثمّ الدّم ، ثمّ لحم الخنزير ثمّ ما أهلّ به لغير الله . وهذا النّظم يشير الى أنّ ما أهلّ به لغير الله أشدّ هذه الأنواع وأكبرها مقتا عند الله .

الفائدة السادسة :

ثمّ قال تعالى : ﴿ انّ الّذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا . أولئك ما يأكلون في بطونهم الاّ النّار ﴾ فذكر الله هذا " الثمن القليل " بعد ذكر عيون المحرّمات . وهذا النّظم ينبئ أنّ شناعة هذا الثّمن القليل وحرمته تفوق شناعة تلك المحرّمات الأربع وحرمتها .

الفائدة السابعة :

قال تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ وانّ الّذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ جاءت تلك الآية بعد آية الكتمان ، ومن هنا تعتبر - بنظمها - تفسيرا للكتمان . فالاختلاف في الكتاب يعني كتمانه ، والّذين يختلفون فيه ، يستوجبون عقوبة كتمانه .

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات نتوجّه الى ما بعدها .

نظم الآية (١٧٧)

قال تعالى :

﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين . وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصّابرين في البأساء والضّرّاء وحين البأس . أولئك الّذين صدقوا وأولئك هم المتّقون . ﴾

لقد ذكر الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذه الآية قولين ، فقال :

" اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ذلك . فقال بعضهم : معنى ذلك : ليس البرّ الصّلاة وحدها ، ولكنّ البرّ الخصال الّتي أبيّنها لكم ... وقال آخرون : عنى الله بذلك اليهود والنّصارى ، وذلك أنّ اليهود تصلّي فتوجّه قبل المغرب ، والنّصارى تصلّي فتوجّه قبل المشرق ، فأنزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم فيها أنّ البرّ غير العمل الّذى يعملونه. ولكنّه ما بيّنّاه في هذه الآية . "

ثمّ رجّح - رحمه الله - أحد هذين القولين بدليل السياق فقال :

" وأولى هذين القولين بتأويل الآية القول الّذى قاله قتادة والربيع بن أنس أن يكون عنى بقوله ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ اليهود والنّصارى ، لأنّ الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم ، والخبر عنهم وعمّا أعدّ لهم من أليم العذاب ، وهذا في سياق ما قبلها ، اذ كان الأمر كذلك ، ليس البرّ أيّها اليهود والنّصارى ، أن يولّى بعضكم وجهه قبل المشرق وبعضكم قبل المغرب ﴿ ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ... الآية ﴾ . " (١)

---

(١) تفسير الطّبرى : ٢/٩٤ - ٩٥

ثمّ جاء بعده أبوحيّان صاحب تفسير البحر المحيط ، فأقرّ القولين المرويّين في تأويل الآية ، والتمس مناسبة الآية لما قبلها على الوجهين ، فقال :

" ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، لأنّها ان كانت في أهل الكتاب فقد جرى ذكرهم بأقبح الذكر من كتمانهم ما أنزل الله واشترائهم به ثمنا قليلا ، وذكر ما أعدّ لهم ولم يبق لهم ممّا يظهرون به شعار دينهم الا صلاتهم و زعمهم أنّ ذلك البرّ فردّ عليهم بهذه الآية . وان كانت في المؤمنين فهو نهى لهم أن يتعلّقوا من شريعتهم بأيسر شيء كما تعلّق أهل الكتابين ، ولكن عليهم العمل بجميع ما في طاقتهم من تكاليف الشريعة على ما بيّنها الله تعالى . " (١)

ونرى أستاذنا الامام سيّد قطب يميل الى ما مال اليه الامام ابن جرير حيث انّه يرى وجه الخطاب في هذه الآية الى اليهود ، ثمّ يذكر لنا وجها جديدا لارتباط هذه الآية بما قبلها ، فيقول :

" والراجح أنّ هناك صلة بين هذا البيان و بين تحويل القبلة وما ثار حوله من جدل طويل . ولقد سبق الكلام عن حكمة تحويل القبلة فالآن يصل السياق الى تقرير الحقيقة الكبرى حول هذه القضيّة وحول سائر القضايا الجدليّة الّتي يثيرها اليهود حول شكليّات الشعائر والعبادات ، وكثيرا ما كانوا يثيرون الجدل حول هذه الأمور .

انّه ليس القصد من تحويل القبلة ، ولا من شعائر العبادة على الاطلاق ، أن يولّي النّاس وجوههم قبل المشرق والمغرب .. نحو بيت المقدس أو نحو المسجد الحرام .. وليست غاية البرّ - وهو الخير جملة - هى تلك الشعائر الظّاهرة ، فهى في ذاتها - مجرّدة عمّا يصاحبها في القلب من المشاعر وفي الحياة من السلوك - لا تحقّق البرّ ، ولا تنشئ الخير .. انّما البرّ تصوّر و شعور و أعمال و سلوك . تصوّر ينشئ أثره في ضمير الفرد والجماعة ، وعمل ينشئ أثره في حياة الفرد والجماعة .

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٢/٢

ولا يغني عن هذه الحقيقة العميقة تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب .. سواء في التوجّه الى القبلة هذه أم تلك ، أو في التسليم من الصّلاة يمينا وشمالا ، أو في سائر الحركات الظّاهرة الّتي يزاولها النّاس في الشعائر . ﴿ ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيّين ... الآية ﴾ ذلك هو البرّ الّذى هو جماع الخير ." (١)

هذا ما يطالعنا به الأستاذ سيّد قطب ـ رحمه الله ـ في تأويل هذه الآية . وهو شبيه بما ذهب اليه الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ

ونحن أيضا نركن الى الرأى الّذى ذهب اليه هذان الامامان دون ما ذهب اليه الامام أبوحيّان . ونرى وجه الخطاب في هذه الآية الى اليهود والنّصارى . الا أنّنا نرى الآية ترمي الى أبعد ممّا ذهبا اليه .

وهذا كلام يحتاج الى ايضاح و تفصيل ، فنقول :

انّ هذه الآية بمضمونها و سياقها تذكرنا الآيات الّتي مضت معنا في أوّل الحديث مع بني اسرائيل ، وهى قوله تعالى :

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدّقا لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وايّاى فاتّقون . ولا تلبسوا الحقّ بالباطل و تكتموا الحقّ وأنتم تعلمون . وأقيموا الصّلاة و آتوا الزّكاة واركعوا مع الراكعين . أتأمرون النّاس بالبرّ و تنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون . ﴾ (٢)

فنرى السياق هنا قد عاتبهم على أنّهم يأمرون النّاس بالبرّ و ينسون أنفسهم ، وحثّهم على أن يوفوا بعهدهم و يؤمنوا بما أنزل اليهم مصدّقا لما معهم ، وحذرهم من أن يلبسوا الحقّ بالباطل و يكتموا الحقّ وهم يعلمون .

بينما نرى في الآية الّتي نتحدّث عنها أنّها خلعت عنهم فضيلة البرّ

---

(١) في ظلال القرآن : ١٥٩/١ (٢) سورة البقرة : ٤٠ ـ ٤٤

نهائيّا بعدما أنذرتم العاقبة الوخيمة الّتي تنتظرهم من جراء كتمانهم ما أنزل الله ، وقد حذروا منه في أوّل الطّريق ٠

انّها تخلع عنهم فضيلة البرّ نهائيّا و تخلعها على قوم آخرين ، يصلحون لها و هي تصلح لهم ٠

انّها قد فصلت مقوّمات البرّ و شروطه و مظاهره وأركانه ٠ ولكن ليس القصد منه اعلام النّاس بمقومات البرّ و شروطه ، وان كان ذلك حاصلا من دون قصد ٠

وانّما القصد منه خلع هذه الفضيلة عن هؤلاء جملة وتفصيلا وتعريتهم عنها تعرية كاملة ٠ فانّنا عرفنا فيما مضى بالتّفصيل أنّهم أخلوا بجميع متطلّبات البرّ و مقتضياته الّتي فصلت هنا ، فلم يدعوا ركنا من أركان البرّ الاّ هدّموه ولا شرطا من شروطه الاّ نقضوه ٠

وبذلك استحقّوا أن تخلع عنهم هذه الكرامة بجميع أطرافها حتى لا يبقى عليهم ظلّ من ظلالها ثمّ تخلع - في نفس الوقت - على قوم آخرين قد رشّحوا للقيام بأعبائها والنّهوض بتكاليفها ٠

والجدير بالذكر أنّ كثيرا من النّاس لم ينتبهوا لبلاغة الأسلوب الّذي وردت عليه الآية حيث قال تعالى :

﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر .. الآية ﴾

فيقول - مثلا - الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو يفسّر هذا الأسلوب :

" فان قال قائل : فكيف قيل (ولكنّ البرّ من آمن بالله) وقد علمت أنّ البرّ فعل ، ومن اسم ، فكيف يكون الفعل هو الانسان ؟ قيل : انّ معنى ذلك غير ما توهّمته ، وانّما معناه : ولكنّ البرّ كمن آمن بالله واليوم الآخر ، فوضع مَن موضع الفعل اكتفاء بدلالته ودلالة صلته الّتي هي له صفة من الفعل المحذوف كما تفعله العرب فتضع الأسماء

مواضع أفعالها الّتي هي بها مشهورة ، فتقول : الجود حاتم ، والشجاعة عنترة وانّما الجود حاتم ، وانّما الشجاعة عنترة ،ومعناها : الجود جود حاتم ، فتستغني بذكر حاتم اذ كان معروفا بالجود من اعادة ذكر الجود بعد الّذى قد ذكرته فتضعه موضع جوده لدلالة الكلام على ماحذفته استغناء بماذكرته عمّا لم تذكره ، كما قيل (واسأل القرية الّتي كنّا فيها) والمعنى أهل القرية ، وكما قال الشاعر ، وهو ذوالخرق الطّهوى :

حسبت بغام راحلتي عناقا * وما هي ويب غيرك بالعناق

يريد بغام عناق أو صوت ، كما يقال : حسبت صياحي أخاك ، يعني به حسبت صياحي صياح أخيك ، وقد يجوز أن يكون معنى الكلام : ولكنّ البارّ من آمن بالله ، فيكون البرّ مصدرا وضع موضع الاسم . "(١)

ويقول الامام الشوكاني ـ رحمه الله ـ نفس الكلام حيث يقول:

" وقوله (ولكنّ البرّ) هو اسم جامع للخير ، وخبره محذوف تقديره : برّ من آمن . قاله الفرّاء و قطرب والزّجاج ، وقيل : انّ التقدير: ولكن ذوالبرّ من آمن ، و وجه هذا التقدير: الفرار عن الاخبار باسم العين عن اسم المعنى ، ويجوز أن يكون البرّ بمعنى البارّ ، وهو يطلق المصدر على اسم الفاعل كثيرا . ومنه في التنزيل : (ان أصبح ماؤكم غورا) أى غائرا ، وهذا اختيار أبي عبيدة . " (٢)

ولهج بمثله الامام الزمخشرى ـ رحمه الله ـ على الرغم من طول باعه في علمى البلاغة والأدب ، حيث يقول :

"(ولكنّ البرّ من آمن بالله) على تأويل حذف المضاف :أى برّ من آمن ، أو بتأويل البرّ بمعنى ذى البرّ، أوكما قالت : * فانّما هى اقبال و ادبار * وعن المبرّد : لوكنت ممّن يقرأ القرآن لقرأت : ولكنّ البرّ بفتح الباء ، و قرئ : ولكنّ البارّ . " (٣)

---

(١) تفسير الطّبرى : ٩٥/٢ (٢) فتح القدير: ١٧٢/١
(٣) الكشّاف : ٢٣٠/١

والحقّ أنّ الآية في غنى عن مثل هذه التكلّفات ، الّتي لا تكسبها روعة ولا تكسبها معنى جديدا غير اخضاعها للقواعد الّتي درج عليها النّحاة .

والآفا لآية قد وردت على أسلوب ادماج فقرتين احداهما في الأخرى ، وهو أسلوب شائع معروف في القرآن وفي كلام العرب .

ويكون تقديرالكلام ، اذا فصلنا الفقرتين ،هكذا :

(ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ أن تؤمنوا بالله واليوم الآخر.. الخ ، وليس البرّ (بفتح الباء) من ولّى وجهه قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ (بفتح الباء) من آمن بالله واليوم الآخر .. الخ)

واذ كان المقصود هنا خلع هذه الفضيلة عن قوم على قوم والثناء على ناس وادانة ناس آخرين دون تحديد أركان البرّ وشروطه اكتفى السياق من الفقرتين بما كان يخدم هذا المقصود و يجلّيه وحذف البقيّة لما أن ذكره كان مخلّا به .

ولذلك نرى هذا الأسلوب يمثّل لنا هؤلاء الأبرار وكأنّنا نراهم رأي العين ، ونرى خصال البرّ تملأ إهابهم و تتجلّى في صورهم و تجعل كلّ من رآهم يعرفهم بسيماهم .

وفي ذات الوقت ينكر على قوم آخرين قد تخلّوا عن البرّ نهائيا وهم يحسبون أنّه ملء أيديهم وملء اهابهم . وهم اليهود والنّصارى ، قاتلهم الله !

ثمّ هو يذكّرنا أركان البرّ و شروطه كذلك بدون أن يبتعد بالذهن عن المقصود .

ولقد تضمّنت الآية هذه الأمور كلّها بفضل هذا الأسلوب - أسلوب إدماج الفقرتين إحداهما في الأخرى ، حتى أصبحتا وكأنّهما فقرة واحدة .

وبعد ما انتهينا من ربط هذه الآية الكريمة بما قبلها ، نعود

اليها مرّة أخرى لنتأمّل في نظم أجزائها و نستنبط ماأودع الله فيه من فوائد و حكم و توجيهات مهمّة غالية :

الفائدة الأولى :

نستوحي من نظم هذه الآية أنّ اليهود والنّصارى انّما كانوا يولّون وجوههم قبل المشرق والمغرب لأنّهم كانوا في واد والايمان في واد . ولو أنّهم كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لمالبثوا أن ولّوا وجوههم شطرالمسجد الحرام ، ولكنّهم كانوا كماقال الله فيهم :

﴿ ولئن أتيت الّذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ماتبعوا قبلتك وماأنت بتابع قبلتهم ومابعضهم بتابع قبلة بعض . ﴾

الفائدة الثّانية :

ذكرت في الآية مظاهر البرّ وأركانه و ذكر في آخرها الايفاء بالعهد بأسلوب خاصّ يميّزه عمّا سبق .

هذا النّظم بهذا الأسلوب يوحي الينا أنّ الايفاء بالعهد له شأن خاصّ من بين أركان البرّ ، بل هو الأصل في معنى البرّ . وسائر ماذكر من الصّفات والمعاني منبثقة من هذا المعنى وناتجة منه .

و يشبه هذا النّظم مامرّ معنا في أوّل الحديث مع بني اسرائيل، وان كان هناك فرق يسير في الموضعين ، حيث ذكر هناك الايفاء بالعهد أوّلا :

﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتى الّتي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وايّاى فارهبون . ﴾

ثمّ ذكر البرّ حيث وجّه العتاب اليهم في شأنه :

﴿ أتأمرون النّاس بالبرّ و تنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون . ﴾

ولكنّ هذا الاختلاف في الترتيب لا يمنعنا من الوصول الى ما وصلنا اليه ، بل يمدّنا بالاقتناع به والاطمئنان اليه .

واختلاف الترتيب في الموضعين انّما هو بسبب الجوّ الّذي يحيط بهما .

فالجوّ في الموضع الأوّل جوّ توجيه وارشاد ، فوعظوا وذكّروا أوّلا بأن يوفوا بعهد الله و يقوموا لأداء مايملي عليهم هذا العهد ، ثمّ عوتبوا على أنّهم يأمرون النّاس بالبرّ و ينسون أنفسهم .

بخلاف الموضع الثّاني حيث انّ الجوّ فيه جوّ تنحية من جهة و جوّ تكرمة من جهة أخرى .

فقد نحّى بنو اسرائيل عن شرف البرّ ، وفي نفس الوقت أكرم به قوم آخرون . ثمّ ذكر ـ آخر ما ذكر ـ في سياق القوم الّذين أكرموا بهذا الشّرف أنّهم يوفون بعهدهم اذا عاهدوا . و ذكر هذا بأسلوب متميّز خاصّ : ﴿ والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ﴾

وليس معنى ذلك الاّ أنّ أكبر ما اجترحته اليهود والنّصارى هو أنّهم نقضوا عهودهم لمّا عاهدوا ، ولأجل سلوكهم هذا خلعت عنهم فضيلة البرّ .

هذا النّظم و هذا الوضع يؤكّد لنا أنّ الوفاء بالعهد هو الأساس وهو الأصل في معنى البرّ .

وتغيّر الأسلوب هنا له شأن لا ينكر . وهو لا يخلو من دلالة خاصّة .

والعرب كثيرا ما استعملوا كلمة البرّ في معنى الفضيلة الّتي يكون قوامها الايفاء بالعهد ، قال امرؤ القيس :

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله * أبرّ بميثاق وأوفى وأصبرا (١)

وقال ، وهو يمدح عوير بن شجنة ورهطه :

فقد أصبحوا والله أصفاهم به * أبرّ بميثاق و أوفى بجيران (٢)

---

(١) ديوان امرئ القيس : ص/ ٩٥
(٢) ديوان امرئ القيس : ص/ ١٦٩

ثمّ اذا كان البرّ بمعنى الايفاء بالعهد ، أو كان الايفاء بالعهد هو الأصل في مدلوله فلا يضرّنا اذا قلنا ، انّ البرّ هو الخير كلّه ، أو هو جماع الخيرات أو هو الخلق الحسن وما شابه ذلك ممّا هو مأثور في تفسيره ، فانّ الايفاء بالعهد هو أساس كلّ خير ، ولذلك قال - عليه السلام - :

(لا دين لمن لا عهد له) (١)

الفائدة الثّالثة :

وممّا تدلّ عليه الآية بنظمها أنّ الصبر والصّمود في أحلك الظّروف وأحرج المواقف هو تمام الوفاء بالعهد وهو ذروة البرّ وقمّته كما أنّه هو الزّاد الوحيد لمن كان يريد أن يسلك سبيل البرّ .

ومن هنا قال سيّدنا عمر في وصيّة له لسعد بن أبي وقّاص - رضي الله عنهما - :

(... واعلم أنّ لكلّ عادة عتادا ، فعتاد الخير الصّبر . فالصّبر الصّبر على ما أصابك أو نابك ...) (٢)

الفائدة الرابعة :

ختمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ أولئك الّذين صدقوا ﴾ وهذا الختام يوحي الينا أنّ الصّدق هو الّذى يوصل من يوصل الى ذروة البرّ . ومن هنا قال - عليه الصّلاة والسلام - :

(انّ الصّدق يهدى الى البرّ ، وانّ البرّ يهدى الى الجنّة .) (٣)

الفائدة الخامسة :

ذكر الله أمورا كلّها تتعلّق بالاعتقاد والعمل ثمّ قال : ﴿ أولئك الّذين صدقوا ﴾ ، وهذا النّظم يفيد أنّ الصّدق في أصله

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي : ٢٨٨/٦ ، ومسند الامام أحمد : ١٣٥/٣ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢٥١

(٢) تاريخ الطّبرى : ٣/ ٤٨٣ (٣) صحيح البخارى : كتاب الأدب ، باب ٦٩ قول الله تعالى : يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين : ٩٥/٧

سلوك وعمل . وهو يقاس دائما بالسلوك والعمل . ولا يعتبر المرء صادقا الا اذا صدق عمله و سلوكه .

الفائدة السّادسة :

ذكر الله مقوّمات البرّ وأركانه ، ثمّ ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وأولئك هم المتّقون ﴾ بدلا من أن يختمها بقوله : " وأولئك هم الأبرار" كما هو المتبادر الى الذهن بحكم السياق .

وهذا النّظم يفتح علينا حقيقة مهمّة جدّا ، وهي أنّ التقوى هي روح البرّ وقوامه ، وهي سنده و عماده . فكلّ عمل من أعمال البرّ اذا لم يكن يستند الى التقوى فلا وزن له في ميزان البرّ ، ولا عبرة به عند الله .

الفائدة السابعة :

ذكر الله تعالى من ضمن أركان البرّ: ﴿ وآتى المال على حبّه ذوي القربى ﴾ فذكر ايتاء المال وذكر معه كون المال محبوبا الى النّفس .

وهذا النّظم يرشدنا الى أنّ أفضل الانفاق أو أفضل الصّدقة ما شقّ على النّفس . ولا يبعد أن يكون الحديث الّذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - مستفادا من هذا النّظم حيث قال :

(أتى رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - رجل فقال : يا رسول الله ، أيّ الصّدقة أعظم ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر و تأمل الغنى ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا ، ألا وقد كان لفلان) (١)

الفائدة الثّامنة :

ثمّ ذكر - تعالى - أوّل من ذكر في هذا السياق ذوي القربى .

وهذا النّظم يدلّ على أنّ أولى النّاس ببرّ الرجل هم أقاربه . ومن هنا قال النّبيّ - عليه الصّلاة والسلام - :

(دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار

---

(١) صحيح مسلم : باب بيان أنّ أفضل الصّدقة صدقة الصحيح الشحيح ، رقم الحديث (١٠٣٢) ، ص/ ٧١٦ .

تصدّقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك .) (١)

الفائدة التّاسعة :

ذكر الله - تعالى - في هذه الآية الايمان ثمّ ايتاء المال ثمّ اقامة الصّلاة ، ثمّ ايتاء الزّكاة ثمّ قال : ﴿ والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ﴾ فختم هذه الخصال بالايفاء بالعهد .

ثمّ ذكر الايفاء بالعهد بصيغة اسم الصّفة بينما ذكر البواقي بصيغة فعل الماضي .

هذا النّظم مع هذا التصريف كما يدلّ على أنّ الايفاء بالعهد هو الأصل ، وهو الجامع لهذه الخصال فكذلك يدلّ على أنّه يعمّ الدّين كلّه . ومن هنا قال - عليه الصّلاة والسلام : (لا دين لمن لا عهد له) (٢)

هذا ما فتح الله علينا عن طريق التأمّل في نظم هذه الآية العظيمة ، فله الحمد وله الشكر كما يحبّ ربّنا ويرضى .

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآية العظيمة نتوجّه الى ما بعدها .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الزّكاة ، باب فضل النفقة على العيال والمملوك : رقم الحديث (٩٩٥) ، ص / ٦٩٢

(٢) السنن الكبرى للبيهقي : ٢٨٨/٦ ، ومسند الامام أحمد : ١٣٥/٣ ، ١٥٤ ، ٢١٠ ، ٢٥١ .

نظــــم الايــــات (١٧٨ ـ ١٨٢)

****

قال تعالى :

﴿ ياأيّها الّذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى · الحرّ بالحــرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى · فمن عفي له من أخيـه شيءٌ فاتّباع بالمعــروف وأداء اليه باحسان · ذلك تخفيف من ربّكـم ورحمــة · فمن اعتدى بعــد ذلك فله عــذاب أليم · ولكم في القصاص حــياة ياأولي الألباب لعلّكم تتّقون · كتب عليكم اذا حضـر أحــدكـم الموت ان ترك خيرا الوصيّــة للوالدين والأقربين بالمعــروف حقّا علـى المتّقين · فمن بدّلــه بعد ماسمعــه فانّما اثمــه على الّذين يبدّلونـه انّ الله سميع عليم · فمن خاف من موص جنفا أو اثمــا فأصلح بينهـم فلا اثم عليه · انّ الله غفور رحــيم · ﴾

** * **

قبل أن نقدم الى ربــط هــذه الآيات بما قبلها نريد أن نقف عند الآية الأولى و نطمئنّ الى صحيح تأويلها ، فانّها ـ على كثرة ما بحثت ـ مازالت بحــاجة الى بحث و دراســة موضوعيّة متكـرّرة ·

ثمّ انّ هــذه الدّراســة ستكون لنا عونا في مهمّتنا وضمانا لنجــاح سعينا واستقامــة قصدنا باذن الله ·

يقول ابن جــرير ـ رحمــه الله ـ في تأويل الآية :

" يعني تعالى ذكــره بقوله ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ فرض عليكم ·

فان قال قائل : أفرض على ولي القتيل القصاص من قاتل وليّه ؟

قيل : لا ولكنّه مباح له ذلك ، والعفو و أخــذ الدّية ·

فان قال قائل : وكيف قال ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ ؟ قيل : انّ معنى ذلك على خــلاف ما ذهبت اليه ، وانّما معناه : ياأيّها الّذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحــرّ بالحــرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، أي انّ الحــرّ اذا قتل الحــرّ ، فدم القاتل كفء لدم القتيل

والقصاص منه دون غيره من النّاس ، فلا تجاوزوا بالقتل الى غيره ممّن لم يقتل ، فانّه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غير قاتله ، والفرض الّذى فرض الله علينا في القصاص هو ما وصفت من ترك المجاوزة بالقصاص قتل القاتل بقتيله الى غيره ، لا أنّه وجب علينا القصاص فرضا وجوب فرض الصّلاة والصّيام ، حتى لا يكون لنا تركه ، ولو كان ذلك فرضا لا يجوز لنا تركه لم يكن لقوله ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء ﴾ معنى مفهوم ، لأنّه لا عفو بعد القصاص فيقال : فمن عفى له من أخيه شيء .

وقد قيل : انّ معنى القصاص في هذه الآية مقاصّة ديات بعض القتلى بديات بعض ، وذلك أنّ الآية عندهم نزلت في حزبين تحاربوا على عهد رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - فقتل بعضهم بعضا ، فأمر النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أن يصلح بينهم ، بأن تسقط ديات نساء أحد الحزبين بديات نساء الآخرين ، وديات رجالهم بديات رجالهم ، وديات عبيدهم بديات عبيدهم قصاصا ، فذلك عندهم معنى القصاص في هذه الآية .

فان قال قائل : فانّه تعالى ذكره قال ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ فما لنا أن نقتصّ للحرّ الاّ من الحرّ ولا للأنثى الاّ من الأنثى ؟ قيل : بل لنا أن نقتصّ للحرّ من العبد وللأنثى من الذكر ، بقول الله تعالى ذكره ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليّه سلطانا ﴾ وبالنّقل المستفيض عن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أنّه قال : (المسلمون تتكافأ دماؤهم)

فان قال : فاذ كان ذلك ، فما وجه تأويل هذه الآية ؟

قيل : اختلف أهل التأويل في ذلك ، فقال بعضهم : نزلت هذه الآية في قوم كانوا اذا قتل الرجل منهم عبد قوم آخرين لم يرضوا من قتيلهم بدم قاتله من أجل أنّه عبد حتى يقتلوا به سيّده ، واذا قتلت المرأة من غيرهم رجلا لم يرضوا من دم صاحبهم بالمرأة القاتلة حتى يقتلوا رجلا من رهط المرأة و عشيرتها ، فأنزل الله هذه الآية ، فأعلمهم أنّ الّذى فرض لهم

من القصاص أن يقتلوا بالرجل الرجل القاتل دون غيره ، وبالأنثى الأنثى القاتلة دون غيرها من الرجال ، وبالعبد العبد القاتل دون غيره من الأحرار فنهاهم أن يتعدّوا القاتل الى غيره في القصاص . " (١)

ويقول ابن عطيّة - رحمه الله - في تأويل هذه الآية :

" (كتب) هنا : معناه فرض وأثبت . والكتب مستعمل في الأمور المخلّدات الدّائمات كثيرا . وقيل : انّ كتب في مثل هذا اخبار عمّا كتب في اللّوح المحفوظ و سبق به القضاء .

وصورة فرض القصاص هو أنّ القاتل فرض عليه اذا أراد الوليّ القتل ، الاستسلام لأمر الله والانقياد لقصاصه المشروع ، وأنّ الوليّ فرض عليه الوقوف عند قتل قاتل وليّه و ترك التعدّى على غيره كما كانت العرب تتعدّى و تقتل بقتيلها الرجل من قوم قاتله . وأنّ الحكّام و أولي الأمر فرض عليهم النّهوض بالقصاص واقامة الحدود ، وليس القصاص بلزام . انّما اللّزام أن لا يتجاوز القصاص الى اعتداء ، فأمّا اذا وقع الرضى بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح . فالآية معلمة أنّ القصاص هو الغاية عند التشاح . "

و يزيد - رحمه الله - فيقول :

" وروى عن ابن عبّاس أنّ الآية نزلت مقتضية أنّه لا يقتل الرجل بالمرأة ولا المرأة بالرجل ، ولا يدخل صنف على صنف ، ثمّ نسخت بآية المائدة أنّ النّفس بالنّفس هكذا روى . وآية المائدة انّما هي اخبار عمّا كتب على بني اسرائيل فلا يترتّب النّسخ الاّ بما تلقّى عن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - من أنّ حكمنا في شرعنا مثل حكمهم . وروى عن ابن عبّاس فيما ذكر أبوعبيدة وعن غيره : أنّ هذه الآية محكمة وفيها اجمال فسّرته آية المائدة ، وأنّ قوله هنا : الحرّ بالحرّ يعمّ الرجال والنّساء وقاله مجاهد . وقال مالك رحمه الله : أحسن ما سمعت في هذه الآية أن يراد بها الجنس ، الذكر والأنثى فيه سواء . وأعيد ذكر الأنثى تأكيدا وتهمّما باذهاب أمر الجاهليّة . " (٢)

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٠٢/٢ - ١٠٣ (٢) المحرّر الوجيز : ٤٩٥/١ - ٤٩٦

ويقول ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ في تأويل الآية :

" معنى كتب : فرض ، قاله ابن عبّاس وغيره . والقصاص مقابلة الفعل بمثله ، مأخوذ من : قصّ الأثر . فان قيل : كيف يكون فرضا والولّي مخيّر بينه وبين العفو ؟ فالجواب : أنّه فرض على القاتل للولّي ، لا على الولّي . " (١)

ويقول الخازن ـ رحمه الله ـ :

" (يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم) أى فرض عليكم (القصاص في القتلى) . فان قلت كيف يكون القصاص فرضا والولّي مخيّر فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدّية ؟ قلت : انّ القصاص فرض على القاتل للولّي لا على الولّي ، وقيل : اذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم ." (٢)

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ :

" وليس القصاص بلازم . انّما اللازم ألّا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود الى الاعتداء ، فأمّا اذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح .

فان قيل : فانّ قوله تعالى : (كتب عليكم) معناه فرض وألزم ، فكيف يكون القصاص غير واجب ؟ قيل له : معناه اذا أردتم ، فاعلم أنّ القصاص هو الغاية عند التشاح . " (٣)

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

" يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيّها المؤمنون حرّكم بحرّكم و عبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم و لا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم و غيّروا حكم الله فيهم . " (٤)

ويقول سيّد قطب ـ رحمه الله ـ :

" ومن ثمّ ندرك سعة آفاق الاسلام ، وبصره بحوافز النفس

---

(١) زاد المسير : ١٨٠/١ (٢) تفسير الخازن : ١٤٦/١
(٣) تفسير القرطبي : ٢٤٦/٢ (٤) تفسير ابن كثير : ٢٠٩/١

البشريّة عند التشريع لها ، ومعرفته بما فطرت عليه من النّوازع .. انّ الغضب للدّم فطرة و طبيعة . فالاسلام يلبّيها بتقرير شريعة القصاص . فالعدل الجازم هو الّذى يكسر شرة النّفوس ، و يفثأ حنق الصّدور ، ويردع الجاني كذلك عن التمادى ، ولكن الاسلام في الوقت ذاته يحبّب في العفو ، ويفتح له الطّريق ، ويرسم له الحدود فتكون الدّعوة اليه بعد تقرير القصاص دعوة الى التّسامي في حدود التطوّع ، لا فرضا يكبت فطرة الانسان ويحملها ما لا تطيق . " (١)

تلك بعض النّماذج لما ذهب اليه المفسّرون - رحمهم الله - في تأويل هذه الآية . ونستخلص ممّا ذكرنا من عباراتهم ما يلي :

١ - يرى هؤلاء الأعلام أنّ المراد بالقصاص هنا حدّ القتل ، أى قتل القاتل جزاء متكافأ بما كسب من جريمة القتل .

٢ - ويرون أنّ المراد بقوله تعالى (كتب عليكم) فرض و ألزم وأثبت وما في معناه ممّا يدلّ على الوجوب .

٣ - ويرون - مع هذا - أنّ القصاص ليس بلازم ، وانّما اللّازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود الى الاعتداء . والّذى يراه لازما انّما يراه على القاتل دون الوليّ ، أو يراه على النّاس اذا أرادوا . وهذا الخلاف - كما لا يخفى - خلاف شكليّ والآ فالمآل واحد ، والنتيجة هى هى .

٤ - ويرون أنّ القصاص حكمه حكم المباح . وهو الغاية عند التشاحّ .والآ فالأفضل المطلوب هو العفو .

٥ - ثمّ هم مختلفون في حكم هذه الآية أنّها محكمة أم منسوخة . ولم يأت أحد من الفريقين بما يثبت دعواه .

هذا موجز ما قيل في هذا الموضوع . والدّراسة الموضوعيّة لتلك الأقوال تجعلنا نحسّ فيها عدّة اشكالات وهى كما يلي :

---

(١) في ظلال القرآن : ٢/١٦٤ - ١٦٥

الاشكال الأوّل :

لقد ذكرت الحدود في القرآن في عدّة مواضع ، ولكنّه ماجاء الخطاب في سياق تلك الحدود بـ"ياأيّها الّذين آمنوا " البتّة . فانّ الحدود ليست من اختصاص الجماهير ، وانّما هي تخصّ أولي الأمرمنهم .

فذكرحدّ المحاربين ـ مثلا ـ هكذا :

﴿ انّماجزاء الّذين يحاربون الله و رسوله ويسعون في الأرض فساداأن يقتلواأو يصلبواأو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزى في الدّنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .﴾(١)

وذكر حدّ السارقين والسارقات هكذا :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعواأيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم . ﴾ (٢)

و ذكر حدّ الزّنا هكذا :

﴿ سورةأنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيهاآيات بيّنات لعلّكم تذكّرون. الزّانية والزّاني فاجلدواكلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . ﴾ (٣)

ثمّ ذكر حدّ القذف هكذا :

﴿ والّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادةأبدا . وأولئك هم الفاسقون .﴾(٤)

تلك العبارات أو الأساليب الّتي استخدمها القرآن لبيان الحدود . ولا نرى في أيّ واحدمنها الخطاب بـ " ياأيّها الّذين آمنوا ".

فانّ القرآن لا يوجّه الخطاب بـ " ياأيّها الّذين آمنوا " الاّ اذاكان داعي الخطاب عامّا شاملا يخصّ كافّةالمؤمنين دون طائفةمنهم .

---

(١) سورة المائدة : ٣٣ (٢) سورةالمائدة : ٣٨
(٣) سورة النّور : ١ ـ ٣ (٤) سورةالنّور : ٤

كما نرى في هـذه الآيات مثلا :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم ﴾ (١)

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ﴾ (٢)

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا ممّا رزقناكم ﴾ (٣)

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى ﴾ (٤)

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمّى فاكتبوه ﴾ (٥)

تلك بعض الأمثلة من هذه السورة نفسها ، والاّ فالقرآن غنيّ حافل بمثل تلك الأمثلة .

الاشكال الثّاني :

لوكان المراد بالقصاص هو القود أى قتل القاتل بالقتيل ، لتعيّن الأخذ به . فانّه كتب علينا . والمكتوب علينا لا محيد لنا عنه الى غيره . كما أنّ الصّيام كتب علينا فلا محيد لنا عنه ، حتّى ولوكنّا على سفر أو كنّا مرضى فعلينا عدّة من أيّام أخر .

وأمّا قول الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ : " لأنّه وجب علينا القصاص فرضا وجوب فرض الصّلاة والصّيام ، حتّى لا يكون لنا تركه " فهو قول لا يخلو من ضعف . وليس عليه دليل .

ثمّ اذا تعيّن الأخذ بالقصاص بمعنى القود بطلت مشروعية الدّية مع أنّ الآية تنوّه بشأنها وتسمّيها (تخفيفا ورحمة) .

الاشكال الثّالث :

لوكان المراد بالقصاص كما قيل لكانت العبارة مختلفة عمّا هى عليه الآن . وكانت هكذا : ﴿ كتب عليكم القصاص من القتلة ﴾

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣
(٢) سورة البقرة : ٢٠٨
(٣) سورة البقرة : ٢٥٤
(٤) سورة البقرة : ٢٦٤
(٥) سورة البقرة : ٢٨٢

أى فرض عليكم أن تقتصّوا من القاتلين . فانّ قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ يكون معناه ، اذا فسّرنا القصاص بالمعنى المعروف : كتب عليكم أن تقتصّوا في شأن المقتولين . وهو معنى لا يستقيم الاّ بتكلّف شديد .

الاشكال الرّابع :

ذكر الله موضوع القصاص في آيتين قصيرتين ، وبدأه بقوله تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾

وختم بقوله تعالى :

﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلّكم تتّقون ﴾

هذا الأسلوب القويّ مع هذا الايجاز الشديد في العبارة يزيد من قيمة الموضوع و أهميته و خطورته ما يجلّ عن الوصف .

وبعيد جدّا جدّا أن يسبغ القرآن على هذا الموضوع بأسلوبه وعبارته هذه الأهمية البالغة ، ثمّ لا يتجاوز ذلك الموضوع في حكمه أن يكون مباحا من المباحات . ويترك للنّاس الخيار أن يأخذوه أو يعدلوا عنه الى غيره .

الاشكال الخامس :

الجوّ الّذى يسود الآيات أو اللّون الّذى يلونها لهما تأثير كبير في تحديد مرامي الآيات واتّجاهاتها .

فنرى ـ مثلا ـ الآيات الّتي تتناول الحدود الأخرى مثل حدّ المحاربين أو حدّ السرقة أو حدّ الزّنا أو حدّ القذف ، يظهر عليها لون الغضب والمقت والكراهية بحيث يكاد يلمس بالرّاح . والجوّ كلّه جوّ ادانة و اخزاء و اعراض .

فلننظر آية الحراب كيف ترمي بشرر السخط والغضب :

﴿ انّما جزاء الّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض

فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . ذلك لهم خزي في الدّنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . ﴾[١]

ولننظر آية السرقة ، كيف تصوّر لنا صرامة الدّينونة وشدّة البطش :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم . ﴾[٢]

ولننظر آية الزّنا ، كيف تجسّد لنا الكراهية والامتعاض وشدّة النّكال :

﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلّكم تذكّرون. الزّانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . ﴾[٣]

ولننظر آية القذف ، كيف تمثّل لنا العقوبة الصّارمة العاجلة الدّائمة :

﴿ والّذين يرمون المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا . وأولئك هم الفاسقون . ﴾[٤]

بالاضافة الى أنّ الجوّ العامّ ، الّذى يحيط بتلك الآيات يماثل جوّها الخاصّ في طبيعته وايحاءاته .

وأمّا آية القصاص ، فنرى جوّها ولونها يختلف تماما عن جوّ تلك الآيات ولونها ، فالجوّ فيها جوّ عفو و تخفيف ورحمة . واللّون الّذى يلوّنها لون معروف واحسان وامداد بالحياة !

ثمّ جوّها العامّ كذلك يماثل جوّها الخاصّ في هدوئه ورقّته ويسره وعذوبته .

---

(١) سورة المائدة : ٣٣ (٢) سورة المائدة : ٣٨
(٣) سورة النّور : ١ ـ ٣ (٤) سورة النّور : ٤

وهذا الوضع يلقي في روعنا أنّ تلك الآية ليست من آيات الحدود.

الإشكال السّادس :

هذا المفهوم يزيد موضوع القصاص غموضا وتعقّدا ، و يضطرّنا الى تأويلات بعيدة شاذة. ولا أدلّ على ذلك من تلك الخلافات الّتي تشتمل عليها كتب التفسير حول هذا الموضوع .

ولا بأس بأن نشير هنا الى شيء من تلك الخلافات حتى يتّضح الموقف.

يقول الامام أبو بكر الجصّاص - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ :

" هذه الآية تدلّ على قتل الحرّ بالعبد والمسلم بالذمّي والرجل بالمرأة لما بيّنّا من اقتضاء أوّل الخطاب ايجاب عموم القصاص في سائر القتلى ، وأنّ تخصيصه الحرّ بالحرّ ومن ذكر معه لا يوجب الاقتصار بحكم القصاص عليه دون اعتبار عموم ابتداء الخطاب في ايجاب القصاص. " (١)

ويقول الامام أبو بكر المعروف بابن العربي - رحمه الله - في تأويل تلك الآية :

" قوله تعالى : ﴿ الحرّ بالحرّ ﴾ تعلّق أصحابنا على أصحاب أبي حنيفة بهذا التنويع والتقسيم على أنّ الحرّ لا يقتل بالعبد لأنّ الله تعالى بيّن نظير الحرّ و مساويه وهو الحرّ ، وبيّن نظير العبد ومساويه وهو العبد. "

ويقول - رحمه الله - :

" فان قيل : فقد قال تعالى : ﴿ والأنثى بالأنثى ﴾ فلم يقتل الذكر بالأنثى ؟ قلنا ذلك ثابت بالاجماع ، وهو دليل آخر ، ولو تركنا هذا التقسيم لقلنا : لا يقتل الذكر بالأنثى.

---

(١) أحكام القرآن للجصّاص : ١٣٤/١

ويقول - رحمه الله - :

" هل يقتل الأب بولده مع عموم آيات القصاص ؟

قال مالك : يقتل به اذا تبيّن قصده الى قتله بأن أضجعه وذبحه ، فان رماه بالسلاح أدبا وحنقا لم يقتل به ، ويقتل الأجنبيّ بمثل هذا .

وخالفه سائر الفقهاء وقالوا : لا يقتل به .

وقد أثر عن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أنّه لا يقاد والد بولده . وهو حديث باطل . ومتعلّقهم أنّ عمر - رضي الله عنه - قضى بالدّية مغلّظة في قاتل ابنه . ولم ينكر أحد من الصّحابة عليه . فأخذ سائر الفقهاء المسألة مسجّلة ، وقالوا : لا يقتل الوالد بولده .

وأخذها مالك محكمة مفصّلة ، فقال : انّه لو حذفه بسيف ، وهذه حالة محتملة لقصد القتل وغيره ، و شفقة الأب شبهة منتصبة شاهدة بعدم القصد الى القتل تسقط القود ، فاذا أضجعه كشف الغطاء عن قصده فالتحق بأصله . "

وقال - رحمه الله - :

" احتجّ علماؤنا - رحمة الله عليهم - بهذه الآية ، وهي قوله تعالى : * كتب عليكم القصاص في القتلى * على أحمد بن حنبل في قوله : لا تقتل الجماعة بالواحد ، قال لأنّ الله تعالى شرط في القصاص المساواة . ولا مساواة بين الواحد والجماعة ، لا سيّما وقد قال تعالى: * وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس *

الجواب أنّ مراعاة القاعدة أولى من مراعاة الألفاظ ، ولو علم الجماعة أنّهم اذا قتلوا واحدا لم يقتلوا لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم ، وبلغوا الأمل من التشفّي منهم . "

وقال - رحمه الله - :

" قوله تعالى : * فمن عفي له من أخيه شيءٌ ... * الى آخرها .

قال القاضي ـ رضي الله عنه ـ هذا قول مشكل تبلّدت فيه ألباب العلماء ، واختلفوا في مقتضاه ، فقال مالك في رواية ابن القاسم : موجب العمد القود خاصّة . ولا سبيل الى الدّية الاّ برضا من القاتل . وبه قال أبو حنيفة ، وروى أشهب عنه أنّ الوليّ مخيّر بين أحد أمرين ، ان شاء قتل وان شاء أخذ الدّية وبه قال الشافعي .

وقال مالك : تفسيره من أعطى من أخيه شيئا من العقل فليتبعه بالمعروف ، فعلى هذا ، الخطاب للوليّ ، قيل له : ان أعطاك أخوك القاتل الدّية المعروفة فاقبل ذلك منه واتبعه .

وقال أصحاب الشافعي : تفسيره اذا أسقط الوليّ القصاص ، وعيّن له من الواجبين له الدّية فاتبعه على ذلك أيّها الجاني ، على هذا المعروف وأدّ اليه باحسان . " (١)

هذه نبذة من تلك الخلافات الّتي لم تكن الاّ نتيجة طبيعيّة لذلك التأويل الّذى ذهب اليه النّاس .

وبيانه أنّ فريقا منهم رأى هذه الآية لا تنسجم مع طائفة من الأحاديث والروايات الّتي ليس من شأنها أن يغضى عنها ويغفل أمرها .

فهم رأوا ـ مثلا ـ أنّ هذه الآية لا تبيح أن يقاد الحرّ بالعبد مع أنّ النّبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال : (المؤمنون تتكافأ دماؤهم) (٢) فكأنّه ـ عليه السلام ـ جعل العبد مثل الحرّ في الدّم اذ علق حكم التكافؤ بينهم بالايمان .

وروى اللّيث عن الحكم أنّ عليّا وعبد الله بن مسعود قالا :

(اذا قتل الحرّ العبد فهو به قوده) (٣)

وهم رأوا أنّ هذه الآية تقتضي أن يقتل الوالد بولده مع أنّ النّبي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٦٢/١ ـ ٦٦ مع اختصار في العبارة .

(٢) سنن الدّارقطني : كتاب الحدود والدّيات وغيره : ١٣١/٣

(٣) المصنّف لابن أبي شيبة : كتاب الدّيات : ٣٠٦/٩ ، وأيضا أخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق منصور عن الحكم : ٣٥/٨

ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال : (لا يقتل الوالد بالولد) (١)

يقول الامام أبو بكر الجصّاص ـ رحمه الله ـ :

" وهذا خبر مستفيض مشهور وقد حكم به عمر بن الخطّاب بحضرة الصّحابة من غير خلاف من واحد منهم عليه . فكان بمنزلة قوله : (لا وصيّة لوارث) ونحوه في لزوم الحكم به ، وكان في حيّز المستفيض المتواتر " (٢)

وهم رأوا أنّ هذه الآية تقتضي ألاّ يقتل المسلم بكافر مع أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قتل رجلا من أهل القبلة قتل رجلا من أهل الذمّة ، وقال : أنا أحقّ من وفى بالذمّة . (٣)

ولقد روى الأشهب عن أبي نضرة أنّ عمر بن الخطّاب أقاد رجلا من المسلمين برجل من أهل الذمّة . (٤)

فمثل هذه الاشكالات ألجأتهم الى أن يقولوا ، ليتخلّصوا منها :

" ليس توجيه الخطاب الى المؤمنين بايجاب القصاص عليهم في القتلى بموجب أن يكون القتلى من المؤمنين ، لأنّ علينا اتّباع عموم اللّفظ مالم تقم دلالة الخصوص ، وليس في الآية ما يوجب خصوص الحكم في بعض القتلى دون بعض . "

" واذا كان أوّل الخطاب قد شمل الجميع ، فما عطف عليه بلفظ الخصوص لا يوجب تخصيص عموم اللّفظ ، لأنّه اذا كان أوّل الخطاب مكتفيا بنفسه ، غير مفتقر الى ما بعده ، لم يجز لنا أن نقصره عليه . " (٥)

وهكذا أراد هؤلاء أن يدفعوا التعارض الّذى كانوا يحسّونه بين الآية و بين طائفة من الروايات .

الاّ أنّهم ما كادوا يتخلّصون من هذا الاشكال حتى وقعوا في اشكال آخر ، حيث انّه اذا كان أوّل الخطاب مكتفيا بنفسه غير مفتقر الى ما بعده

---

(١) سنن الدّارقطني : كتاب الحدود والدّيات وغيره : ١٤١/٣
(٢) أحكام القرآن للجصّاص : ١٤٤/١
(٣) المصنّف لابن أبي شيبة : باب اذا قتل الذمّيّ المسلم قتل به : ٢٩٠/٩ ، و سنن الدّارقطني : كتاب الحدود والدّيات : ١٣٥/٣
(٤) المصنّف لابن أبي شيبة : كتاب الدّيات : ٢٩٢/٩
(٥) أحكام القرآن للجصّاص : ١٣٣/١ ـ ١٣٤ مع اختصار في العبارة .

فما فائدة قوله تعالى اذا بعد ذلك الخطاب : ﴿ الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ ؟

ولقد حاول هؤلاء أن يلتمسوا لتلك الزّيادة توجيها ، ولكنّهم لم يأتوا بشيء. (١)

وأمّا الفريق الثّاني فهم فضّلوا أن يلتزموا بما رأوه موافقا لمقتضى الآية ، حتى ولو أفضى بهم ذلك الى أن يقولوا للحديث الّذى يراه الفريق الآخر في حيّز المستفيض المتواتر : (انّه حديث باطل) كما رأينا ذلك في حديث (لا يقاد والد بولده). (٢)

مع أنّه كان أولى بهم ، حين رأوا الحديث المستفيض المشهور يتعارض مع ذلك التأويل ، أن يعيدوا النّظر في تأويلهم ، فانّه لا يتصوّر أن يتعارض حديث صحيح مع آية من آيات كتاب الله .

ثمّ هذا التأويل هو الّذى أفضى بالامام أحمد الى أن يقول : لا تقتل الجماعة بالواحد ، مع أنّه روى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أنّ انسانا قتل بصنعاء ، وأنّ عمر قتل به سبعة نفر وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعا . (٣)

علما بأنّ هذه الآية لو كانت تقتضي أن لا تقتل الجماعة بالواحد لم يكن سيّدنا عمر ليقتل بانسان واحد سبعة نفر ، ولم يكن ليقول كلمته الّتي قالها ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ

ثمّ هذا التأويل هو الّذى أنطق القاضي بما نطق به عن قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء ... ﴾ حيث قال :

" هذا قول مشكل تبلّدت فيه ألباب العلماء !! " .

فهذا التأويل هو الّذى ألجأ الامام مالك الى أن يفسّر هذا القول بتفسير شاذ ، حيث انّ العفو لا يطّرد استعماله بمعنى الاعطاء .

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصّاص : ١/١٣٤

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ١/٦٥

(٣) سنن الدّارقطني : كتاب الحدود والدّيات وغيره : ٣/٢٠٢ ، رقم الحديث (٣٦٠) .

كما أنّه هو الّذي ألجأ أصحاب الشافعيّ الى أن يفسّروا قوله تعالى: ﴿ شيءٌ ﴾ بالقصاص . ولا يخفى ما في هذا التفسير من بعد و ضعف .

ثمّ انّ هذا التأويل كان يقتضي ألاّ يقتل الذكر بالأنثى نظرا الى قوله تعالى : ﴿ والأنثى بالأنثى ﴾

ولكنّه انعقد الاجماع على خلاف ذلك .

وقد روى أبوبكر بن محمّد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - كتب الى أهل اليمن وكان في كتابه : (انّ الرجل يقتل بالمرأة) (١)

ولهذا قلنا - ومازلنا نقول - انّ هذا التأويل يزيد موضوع القصاص غموضا وتعقّدا ويضطرّنا الى تأويلات بعيدة شاذة .

اضافة الى ذلك أنّ هذا التأويل لا يستقيم معه نظم الكلام ، وهو ينقض الرباط الّذي يشدّ الآيات بعضها الى بعض .

اذا فما هو ذلك التأويل الّذي يكون سليما من تلك الاشكالات . ويكون متلائما مع نظم الآيات و سياقها ومتلائما مع لونها وجوّها ؟

قبل أن نعرج الى الاجابة على هذا السؤال ، أو الى بيان التأويل الصحيح للآية ، نريد أن ننبّه الى سبب خفاء هذا التأويل .

وبيانه أنّ أمر القصاص هو موضوع هذه الآية . ففهمها يتوقّف على فهمه . ولا يمكن التوصّل الى صحيح تأويلها قبل التوصّل الى صحيح معناه .

ولكنّ الّذي حدث هو أنّ هذا اللّفظ لم يعن بدراسته عناية يستحقّها . وتناقله النّاس بمعناه المعروف الّذي كان بحاجة الى أن يتأكّد من صحته .

أقوال النّاس في معنى القصاص :

فيقول - مثلا - الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو يذكر معناه :

---

(١) سنن الدّارمي : باب القود بين الرجال والنساء : ص/ ٥٨٥ - ٥٨٦

جـــزاء الجاني قصــاصــا ، لأنّه يتّبع أثره ، فيفعل به كما فعل . وهــذا أحد ما يستدلّ به على أن يفعل بالجاني كما فعل ، فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص . " (١)

وهكـــذا نرى معظم كتب التفسير تتناقل معنى واحدا للفظ القصاص ، مع أنّ هـــذا المعنى لا يعطينا عنه صـــورة واضحـــة دقيقة تطمئنّ اليها النّفس.

تحقيق معنى القصــاص :

نحن نرى أنّ الامام ابن تيمية ـ رحمــه الله ـ كان موفّقا في رأيه وكان أقرب الى الصّواب حيث قال :

" لفظ القصاص يدلّ على المعادلة والمساواة فيدلّ على أنّ الله أوجب العدل والانصــاف في أمـــر القتلى . " (٢)

وقال ـ رحمـــه الله ـ :

" ﴿ ولكم في القصـــاص حياة ﴾ فانّهم اذا تغادوا القتلى و تقاصّــوا وتعادلوا لم تبق واحـــدة تطلب الأخـــرى بشيءٍ فحتّى هــؤلاء وحتّى هــؤلاء ، بخـــلاف ما اذا لم يتقاصّــوا فانّهم يتقاتلون وتقوم بينهم الفتن الّتي يموت فيها خـــلائق ، كما هو معـــروف في فتن الجاهليّة والاســـلام ، انّما تقع الفتن لعدم المعادلة والتناصف بين الطّائفتين والاّ فمع التعادل والتناصف الّذى يرضى به أولو الألباب لا تبقى فتنة . " (٣)

والامام الرازى ـ رحمه الله ـ أيضا كان منتبها لهذا الجانب من معنى كلمة القصاص الاّ أنّه التبس عليه الأمـــر فخلط المعنيين بعضهما ببعض ، حيث ذكـــر المعنى الأوّل ـ كما مـــرّ معنا آنفا ـ ثمّ قال :

" و سمّيت القصّة قصّـــة لأنّ بالحكاية تساوى المحكيّ ، ويسمّى المقصّ مقصّا لتعادل جانبيه . " (٤)

وعلى هذا المعنى ورد الحديث الّذى رواه البخارى عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ حيث قال : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ :

---

(١) التفسير القيّم : ص / ١٤٤
(٢) دقائق التفسير للامام ابن تيمية : ٢٤٩/١
(٣) دقائق التفسير : ٢٤٨/١
(٤) التفسير الكبير : ٤٧/٥

(اذا أسلم العبد فحسن اسلامه ، يكفّر الله عنه كلّ سيّئة كان زلّفها وكان بعد ذلك القصاص : الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسّيئة بمثلها الا أن يتجاوز الله عنها .) (١)

أى كان بعد ذلك المعادلة ، فالحسنة تعادل بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسّيئة تعادل بمثلها .

ومن ذلك ما رواه الترمذى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - قال :

(أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع ، قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاته و صيامه و زكاته ، و يأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيقعد فيقتصّ هذا من حسناته و هذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقتصّ ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثمّ طرح في النّار .) (٢)

فممّا لا يخفى أنّ القصاص في هذه الرواية لا يعني الفعل بالانسان مثل ما فعل ، وانّما يعني اقامة العدل والقسط واشكاء المظلوم وارضاءه بما يعادل مظلمته من حسنات من ظلمه .

ومن هذه النّاحية قيل ليوم القيامة يوم القصاص كما قال يزيد بن أسد البجليّ وهو يخطب النّاس بصفّين :

(وأشهد أن لا اله الاّ الله وحده لا شريك له ، كلمة النّجاة في الحياة الدّنيا وعند الوفاة ، وفيها الخلاص يوم القصاص .) (٣)

ولقد وردت هذه الكلمة مرّتين في القرآن ما عدا هذين الموضعين . مرّة في قوله تعالى :

---

(١) صحيح البخارى : كتاب الايمان : باب ٣١ حسن اسلام المرء : ١٥/١

(٢) سنن الترمذى : باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص : ٦١٣/٤ ، رقم الحديث (٢٤١٨) .

(٣) شرح ابن أبي الحديد : ٤٨٥/١ ، والأغاني : ٥٥/١٩ ، نقلا من جمهرة خطب العرب : ١/ ٣٤٤

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين . ﴾ (١)

ومرّة أخرى في قوله تعالى :

﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّن بالسّن والجروح قصاص . فمن تصدّق به فهو كفّارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون ﴾ (٢)

والّذى نلاحظه في تلك المواضع كلّها هو أنّه لا يستقيم فيها لكلمة القصاص الّا معنى التعادل والتكافؤ والتساوى كما سنفصّله فيما بعد بعون الله .

وأمّا المعنى الّذى جنح له المفسّرون - رحمهم الله - فهو لا يستقيم الّا بتكلّف شديد .

تأويل الآيـة :

والآن نتوجّه الى بيان الوجه المفضّل عندنا في تأويل الآية ، فنقول :

انّ ما تفيده هذه الآية هو أنّه كتب على المؤمنين أن يقاصّوا ويعادلوا في شأن القتلى ، فيعادلوا الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فاذا قتل الحرّ فلتكن له دية الحرّ ، واذا قتل العبد فلتكن له دية العبد ، واذا قتلت الأنثى فلتكن لها دية الأنثى من غير تفريق بين قوم و قوم ، أو لون ولون ، فالمؤمنون تتكافأ دماؤهم ، وتتعيّن عليهم المعادلة في دياتهم ، من غير أن تكون لهم الخيرة من أمرهم .

وهذا التأويل شبيه في جملته بما رواه ابن جرير، قال : حدّثنا موسى بن هارون ، قال : ثنا عمرو بن حمّاد، قال : ثنا أسباط ، عن

---

(١) سورة البقرة : ١٩٤ (٢) سورة المائدة : ٤٥

السدّى قوله ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ قال اقتتل أهل ملّتين من العرب ، أحدهما مسلم ، والآخر معاهد في بعض ما يكون بين العرب من الأمر ، فأصلح بينهم النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يؤدى الحرّ دية الحرّ ، والعبد دية العبد ، والأنثى دية الأنثى ، فقاصّهم بعضهم من بعض .

وقال : حدّثنا المثنّى قال : ثنا سويد بن نصر ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، عن شعبة ، عن أبي بشر قال : سمعت الشعبي يقول في هذه الآية ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ قال : نزلت في قتال عمية ، قال شعبة : كأنّه في صلح ، قال : اصطلحوا على هذا .(١)

وروى سفيان بن حسين عن ابن أشوع عن الشعبيّ ، قال : كان بين حيّين من العرب قتال فقتل من هؤلاء ومن هؤلاء ، فقال أحد الحيّين : لا نرضى حتّى نقتل الرجل بالمرأة و بالرجل الرجلين . وارتفعوا الى النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - فقال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : القتل بواء أى سواء فاصطلحوا على الدّيات . ففضل لأحد الحيّين على الآخر فهو قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ الى قوله ﴿ فمن عفى له من أخيه شيءٌ ﴾ (٢)

فلا فرق هناك بين ما ذكرناه وبين ما وردت به تلك الروايات ، الاّ أنّنا نرى هذه الآية عامّة شاملة محكمة سارية المفعول الى اليوم والى ما بعد اليوم . ولا داعى هناك لتخصيصها بحادث معيّن أو بوضع معيّن كقتال عمية مثلا .

بل كلّما حدث حادث القتل ، سواء كان فرديّا أو جماعيّا كان على المؤمنين أن يحتكموا الى هذه الآية الكريمة ، فيعادلوا الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، أى يؤدّوا دية الحرّ

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٠٤/٢ (٢) أحكام القرآن للجصّاص : ١٥١/١

ان كان المقتول حرّا ، و دية العبد ان كان عبدا ، ودية الأنثى ان كانت أنثى .

فمن عفى له من أخيه ـ أى وليّ الدّم ـ شيءٌ ممّا يلزمه من الدّية فليتبعه بالمعروف وليؤدّه اليه باحسان .

وهذا الضّابط في ذاته تخفيف من ربّنا ورحمة . ويتجسّد لنا كونه تخفيفا ورحمة اذا وضعنا في اعتبارنا تلك الثّارات الجاهليّة ، الّتي كانت تنوء بأثقالها قبائل العرب ، والّتي كانت تمتدّ و تمتدّ بلا حدود . وماكان لها أن تخبو اذا استعرت نيرانها حتّى تأكل العشائروا لبطون بكاملها .

وليس هناك أىّ فرق أو اختلاف ملحوظ في مدلول هذه الآية والّتي وردت في سورة المائدة حيث قال تعالى :

﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص . فمن تصدّق به فهو كفّارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظّالمون . ﴾ (١)

فهذه الآية تبيّن لنا ما شرع لبني اسرائيل في شأن الدّية ، فكان عليهم ـ كمثلنا ـ أن يعادلوا النّفس بالنّفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ . وكان عليهم أن يفعلوا في الجروح كذلك ، فانّ الجروح قصاص أى متكافئة متعادلة ، فلا فرق بين جرح شخص و شخص وبالتالي لا فرق بين دية شخص و شخص .

ولقد بيّنت الآية نفسها نوعيّة القصاص حيث ورد في آخرها :

﴿ فمن تصدّق به فهو كفّارة له ﴾

والظّاهر في التصدّق والصدقة أن يكونا بالمال .

فالصّدقة : ما يخرجه الانسان من ماله على وجه القربة .(٢)

والمتصدّق : الّذى يعطي الصّدقة . ومنه الصّداق والصّداق : لمهر المرأة . وقد أصدقت المرأة اذا سمّيت لها صداقا . (٣)

---

(١) سورة المائدة : ٤٥ (٢) المفردات للراغب الأصفهاني : ص/ ٢٧٨

(٣) الصّحاح للجوهرى (صدق) .

فهذان اللفظان يدلان في أصلهما على التقرّب بالمال ، كما نصّ عليه أئمة اللغة ، وكما نعلمه من تقصّي استعمالاتهما في القرآن وفي كلام العرب ، اللهم الاّ أن تكون هناك قرينة تصرفهما عن معناهما الأصل ، فهذا شيء آخر .

اضافة الى ذلك أنّه ورد ذكر التصدّق في سياق الدّيات صراحة ، حيث قال تعالى :

﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الاّ خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة الى أهله الاّ أن يصّدّقوا ... الخ ﴾(١)

والقرآن يفسّر بعضه بعضا ، وخير ما رجع اليه المرء في تفسيره هو نفسه .

ثمّ هناك روايات تعزّز رأينا وتذهب بنا الى ما ذهبنا اليه .

فقد أخرج ابن مردويه عن رجل من الأنصار عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في قوله : ﴿ فمن تصدّق به فهو كفّارة له ﴾ قال : " الرجل تكسر سنّه ، أو تقطع يده ، أو يقطع الشيء ، أو يجرح في بدنه ، فيعفو عن ذلك ، فيحطّ عنه قدر خطاياه ، فان كان ربع الدّية فربع خطاياه ، وان كان الثلث فثلث خطاياه ، وان كانت الدّية حطّت عنه خطاياه كذلك ."(٢)

وأخرج الدّيلميّ عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - :

" ﴿ فمن تصدّق به فهو كفّارة له ﴾ الرجل تكسر سنّه ، أو يجرح من جسده ، فيعفو عنه فيحطّ من خطاياه بقدر ما عفا من جسده ، ان كان نصف الدّية فنصف خطاياه ، وان كان ربع الدّية فربع خطاياه ، وان كان ثلث الدّية فثلث خطاياه ، وان كانت الدّية كلّها فخطاياه كلّها ! "(٣)

وذكر مكّي حديثا من طريق الشعبي أنّه يحطّ عنه من ذنوبه ما عفى عنه من الدّية .(٤)

---

(١) سورة النّساء : ٩٢
(٢) الدّرّ المنثور : ٩٢/٣
(٣) الدّرّ المنثور : ٩٢/٣
(٤) تفسير البحر المحيط : ٤٩٧/٣

تلك الروايات تبيّن لنا بوضوح أنّ الموضوع هنا موضوع الدّيات والمراد بالتصدّق هو التصدّق بالدّيات ٠

وبالجملة فلا علاقة لهذه الآية أو آية البقرة بموضوع حدّ القتل أو قتل النّفس بالنّفس ٠

وانّما هما تعالجان موضوع الدّيات وتهيبان بالمعادلة فيها من غير ظلم ولا هضم ولا اعتداء ٠

وهذا المفهوم ليس فقط أنّه يريحنا من كثير من المشاكل الّتي واجهها المفسّرون - رحمهم الله - في تأويل الآية ، بل يجلّي لنا نظامها ، ويسهّل لنا مهمّة ربطها بما حولها ٠

<u>ارتباط الآية بما قبلها :</u>

والآن : فما هو وجه ارتباطها بما حولها ؟

يقول أبوحيّان - رحمه الله - وهو يعالج هذا الموضوع :

" ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لمّا حلّل ماحلّل قبل وحرّم ماحرّم ثمّ أتبع بذكر من أخذ مالا من غير وجهه وأنّه ما يأكل في بطنه الا النّار ، واقتضى ذلك انتظام جميع المحرّمات من الأموال ثمّ أعقب ذلك بذكر من اتّصف بالبرّ وأثنى عليهم بالصّفات الحميدة الّتي انطووا عليها أخذ يذكر تحريم الدّماء ويستدعي حفظها وصونها فنبّه بمشروعية القصاص على تحريمها ونبّه على جواز أخذ مال بسببها وأنّه ليس من المال الّذى يؤخذ من غير وجهه ٠ " (١)

هذا ما قاله أبوحيّان ،ولا شكّ أنّه كان موفّقا في جلّ ما قال ، الا أنّ الموقف ما زال بحاجة الى ايضاح و بيان ٠

لقد رأينا فيما سبق أنّ الموضوع كان موضوع الترغيب في أكل الطّيّبات حيث قال تعالى :

﴿ يا أيّها النّاس كلوا ممّا في الأرض حلالا طيّبا ولا تتّبعوا خطوات الشيطان ، انّه لكم عدوّ مبين ٠ ﴾

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٩/٢

وقال تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم ايّاه تعبدون . ﴾

ثمّ جاء ذكر ما حرّم من الطّعام ، وكان ذلك تكملة لحديث الأكل من الطّيّبات ، حيث قال تعالى :

﴿ انّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله ، فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه . انّ الله غفور رحيم . ﴾

ثمّ جاء الوعيد على تكسّب المال بكتمان ما أنزل الله وهو – كما لا يخفى – من جنس ما حرّم من الطّعام ، بل من أقبح أنواعه ، حيث قال تعالى :

﴿ انّ الّذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون في بطونهم الاّ النّار ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم . ﴾

ثمّ جاءت آية البرّ . ولقد فصّلنا فيما مضى أنّها ما جاءت الاّ لتفضح بني اسرائيل و تسلبهم الشّرف الّذى كانوا يتبجّحون به . انّها جاءت لتخلع عنهم فضيلة البرّ نهائيّا ، حيث انّهم كتموا الحقّ وكتموا ما أنزل الله و اشتروا به ثمنا قليلا .

وكان هذا الكتمان من أفدح ما اجترحه بنوا سرائيل ، فحسن التعقيب هنا بذكر تلك الفضيحة تنبيها على فداحة خطبهم وشناعته .

ثمّ عاد الكلام الى نصابه ، و جاءت آيات القصاص والوصيّة لتحذر المؤمنين من هضم حقوق الآخرين و تعصمهم من التقصير في أدائها ، وكلّ ذلك ممّا يكمل حديث الأكل من الطّيّبات والا بتعاد من المحرّمات . فأمروا أن ينصفوا في شأن الدّيات ويوفوا الحقوق الى أهلها الاّ أن يتنازلوا هم عن بعض حقوقهم .

وأمـروا بالوصيّة قبل الموت حتى يصيب كلّ ذى حقّ حقّه ممّا تركوه من الخير، ولا يهضم القوىّ حقّ الضّعيف ولا يعتدى بعضهم على بعض .

وحـذروا من تبديلها حتى لا يعبث بها من أراد التطاول على حقوق الآخرين ، فيفوت الغرض منها .

اللّهم الاّ اذا كان هناك جنف أو اثم في الوصيّة ، فلا اثم عليهم في اصلاحها ، فانّ الوصيّة في ذاتها لا حرمة لها الاّ اذا كانت تحقّق غرضها ، وكانت محفظة لحقوق من يستحقّها .

وكان هذا الأمر بالوصيّة قبل نزول آية المواريث ، فلمّا نزلت المواريث وعرفت الفرائض تعيّن على المؤمنين التمسّك بها ، فانّ المصلحة من الوصيّة ـ وهى سدّ باب من أبواب أكل المال بالباطل ـ قد تحقّقت بها على أكمل وجه .

ثمّ انّ وجه الكلام في آية القصاص ليس الى ذكر مشروعية مال الدّية كما ذهب اليه أبو حيّان حيث قال :

" فنبّه بمشروعية القصاص على تحريمها (أى تحريم الدّماء) ونبّه على جواز أخذ مال بسببها وأنّه ليس من المال الّذى يؤخذ من غير وجهه . " (١)

وانّما هو الى تحريض المؤمنين على توفية الحقوق الى أهلها وأدائها اليهم باحسان .

وأمّا ما قاله أبو حيّان فهو ممّا تتضمّنه الآية بعموم دلالتها وليس ممّا تستهدفه بعبارتها وسياقها .

وبعد ما انتهينا من بيان نظم هذه الآيات وعرفنا وجه ارتباطها بما قبلها نتوجّه الى ما بعدها .

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٢/٩

نظـــم الآيـــات (١٨٣ ـ ١٨٨)

****

قال تعالى :

* يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون · أيّاما معدودات · فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر · وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين · فمن تطوّع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون ·

شهر رمضان الّذى أنزل فيه القرآن هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان · فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر · يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون · واذا سألك عبادى عنّي فانّي قريب ، أجيب دعوة الدّاع اذا دعان · فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون · أحلّ لكم ليلة الصّيام الرّفث الى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ · علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثمّ أتمّوا الصّيام الى اللّيل ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد · تلك حدود الله فلا تقربوها · كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون · ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال النّاس بالاثم وأنتم تعلمون · *

** * **

قبل أن نبحث موضوع نظم هذه الآيات فيما بينها ، وقبل أن نميط اللّثام عن وجه ارتباطها بما قبلها نودّ أن تكون لنا وقفة عند الآية الثّانية والخامسة من هذه الآيات ، فانّ الآيتين ما زالتا بحاجة الى بحث ودراسة ·

وبدون تلك الدّراسة لا يمكن لنا التوصّل الى الرؤية الصّحيحة لنظم تلك الآيات ·

فنقف أوّلا عند قوله تعالى :

* فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر *

يقول الرازي – رحمه الله – في تأويله :

" فالمراد منه أنّ فرض الصّوم في الأيّام المعدودات انّما يلزم الأصحّاء المقيمين ، فأمّا من كان مريضا أو مسافرا فله تأخير الصّوم عن هذه الأيّام الى أيّام أخر . " (١)

ويقول الزّمخشريّ – رحمه الله – :

" (فعدّة) فعليه عدّة . وقرئ بالنّصب بمعنى فليصم عدّة . وهذا على سبيل الرخصة ، وقيل مكتوب عليهما أن يفطرا ويصوما عدّة (من أيّام أخر) . " (٢)

ويقول القرطبيّ – رحمه الله – :

" للمريض حالتان : احداهما – ألا يطيق الصّوم بحال ، فعليه الفطر واجبا . الثّانية – أن يقدر على الصّوم بضرر ومشقّة ، فهذا يستحبّ له الفطر ولا يصوم الاّ جاهل . قال ابن سيرين : متى حصل الانسان في حال يستحقّ بها اسم المرض صحّ الفطر ، قياسا على المسافر لعلّة السّفر ، وان لم تدع الى الفطر ضرورة . "

ثمّ يقول – رحمه الله – بعد ما ينتهي من ذكر ما قيل في هذا الباب :

" قلت : قول ابن سيرين أعدل شئ في هذا الباب ان شاء الله تعالى . " (٣)

ويقول أبو حيّان – رحمه الله – :

" ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر ﴾ ظاهر اللّفظ اعتبار مطلق المرض بحيث يصدق عليه الاسم . " (٤)

ويزيد – رحمه الله – فيقول :

" ظاهره مطلق المرض بحيث يصدق عليه الاسم . وبه قال ابن سيرين وعطاء والبخاري . ولمعظم الفقهاء تقييدات مضطربة لا يدلّ عليها كتاب ولا سنّة ......

---

(١) التفسير الكبير : ٥/٧٣ (٢) الكشّاف : ١/٣٣٥

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٢/٢٧٦–٢٧٧ (٤) تفسير البحر المحيط : ٢/٣٢

(من أيّام أخر) الجمهور على أنّ في الكلام محذوفا تقديره فأفطر فعدّة أى فالواجب عدّة والظّاهر أن لا حذف وأنّ فرض المريض والمسافر هو العدّة وأنّه لو صام لم يجزه فيجب القضاء ." (١)

ويقول الامام ابن كثير - رحمه الله - :

" أى المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسّفر لما في ذلك من المشقّة عليهما ، بل يفطران و يقضيان بعدّة ذلك من أيّام أخر ." (٢)

ويقول استاذنا الامام سيّد قطب - رحمه الله - :

" وظاهر النّص في المرض والسفر يطلق ولا يحدّد . فأىّ مرض وأىّ سفر يسوغ الفطر، على أن يقضى المريض حين يصحّ والمسافر حين يقيم . وهذا هو الأولى في فهم هذا النّص القرآنيّ المطلق ، والأقرب الى المفهوم الاسلاميّ في رفع الحرج ومنع الضّرر . فليست شدّة المرض ولا مشقّة السفر هى الّتي يتعلّق بها الحكم . انّما هى المرض والسفر اطلاقا ، لارادة اليسر بالنّاس لا العسر . ونحن لا ندرى حكمة الله كلّها في تعليقه بمطلق المرض ومطلق السفر ، فقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله ويجهلها البشر في المرض والسفر ، وقد تكون هناك مشقّات أخرى لا تظهر للحظتها أو لا تظهر للتقدير البشرى .. وما دام الله لم يكشف عن علّة الحكم فنحن لا نتأوّلها ، ولكن نطيع النّصوص ولو خفيت علينا حكمتها . فوراءها قطعا حكمة . وليس من الضرورى أن نكون نحن ندركها .

يبقى أنّ القول بهذا يخشى أن يحمل المترخّصين على شدّة الترخص ، وأن تهمل العبادات المفروضة لأدنى سبب . ممّا جعل الفقهاء يتشدّدون و يشترطون . ولكنّ هذا - في اعتقادى - لا يبرّر التقييد فيما أطلقه النّص فالّدين لا يقود النّاس بالسلاسل الى الطّاعات ، انّما يقودهم بالتقوى . وغاية هذه العبادة خاصّة هى التقوى . والّذى يفلت من أداء الفريضة

---

(١) تفسير النّهر الماد من البحر لأبي حيّان ، المطبوع على هامش " تفسير البحر المحيط " : ٢/٣١ - ٣٢ (٢) تفسير ابن كثير : ١/٢١٤

تحت ستار الرخصة لا خير فيه منذ البدء ، لأنّ الغاية الأولى من أداء الفريضة لا تتحقّق . وهذا الدّين دين الله لا دين النّاس . والله أعلم بتكامل هذا الدّين ، بين مواضع الترخّص و مواضع التشدّد ، وقد يكون وراء الرخصة في موضع من المصلحة ما لا يتحقّق بدونها . بل لا بدّ أن يكون الأمر كذلك . ومن ثمّ أمر رسول الله ـ صلّى الله عليه و سلّم ـ أن يأخذ المسلمون برخص الله الّتي رخّصها لهم . واذا حدث أن فسد النّاس في جيل من الأجيال فانّ اصلاحهم لا يتأتّى من طريق التّشدّد في الأحكام ، ولكن يتأتّى من طريق اصلاح تربيتهم وقلوبهم واستحياء شعور التّقوى في أرواحهم . واذا صحّ التشدّد في أحكام المعاملات عند فساد النّاس كعلاج رادع و سدّ للذرائع ، فانّ الأمر في الشعائر التعبّديّة يختلف ، اذ هي حساب بين العبد والرّبّ ، لا تتعلّق به مصالح العباد تعلّقا مباشرا كأحكام المعاملات الّتي يراعى فيها الظّاهر . والظّاهر في العبادات لا يجدى ما لم يقم على تقوى القلوب . واذا وجدت التقوى لم يتفلّت متفلّت ، ولم يستخدم الرخصة الا حيث يرتضيها قلبه ، ويراها هي الأولى ، ويحسّ أنّ طاعة الله في أن يأخذ بها في الحالة الّتي يواجهها . أمّا تشديد الأحكام جملة في العبادات أو الميل الى التضييق من اطلاق الرخص الّتي أطلقتها النّصوص ، فقد ينشئ حرجا لبعض المتحرّجين ، في الوقت الّذى لا يجدى كثيرا في تقويم المتفلّتين .. والأولى على كلّ حال أن نأخذ الأمور بالصّورة الّتي أرادها الله في هذا الدّين . فهو أحكم منّا وأعلم بما وراء رخصه و عزائمه من مصالح قريبة و بعيدة .. وهذا هو جماع القول في هذا المجال . " (١)

ويزيد ـ رحمه الله ـ فيقول :

" ولكنّ الانطباع الأخير في الحسّ في أمر الصّوم في السفر هو استحباب الفطر ، دون تقيّد بحصول المشقّة بالفعل .. أمّا المرض فلم أجد فيه شيئا لأقوال الفقهاء ، والظّاهر أنّه مطلق في كلّ ما يثبت له وصف المرض

---

(١) في ظلال القرآن : ١/ ١٦٨ ـ ١٦٩

بلا تحديد في نوعه وقدره ولا خوف شدّته، على وجوب القضاء يوما بيوم في المرض والسفر، من غير موالاة في أيّام القضاء على الرأى الأرجح." (١)

هكذا نرى المفسّرين - رحمهم الله - القدامى منهم والمحدثين، يؤوّلون الآية وهم يتصوّرون أنّها ما جاءت الاّ لترخّص للمسافرين والمرضى في الافطار عن الصّيام وقضائه في أيّام أخر.

ثمّ منهم من رخّص في الافطار بشروط، ومنهم من بالغ في هذا الترخيص وأطلقه اطلاقا، وأبى أن يقيّده بتلك الشروط، أو بأىّ شرط من تلك الشروط، ظنّا منه أنّ هذا تقييد لما أطلقه النّص القرآنيّ، وهو أمر لا يسوغ و يتنافى مع طبيعة هذا الدّين.

وهذا التصوّر في ذاته تصوّر لا نستريح اليه. ونراه نتيجة طبيعيّة لقلّة التروّى في سياق الكلام.

ولو أنّهم - رحمهم الله - تأمّلوا في سياق الكلام و تمسّكوا بالنّظام لذهبوا الى غير ما ذهبوا اليه، فانّ الحديث في هذه الآية يتركّز على اكمال عدّة الصّيام، لا على الافطار عن الصّيام.

وبيانه أنّ الله تعالى كتب على المؤمنين أن يصوموا أيّاما معدودات الاّ أنّه قد يكون من المرضى والمسافرين من لا يقدر على الصّوم لشدّة المرض أو صعوبة السفر، ويفوته الصّوم على رغم أنفه في تلك الأيّام المعدودات، فيأتي التوجيه في حقّهم أنّهم ان لم يتمكّنوا من الصوم أو من مواصلة الصّوم في تلك الأيّام المعدودات - أى الأيّام الموقّتة بعدد معلوم - فلا يفوتنّهم أن يكملوا تلك العدّة من أيّام أخر اذا قدروا عليه.

فالاهتمام كلّه منصبّ على توصية المرضى والمسافرين باكمال عدّة الصّيام اذا فاتهم شيء منه بسبب المرض أو السفر، لا على الترخيص لهم في الافطار، أو الزامهم بالافطار و قضائه في أيّام أخر.

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧١/١

وهذا الأمر، وان كان واضحا بيّنا ، ولم يكن بحاجة الى دليل ، الاّ أننا نذكر هنا بعض الأدلّة ، حتى يبلغ الموضوع غايته من الوضوح ، وحتى يطمئنّ اليه كلّ من كان من أمره في شكّ .

الدّليل الأوّل :

انّ هذا الموضوع جاء متكرّرا في هذه الآيات حيث قال تعالى:

﴿ أيّاما معدودات . فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر . ﴾

ثمّ قال تعالى في الآية التالية بعد ما نوّه بشأن شهر رمضان :

﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر . ﴾

ومعلوم أنّ الرخص ـ بطبيعتها ـ لا تحتاج الى تكرار، فانّها تكون سهلة سائغة ، والنّفوس تكون اليها مسرعة و فيها راغبة . بخلاف العزائم فانّها تكون مرّة المذاق ، ثقيلة على النفوس . والطّبائع لا تقبل اليها الاّ أن يكرّر لها النّداء .

ولذلك نرى القرآن مليئا بتكرار العزائم ، ولكن لا نجد شاهدا واحدا لتكرار الرخص .

الدّليل الثّاني :

انّ الله تعالى خصّص لبيان الرخص آية جامعة في نهاية الحديث حيث قال تعالى : ﴿ أحلّ لكم ليلة الصّيام ... الآية ﴾ فجمع الله تعالى في هذه الآية الكريمة مارخّص فيه لهذه الأمّة بخصوص الصّيام . فلو كانت تلك الآية ترمي الى الترخيص في الافطار لكانت أولى بأن توضع في جنب هذه الآية أو تدمج فيها .

الدّليل الثّالث :

نرى السياق هنا قد ركّز على اكمال العدّة حيث ورد ذكره في آيتين اثنتين (١٨٤ ، ١٨٥) أربع مرّات .

مرّتين في الآية الأولى : ١ـ أيّاما معدودات ٢ـ فعدّة من أيّام أخر
ومرّتين في الآية الثانية : ١ـ فعدّة من أيّام أخر ٢ـ ولتكملوا العدّة
فالتأويل الّذى يتلاءم مع هذه الظّاهرة هو أنّ الله تعالى أمر المؤمنين أن يصوموا أيّاما معدودات ـ أى الأيّام الموقّتة بعدد معلوم ، وهى شهر رمضان ـ ويكملوا عدّتها . فاذا لم يتمكّنوا من اكمال عدّتها في أوانها بسبب المرض أو السفر فليكملوها في أيّام أخر .

وهذا المفهوم يقتضي ألا يفطر المريض أو المسافر في شهر رمضان الاّ أن يكون مضطرّا اليه . فاذا اضطرّ اليه فعليه عدّة من أيّام أخر.

فالأصل هنا اكمال العدّة وليس الترخيص بسبب المرض أو السفر.

الدّليل الرّابع :

افترض الله علينا صيام شهر رمضان ، وجعله احتفالا بنزول القرآن . فالمفروض أن يشترك في هذا الاحتفال جميع المؤمنين . ولا يتخلّف عنه الاّ من حبسه مرض أو سفر ولم يكن في وسعه أن يشترك فيه .

أمّا أن يكون هناك تحريض أو تشجيع أو توجيه للترخّص في الافطار باسم المرض أو السفر فهذا لا يتناسب مع هذه المناسبة ، ولا يتناسب مع تلك المشاعر الحارّة الّتي يريدها الله لكتابه في قلوب المؤمنين .

وعلى هذا جاء الأمر الالهي أن يصوم هذا الشهر كلّ من شهده ، أمّا من اضطرّ الى الافطار بسبب مرض أو سفر فلا جناح عليه ، فانّ الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر ، الاّ أنّه ملزم ، اذا زال عنه الحرج ، بأن يكمل العدّة .

فالجميع مكلّفون باجلال هذا القرآن و باحتفال هذا الشهر بأن يكملوا هذه العدّة ، إمّا في أوانها أو في غير أوانها اذا لم يتمكّنوا من إكمالها في أوانها .

الدّليل الخامس :

لو كانت هذه الآية للترخيص في الافطار ، وكان الافطار في السفر

أو المرض أمراً مندوباً اليه لكان أولى الناس بتطبيقه النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وأصحابه ، بينما الروايات الصحيحة تنقل الينا أنّ النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - صام في السفر وصام معه أصحابه ولم يلجؤوا الى الافطار الا بعد ما اضطرّوا اليه .

فقد روى الشيخان عن ابن عبّاس - رضى الله عنهما - قال: خرج رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - من المدينة الى مكّة ، فصام حتّى بلغ عسفان ، ثمّ دعا بماء فرفعه الى يده ليراه النّاس فأفطر حتى قدم مكّة ، وذلك في رمضان . (١)

وفي رواية لمسلم عن جابر - رضي الله عنه - أنه دعا بقدح من ماء بعد العصر . (٢)

فافطاره - عليه السلام - بعد العصر ان دلّ على شيء فانّما يدلّ على شدّة الموقف ، وأنّه - عليه السلام - ما لجأ اليه الاّ بعدما اضطرّ اليه ، والاّ فقد كان - عليه السلام - أحرص ما يكون على اكمال الصّوم . ولذلك ظلّ باقياً على صومه الى صلاة العصر .

ولذلك نرى الامام مسلم - رحمه الله - قد ذكر هذا الحديث في باب سمّاه : (باب جواز الصّوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية اذا كان سفره مرحلتين فأكثر ، وأنّ الأفضل لمن أطاقه بلا ضرر أن يصوم ، ولمن يشقّ عليه أن يفطر) .

وأيضاً روى الشيخان عن أبي الدّرداء - رضي الله عنه - قال : خرجنا مع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - في شهر رمضان في حرّ شديد ، حتى ان كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدّة الحرّ . وما فينا صائم الاّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - وعبد الله بن رواحة . (٣)

---

(١) متّفق عليه . واللّفظ للبخارى ، انظر كتاب الصّوم ، باب ٣٨ من أفطر في السفر ليراه النّاس .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الصّيام : باب جواز الصّوم والفطر في شهر رمضان للمسافر .

(٣) متفق عليه . واللّفظ لمسلم . انظر كتاب الصّيام : باب التخيير في الصّوم والفطر في السفر .

وهذا الحديث أيضا يدلّ على حرص النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - وأصحابه على اكمال الصّوم مع بعد الشقّة وفداحة المشقّة .

ثمّ لم يعد هذا أمر اجتهاد واستنباط ، فقد صرّح النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - بهذا الأمر حيث قال :

(من كانت له حمولة تأوى الى شبع فليصم رمضان حيث أدركه)(١)

وهكذا كان أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يفعلون . فهم ما كانوا يفطرون في أسفارهم ولا غزواتهم الا اذا ضعفوا عن الصّيام . يقول أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - :

(كنّا نغزو مع رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - في رمضان فمنّا الصّائم ومنّا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصّائم . يرون أنّ من وجد قوّة فصام ، فانّ ذلك حسن . ويرون أنّ من وجد ضعفا فأفطر فانّ ذلك حسن .)(٢)

فيفيد هذا الحديث أنّ الأفضل للقوىّ هو الصّوم ويجوز للضّعيف أن يفطر ولا بأس عليه .

ولا يعزّ علينا أن نحمل الأحاديث الأخر أيضا هذا المحمل ، وان كانت تبدو في ظاهرها على خلاف ذلك .

*** ** ***

ولنقبل الآن الى الشطر الثّاني من الآية ، وهو قوله تعالى :

﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين . فمن تطوّع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون . ﴾

الوجوه المأثورة في تأويل الآية :

لقد ذكر الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويله أربعة وجوه فقال :

"وأمّا قوله : ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ فانّ قراءة كافّة المسلمين (وعلى الّذين يطيقونه) وعلى ذلك خطوط مصاحفهم ، وهى

---

(١) مختصر سنن أبي داود : كتاب الصّيام ، باب فيمن اختار الصّيام في السفر ، رقم الحديث (٢٣٠٣) .(٢) صحيح مسلم :كتاب الصّيام ،باب جواز الصّوم والفطر في شهر رمضان للمسافر .

القراءة التي لا يجوز لأحد من أهل الاسلام خلافها لنقل جميعهم تصويب ذلك قرنا عن قرن ، وكان ابن عبّاس يقرؤها فيما روى عنه (وعلى الذين يطوّقونه) .

ثمّ اختلف قرّاء ذلك (وعلى الذين يطيقونه) في معناه ،

١ ــ فقال بعضهم : كان ذلك في أوّل ما فرض الصّوم ، وكان من أطاقه من المقيمين صامه ان شاء ، وان شاء أفطره وافتدى ، فأطعم لكلّ يوم أفطره مسكينا حتى نسخ ذلك .

٢ ــ وقال آخرون : بل كان قوله : (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) حكما خاصّا للشيخ الكبير والعجوز اللّذين يطيقان الصّوم كان مرخّصا لهما أن يفديا صومهما باطعام مسكين و يفطرا ، ثمّ نسخ ذلك بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فلزمهما من الصّوم مثل الذى لزم الشابّ الاّ أن يعجزا عن الصّوم فيكون ذلك الحكم الذى كان لهما قبل النّسخ ثابتا لهما حينئذ بحاله .

٣ ــ وقال آخرون : ممّن قرأ ذلك (وعلى الذين يطيقونه) لم ينسخ ذلك ولا شيء منه ، وهو حكم مثبت من لدن نزلت هذه الآية الى قيام الساعة ، وقالوا : انّما تأويل ذلك على الذين يطيقونه في حال شبابهم و حداثتهم ، وفي حال صحّتهم وقوّتهم اذا مرضوا وكبروا ، فعجزوا من الكبر عن الصّوم ، فدية طعام مسكين ، لا أنّ القوم كان رخّص لهم في الافطار وهم على الصّوم قادرون اذا افتدوا .

٤ ــ وقرأ ذلك آخرون (وعلى الذين يطوّقونه فدية طعام مسكين) وقالوا : انّه الشيخ الكبير والمرأة العجوز اللّذان قد كبرا عن الصّوم ، فهما يكلفان الصّوم ولا يطيقانه ، فلهما أن يفطرا و يطعما مكان كلّ يوم أفطراه مسكينا ، وقالوا : الآية ثابتة الحكم منذ أنزلت لم تنسخ ، وأنكروا قول من قال انّها منسوخة . " (١)

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٣٢/٢ ــ ١٣٧

ولقد أضاف الامام الرازي - رحمه الله - الى تلك الوجوه وجها خامسا ، فقال :

" اختلفوا في المراد بقوله ﴿ وعلى الّذين يطيقونه ﴾ على ثلاثة أقوال ، وذكر منها :

٥ - " انّ هذا راجع الى المسافر والمريض وذلك لأنّ المسافر والمريض قد يكون منهما من لا يطيق الصّوم ومنهما من يطيق الصّوم .

وأمّا القسم الأوّل فقد ذكر الله حكمه في قوله ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر ﴾

وأمّا القسم الثّاني وهو المسافر والمريض اللّذان يطيقان الصّوم فاليهما الاشارة بقوله ﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية ﴾ فكأنّه تعالى أثبت للمريض والمسافر حالتين في احداهما يلزمه أن يفطر وعليه القضاء وهى حال الجهد الشديد لو صام ، (والثانية) أن يكون مطيقا للصّوم لا يثقل عليه فحينئذ يكون مخيّرا بين أن يصوم وبين أن يفطر مع الفدية ."(١)

تلك خمسة وجوه مأثورة في تأويل الآية .

اختيار الامام ابن جرير :

ويقول الامام ابن جرير - رحمه الله - بعد ما ينقل الوجوه الأربعة الأولى :

" وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال (وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين) منسوخ بقول الله تعالى ذكره (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) لأنّ الهاء الّتي في قوله (وعلى الّذين يطيقونه) من ذكر الصّيام .

ومعناه : وعلى الّذين يطيقون الصّيام فدية طعام مسكين ، فاذا كان ذلك كذلك ، وكان الجميع من أهل الاسلام مجمعين على أنّ من كان مطيقا من الرجال الأصحّاء المقيمين غير المسافرين صوم شهر رمضان فغير جائز له الافطار فيه والافتداء منه بطعام مسكين ، كان معلوما أنّ الآية منسوخة ،

---

(١) التفسير الكبير : ٧٩/٥

هذا مع ما يؤيّد هذا القول من الأخبار الّتي ذكرناها آنفا عن معاذ بن جبل وابن عمر و سلمة بن الأكوع ،من أنّهم كانوا بعد نزول هذه الآية على عهد رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في صوم شهر رمضان بالخيار بين صومه و سقوط الفدية عنهم ، وبين الافطار والافتداء من افطاره باطعام مسكين لكلّ يوم ، وأنّهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فألزموا فرض صومه و بطل الخيار والفدية ."(١)

هذا هو اختيار الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ من بين تلك الوجوه الواردة في تأويل الآية . والمفسّرون الّذين جاءوا من بعده ركنوا ـ في أغلبهم ـ الى هذا التأويل .

تقويم رأى الامام ابن جرير :

ولكن يتوجّه الى هذا التأويل اعتراض لا يمكن أن يغمض عنه . وهو ـ كما يقول الامام الرازى ـ رحمه الله ـ :

" انّ القائلين بأنّ هذه الآية منسوخة اتّفقوا على أنّ ناسخها آية شهود الشهر ، وذلك غير جائز ، لأنّه تعالى قال في آخر تلك الآية: ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ولو كانت الآية ناسخة لهذا لما كان قوله ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ لائقا بهذا الموضع لأنّ هذا التقدير أوجب الصّوم على سبيل التضييق ، ورفع وجوبه على سبيل التخيير ، فكان ذلك رفعا لليسر واثباتا للعسر فكيف يليق به أن يقول : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ "(٢)

ثمّ انّ (على) اذا جاءت على مثل هذا الأسلوب ، فانّها تدلّ على معنى الوجوب دون التخيير ، بينما التأويل الّذى ذهب اليه الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ يعدل بنا عن هذا المعنى الى معنى التخيير والترخيص .

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٣٩/٢ ـ ١٤٠
(٢) التفسير الكبير : ٨٠/٥

تقويم سائر الوجوه :

وهذا الاعتراض كما يتوجّه الى هذا التأويل ، يتوجّه الى سائر الوجوه التي ذكرها الامام ابن جرير - رحمه الله - أو الامام الرازى - رحمه الله - فانّ تلك الوجوه كلّها متشابهة من حيث انّها تفسّر الآية على معنى التخيير أو الترخيص ، الّذى هو خلاف الأصل في معنى هذه الكلمة ٠

ثمّ ليس في الآية ما يدلّ على أنّها وردت في شأن الشيخ الكبير أو المرأة العجوز ومن في حكمهما ٠ فتخصيصها بهؤلاء - كما نرى في الوجه الثّاني والثّالث والرّابع - تخصيص بدون مخصّص ٠

وأمّا القول بأنّ (يطيقونه) بمعنى لا يطيقونه ، أو يتجشّمونه ، أو يتكلّفونه ، أو يستطيعونه بجهد أو أقصى جهد ، وما شابه ذلك ، ممّا وردت به كتب التفسير(١) ، فهو ممّا لم نجد له شاهدا في القرآن ولا في كلام العرب ، بل الأمر على العكس ، فانّ اطاقة الفعل يعني التمكّن منه والقدرة عليه بكلّ سهولة ويسر ٠ يقول الفيروزآبادى :

(الاطاقة : القدرة على الشيء) (٢)

ويقول الجوهرى :

(الطّوق : الطّاقة ٠ وقد أطقت الشيء اطاقة ، و هو في طوقي أو وسعي ٠ وطوّقني الله أداء حقّك أى قوّاني ٠) (٣)

والشواهد على هذا المعنى كثيرة متوفّرة ٠

منها ما رواه أبو هريرة عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أنّه قال : (ايّاكم والوصال) قالوا : فانّك تواصل يا رسول الله !

قال : (انّكم لستم في ذلك مثلي ٠ انّي أبيت يطعمني ربّي ويسقيني ٠ فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، وفي رواية : فاكلفوا مالكم به طاقة) (٤)

---

(١) انظر مثلا - تفسير الطّبرى : ١٣٨/٢ - ١٣٩ ، الكشّاف : ٣٣٥/١ ، المحرّر الوجيز : ٥١٢/١ ، في ظلال القرآن : ١٧١/١

(٢) القاموس المحيط : في مادّة (ط ، و ، ق)

(٣) الصّحاح للجوهرى : في مادّة (ط ، و ، ق)

(٤) صحيح مسلم : كتاب الصيام : باب النهى عن الوصال في الصّوم ٠

ومنه قول سيّدنا أبي بكر الصّدّيق :

(يا أيّها النّاس : انّما أنا مثلكم ، وانّي لا أدرى لعلّكم ستكلّفوني ماكان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يطيق .) (١)

ومنه قول سيّدنا عمر بن الخطّاب - رضى الله عنه - :

(لو أطيق الأذان مع الخِلِّيفَى - أى الخلافة - لأذنت) (٢)

ونرى أنّه ما فسّر من فسّر (يطيقونه) بهذا المعنى الا لأنّه خفى عليه الوجه الصحيح . ولو أنّه استطاع تأويل الآية بدون أن يلجأ الى هذا القول لما لجأ اليه .

ونفس الاعتراض يتوجّه الى الوجه الخامس فانّ تخصيص الآية بالمرضى والمسافرين بدون أن يكون هناك دليل يلجئنا اليه ، قول لا يخلو من ضعف .

الوجه الصّحيح في تأويل الآية :

اذا فما هو الوجه الصحيح في تأويل الآية ؟

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو يذكر الوجوه الواردة في تأويلها :

" وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أنّ معنى قوله (وعلى الّذين يطيقونه) وعلى الّذين يطيقون الطّعام . وذلك لتأويل أهل العلم مخالف . " (٣)

وقال الفرّاء :

" الضمير في " يطيقونه " يجوز أن يعود على الصّيام أى وعلى الّذين يطيقون الصّيام ، أن يطعموا اذا أفطروا ، ثمّ نسخ بقوله : (وأن تصوموا) ويجوز أن يعود على الفداء ، أى وعلى الّذين يطيقون الفداء فدية . " (٤)

(١) تاريخ الطّبرى : ٣/ ٢٢٤ .
(٢) الصحاح للجوهرى : (خ ، ل ، ف)
(٣) تفسير الطّبرى : ١٤١/٢ (٤) تفسير القرطبي : ٢٨٨/١

وقال ابن عطيّة :

" والضميرفي (يطيقونه) عائد على الصّيام وقيل على الطّعام وهو قول ضعيف . " (١)

ونحن نرى هذه الأقوال أقرب شيءٍ في تأويل الآية .

ولقد قال ابن عطيّة : (وهو قول ضعيف) ولكنّه ـ رحمه الله ـ اكتفى بهذا الحكم المبهم ولم يبيّن لنا ما فيه من الضّعف .

والحقّ أنّه ليس في هذا التأويل ما يستوجب هذا الحكم .

أقصى ما يقال فيه ما قاله الجصّاص ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

" وقوله تعالى : (وعلى الّذين يطيقونه) قد اختلف في ضمير كنايته فقال قائلون :

هو عائد على الصّوم ، وقال آخرون : الى الفدية ، والأوّل أصحّ لأنّ مظهره قد تقدّم والفدية لم يجر لها ذكر والضّمير انّما يكون لمظهر متقدّم . ومن جهة أخرى ، انّ الفدية مؤنّثة والضّمير في الآية للمذكّر في قوله : (يطيقونه) (٢)

ونحن نرى أنّ ما احتجّ به الجصّاص ـ رحمه الله ـ لا يغضّ من قيمة هذا التأويل ، فانّ عود الضّمير الى متأخّر لم يتقدّم له ذكر ليس عيبا في الكلام ، وخاصّة اذا كان ذلك المتأخّر مقدّم الرتبة .

وقد أجاز ذلك ابن جنّي وابن عقيل وأجازه قبلهما الأخفش من البصريّين وأبو عبد الله الطّوال من الكوفيّين . (٣)

ولذلك شواهد في القرآن وفي كلام العرب .

فمنه قوله تعالى : ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ (٤)

ومنه قولهم : (في بيته يؤتى الحكم) (٥)

---

(١) المحرّر الوجيز : ٥١٢/١ (٢) أحكام القرآن للجصّاص : ١٧٩/١

(٣) انظر المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل : ١١٢/١ ـ ١١٣

(٤) سورة طه : ٦٧

(٥) المستقصى في أمثال العرب للزمخشري : ١٨٣/٢

ومنه قول جزء بن ضرار وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام :

أتاني فلم أسرر به حين جاءني * حديث بأعلى القنّتين عجيب (١)

ومنه ما ذكره ابن عقيل في كتابه " شرح التسهيل " :

شرّيوميها وأغواه لها * ركبت عنز بحدج جملا (٢)

وأمّا قوله : " انّ الغدية مؤنّثة والضمير في الآية للمذكّر " فنظيره قوله تعالى قبل هذه الآية بآيتين ، حيث قال تعالى :

﴿ فمن بدّله بعد ما سمعه فانّما اثمه على الّذين يبدّلونه انّ الله سميع عليم . ﴾

فان صحّ أن يرجع ضمير المذكّر في قوله تعالى : ﴿ فمن بدّله ﴾ الى الوصيّة ، فأىّ اشكال في رجع ضمير المذكّر في (يطيقونه) الى (الفدية) ؟

وأمّا قول ابن جرير - رحمه الله - : (وذلك لتأويل أهل العلم مخالف) فهو لا يعدو أن يكون دعوى لا تساندها بيّنة ، أو حكما لا يعضده دليل .

وذلك لأنّه ليس هناك تأويل موحّد مجمع عليه عند أهل العلم ، حتّى يقال لغيره ، انّه لتأويل أهل العلم مخالف . واذا جاز أن تكون هناك أربعة وجوه في التأويل ، وهى كلّها ليست مخالفة لتأويل أهل العلم ، فلماذا لا يجوز أن يكون هناك وجه خامس أو سادس ؟ واذا كان هذا الوجه يعتمد على دليل علميّ متين فكيف يعتبر مخالفا لتأويل أهل العلم ؟

(١) الحماسة لأبي تمّام : ٢٠١/١ ، رقم القصيدة (١١٧) .
(٢) شرح التسهيل : ١١٢/١ .
وعنز في قوله : (ركبت عنز) امرأة من طسم ، وطسم قبيلة من عاد كانوا وانقرضوا . ويقال : ان عنزا أخذت سبيّة ، فحملوها في حدج بالكسر ، وهو مركب من مراكب النّساء . وألطفوها بالقول والفعل . فقيل : هذه أكرم السّباء . فقالت : هذا شرّيوميّ ، أى حين صرت أكرم السّباء . والشاهد في قوله : (شرّيوميها) أى ركبت عنز بحدج جملا في شرّ يوميها .

فالأصل في الموضوع هو الدّليل والبرهان . والدّليل والبرهان هو الّذى يكون مقياساً لضعف هذا القول أو قوّته .

فلننظر في هذا التأويل من هذه النّاحية .

وأمّا نحن فقد قلبنا هذا التأويل ظهراً لبطن ، واختبرناه من ناحية الدّليل والبرهان ، فوجدناه أحكم شيءٍ في هذا الباب .

وبيانه أنّه يحقّ على الّذين يطيقون الطّعام ، وهم الأغنياء والموسرون ، أن يضمّوا الى الصيام اطعام مسكين . فهم مطالبون بالصيام ومطالبون في نفس الوقت باطعام مسكين .

ونرى أنّ ابن شهاب أيضاً كان يرى هذا الرأى حيث روى ابن جرير قال حدّثني المثنّى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : حدّثني اللّيث ، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب (فمن تطوّع خيراً فهو خيرله) يريد أنّ من صام مع الفدية فهو خيرله . (١)

ومن هنا قال - عليه الصّلاة والسلام - عن رمضان :"انّه شهر المواساة " . (٢)

وكان - عليه الصّلاة والسلام - أجود ما يكون في شهر رمضان . (٣)

وكان - عليه الصّلاة والسلام - يرغّب النّاس في هذا الشهر في الانفاق . وكان يحثّهم على الجود والمواساة واطعام الطّعام مستخدماً في ذلك مختلف الأساليب ، فكان يقول - مثلا - :

(من فطّر صائماً كان له مثل أجره غير أنّه لا ينقص من أجر الصّائم شيئاً .) (٤)

الى غير ذلك من عشرات الأحاديث الّتي وردت في هذا الباب .

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٤٣/٢

(٢) صحيح ابن خزيمة : باب فضائل شهر رمضان ان صحّ الخبر: ١٩١/٣ رقم الحديث (١٨٨٧) (٣) صحيح مسلم :كتاب الفضائل ، باب كان النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أجود النّاس بالخير. رقم (٢٣٠٨)

(٤) سنن الترمذى : باب ماجاء في فضل من فطّر صائماً . ١٧١/٣ رقم الحديث (٨٠٧) .

ولعلّ الحكمة في الحثّ على اطعام المسكين مع الحثّ على اكمال الصّيام هي أنّ هذا الاطعام سيكون عونا للمرء على القيام بمهمّة الصّيام أحسن قيام ، ويهيّئ نفسه لاستقبال الخيرات والبركات الّتي يفيض بها شهر رمضان .

فأمر المؤمنون أوّلا أن يصوموا أيّاما معدودات وأمروا أن يكملوا عدّة الصّيام . ثمّ خصّ الأغنياء منهم بأمر آخر وهو أن يجمعوا مع الصّيام اطعام مسكين . فهذا كما يعدّهم لتلقّي النّفحات الالهيّة في رمضان ويعدّهم للاستكثار منها ، يساعد اخوانهم الفقراء ويقوّيهم على صيام رمضان .

وهذا أمر دون أمر ، وليس كالأمر الأوّل كما لا يخفى .

وعلى هذا ، فهذه الآية محكمة باقية بحكمها غير منسوخة كما ذهب اليه الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ وذهب معه ناس آخرون .

<u>السرّ في تكرار الشطر الأوّل دون الثّاني من الآية :</u>

وهنا يثور سؤال : ان كان هذا الحكم باقيا فلماذا لم يكرّر مثلما كرّر حكم اكمال العدّة ؟

والجواب أنّ هناك فرقا بين الواجبين ، فانّ الكلام هنا مركّز على واجب الصيام ، وهو الموضوع الرئيسي في تلك الآيات ، بخلاف واجب الاطعام فانّه ألحق به الحاقا ، ليكون عونا على أداء واجب الصّيام ، وليهيّئ النّفس للقيام به أحسن قيام .

اضافة الى ذلك أنّه واجب اضافيّ وليس واجبا كواجب الصّوم .

فأراد السياق أن ينبّه بنظمه على هذا الفرق كما أراد أن يركّز على ما هو أثقل على النّفس وأشقّ .

وهذا التأويل يريحنا ـ والحمد لله ـ من تلك الاشكالات الّتي ترد على غيره من وجوه التأويل .

اضافة الى ذلك أنّه أكثر روعة وأكثر حيوية من غيره ممّا اطّلعنا عليه . فلله الحمد وله الشكر على ما هدانا اليه .

** * **

والآن نتوجّه الى الآية الخامسة من هذه الفقرة ، وهي قوله تعالى:

﴿ أحلّ لكم ليلة الصّيام الرفث الى نسائكم . هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ . علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ثمّ أتمّوا الصّيام الى اللّيل ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد . تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون . ﴾

مذهبان في تأويل الآية :

للنّاس في تأويل الآية مذهبان ، كما ذكره الامام الرازي - رحمه الله - حيث قال :

" ذهب جمهور المفسّرين الى أنّ في أوّل شريعة محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - كان الصّائم اذا أفطر حلّ له الأكل والشرب والوقاع بشرط أن لا ينام وأن لا يصلّي العشاء الأخيرة . فاذا فعل أحدهما حرم عليه هذه الأشياء ثمّ انّ الله تعالى نسخ ذلك بهذه الآية .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : هذه الحرمة ما كانت ثابتة في شرعنا البتّة . بل كانت ثابتة في شرع النّصارى . والله تعالى نسخ بهذه الآية ما كان ثابتا في شرعهم . " (1)

حجج الجمهور :

ثمّ ذكر الامام الرازي - رحمه الله - الحجج الّتي احتجّ بها الجمهور لقولهم ، وهي كما يلي :

" الحجّة الأولى : أنّ قوله تعالى ﴿ كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم ﴾ يقتضي تشبيه صومنا بصومهم ، وقد كانت هذه الحرمة ثابتة في صومهم ، فوجب بحكم هذا التشبيه أن تكون ثابتة أيضا في صومنا ، واذا ثبت أنّ الحرمة كانت ثابتة في شرعنا ، وهذه الآية ناسخة لهذه الحرمة ، لزم أن تكون هذه الآية ناسخة لحكم كان ثابتا في شرعنا .

---

(1) التفسير الكبير : ١٠٣/٥

الحجّة الثّانية : التمسّك بقوله تعالى (علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم) ولو كان ذلك حلا لا لهم لما كان بهم حاجة الى أن يختانوا أنفسهم .

الحجّة الثّالثة : التمسّك بقوله تعالى: (أحلّ لكم ليلة الصّيام الرفث الى نسائكم) ولو كان هذا الحلّ ثابتا لهذا لأمّة من أوّل الأمر لم يكن لقوله (أحلّ لكم) فائدة .

الحجّة الرابعة : قوله تعالى: (فتاب عليكم وعفا عنكم) ولولا أنّ ذلك كان محرّما عليهم وأنّهم أقدموا على المعصية بسبب الا قدام على ذلك الفعل لما صحّ قوله (فتاب عليكم وعفا عنكم) .

الحجّة الخامسة : قوله تعالى: (فالآن باشروهنّ) ولو كان الحلّ ثابتا قبل ذلك كما هو الآن لم يكن لقوله (فالآن باشروهنّ) فائدة .

الحجّة السّادسة : هي أنّ الروايات المنقولة في سبب نزول هذه الآية دالّة على أنّ هذه الحرمة كانت ثابتة في شرعنا . "

حجج أبي مسلم :

ثمّ ذكر الامام الرازي - رحمه الله - الحجج الّتي احتجّ بها أبومسلم لقوله ، وردّ بها على حجج الجمهور فقال :

" أمّا الحجّة الأولى فضعيفة لأنّا بيّنّا أنّ تشبيه الصوم بالصوم يكفي في صدقه مشابهتهما في أصل الوجوب .

وأمّا الحجّة الثّانية فضعيفة أيضا لأنّا نسلّم أنّ هذه الحرمة كانت ثابتة في شرع من قبلنا ، فقوله (أحلّ لكم) معناه أنّ الّذي كان محرّما على غيركم فقد أحلّ لكم .

وأمّا الحجّة الثّالثة فضعيفة أيضا . وذلك لأنّ تلك الحرمة كانت ثابتة في شرع عيسى - عليه السلام - وأنّ الله تعالى أوجب علينا الصّوم ولم يبيّن في ذلك الايجاب زوال تلك الحرمة فكان يخطر ببالهم أنّ تلك الحرمة كانت ثابتة في الشرع المتقدّم ولم يوجد في شرعنا ما دلّ

على زوالها فوجب القول ببقائها ، ثمّ تأكّد هذا الوهم بقوله تعالى: (كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم) فانّ مقتضى التشبيه حصول المشابهة في كلّ الأمور ، فلمّا كانت هذه الحرمة ثابتة في الشرع المتقدّم وجب أن تكون ثابتة في هذا الشرع ، وان لم تكن حجّة قويّة الاّ أنّها لا أقلّ من أن تكون شبهة موهمة فلأجل هذه الأسباب كانوا يعتقدون بقاء تلك الحرمة في شرعنا فلا جرم شدّدوا وأمسكوا عن هذه الأمور فقال الله تعالى : ﴿ علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ وأراد به تعالى النّظر للمؤمنين بالتخفيف لهم بما لولم تتبيّن الرخصة فيه لشدّدوا وأمسكوا عن هذه الأمور ونقصوا أنفسهم من الشهوة، ومنعوها من المراد . وأصل الخيانة النقص ، وخان واختان وتخوّن بمعنى واحد ، كقولهم : كسب واكتسب وتكسّب ، فالمراد من الآية : علم الله أنّه لولم يتبيّن لكم احلال الأكل والشرب والمباشرة طول اللّيل أنّكم كنتم تنقصون أنفسكم شهواتها وتمنعونها لذاتها ومصلحتها بالامساك عن ذلك بعد النّوم كسنّة النّصارى .

وأمّا الحجّة الرابعة :فضعيفة لأنّ التوبة من العباد الرجوع الى الله تعالى بالعبادة ومن الله الرجوع الى العبد بالرحمة والاحسان، وأمّا العفو فهو التجاوز ، فبيّن الله تعالى انعامه علينا بتخفيف ما جعله ثقيلا على من قبلنا ، كقوله :﴿ ويضع عنهم اصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم ﴾ .

وأمّا الحجّة الخامسة : فضعيفة ، لأنّهم كانوا بسبب تلك الشبهة ممتنعين عن المباشرة ، فلمّا بيّن الله تعالى ذلك وأزال الشبهة فيه لا جرم قال ﴿ فالآن باشروهنّ ﴾

وأمّا الحجّة السادسة : فضعيفة لأنّ قولنا : هذه الآية ناسخة لحكم كان مشروعا لا تعلّق له بباب العمل ولا يكون خبر الواحد حجّة فيه، وأيضا ففي الآية ما يدلّ على ضعف هذه الروايات ، لأنّ المذكور في تلك

الروايات أنّ القوم اعترفوا بما فعلوا عند الرسول ، وذلك على خلاف قول الله تعالى : ﴿ علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ لأنّ ظاهره هو المباشرة ، لأنّه افتعال من الخيانة . فهذا حاصل الكلام في هذه المسألة . " (١)

تقويم المذهبين :

هذان مذهبان في تأويل الآية . وتلك دلائلهما .

والواقع أنّنا تأمّلنا في المذهبين وفي دلائلهما ، فلم نجد في أيّ واحد منهما ما ينال إعجابنا .

والعجيب في الأمر أنّ موقف المفسّرين - رحمهم الله - في هذه الآية يختلف عن موقفهم في الآية (١٨٤) ، حيث أنّهما موقفان متعارضان متعاكسان .

فحينما ننظر في تأويلهم لتلك الآية نعلم أنّ حكم الصّيام في أوّله كان في غاية اليسر والسهولة ، حيث أنّهم كان يسعهم أن يصوموا ، وكان يسعهم ألا يصوموا ويطعموا مكان كلّ يوم مسكينا ، حتى ولو لم يكن هناك أيّ عذر قاهر من سفر أو مرض .

وحينما ننظر في تأويلهم لهذه الآية نعلم أنّ حكم الصّوم في أوّله كان في غاية الصّعوبة والمشقّة ، حيث أنّه كان يبدأ من بعد صلاة العشاء إلى غروب الشمس من النّهار المقبل .

وعلى هذا فكانت مدّة صومهم على الأقلّ اثنتين وعشرين ساعة متواصلة !

وهذه مدّة لا يستطيعها إلاّ أقلّ قليل من النّاس . وهم أيضا ليسوا ببالغيها إلاّ بشقّ الأنفس .

هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنّ موقع الآية ونظمها وسياقها لا يقبل هذا التأويل ، ولا ينسجم معه البتّة .

---

(١) التفسير الكبير : ١٠٣/٥ - ١٠٤

فأيّ مناسبة بين هذه الآية - وفق هذا التأويل - وبين الآية التي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ... الآية ﴾

وأيّ مناسبة بين مضمون هذه الآية - وفق هذا التأويل - وبين قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلهم يتّقون ﴾ فإنّ الآية - وفق هذا التأويل - ما جاءت بيانا للناس وإنما جاءت لتنسخ أمرا كان ثابتا في شرعنا - كما يقوله المفسّرون - أو كان في شرع من قبلنا - كما يزعمه أبو مسلم - .

ثمّ إن كان الأمر أمر نسخ لحرمة مباشرة النّساء في ليلة الصّيام، بعد أن لم يصبر القوم عن شهواتهم وفاض كأسهم مسبقا، فهم كانوا يباشرون نساءهم مع علمهم بحرمتها في لياليهم تلك، فما وجه قوله تعالى إذا بعد هذا الإحلال : ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ ؟ وما وجه قوله تعالى : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ فالآن باشروهنّ ﴾ ؟

فهذه الزيادات أو هذه التعقيبات لا تستقيم مع هذا التأويل ولا تتلاءم مع هذا الجوّ .

ولقد أقلق الإمام ابن القيّم - رحمه الله - هذا السؤال الأخير وأراد أن يلتمس الحكمة في هذه الزيادة أو هذا التعقيب فقال :

" والتحقيق أن يقال : لمّا خفّف الله عن الأمّة بإباحة الجماع ليلة الصّوم إلى طلوع الفجر، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة وقضاء الوطر، حتى لا يكاد يخطر بقلبه غير ذلك، أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللّذة. ولا يباشروهنّ بحكم مجرّد الشهوة، بل يبتغوا ما كتب الله لهم من الأجر والولد الّذي يخرج من أصلابهم يعبد الله ولا يشرك به شيئا، ويبتغون ما أباح لهم من الرخصة بحكم محبّته بقبول رخصه، فإنّ الله يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته . وممّا كتب الله لهم : ليلة القدر، فأمروا أن يبتغوها .

لكن يبقى أن يقال : فما تعلّق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم ؟

فيقال : فيه ارشاد الى أن لا يشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة عن طلب هذه اللّيلة الّتي هى خير من ألف شهر . فكأنّه سبحانه يقول : اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصّيام ، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب الله لكم من هذه اللّيلة الّتي فضّلكم بها . والله أعلم . " (١)

هذا ما يجيب به الامام ابن القيّم - رحمه الله - على هذا السّؤال . وفيه ما فيه إ ممّا يغني الباحث عن التعليق عليه .

تأويل الآيـــة :

وهنا يثور سؤال : فما هو تأويل الآية اذا ؟

انّ تأويل الآية - كما يمليه علينا السياق - هو أنّ المؤمنين أو عددا غير قليل منهم حسبوا مباشرة النّساء في ليلة الصّيام عملا يتنافى مع روح الصّيام وقداسته ويتنافى مع التجرّد المطلوب لله في تلك الأيّام . فهم تورّعوا من ذلك نهائيّا وامتنعوا عنه امتناعا كاملا ، وكأنّه حرام محرّم عليهم من عند الله .

واذ حرّموا ذلك على أنفسهم من تلقاء أنفسهم ومنعوها ما أحلّ الله لها من غير أن يأذن به الله سمّى عملهم هذا خيانة مع أنفسهم ، ثمّ تاب الله عليهم وعفا عنهم نظرا الى نيّاتهم الّتي لم تكن تنطوى الاّ على الخير والصّدق مع الله .

ثمّ حثّهم وحرّضهم على اتيان ما أحلّ الله لهم . وخلط هذا الحثّ والتحريض بما يستميل أنفسهم ويزرع فيهم الشوق والرغبة في العمل الّذى عافته أنفسهم ظنّا منهم أنّه يتنافى مع روح الصّيام ، ويتنافى مع حرمته وقداسته ، ويتنافى مع التجرّد الكامل المطلوب لله في تلك الأيّام .

فقال تعالى : ﴿ هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ فقوله تعالى : ﴿ هنّ لباس لكم

---

(١) التفسير القيّم : ص / ١٤٥

وأنتم لباس لهن﴾ وقوله تعالى : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ ماجاء الأزيادة في الترغيب والتحريض وزيادة في الاستمالة والتشويق .
والمراد بـ " ما كتب الله لكم " هو الولد ، كما يرشدنا اليه السياق .

وأما الأكل والشرب فهم بالغوا في الاحتياط في أمره .فكانوا يمسكون عنه في وقت مبكر . وأكثر الروايات تقول : انهم كانوا يمسكون عنه اذا رقد أحدهم من الليل رقدة . والذى نستلهمه من الآية هو أنهم كانوا يمسكون عنه قبل تبين الفجر .

وليس هناك كبير فرق بين هذا وهذا ، فانهم ما كانوا يرقدون في رمضان الا في ساعة متأخرة من الليل . فاذا رقد أحدهم في ساعة متأخرة من الليل ، ثم استيقظ في الليل امتنع عن وجبة السحور خشية أن يكون الفجر قد طلع ، أو يكون على وشك الطلوع .

كانوا يفعلون ذلك لشدة احتياطهم لا لأنه حرم عليهم أن يأكلوا شيئا بعد نومتهم . وما رواه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أقرب للصواب وأشبه بطبيعة الموضوع حيث قال :

(كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فاذا ناموا تركوا الطعام والشراب واتيان النساء .) (١)

فكلام سيدنا معاذ أقرب الى المفهوم الذى أشرنا اليه ، وهو أنهم كانوا يفعلون ذلك شدة في الاحتياط ، لا لأنه كان محرما عليهم في شريعتهم .

كانت هذه عادتهم في الطعام والشراب ، وأما اتيان النساء فقد كانوا يمتنعون عنه نهائيا طوال شهر رمضان كما رواه ابن جرير قال : حدثني موسى بن هارون قال: ثنا عمرو بن حماد ، قال : ثنا أسباط عن السدى ، قال : كتب على النصارى رمضان . وكتب عليهم ألا يأكلوا ولا يشربوا بعد النوم ، ولا ينكحوا النساء شهر رمضان ، فكتب على المؤمنين

---

(١) تفسير الطبرى : ٢/١٦٤

كما كتب عليهم ، فلم يزل المسلمون على ذلك يصنعون ، كما تصنع النّصارى ، حتّى ...) (١)

ودراسة الروايات تبيّن لنا أنّ الأمر فيها قد اختلط بعضه ببعض . ولا تمكننا الرؤية الصحيحة الواضحة للموضوع إلاّ بعد جمع الروايات كلّها وعرض بعضها على بعض ، ثمّ عرضها جميعا على نصّ القرآن .

وبعد اتّباع هذه الطّريقة يتبيّن لنا ما يلي :

١ ـــ انّ المؤمنين كانوا يمتنعون ـ حين يمتنعون ـ عن الطّعام والشراب واتيان النّساء إلاّ لغاية تورّعهم وشدّة احتياطهم ، وإلاّ فما كان هناك أمر سابق من الله يلزمهم بهذا . حتّى وليس في أيدينا شيء ثابت أو شبه ثابت يثبت لنا أنّ النّصارى أو غير النّصارى كانوا مأمورين بهذا . حتّى نقول : انّ المؤمنين قد استوردوه منهم واتّخذوه جريا على عادتهم فيما سكتت عنه شريعتهم .

وقول أبي مسلم : انّ هذه الآية جاءت تنسخ ما كان عند النّصارى في شريعتهم ، قول غير مسلّم . فإلى وقتنا هذا لم نطّلع على شيء يوثق به في هذا الموضوع .

٢ ـــ المؤمنون كانوا يمتنعون عن اتيان النّساء نهائيّا طوال شهر رمضان .

٣ ـــ وانّهم كانوا يمسكون عن الطّعام والشراب مبكّرين قبل أن يتبيّن لهم الفجر .

فجاءت هذه الآية تعالج هذه الأمور ، وتصحّح الأخطاء الّتي وقع فيها المؤمنون لشدّة تورّعهم .

واذ نزلت هذه الآية بعد نزول أمر الصّيام بزمان ، ونزلت لتبيّن لهم طبيعة شريعتهم السمحة الميسّرة ، الّتي حباهم الله بها ، نبّه عليه السياق فقال في آخر الآية :

﴿ كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون . ﴾

---

(١) تفسير الطّبرى : ١٦٦/٢

دفع شبهة :

بقى علينا أن نقطع دابر الوهم الّذى تسرّب الى الأذهان في شأن قوله تعالى : ﴿ أحلّ لكم .. الآية ﴾ فانّ هذا الوهم كان أثره كبيرا في صرف النّاس عن التأويل الصّحيح للآية .

فانّه تبادر الى أذهانهم لمّا سمعوا قوله تعالى : ﴿ أحلّ لكم ﴾ أنّ هذا احلال لشيءٍ قد حرّم عليهم . وليس الأمر كذلك . فانّ احلال الشيءِ لا يستوجب أن يكون قد سبقه تحريمه . ونبيّن ذلك بعديد من الأمثلة ، قال تعالى :

١ ـ ﴿ اليوم أحلّ لكم الطّيّبات . ﴾ (١)

٢ ـ ﴿ أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسّيّارة وحرّم عليكم صيد البرّ مادمتم حرما . ﴾ (٢)

٣ ـ ﴿ أحلّت لكم بهيمة الأنعام الاّ ما يتلى عليكم . ﴾ (٣)

٤ ـ ﴿ وأحلّت لكم الأنعام الاّ ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزّور . ﴾ (٤)

فهذه الأشياء كانت حلالا لهذه الأمّة منذ أوّل يومها . ولم يمض عليها يوم وهى حرام عليها . ومع ذلك فقد استخدم في تلك الآيات كلّها نفس الأسلوب الّذى استخدم في الآية الّتي نحن بصدد الكلام عليها .

ارتباط هذه الآيات بعضها ببعض :

ولنعد الآن الى تلك الآيات لنعرف وجه ارتباطها بعضها ببعض ، فنقول وبالله التوفيق :

انّ الله تعالى أمر المؤمنين في الآيتين الأوليين أن يصوموا أيّاما معدودات . أمرهم به كما أمر الّذين من قبلهم .

وأمرهم أن يكملوا عدّتها من أيّام أخر اذا لم يتمكّنوا من صومها لعذر قاهر من سفر أو مرض .

---

(١) سورة المائدة : ٥ (٢) سورة المائدة : ٩٦

(٣) سورة المائدة : ١ (٤) سورة الحجّ : ٣٠

ثمّ خصّ الأغنياء منهم بأمر آخر، وهو أن يلتزموا مع الصّوم باطعام المساكين حتّى تلين قلوبهم و تتهيّأ نفوسهم للاستكثار من خيرات الصّيام وبركاته .

وأمرهم أن يتلقّوا هذا الأمر ويطبّقوه بكامل الشوق والحماس وطواعية النّفس ، فانّ من تطوّع خيرا ، أى عمله طيّعا به قلبه وطيّعة به جوارحه فهو خيرله . وبعد التنبيه على هذا المبدأ الأساسيّ في دين الله ، عاد فرغّب في الصّوم :

﴿ وأن تصوموا خيرلكم ان كنتم تعلمون ﴾

ثمّ بيّن ما هى تلك الأيّام المعدودات ، الّتي أمر المؤمنون بصيامها ، ألا وهى شهر رمضان ، شهر أنزل فيه القرآن ، هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان .

فأمرهم بصيام الشهر مع تكرار الأمر باكمال العدّة تنويها بشأنه ، و تنبيها على خطورة أمره .

ثمّ بيّن الغاية من هذا الصّوم ، ألا وهى تكبير الله وشكره على أن هيّأ لنا أسباب الهدى :

﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون ﴾

وعلى هذا فصيام رمضان عبارة عن الشكر لله و تكبيره على أن منّ علينا بهذا القرآن . ومن هنا كان أفضل أعمال المؤمن في رمضان الاشتغال بالقرآن والاكثار من تلاوته و تدارسه . وليست مشروعية صلاة التراويح في ليالي رمضان الآسببا الى الاكثار من تلاوة القرآن في تلك الأيّام .

ثمّ نبّه تعالى على ذلكم الشعور القدسيّ الكريم ، الّذى ينبغي أن يفيض به قلب المؤمن بفضل صيام رمضان ، وبفضل تدارس القرآن في تلك الأيّام ، ألا وهو شدّة الحنين الى ربّه الودود الكريم ، والحرص على رؤيته ولقائه والسؤال والبحث عنه للاتّصال به والاطمئنان الى رضوانه :

﴿ واذا سألك عبادى عنّي فانّي قريب ٠ أجيب دعوة الدّاع اذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون ٠ ﴾

ولا ندرى كيف نعبّر عمّا أخفى في تلك الآية الكريمة من قرّة أعين !

فناهيك بها دلالة على مزيّة صوم رمضان وعلى فضيلة تدارس القرآن في تلك الأيّام ٠

ويغلب على ظنّنا أنّ تلك الآية هى الّتي ملكت على المؤمنين قلوبهم و جوارحهم، وشغلتهم بحلاوتها وندواتها عن لذاتهم و شهواتهم، فهم زهدوا في نسائهم ، وزهدوا في مآكلهم ومشاربهم و رغبوا عنها الى الصّيام والى تلاوة القرآن ، واشتغلوا به آناء اللّيل وآناء النّهار٠

فهناك تداركهم التوجيه الالهيّ الكريم ، حتّى لا يميل بهم الطّريق الى الرهبانية الّتي لا صلة لها بدين الله :

﴿ أحلّ لكم ليلة الصّيام الرفث الى نسائكم ٠٠٠ الآية ﴾

وقد فصّلنا القول في تأويل تلك الآية فيما مضى ٠

ثمّ تأتي الآية الكريمة :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال النّاس بالاثم وأنتم تعلمون ٠ ﴾

يقول الشيخ أبوحيّان ـ رحمه الله ـ وهو يبرز مناسبة هذه الآية لماقبلها :

" ومناسبة هذه الآية لماقبلها ظاهرة ٠ وذلك أنّ من يعبد الله تعالى بالصّيام ، فحبس نفسه عمّا تعوّده من الأكل والشرب والمباشرة بالنّهار ثمّ حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبدالله تعالى صائما له ممنوعا من اللّذة الكبرى باللّيل والنّهار جدير أن لا يكون مطعمه ومشربه الاّمن الحلال الخالص الّذى ينوّر القلب ويزيده بصيرة ويفضي به الى الاجتهاد في العبادة فلذلك نهى عن أكل الحرام الماضي به الى

عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه . وتخلّل أيضا بين آيات الصّيام آية اجابة سؤال الدّاعي وسؤال العباد الله تعالى . وقد جاء في الحديث أنّ من كان مطعمه حراما وملبسه حراما ومشربه حراما ثمّ سأل الله أنّى يستجاب له ؟! فناسب أيضا النّهى عن أكل المال الحرام .

ويجوز أن تكون المناسبة أنّه لمّا أوجب عليهم الصوم كما أوجبه على من كان من قبلهم ، ثمّ خالف بين أهل الكتاب و بينهم فأحلّ لهم الأكل والشرب والجماع في ليالي الصّوم ، أمرهم أن لا يوافقوهم في أكل الرشا من ملوكهم و سفلتهم ومايتعاطونه من الربا ومايستبيحونه من الأموال بالباطل كما قال تعالى :

﴿ ويشترون به ثمنا قليلا ﴾ ﴿ ليس علينا في الأمّيين سبيل ﴾ ﴿ أكّالون للسّحت ﴾ وأن يكونوا مخالفيهم قولا و فعلا و صوما وفطرا و كسبا واعتقادا . " (١)

ثمّ يأتي الدكتور محمد عبد الله دراز فيكشف لنا ناحية جديدة من نواحي مناسبة هذه الآية لماقبلها حيث يقول :

" وينساق الحديث من الصّوم المؤقّت عن بعض الحلال ، الى الصّوم الدّائم عن السحت والحرام . " (٢)

و سيزداد الأمر وضوحا باذن الله حينما نتكلّم من مناسبة هذه المجموعة من الآيات لماقبلها .

مايستفاد من نظم هذه الآيات :

نعود مرّة أخرى الى تلك الآيات لنتأمّل في نظمها ونرى ما أودع الله فيها من نفائس الفوائد وأطايب الحكم .

الفائدة الأولى :

انّما جعل شهر رمضان شهر الصّيام لأجل كونه موسم نزول القرآن وهكذا كان الوضع في كلّ أمّة ، انّها كانت تصوم أيّامها الّتي أوتيت فيها الكتاب .

---

(١) تفسير البحر المحيط :٢/٥٥

(٢) النّبأ العظيم : ص/١٦٧

فان صحّت الرواية بأنّه كتب على كلّ أمّـة صيام رمضان كما كتب على هـذه الأمّـة ، كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – :

(صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم) (١)

فمعنى ذلك أنّ كلّ أمّـة أوتيت كتابها في هـذا الشهر، وأمـرت بصيامـه والاّ فكلّ أمّـة كانت تصوم شهرها الّذى أوتيت فيه كتابها ٠

الفائـدة الثّانية :

افترض الله علينا صيام رمضان حتى نتهيّأ ونستعدّ للانطباع بطابع القرآن الّذى أنزل في هـذا الشهر٠ فاعداد النّفوس لحمل رسالة القرآن هو العامل الأساسي في افتراض صيام رمضان ٠

الفائـدة الثّالثة :

أمـر الله الموسرين باطعام مسكين ، وأمـر بهـذا في سياق فرضيّة الصّيام ٠ وهـذا النّظم يفيد أنّ العناية بالفقراء والمساكين لها تأثير كبير في فعاليّة الصّيام ، فبها تتهيّأ النّفوس و تستعدّ لاستقبال بركات الصّيام وللاستكثار منها ٠ وكلّما بسط الانسان يده في هـذه الأيّام ازداد نصيبا من خيراتهـا ٠

الفائـدة الـرابعة :

قال تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضـا أو على سفر فعـدّة من أيّام أخـر ٠ ﴾

ثمّ قال تعالى بعـده مباشرة : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ هـذا النّظم يفيد أنّ مجـرّد السفر أو مجـرّد المرض لا يكفي لافطار رمضان ٠ وانّما يجـوز الافطار اذا كان المرض أو السفر بحيث لو صام الانسان معـه وقع في العسر ٠ فالعسر هو مناط الرخصـة ٠ واذا زال العسر زالت الرخصـة ٠

---

(١) فتح القـدير : ١٨١/١

الفائدة الخامسة :

من خيانة المرء مع نفسه أن يشدّد عليها ويحرمها من طيّبات أحلّت لها ، حتى ولو كان ذلك بدافع الورع والتقوى . فالاسلام دين الفطرة . وهو يحبّ اشباع رغبات الفطرة وتلبية دواعيها في حدودها . ومن هنا يختلف طريقه عن طريق الرهبانية .

الفائدة السادسة :

قال تعالى : ﴿ ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ وقال ذلك في سياق موضوع الصّيام .

هذا النّظم يدلّ على أنّ الصّيام من شروط الاعتكاف . والاعتكاف لا يتمّ بدونه .

الفائدة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ يفيد بنظمه أنّ الاعتكاف لا يكون الاّ في المساجد . ومن هنا قالت عائشة - رضي الله عنها - : (لا اعتكاف الاّ بصوم ، ولا اعتكاف الاّ في مسجد جامع .)(١)

الفائدة الثّامنة :

جعل الله تعالى موضوع الاعتكاف خاتمة موضوع الصّيام . وهذا النّظم يدلّ على أنّ من حسن الصّيام أن ينتهي مع الاعتكاف ، وأنّ أيامه هي الأيّام الأخيرة من رمضان .

كما يدلّ على أنّ الاعتكاف من مكمّلات الصّيام . ومن جمع بين الصّيام والاعتكاف فقد نال خيرات الصّيام بحذافيرها .

وبعد ما انتهينا من بيان ما يستفاد من نظم هذه الآيات ، نعود اليها مرّة أخرى لنعلم مناسبتها لما قبلها .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

لقد سبق أن قلنا في أثناء الحديث عن الآيات السالفة :

---

(١) مختصر سنن أبي داود : باب المعتكف يعود المريض : ٣/٣٤٤ ، رقم (٢٣٦٣) .

(وجاءت آيات القصاص والوصيّة لتحذر المؤمنين من هضم حقوق الآخرين وتعصمهم من التقصير في أدائها الى أهلها ، فأمروا أن ينصفوا في شأن الدّيات وأمروا أن يوفوا الحقوق الى أهلها ، الاّ أن يتنازلوا هم عن بعض حقوقهم .

وأمروا بالوصيّة اذا حضرهم الموت حتى يصيب كلّ ذي حقّ حقّه ممّا تركوه من الخير ولا يهضم القويّ حقّ الضّعيف ولا يعتدي بعضهم على بعض .

وحذروا من تبديلها حتى لا يعبث بها من أراد التطاول على حقوق الآخرين فيفوت الغرض منها .)

وبعد هذه الآيات مباشرة جاءت آيات الصّيام . ثمّ بعدها مباشرة جاءت الآية الكريمة :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال النّاس بالاثم وأنتم تعلمون . ﴾

هذا النّظم ينبئ أنّ السياق مازال في موضوع التحذير من أكل الأموال بالباطل . وأنّه ما تخلّلته آيات الصّيام الاّ لتخدم هذا الموضوع، فلننظر في آيات الصّيام من هذه النّاحية .

لقد علمنا فيما مضى في تأويل قوله تعالى :

﴿ وعلى الّذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾

أنّ الموسعين منّا والموسرين مطالبون في أيّام الصّيام بأن يجمعوا بين الصيام واطعام مسكين .

وعلى هذا فيكون الصّيام دورة تربويّة يتربّى فيها الأغنياء والموسرون على حبّ المساكين وتفقّد أحوالهم .

ومن هنا قال نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسلام ـ عن شهر رمضان انّه شهر المواساة .

هذه ناحية ، ومن ناحية أخرى فانّ حلول رمضان ـ وهو

شهر الصّيام - يذكّرنا معشر المؤمنين بتلك النّعمة الجسيمة الّتي منّ الله بها على هذه البشريّة، ألا وهى نعمة القرآن ٠

وتلك النّعمة اذا تذكّرها المؤمن وعرف قدرها فانّها تزهّده في كلّ نعمة سواها ٠ وتميل به وبرغباته واهتماماته عن حطام الدّنيا الى ما هو خير وأبقى وأنفع له عند الله ٠ فهو يتجافى عن دار الغرور وشهواتها ويتجافى عن أهلها وحكّامها المغترّين بزينتها ٠

فماذا يغتنه من الدّنيا وقد ملأ يديه بنعمة تهون في جنبها كلّ نعمة سواها ؟

وما الّذى يذهب به الى حكّام السوء وهو في شغل شاغل عنهم، وموصول الحبل بربّهم و مليكهم ؟

وعلى هذا فالصّوم بأعماله وبرامجه والقرآن بتوجيهاته وايحاءاته يزرع في نفس المؤمن حبّ الله وحبّ عمل يرضيه ٠ ويحبّب اليه كلّ حلال طيّب ويكرّه اليه كلّ حرام خبيث ٠ ويدفعه الى الجود والسخاء وتفقّد أحوال الضّعفاء ، فضلا عن أن يأكل أموال النّاس بالباطل٠

ولذلك كان أعلم النّاس بالقرآن أجود النّاس بالخير٠ وكان يبلغ منه الجود ذروته حين كان يتدارس القرآن مع جبريل - عليهما السلام - في شهر رمضان ٠

فقد روى ابن عبّاس - رضى الله عنهما - قال :

(كان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أجود النّاس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ٠ انّ جبريل - عليه السلام - كان يلقاه في كلّ سنة في رمضان حتى ينسلخ ، فيعرض عليه رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - القرآن ٠ فاذا لقيه جبريل كان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - أجود بالخير من الريح المرسلة ٠) (١)

هذا ، وقد نبّه الأستاذ سيّد قطب - رحمه الله - الى وجه آخر من مناسبة هذه الآيات لما قبلها - وهى آيات القصاص والوصيّة - فقال :

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل ، باب كان النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أجود النّاس بالخير من الريح المرسلة : رقم الحديث (٢٣٠٨) ٠

" يتضمّن هذا الدّرس جانبا من التنظيمات الاجتماعيّة للمجتمع المسلم الّذى كان ينشأ في المدينة نشأته الأولى ، كما يتضمّن جانبا من العبادات المفروضة .. هذه وتلك مجموعة متجاورة في قطاع واحد من قطاعات السورة . وهذه وتلك مشدودة برباط واحد الى تقوى الله وخشيته ، حيث يتكرّر ذكر التقوى في التعقيب على التنظيمات الاجتماعيّة والتكاليف التعبّديّة سواء بسواء .. وحيث تجئ كلّها عقب آية البرّ الّتي استوعبت قواعد التصوّر الايمانيّ وقواعد السلوك العمليّ في نهاية الدّرس السابق .

في هذا الدّرس حديث عن القصاص في القتلى وتشريعاته . وفيه حديث عن الوصيّة عند الموت .. ثمّ حديث عن فريضة الصّوم وشعيرة الدّعاء و شعيرة الاعتكاف .. وفي النّهاية حديث عن التقاضي في الأموال .

وفي التعقيب على القصاص ترد اشارة الى التقوى : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلّكم تتّقون . ﴾

وفي التعقيب على الوصيّة ترد الاشارة الى التقوى كذلك :
﴿ كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ـ ان ترك خيرا ـ الوصيّة للوالدين، والأقربين بالمعروف حقّا على المتّقين . ﴾

وفي التعقيب على الصّيام ترد الاشارة الى التقوى أيضا :
﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون . ﴾

ثمّ ترد نفس الاشارة بعد الحديث عن الاعتكاف في نهاية الحديث عن أحكام الصّوم : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها . كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون . ﴾

ولا تبعد التعقيبات القليلة الباقية في الدّرس عن معنى التقوى ، واستجاشة الحساسية والشعور بالله في القلوب . فتجيئ هذه

التعقيبات : ﴿ ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلّكم تشكرون ﴾ .. ﴿ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون ﴾ .. ﴿ انّ الله سميع عليم ﴾ .. ﴿ انّ الله غفور رحيم ﴾ ..

وهو اطّراد يوجّه النّظر الى حقيقة هذا الدّين .. انّه وحدة لا تتجزّأ .. تنظيماته الاجتماعيّة ، و قواعده التشريعيّة و شعائره التعبّديّة .. كلّها منبثقة من العقيدة فيه ، وكلّها نابعة من التصوّر الكلّي الّذى تنشئه هذه العقيدة ، وكلّها مشدودة برباط واحد الى الله ، وكلّها تنتهي الى غاية واحدة هى العبادة : عبادة الله الواحد . الله الّذى خلق ورزق ، واستخلف النّاس في هذا الملك ، خلافة مشروطة بشرط : أن يؤمنوا به وحده ، وأن يتوجّهوا بالعبادة اليه وحده ، وأن يستمدّوا تصوّرهم ونظمهم و شرائعهم منه وحده .

وهذا الدّرس بمجموعة الموضوعات الّتي يحتويها ، والتعقيبات الّتي يتضمّنها ، نموذج واضح لهذا الترابط المطلق في هذا الدّين .." (١)

وممّا يجدر الانتباه له أنّ تلك الموضوعات الثّلاثة كما أنّها جاءت متشابهة في تعقيباتها ومتجاورة في قطاع واحد من قطاعات السورة ، فكذلك جاءت على لون واحد وأسلوب واحد ، حيث قال تعالى:

١ ـ ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى .. الآية ﴾

٢ ـ ﴿ كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصيّة .. الآية ﴾

٣ ـ ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام .. الآية ﴾

وهذا الاتّحاد في اللّون والأسلوب ان دلّ على شيء فانّما يدلّ على غاية الترابط بين تلك الموضوعات. وقد ألمعنا ـ باذن الله ـ الى جوانب منها .

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها نتوجّه الى ما بعدها .

---

(١) في ظلال القرآن : ١/١٦٣ ـ ١٦٤

نظم الآيـــات (١٨٩ ـ ٢٠٧)

****

قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الأهـلّة قل هى مواقيت للنّاس والحجّ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابهـا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون ٠ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، انّ الله لا يحبّ المعتـدين ٠ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخـرجوهم من حيث أخـرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجـد الحـرام حتّى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ٠كذلك جـزاء الكافرين ٠ فان انتهوا فانّ الله غفوررحـيم ٠ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين لله ٠ فان انتهوا فلا عـدوان الاّ على الظّالمين ٠ الشهر الحـرام بالشهر الحـرام والحـرمات قصاص ٠ فمن اعتـدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتـدى عليكم ٠ واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين ٠ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ، انّ الله يحبّ المحسنين ٠ وأتمّوا الحجّ والعمرة لله ٠ فان أحصرتم فما استيسر من الهـدى ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهـدى محلّه ٠ فمن كان منكم مريضـا أو به أذى من رأسـه ففـدية من صيام أو صـدقـة أو نسك ٠ فاذا أمنتم فمن تمتّع بالعمرة الى الحجّ فما استيسر من الهـدى ، فمن لم يجـد فصيام ثلاثـة أيّام في الحجّ و سبعـة اذا رجعتم ٠ تلك عشرة كاملة ٠ ذلك لمن لم يكن أهلـه حاضـرى المسجد الحـرام ٠ واتّقوا الله واعلموا أنّ الله شـديد العقاب ٠ الحجّ أشهر معلومات ٠ فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جـدال في الحجّ ٠ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ٠ وتزوّدوا فانّ خير الـزّاد التقوى ٠ واتّقون يا أولي الألباب ٠ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ، فاذا أفضتم من عـرفات فاذكـروا الله عنـد المشعر الحـرام واذكـروه كما هـداكم ٠ وان كنتم من قبله لمن الضّالّين ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس واستغفروا الله ، انّ الله غفور رحـيم ٠

فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا، فمن النّاس من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا وما له في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار. أولئك لهم نصيب ممّا كسبوا والله سريع الحساب. واذكروا الله في أيّام معدودات. فمن تعجّل في يومين فلا اثم عليه، ومن تأخّر فلا اثم عليه لمن اتّقى. واتّقوا الله واعلموا أنّكم اليه تحشرون. ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام. واذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل، والله لا يحبّ الفساد. واذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالاثم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد. ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله. والله رؤوف بالعباد. ﴾

***　　　**　　　***

قبل أن نعالج بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها نودّ أن تكون لنا وقفة عند الآية الأولى من هذه الآيات، حتّى ندرسها دراسة موضوعيّة جادّة.

فانّ هذه الدّراسة هي الّتي ستفتح لنا الطّريق الى نظم تلك الآيات، وتكون لنا عونا في ادراك مناسبتها فيما بينها ولما قبلها.

ودراستنا هذه ستنقسم الى قسمين: قسم يتناول الشطر الأوّل من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلّة، قل هي مواقيت للنّاس والحجّ ﴾.

وقسم يتناول الشطر الثّاني منها وهو بقيّة الآية.

فنبدأ بالشطر الأوّل من الآية، متضرّعين الى الله أن يسدّد خطانا، ويلهمنا رشدنا وصوابنا.

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تأويل هذا الشطر من الآية:

" ذكر أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - سئل عن زيادة الأهلّة و نقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذكره هذه

الآية جوابا لهم فيما سألوا عنه . " (١)

ثمّ ذكر الأخبار الواردة بذلك ، ثمّ قال :

" فتأويل الآية اذا كان الأمر على ما ذكرنا عمّن ذكرنا عنه قوله في ذلك : يسألونك يا محمّد عن الأهلّة و محاقها و سرارها و تمامها واستوائها و تغيّر أحوالها بزيادة و نقصان و محاق و استسرار ، وما المعنى الّذى خالف بينه وبين الشمس الّتي هى دائمة أبدا على حال واحدة لا تتغيّر بزيادة ولا نقصان ، فقل يا محمّد خالف بين ذلك ربّكم لتصييره الأهلّة الّتي سألتم عن أمرها ومخالفة ما بينها وبين غيرها فيما خالف بينها وبينه مواقيت لكم ولغيركم من بني آدم في معايشهم ، ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقها واستسرارها واهلالكم ايّاها أوقات حلّ ديونكم ، وانقضاء مدّة اجارة من استأجرتموه ، و تصرم عدّة نسائكم ، و وقت صومكم و افطاركم فجعلها مواقيت للنّاس .

وأمّا قوله (والحجّ) فانّه يعني وللحجّ ، يقول : وجعلها أيضا ميقاتا لحجّكم تعرفون بها وقت مناسككم و حجّكم . " (١)

هذا ما ذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - في تأويل الآية .

وهذا التأويل ، وان كان هو التأويل المفضّل عند كثير من النّاس ، ولكنّ التأمّل فيه يجعلنا نحسّ فيه عدّة اشكالات : وهى كما يلي :

الاشكال الأوّل :

ما معنى سؤال الصّحابة - رضى الله عنهم - أو غيرهم عن الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ومحاقه واستسراره . وقد بيّنها القرآن بوضوح قبل أن يثور في نفوسهم هذا السؤال . وذلك في سورتين من السور المكّيّة حيث قال تعالى :

﴿ هو الّذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك الاّ بالحقّ . يفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢)

---

(١) تفسير الطّبرى : ٢/١٨٥ - ١٨٦ (٢) سورة يونس : ٥

وقال تعالى :

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ․ ﴾ (١)

الاشكال الثاني :

لفظ الأهلة لا يقبل هذا التفسير ، فان الأهلة جمع الهلال ․ والهلال لا يطلق الا على القمر في أول ليلته ․ يقول ابن منظور :

(الهلال غرة القمر حين يهله الناس في غرة الشهر ․) (٢)

ويقول الخازن ـ رحمه الله ـ :

" والأهلة جمع هلال ، وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر ․ " (٣)

ويدل على ذلك وجه تسميته بالهلال ، فان الهلال ما سمى هلالا الا لاهلال الناس عند رؤيته ․ قال أبو العباس :

(وسمى الهلال هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم بالاخبار عنه ․) (٤)

والى مثله ذهب الشوكاني ـ رحمه الله ـ حيث قال :

" وانما قيل له هلال ، لأن الناس يرفعون أصواتهم بالاخبار عنه عند رؤيته ․ " (٥)

فاذا كان هذا هو وجه تسميته بالهلال تعين أنه لا يكون هلالا الا في أول ليلته ، حين يرفع الناس أصواتهم بالاخبار عنه عند طلوعه ․

وهذا المعنى كما يظهر بالتأمل في وجه تسميته ، يظهر بتتبع استعمالاته كذلك ․ ولا بأس بأن نمر هنا على بعض الأمثلة :

---

(١) سورة الاسراء : ١٢
(٢) لسان العرب : مادة (ه، ل ،ل)
(٣) تفسير الخازن : ١/١٦٦
(٤) لسان العرب : مادة (ه، ل ، ل)
(٥) فتح القدير : ١/١٨٩

أخرج الدّارقطني عن أبي وائل قال: أتانا كتاب عمر بخانقين: انّ الأهلّة بعضها أعظم من بعض، فاذا رأيتم الهلال من أوّل النّهار فلا تفطروا حتّى يشهد شاهدان أنّهما رأياه بالأمس. (١)

وأخرج الدّارقطني عن قيس بن طلق عن أبيه قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم -:

(جعل الله الأهلّة مواقيت للنّاس، فاذا رأيتموه فصوموا واذا رأيتموه فأفطروا، فان غمّ عليكم فأتمّوا العدّة ثلاثين.)(٢)

وعن عروة عن عائشة - رضى الله عنها - أنّها كانت تقول:

(والله يا ابن أختي ان كنّا لننظر الى الهلال، ثمّ الهلال ثمّ الهلال: ثلاثة أهلّة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - نار.) (٣)

فنرى الروايتين الأوليين تستعملان الهلال والأهلّة بالمعنى الّذى أشرنا اليه. وأمّا الرواية الثّالثة - وهى رواية عائشة - فهى لا تفسّر بعبارتها معنى الهلال والأهلّة فحسب، بل تقطع الطّريق على الّذين يفسّرونهما بمعنى آخر كقول الجوهرى:

(الهلال أوّل ليلة والثّانية والثّالثة ثمّ هو قمر.)(٤)

أو كقول الأصمعىّ:

(هو هلال حتى يحجّر ويستدير له كالخيط الرقيق، وهو هلال حتى يبهر بضوئه السّماء وذلك ليلة سبع.) (٥)

أو كقول الفيروزآبادى:

(الهلال غرّة القمر أو لليلتين أو الى ثلاث أو الى سبع و لليلتين من آخر الشهر ستّ وعشرين و سبع وعشرين وفي غير ذلك قمر.) (٦)

---

(١) سنن الدّارقطني: باب الشهادة على رؤية الهلال: ١٦٨/٢
(٢) سنن الدّارقطني: كتاب الصّيام: ١٦٣/٢ (٣) متفق عليه، واللّفظ لمسلم. انظر كتاب الزّهد والرّقائق. رقم الحديث (٢٩٧٢). وقد رواه البخارى مع اختلاف يسير في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها.
(٤) الصحاح للجوهرى: مادّة (ه،ل، ل) (٥) المحرّر الوجيز: ٥٣١/١
(٦) القاموس المحيط: مادّة (ه،ل،ل).

فهذه الأقوال لا تعدو أن تكون آراء واجتهادات لا يوجد لها أصل في كلام العرب · ورواية عائشة نصّ على أنّه لا يكون في الشهر الا هلال واحد ·

وعلى هذا فلفظ " الأهلّة " لا يحتمل التأويل الّذى ذهب اليه النّاس ·

الاشكال الثّالث :

لقد وردت في هذا السياق ستّة أسئلة غير هذا السؤال ، وهى كما يلي :

١ ـ * يسألونك ماذا ينفقون · قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ··· الآية * (١)

٢ ـ * يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ·· * (٢)

٣ ـ * يسألونك عن الخمر والميسر * (٣)

٤ ـ * ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو·· * (٤)

٥ ـ * ويسألونك عن اليتامى ·· * (٥)

٦ ـ * ويسألونك عن المحيض ·· * (٦)

وهذه الأسئلة كلّها متجانسة متشاكلة في طبيعتها واتّجاهها ، و آخذ بعضها بأعناق بعض ، كما سنبيّنه فيما بعد ·

وأمّا هذا السؤال فانّه سيصبح غريبا جدّ غريب في هذا الجوّ ، ان رضينا بذلك التأويل الّذى ذهب اليه النّاس ·

الاشكال الرّابع :

هذا التأويل يبتر الشطر الأوّل من الآية من الشطر الثّاني منها ، وهذا أمر غير مستساغ حتى عند الّذين لا يعترفون بالنّظام ولا يعترفون بالمناسبات في آيات القرآن و سوره · فالآية الواحدة

---

(١) سورة البقرة : ٢١٥
(٢) سورة البقرة : ٢١٧
(٣) سورة البقرة : ٢١٩
(٤) سورة البقرة : ٢١٩
(٥) سورة البقرة : ٢٢٠
(٦) سورة البقرة : ٢٢٢

لا يمكن أن تشتمل على مضامين متنافرة متباعدة، لا يجمعها سبب ولانسب .

وأمّا قول الامام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ : " هذه الآية من أوّلها الى قوله :(والحجّ) نزلت على سبب، ومن قوله تعالى: (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها) الى آخرها يدلّ على سبب آخر . " (١)

فهو قول لا يخلو من ضعف . وما لجأ ـ رحمه الله ـ الى هذا القول الا لأنّه لم يظهر له تأويل يجعل الآية تستقيم تحت سبب واحد .

وبعد ما انتهينا من دراسة ما قيل في تأويل الشطر الأوّل من الآية نتوجّه الى تأويل الشطر الثّاني منها .

تأويل الشطر الثّاني من الآية :

يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تأويل قوله تعالى : ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابها، واتّقوا الله لعلّكم تفلحون . ﴾ بعد ما ينقل الأخبار الواردة في سبب نزوله :

" فتأويل الآية اذا : وليس البرّ أيّها النّاس بأن تأتوا البيوت في حال احرامكم من ظهورها، ولكنّ البرّ من اتّقى الله فخافه، وتجنّب محارمه، وأطاعه بأداء فرائضه التي أمره بها، فأمّا اتيان البيوت من ظهورها فلا برّ لله فيه، فأتوها من حيث شئتم من أبوابها و غير أبوابها، مالم تعتقدوا تحريم اتيانها من أبوابها في حال من الأحوال، فانّ ذلك غير جائز لكم اعتقاده، لأنّه ممّا لم أحرّمه عليكم . " (٢)

ولقد تناول ابن كثير هذه الآية بمزيد من التفصيل حيث جمع كلّ ما أثر في تأويلها . يقول ـ رحمه الله ـ :

" قال البخاري : حدّثنا عبيدالله بن موسى عن اسرائيل عن

---

(١) زاد المسير : ١٨٩/١ (٢) تفسير الطّبري : ١٨٩/٢

أبي اسحاق عن البراء قال : كانوا اذا أحرموا في الجاهليّة أتوا البيت من ظهره فأنزل الله (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابها) وكذا رواه أبو داود الطّيالسي عن شعبة عن أبي اسحاق عن البراء قال : كانت الأنصار اذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية . قال الأعمش: عن أبي سفيان عن جابر كانت قريش تدعى الحمس وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام وكانت الأنصار و سائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام . فبينا رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في بستان اذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا يا رسول الله : انّ قطبة بن عامر رجل تاجر وانّه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، فقال: انّي أحمس ، قال له : فانّ ديني دينك ، فأنزل الله : (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتّقى وأتوا البيوت من أبوابها) رواه ابن أبي حاتم ورواه العوفي عن ابن عبّاس بنحوه وكذا روى عن مجاهد والزهري وقتادة وابراهيم النّخعي والسّدى والربيع بن أنس وقال الحسن البصري : كان أقوام من أهل الجاهليّة اذا أراد أحدهم سفرا وخرج من بيته يريد سفره الّذى خرج له ثمّ بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوّره من قبل ظهره فقال الله تعالى : (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها .. الآية) . وقال محمّد بن كعب : كان الرجل اذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية ، وقال عطاء بن أبي رباح : كان أهل يثرب اذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أنّ ذلك أدنى الى البرّ فقال الله :(وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها) ".(١)

تلك الوجوه الّتي ذكرها الامام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تأويل

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/٢٢٥ ـ ٢٢٦

ذلك طاف عريانا ، فان طاف بثيابه ألقاها فلا يأخذها أبدا ، لا هو ولا غيره ، وتسمّي العرب تلك الثياب اللّقى ، وسموا للمرأة أن تطوف وعليها درعها وكانت قبل تطوف عريانة وعلى فرجها نسعة ." (١)

فاذا كان حجّهم مليئا بمثل تلك المنكرات المزريات فلماذا أنكر القرآن عليهم تلك العادة وترك غيرها مع كونها أعظم وأطم ؟

ثمّ انّ قوله ـ رحمه الله ـ : " أولمّا وقعت القصّتان في وقت واحد نزلت الآية فيهما معا و وصل احداهما بالأخرى . "

يشي بعدم اقتناعه هو بما أسلف من القول و يشي بتذبذبه بين الوجهين .

الاشكال الثّاني :

قال تعالى بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، انّ الله لا يحبّ المعتدين . ﴾

فعطفت هذه الآية على ماقبلها ، والعطف يدلّ على صلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فما هي الصّلة بين القتال في سبيل الله وبين تفنيد تلك العادة الّتي كانوا يأتونها في الحجّ أو بعد الحجّ ؟

الاشكال الثّالث :

لقد كرّر السياق ذكر التقوى في هذه الآية فقال : ﴿ ولكنّ البرّ من اتّقى ﴾ ثمّ قال: ﴿ واتّقوا الله لعلّكم تفلحون ﴾

وهذا التكرار ان دلّ على شيء فانّما يدلّ على فظاعة الأمر ونكارته وبعده من التقوى تمام البعد ، مع أنّ ماذكر من فعلهم وهو اتيان البيوت من ظهورها ، وان لم يكن من البرّ في شيء ، ولكنّه لم يكن يصطدم مع التقوى اصطداما ظاهرا ، وانّما كان ينمّ على سذاجتهم وقلّة وعيهم فقط .

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٢/٩٨

تلك اشكالات تجعلنا نشكّ في صحّة ماورد في سبب نزول هذه الآية. اللّهم الاّ أن يقال : انّ ماوردت به الروايات لا يفسّر السبب الحقيقيّ لنزولها ، وانّما هوممّا تشمله الآية بعموم دلالتها .

إذاً فما هو التأويل الصّحيح للآية ؟

تحقيق مدلول الأهلّة :

قبل أن نردّ على هذا السؤال ، نودّ أن نقف مرّة أخرى عند لفظ (الأهلّة) ونتأكّد من مدلوله ، فانّ له دوراكبيرا في تحديد المراد من الآية .

يقول الامام القرطبي – رحمه الله – في تحقيق هذا اللّفظ :

" الأهلّة جمع الهلال ، وجمع وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالا واحدا في شهر ، غيركونه هلالا في آخر ، فانّما جمع أحواله من الأهلّة . ويريد بالأهلّة شهورها ، وقد يعبّر بالهلال عن الشهر لحلوله فيه . " (١)

ويقول الامام أبوحيّان – رحمه الله – :

" وقد يطلق الهلال على الشهر كما يطلق الشهرعلى الهلال ."(٢)

وقال ابن المقرى :

" وقيل الهلال هو الشهر بعينه " (٣)

وليس هناك أيّ اشكال في اطلاق الهلال بمعنى الشهربعد ماتقرّر أنّه لا يكون في الشهر الاّ هلال واحد . فكلّ هلال يكون عنوانا للشهرالّذى أهلّ فيه .

وعلى هذا فنقول : انّ المراد هنا بالأهلّة هى الشهور. والشهور هى أشهر الحجّ بدليل السياق . واللاّم على الأهلّة هى لام العهد .ولفظة الأهلّة كانت أنسب للتعبيرعن أشهرالحجّ من لفظةالشهور، فانّها تمثّل لنا – بخلاف لفظةالشهور– تلك المشاعر

---

(١) تفسيرالقرطبي : ٣٤١/١ (٢) تفسيرالبحرالمحيط : ٥٩/٢

(٣) كتاب المصباح المنير لابن المقرى : ٨٧٩/٢ – ٨٨٠

الّتي كانت تفيض بها قلوب النّاس عند حلول موسم الحجّ ، حيث انّهم كانوا يرفعون أصواتهم من شدّة الفرح اذا أقبلت تلك الأشهر المباركة ، ولاحت لهم تلك الأهلّة في أفق السّماء .

مدار السّؤال :

ثمّ لنعلم أنّ السؤال هنا كان عن تقديم أشهر الحجّ أو تأخيرها عن مكانها ، وكان ذلك من عادتهم في الجاهليّة وكانوا يفعلونه كلّما دعتهم اليه المصلحة ، وهو الّذى كان يسمّى عندهم (النّسيُ)

فجاء الجواب على هذا السؤال :

﴿ قل هى مواقيت للنّاس والحجّ ﴾

والمواقيت واحدها الميقات وهو الوقت المضروب للفعل ، أى تلك الأشهر أوقات محدّدة ومضروبة للنّاس حتّى يدّخروا فيها الخير و يكسبوا فيها الأجر ويقوموا بأداء الحجّ .

فمادام أنّ هذه الأشهر مواقيت محدّدة لأداء الحجّ وكسب الخير فلا يجوز التلاعب بها أبدا بتقديم أو تأخير، فانّ التوقيت يتنافى مع تقديم فيه أو تأخير .

ويبدو أنّه وجّه هذا السؤال حينما قرّر النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - الخروج للعمرة سنة ستّ من الهجرة في شهر ذى القعدة وكان هذا القرار مبعث قلق شديد لفريق من المسلمين حيث انّهم كانوا يدركون جيّدا أنّ قريشا لن يسمحوا لهم بالدّخول في شعاب مكّة . وأنّهم سيشهرون في وجوههم السّلاح و يستقبلونهم - كما يستقبل العدوّ الموتور عدوّه - في حنق و غيظ شديد .

ويبدو كذلك أنّ هذا الشهر كان من شهور النّسيُ عند المشركين ، أو انّهم لمّا وصلتهم الأنباء بتوجّه المسلمين الى مكّة أعلنوا النّسيُ حتى يتمكّنوا من محاربتهم و صدّهم عن بيت الله .

فلم يكن من رأى هؤلاء النّاس أن يخاطروا بأنفسهم ، بل كانوا

يرون أن يجتنبوا هذا الخطر بمسايرة المشركين في قانون النسيء ، وتأجيلهم هذه العمرة الى شهر آخر يعتبره المشركون من الأشهر الحرم ، حتى يتسنى لهم الدخول في مكة آمنين من العدو ، من غير أن يقتحموا الحرب أو يواجهوا الخطر ٠

فهم وجهوا الى النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا السؤال وكأنهم يملأ اهابهم البر ولا يقيمهم ويقعدهم الا النصيحة للاسلام والمسلمين ، مع أنهم ما أهمتهم الا أنفسهم وما دفعهم الى هذا السؤال الا خوفهم وكراهيتهم للحرب والقتال ٠

فجاءهم الجواب من ربهم الذى كان مطلعا على ما يعتمل في صدورهم :

﴿ يسألونك عن الأهلة ٠ قل هى مواقيت للناس والحج ٠ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ٠ ﴾

معنى اتيان البيوت من ظهورها :

والمراد من اتيان البيوت من ظهورها - على ما يرجحه السياق هو ما ذكره الامام القرطبي - رحمه الله - حيث قال :

" وقد قيل ان الآية خرجت مخرج التنبيه من الله تعالى على أن يأتوا البر من وجهه ، وهو الوجه الذى أمر الله تعالى به ، فذكر اتيان البيوت من أبوابها مثلا ليشير به الى أن نأتى الأمور من مأتاها الذى ندبنا الله تعالى اليه ٠ " (١)

وقال الامام الرازى - رحمه الله - وهو يفسر هذه الآية :

" فجعل اتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح ، واتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم ، وهذا طريق مشهور في الكناية فان من أرشد غيره الى

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٤٦/١

الوجه الصّواب يقول له : ينبغي أن تأتي الأمر من بابه، وفي ضدّه يقال : انّه ذهب الى الشيء من غير بابه. " (١)

وعلى هذا فالشطر الثّاني من الآية لا يفسّره سبب آخر، وانّما هو تأكيد للشطر الأوّل منها.

اصالة هذا المفهوم :

وأمّا المفهوم الّذى أشرنا اليه وهو أنّ السؤال هنا كان عن مشروعية النّسيء فقد كان في السلف من ذهب اليه. فروى - مثلا - عن القفال ما يشير الى ذلك، حيث قال - رحمه الله - :

" أفرد الحجّ بالذكر لبيان أنّ الحجّ مقصور على الأشهر الّتي عيّنها الله تعالى لفرض الحجّ، وأنّه لا يجوز نقل الحجّ عن تلك الأشهر لأشهر أخر انّما كانت العرب تفعل ذلك في النّسيء. " (٢)

ويشبهه ما ذكره الامام القرطبيّ - رحمه الله - حيث قال :

" وقيل انّه النّسيء وتأخير الحجّ به، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراما بتأخير الحجّ اليه والشهر الحرام حلا لا بتأخير الحجّ عنه. فيكون ذكر البيوت على هذا مثلا لمخالفة الواجب في الحجّ و شهوره. " (٣)

وبعد ابطال فكرة النّسيء وتفنيدها جاء التحريض على القتال، الّذى كانوا يكرهونه وكانوا قد أثاروا موضوع النّسيء ليتخلّصوا منه :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، انّ الله لا يحبّ المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فان قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاء الكافرين.

---

(١) التفسير الكبير: ١٢٦/٥ (٢) تفسير البحر المحيط : ٦٢/٢

(٣) تفسير القرطبي : ٣٤٥/٢

فان انتهوا فانّ الله غفور رحيم • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الاّ على الظّالمين • الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص • فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين ﴾

لفتة بارعة :

ويحلو لنا أن نثبت هنا ما كتبه الامام ابن كثير - رحمه الله - وهو يتحدّث عن تلك الآيات فانّه أقرب للسياق وأوفق لنظام الآيات •

يقول - رحمه الله - :

" قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ﴾ قال هذه أوّل آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلمّا نزلت كان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يقاتل من قاتله ويكفّ عمّن كفّ عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وفي هذا نظر لأنّ قوله ﴿ الّذين يقاتلونكم ﴾ انّما هو تهييج واغراء بالأعداء الّذين همّتهم قتال الاسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال ﴿ وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة ﴾ ولهذا قال في هذه الآية ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أى لتكن همّتكم منبعثة على قتالهم كما أنّ همّتهم منبعثة على قتالكم وعلى اخراجهم من بلادهم الّتي أخرجوكم منها قصاصا • " (١)

وبمثل ما قاله ابن كثير - رحمه الله - في تأويل ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ﴾ نقول في تأويل ما بعده من قوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا ، انّ الله لا يحبّ المعتدين • ﴾

فليس المراد بالاعتداء هنا قتل النّساء والولدان ، أو قتال من

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/٢٢٦

لم يقاتلهم، أو اتيان مانهوا عنه، أو ابتداؤهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام، كما قيل وقيل.

المراد بالاعتداء :

فالاعتداء - بعموم لفظه - وان كان شاملا لهذه المعاني كلها لأن المراد به في هذا السياق هو التحذير من النكوص والاحجام وعدم الاستجابة لما أمروا به من القتال. فيكون معنى الآية : قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا بالنكوص على أعقابكم أو بالتهيب من عدوكم.

وهذا المعنى كما يدل عليه السياق، يدل عليه ماروى عن سيدنا عمر، حيث كان يقول عند عقد الألوية :

(بسم الله وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر الا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء.) (١)

فقوله - رضي الله عنه - : (ولا تجبنوا عند اللقاء) بعد قوله : (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) يساعدنا في التوصل الى ماترمي اليه كلمة الاعتداء.

وكلمة الاعتداء مطرد استعمالها في القرآن بمعنى عدم الانقياد لأوامر الله والتقصير في أدائها. ومنه قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، ان الله لا يحب المعتدين. ﴾ (٢)

ثم نجيء الى قوله تعالى :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين. ﴾

---

(١) العقد الفريد : ١/ ٩١ (٢) سورة المائدة : ٨٧

فهذه الآية أيضا ماجاءت لتكفّ أيدى النّاس وتهدّئ من سورة غضبهم و تلزمهم بالعدل في بأسهم وفتكهم ، كما قيل ، - وان كان ذلك من أوليات الجهاد الاسلامي ولا شكّ - وانّما جاءت لتهييج النّاس واغرائهم بمن يعتدى عليهم و ينتهك حرماتهم .

فليس المراد بالمماثلة هنا المماثلة في حجم الاعتداء و قدره ، بل المراد بها المماثلة في عمليّة الاعتداء وكيل الصّاع بالصّاع .

فهو كما قال الفِنْد الزِّمّاني :

صفحنا عن بني ذهل * وقلنا القوم اخوان
عسى الأيّام أن يرجعن قوما كالّذى كانوا
فلمّا صرّح الشرّ * فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوان دنّاهم كما دانوا (١)

فقوله تعالى : ﴿ فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ يشبه في مثليّته قول الشاعر : (دنّاهم كما دانوا)

وكذلك المراد بالتقوى هو الغضب لله ولدينه والاندفاع وراء داعي القتال بخفّة وحماس . فمن أجاب داعى القتال فقد اتّقى ومن نكص و أحجم وتصامم فهو من العصاة المتمرّدين على الله .

ثمّ عاد الكلام الى موضوع الانفاق في سبيل الله :

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا انّ الله يحبّ المحسنين . ﴾

فانّ هذا النّكوص عن الجهاد والتماس مبرّراته انّما يأتي نتيجة لحبّ المال ، فالمرء اذا أشرب في قلبه المال و أحضر الشحّ فانّه يحرص على الحياة و ينفر من الموت و يكره القتال في سبيل الله . والانفاق هو الّذى يداوى تلك النّفوس ويمسح عنها أسقامها

(١) الحماسة لأبي تمّام : باب الحماسة : رقم القصيدة (٢) .

ويعيد اليها صحّتها وطهارتها ٠

التشابه بين هذه الآيات وآيات سورة التوبة :

وتلك الآيات (١٨٨ ـ ١٩٥) تشبه في نظمها ومضامينها آيات سورة التوبة حيث قال تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا انّ كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال النّاس بالباطل و يصدّون عن سبيل الله ٠ والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم ٠ يوم يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ٠ هذا ما كنزتم لأنفسكم ٠ فذوقوا ما كنتم تكنزون ٠

انّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض ٠ منها أربعة حرم ٠ ذلك الدّين القيّم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة ٠ واعلموا أنّ الله مع المتّقين ٠ انّما النسيء زيادة في الكفر، يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله ٠ زيّن لهم سوء أعمالهم ٠ والله لا يهدى القوم الكافرين ٠

يا أيّها الّذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض ٠ أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة ٠ فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة الاّ قليل ٠ ﴾ (١)

فذكر هنا أوّلا أكل أموال النّاس بالباطل كما ذكر هناك في قوله تعالى :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكّام ٠٠ الآية ﴾

ثمّ ذكر النّسيء حيث قال تعالى :

﴿ فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم ﴾ أى في شأن تلك الأربعة الحرم

---

(١) سورة التوبة : ٣٤ ـ ٣٨

بتقديمها أو تأخيرها عن محلّها ، كما ذكرهناك حيث قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الأهلّة . قل هي مواقيت للنّاس والحجّ ... الآية ﴾ .

ثمّ حرّض على القتال :

﴿ وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة . ﴾

كما حرّض هناك :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، انّ الله لا يحبّ المعتدين . ﴾

وجعل هذا القتال آية التقوى حيث قال تعالى :

﴿ واعلموا أنّ الله مع المتّقين . ﴾

وهذا التنبيه ورد في كلا الموضعين على نمط واحد وفي سياق واحد حيث قيل في سورة البقرة :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتّقين . ﴾

وقيل في سورة التوبة :

﴿ وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أنّ الله مع المتّقين . ﴾

ثمّ كشف القناع عن وجوه الّذين كانوا يثيرون موضوع النّسيء وكانوا يتحمّسون له :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض . أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة . فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة الاّ قليل . ﴾

وهكذا سنرى في سورة البقرة قوله تعالى في شأن هؤلاء :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ﴾

وهـذه المقارنة بين آيات السورتين تزيدنا قناعة الى قناعة بما أسلفنا من تأويل تلك الآيات . فله الحمد وله الشكر على ما أرشدنا اليـه .

والآن نعود مرّة أخرى الى الآيات التي كنّا نتحدّث عنها فنقول :

بعد ما انتهى السياق من تفنيد فكرة النّسيء وانتهى من شحن تلك النّفوس الضّعيفة بشحنات الجهاد والقتال عاد الى موضوع العمرة والحجّ ، الّذى كان موضوع الساعة ، بالاضافة الى أنّ الأشهر الّتي أثير السؤال عنها كانت هى مواقيت الحجّ والعمرة . والّذين طرحوا هذا السؤال لم يطرحوه الاّ لغفلتهم عن أهميتهما . قال تعالى :

﴿ وأتمّوا الحجّ والعمرة لله . فان أحصرتم فما استيسر من الهدى . ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محلّه . فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . فاذا أمنتم فمن تمتّع بالعمرة الى الحجّ فما استيسر من الهدى . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيّام في الحجّ وسبعة اذا رجعتم . تلك عشرة كاملة . ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام . واتّقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب . الحجّ أشهر معلومات . فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ . وما تفعلوا من خير يعلمه الله . وتزوّدوا فانّ خير الزّاد التقوى ، واتّقون يا أولي الألباب . ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم . فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضّالّين . ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس . واستغفروا الله ، انّ الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا . فمن النّاس من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا وما له في الآخرة

من خلاق . ومنهم من يقول ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار . أولئك لهم نصيب ممّا كسبوا والله سريع الحساب واذكروا الله في أيّام معدودات ، فمن تعجّل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخّر فلا اثم عليه ، لمن اتّقى ، واتّقوا الله واعلموا أنّكم اليه تحشرون . ﴾

هذه الآيات ـ كما نرى ـ تتناول موضوع الحجّ ، وتبيّن بعض أحكامه ، مع التركيز على روحه ، الّتي تسرى في مناسكه ، وهى الاكثار من ذكر الله وتزوّد تقواه .

فهى ـ في جملتها ـ واضحة من ناحية نظمها و رباط معانيها ، الاّ أنّ هناك مفهومات قد اشتهرت بين النّاس و تسرّبت الى كتب التفسير وهى لم تدع تلك الآيات تظهر من ناحية نظمها بكامل جمالها وبهائها ، بل وتركت الدّارس يحسّ فيها نوعا من الاقتضاب ، مع أنّ الاقتضاب ليس من شأنها .

وبالتالي فهى بحاجة الى تأمّل ودراسة تنفي عنها الاقتضاب و تزيل عنها الغبش ، وتجلّي نظمها واضحا ناصعا يسرّ الدّارسين ويقنع الباحثين .

وها نحن نذكر تلك المفهومات الّتي قد شاعت وانتشرت مع كونها لا تتلاءم مع السياق ، ثمّ نذكر ما نراه أدنى الى الصّواب وأقرب للسياق .

المفهوم الأوّل :

لقد اختلف النّاس في تأويل قوله تعالى : ﴿ وأتمّوا الحجّ والعمرة لله ﴾ على عدّة أقوال .

فمنهم من قال : اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك .

ومنهم من قال : اتمامهما أن تخرج قاصدا لهما لا لتجارة ولا لغير ذلك .

ومنهم من قال : اتمامهما أن يحرم بالعمرة ويقضيها في غير أشهر الحجّ ، وأن يتمّ الحجّ دون نقص ولا جبر بدم .

ومنهم من قال : اتمامهما أن يفرد كلّ واحدة من حجّة أو عمرة ولا يقرن .

ومنهم من قال : اتمامهما أن تقضى مناسكهما كاملة بما كان فيهما من دماء .(١)

ومنهم من قال : اتمامهما أنّه اذا شرع في أحدهما لم يفسخه حتّى يتمّ .(٢)

تلك الأقوال الّتي تحوم حولها كتب التفسير .

والعلّة الّتي تعمّها جميعا هي أنّها مجرّد أقوال لا تعتمد على دليل .

والّذي يظهر من السياق أنّ هذه الآية جاءت تخاطب الّذين مضى معنا ذكرهم قبل قليل ، وهم الّذين كانوا يريدون أن يقعدوا عن الخروج للعمرة مع النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ خوفا ممّا كانوا يتوقّعونه من الحرب والقتال . وهذا الخوف هو الّذي دفعهم الى أن يثيروا موضوع النّسيء كما فصّلناه آنفا .

فبعد التحريض على القتال جاء التحريض على اتمام العمرة والحجّ . والمراد بالاتمام اداؤه والاتيان به كما جاء في قوله تعالى :

﴿ ثمّ أتمّوا الصّيام الى اللّيل ﴾ (٣)

فيكون معنى الآية :

(أناشدكم بالله أن تخرجوا لأداء العمرة والحجّ)

ولا يعنينا هنا ذلك الموضوع الّذي أثير بتلك المناسبة ، وهو كون العمرة واجبة أو غير واجبة ، بعد ما ثبت أنّ النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ

---

(١) المحرّر الوجيز : ١/٥٤٠ ـ ٥٤١ (٢) زاد المسير : ١/٢٠٤

(٣) سورة البقرة : ١٨٧

قد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه لأداء العمرة .[1]

فالخروج لتلك العمرة بالذات كان واجبا ، وان لم تكن العمرة في نفسها واجبة .

ثمّ تبع هذا الأمر قوله تعالى :

﴿ فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾

تحقيق معنى الاحصار :

ومعنى الاحصار في هذا السياق أوضح من الواضح ، ولكنّ العجيب الّذى يضحك له أنّ أكثر أهل اللّغة قالوا : انّ الاحصار هو ما كان من مرض أو نحوه ، وأمّا ما كان من العدوّ فهو الحصر .

قال الزّجّاج : " الاحصار عند جميع أهل اللّغة انّما هو من المرض ، فأمّا من العدوّ فلا يقال فيه الاّ حصر ، يقال : حصر حصرا ، وفي الأوّل : أحصر احصارا . "[2]

والّذى يظهر لنا من الفرق بين الحصر والاحصار بعد النّظر في استعمالات القرآن هو أنّه اذا قيل : حصره العدوّ ، فمعناه أنّه ضيّق عليه وأحاط به ، واذا قيل : أحصره العدوّ ، فمعناه أنّ العدوّ حال بينه وبين ما يريده ، وعلى الأوّل جاء قوله تعالى :

﴿ فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد ﴾[3]

وعلى الثّاني جاءت هذه الآية ، الّتي نتحدّث عنها ،وأيضا جاء قوله تعالى :

﴿ للفقراء الّذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ... الآية ﴾[4]

---

(١) السيرة النّبويّة لابن هشام : ٣٠٨/٢ (٢) تفسير القرطبي : ٣٧٢/١
(٣) سورة التوبة : ٥ (٤) سورة البقرة : ٢٧٣

ولعلّ القاضي ابن عطيّة ـ رحمه الله ـ أراد أن يشير الى نفس الفرق حيث قال :

" والصحيح أنّ حصر انّما هى فيما أحاط وجاور وأحصر معناه جعل الشيء ذا حصر . " (١)

فيكون معنى الآية اذا : أناشدكم بالله أن تخرجوا لأداء العمرة والحجّ فان حال دونكم العدوّ ـ الّذين تخافونهم ـ فتقربوا الى الله بما استيسر من الهدى وكفى .

والشيخ محمّد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ أيضا يميل الى هذا المعنى ، ويحتجّ له بدليل السياق حيث يقول :

" اختلف العلماء في المراد بالاحصار في هذه الآية الكريمة فقال قوم : هو صدّ العدوّ المحرم ومنعه ايّاه من الطّواف بالبيت ، وقال قوم : المراد به ما يشمل الجميع من عدوّ و مرض ونحو ذلك . ولكنّ قوله تعالى بعد هذا : ﴿ فاذا أمنتم ﴾ يشير الى أنّ المراد بالاحصار هنا صدّ العدوّ للمحرم ، لأنّ الأمن اذا أطلق في لغة العرب انصرف الى الأمن من الخوف لا الى الشفاء من المرض ، ونحو ذلك ويؤيّده أنّه لم يذكر الشيء الّذى منه الأمن ، فدلّ على أنّ المراد به ما تقدّم من الاحصار ، فثبت أنّه الخوف من العدوّ ، فما أجاب به بعض العلماء من أنّ الأمن يطلق على الأمن من المرض ، كما في حديث (من سبق العاطس بالحمد أمن من الشوص واللّوص والعوص) أخرجه ابن ماجة في سننه فهو ظاهر السقوط ، لأنّ الأمن فيه مقيّد بكونه من المرض ، فلو أطلق لانصرف الى الأمن من الخوف . " (٢)

ولقد سبق الشنقيطي الامام الشوكاني ـ رحمهما الله ـ بمثل هذا القول حيث يقول وهو يتحدّث عن قوله تعالى :(فاذا أمنتم .. الآية) :

" أى برأتم من المرض . وقيل : من خوفكم من العدوّ ، على

---

(١) المحرّر الوجيز : ٥٤٢/١ (٢) أضواء البيان : ١٠٦/١

الخلاف السابق . ولكنّ الأمن من العدوّ أظهر من استعمال أمنتم في ذهاب المرض ، فيكون مقوّيا لقول من قال : انّ قوله ﴿ فان أحصرتم ﴾ المراد به الاحصار من العدوّ ، كما أنّ قوله ﴿ فمن كان منكم مريضا ﴾ يقوّى قول من قال بذلك لافراد عذر المرض بالذكر."(١)

حكم قضاء المحصر :

ثمّ هناك خلاف بين العلماء في وجوب القضاء على من أحصر والّذى يظهر من نظم الآية و سياقها هو عدم الوجوب . وبيانه أنّ الله تعالى قال بعد ذكر الاحصار :

﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محلّه . فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أونسك . ﴾

فألزم ـ سبحانه وتعالى ـ المحصر بما يفعله أو بما يلتزم به غير المحصر ، تنبيها على أنّ المحصر قد كتب اسمه في سجلّ الحجيج وان لم يشهد أماكن الحجّ ، وأنّ هذا الاحصار لا يغيره شيئا ولا يفيته الأجر ، فعليه أن يلتزم ـ ما استطاع ـ بما يلتزم به الحجيج ، فليتقرّب الى الله بما استيسر من الهدى ولا يحلق رأسه حتى ينتهى من ذكاة الأضاحي . واذا اضطرّ الى حلق رأسه وخلع احرامه قبل ميقاته بسبب المرض فليفتد لذلك بصيام أو صدقة أو نسك .

فهذا النّظم يفيد أنّ المحصر في حكمه كغير المحصر وأنّه يحلق رأسه ويتحلّل من احرامه بعد ما ينتهي من ذكاة هديه ، ولا قضاء عليه .

وهكذا فعل النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ عام الحديبية ولا يبعد أن يكون فعله ـ عليه الصّلاة والسلام ـ استنباطا من نظم هذه الآية .

ولقد حرّر الشيخ الشنقيطي ـ رحمه الله ـ هذه المسألة فأحسن

---

(١) فتح القدير : ١٩٦/١

وأجـــاد . ولا بأس بأن ننقله هنا حتى يبلغ الأمـــر غايته من الوضوح.

يقول ـ رحمـــه الله ـ :

" انّ وجوب البدل بحجّة أخرى أو عمـــرة أخـرى لو كان يلزم لأمـــر النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أصحابه أن يقضوا عمرتهم الّتـــي صدّهم عنها المشركون . قال البخاري في صحيحه في باب " ليس علـــى المحصر بدل " ما نصّـــه : وقال مالك وغيره : ينحـر هـــديه ويحلق فـــي أيّ موضع كان ، ولا قضـــاء عليه ، لأنّ النّبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وأصحـــابه بالحـــديبية نحـــروا و حلقوا ، وحلّوا من كلّ شيءٌ قبـــل الطّواف ، وقبل أن يصل الهدى الى البيت ، ثمّ لم يذكر أنّ النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أمـــر أحـــدا أن يقضوا شيئا ، ولا يعودوا له ، والحديبيـــة خارج من الحـــرم . انتهى منه بلفظه.

وقد قال مالك في الموطّأ : انّه بلغـه أنّ رسول الله ـ صـــلّى الله عليه وسلّم ـ حلّ هو وأصحـــابه بالحـــديبية ، فنحـــروا الهـــدى وحلقوا رؤوسهـــم ، وحلّوا من كلّ شيءٌ قبل أن يطوفوا بالبيت ، وقبـــــل أن يصل اليه الهـــدى ، ثمّ لم يعلم أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أمـــر أحـــدا من أصحـــابه ولا ممّن كان معـه أن يقضـــوا شيئا ولا يعودوا لشيءٌ ، انتهى بلفظه من الموطّأ . ولا يعارض ما ذكـــرنا بما رواه الواقدى في المغازى من طـــريق الزّهـــرى ومن طـريق أبي معشر وغيرهما ، قالوا : أمـــر رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أصحـــابه أن يعتمـــروا فلم يتخلّف منهم الاّ من قتل بخيبر ، أو مات وخـــرج معـــه جماعـــة معتمرين ممّـــن لم يشهـــدوا الحـــديبيـــة ، وكانت عـــدّتهم ألفين ، لأنّ الشافعيّ ـ رحمه الله ـ قال : والّذى أعقله في أخبار أهل المغازى شبيه بما ذكـــرت ، لأنّا علمنا من متواطئ أحاديثهم أنّه كان معـه عام الحديبية رجـــال معروفون ، ثمّ اعتمـــر عمرة القضية ، فتخلّف بعضهم بالمدينـــة من غـــير ضرورة في نفس ولا مال "اهـ .

فهذا الشّافعي - رحمه الله - جزم بأنّهم تخلّف منهم رجال معروفون من غير ضرورة في نفس ولا مال . وقد تقرّر في الأصول أنّ المثبت مقدّم على النّافي . وقال ابن حجر في الفتح : ويمكن الجمع بين هذا ، ان صحّ ، وبين الّذى قبله ، بأنّ الأمر كان على طريق الاستحباب ، لأنّ الشافعي جازم بأنّ جماعة تخلّفوا بغير عذر. وقال الشافعي في عمرة القضاء : انّما سمّيت عمرة القضاء والقضية للمقاضاة الّتي وقعت بين النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - وبين قريش ، لا على أنّهم وجب عليهم قضاء تلك العمرة اهـ ، وروى الواقدى نحو هذا من حديث ابن عمر ، قاله ابن حجر. وقال البخارى في صحيحه في الباب المذكور ما نصّه : (وقال روح عن شبل عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد عن ابن عبّاس - رضى الله عنهما - : انّما البدل على من نقض حجّه بالتلذذ ، فأمّا من حبسه عذر أو غير ذلك فانّه يحلّ ولا يرجع.)(١)

هذا ، ولعلّ الأمر قد بلغ غايته من الوضوح ، فلننتقل منه الى مفهوم آخر .

المفهوم الثّاني :

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى :

﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾

" وانّما لم تكن المتعة لمن كان من حاضرى المسجد الحرام من أجل أنّ التّمتّع انّما هو الاستمتاع بالاحلال من الاحرام بالعمرة الى الحجّ مرتفقا في ترك العود الى المنزل والوطن بالمقام بالحرم حتى ينشئ منه الاحرام بالحجّ ، وكان المعتمر متى قضى عمرته في أشهر الحجّ ثمّ انصرف الى وطنه ، أو شخص عن الحرم الى ما تقصر فيه الصّلاة ، ثمّ حجّ من عامه ذلك ، بطل أن يكون مستمتعا ، لأنّه لم يستمتع بالمرفق الّذى جعل للمستمتع من ترك العود الى الميقات ،

---

(١) أضواء البيان : ١١٢/١ - ١١٣

والرجوع الى الوطن بالمقام في الحرم ، وكان المكّي من حاضرى المسجد الحرام لا يرتفق بذلك من أجل أنّه متى قضى عمرته أقام في وطنه بالحرم ، فهو غير مرتفق بشيء ممّا يرتفق به من لم يكن أهله من حاضرى المسجد الحرام ، فيكون متمتّعا بالاحلال من عمرته الى حجّه . " (١)

ويقول القاضي ابن عطيّة - رحمه الله - :

" فهذه شدّة على القادم مكّة من سائر الأقطار لما أسقط سفرا ، والمكّي لا يقتضي حاله سفرا في عمرة ولا حجّ ، لأنّه في بقعة الحجّ ، فلم يلزم شيئا ، لأنّه لم يسقط شيئا . " (٢)

ويقول الامام الرازى - رحمه الله - :

" قوله (ذلك) اشارة الى ما تقدّم ، وأقرب الأمور المذكورة ذكر ما يلزم المتمتّع من الهدى وبدله ، وأبعد منه ذكر تمتّعهم ، فلهذا السبب اختلفوا ، فقال الشافعي - رضى الله عنه - : انّه راجع الى الأقرب وهو لزوم الهدى وبدله على المتمتّع ، أى انّما يكون اذا لم يكن المتمتّع من حاضرى المسجد الحرام ، فأمّا اذا كان من أهل الحرم فانّه لا يلزمه الهدى ولا بدله ، وذلك لأنّ عند الشافعي - رضى الله عنه - هذا الهدى انّما لزم الآفاقي ، لأنّه كان من الواجب عليه أن يحرم عن الحجّ من الميقات ، فلمّا أحرم من الميقات عن العمرة ثمّ أحرم عن الحجّ لا من الميقات فقد حصل هناك الخلل فجعل مجبورا بهذا الدّم ، والمكّي لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فاقدامه على التمتّع لا يوقع خللا في حجّه فلا جرم لا يجب عليه الهدى ولا بدله . وقال أبو حنيفة - رضى الله عنه - : انّ قوله (ذلك) اشارة الى الأبعد ، وهو ذكر التمتّع ، وعنده لا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام ، ومن تمتّع أو قرن كان عليه دم هو دم جناية لا يأكل منه . " (٣)

---

(١) تفسير الطّبرى : ٢٥٦/٢ - ٢٥٧ (٢) المحرّر الوجيز : ٥٤٧/١

(٣) التفسير الكبير : ١٥٨/٥

ويقول الامام القرطبي ـ رحمه الله ـ :

" واختلف العلماء أيضا لم سمّى المتمتّع متمتّعا ، فقال ابن القاسم : لأنّه تمتّع بكلّ ما لا يجوز للمحرم فعله من وقت حِلّه في العمرة الى وقت انشائه الحجّ . وقال غيره : سمّى متمتّعا لأنّه تمتّع باسقاط أحد السفرين ، وذلك أنّ حقّ العمرة أن تقصد بسفر، وحقّ الحجّ كذلك ، فلمّا تمتّع باسقاط أحدهما ألزمه الله هديا ، كالقارن الّذى يجمع بين الحجّ والعمرة في سفر واحد ، والوجه الأوّل أعمّ فانّه يتمتّع بكلّ ما يجوز للحلال أن يفعله وسقط عنه السفر لحجّه من بلده ، وسقط عنه الاحرام من ميقاته في الحجّ . " (١)

هذه عبارات تعطينا عن حجّ التمتّع فكرة لا تكاد تتلاءم مع الفكرة الّتي يستقيها الباحث من القرآن نفسه، اذا تأمّل في سياق آياته .

فهى تصوّر لنا حجّ التمتّع وكأنّه عبارة عن تقصير واساءة وجناية وكأنّ الهدى الّذى يتقرّب به المتمتّع انّما هو جبر لذلك التقصير أو غرامة لتلك الجناية .

حكم حجّ التمتّع كما يستفاد من نظم الآيات :

بينما اذا تأمّل الباحث في نظم القرآن وجد حجّ التمتّع أفضل من غيره . ولا يفوتنا التنبيه على أنّ التمتّع في عبارة القرآن يشمل حجّ القران كما يشمل الحجّ الّذى نسمّيه حجّ التمتّع .

ولعلّ النّاس ذهلوا عن هذه الظّاهرة لما أنّهم لم يتّئدوا في تفسيره .

وانّ أحسن شيء عثرنا عليه في تفسيره هو ما كتبه الامام الزمخشرى ـ رحمه الله ـ حيث قال :

" (فمن تمتّع) أى استمتع (بالعمرة الى الحجّ) واستمتاعه بالعمرة الى وقت الحجّ انتفاعه بالتقرّب بها الى الله تعالى قبل الانتفاع بتقرّبه بالحجّ . " (٢)

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٩٥/١ (٢) الكشّاف : ٣٤٥/١

هذا ، وانّ النّظم القرآني يوحي الينا أكثر من ذلك ، فانّ الأمر لا ينتهي عند الأفضليّة فقط ، بل يفيد السياق أنّ حجّ التمتّع يكاد يكون كمثلى حجّ الافراد .

وتلك فضيلة ومكرمة خصّ بها من لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، وذلك تقديرا للمشاقّ التي يكابدونها والتكاليف الّتي يتحمّلونها في سفرهم اليه .

ولا يعجزنا ادراك هذه النّكتة اذا تأمّلنا في الأمور الآتية :

١ ــ اختار السياق للجمع بين العمرة والحجّ لفظ (التمتّع) ولا يخفى مافيه في هذا السياق من رقّة وعذوبة وحلاوة !

٢ ــ ثمّ طلب من المتمتّع أن يتقرّب بالهدى . ولم يأت السياق لأداء هذا المعنى بعبارة تحمل مفهوم الايجاب أو الالزام ، وانّما جاء بعبارة لطيفة سمحة : ﴿ فما استيسر من الهدى ﴾ وهذه العبارة كما أنّها تحمل توجيها لتقديم الهدى ، تومئ ايماء الى الغاية المنشودة من وراء هذا الهدى ، وهى تكميل المتاع الّذى أراده المتمتّع بالعمرة الى الحجّ . فهذا الهدى يجبر ذلك النّقصان أو يغطّي ذلك الفرق الّذى يوجد بين الحجّ والعمرة . وهكذا ترتفع العمرة الى درجة الحجّ ، فتجتمع للمتمتّع حجّتان في حجّة .

٣ ــ جاء التوجيه لمن لم يجد الهدى أن يصوم ثلاثة أيّام في الحجّ و سبعة اذا رجع الى أهله . ثمّ قال تعالى :﴿ تلك عشرة كاملة ﴾

ولا يخفى على المتذوّق الفطن ماتحمل لفظة (كاملة) في هذا السياق من حلاوة أىّ حلاوة ! ولا يخفى مافيها من ايحاءات . كأنّ هذه العبارة تنادى بلسانها أن لا تحسبوا هذه العشرة هينة ! فانّها تتّسم بالكمال و تصلح لأن تكون سلّما الى الكمال . و تكمل ماينقص العمرة حتى تصل الى درجة الحجّ .

٤ ـ ثمّ جاء في ختام الحديث :

﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾

وهذه اللام في (لمن) أظهر في معنى الاختصاص منها في أيّ معنى آخر ، فهي تدلّ على أنّ هذه فضيلة ومكرمة خصّ بها من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، دون من سواهم فما هي تلك الفضيلة أو تلك المكرمة ؟ اذا لم تكن التي أشرنا اليها من أنّ حجّ التمتّع يكاد يكون كمثلى حجّ الافراد .

وبالجملة فالتأمّل في نظم الآية يكشف لنا أنّ حجّ التمتّع له شأن ليس لغيره . ولذلك آثر النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في الرأي الأرجح ـ أن يكون متمتّعا لا مفردا .

وأمّا القول بأنّ من اتمام العمرة والحجّ أن يفرد كلّ واحد منهما من غير تمتّع ولا قران ، وأنّ من حقّ العمرة أن تقصد بسفر ومن حقّ الحجّ كذلك ، فهو قول ليس عليه دليل .

٥ ـ ويمكن أن نستأنس لما قلناه في شأن حجّ التمتّع بما أخرجه مالك عن سيّدنا عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال :

(والله لأن أعتمر قبل الحجّ وأهدي أحبّ اليّ من أن أعتمر بعد الحجّ في ذي الحجّة .) (١)

فهذا نصّ واضح على أنّ التمتّع بالعمرة الى الحجّ أفضل من افرادهما .

المفهوم الثّالث :

يقول القاضي ابن عطيّة ـ رحمه الله ـ في تأويل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ﴾ :

" الجناح أعمّ من الاثم ، لأنّه فيما يقتضي العقاب وفيما يقتضي العتاب والزّجر . و (تبتغوا) معناه تطلبون بمحاولتكم . وقال ابن عمر وابن عبّاس ومجاهد وعطاء : انّ الآية نزلت ، لأنّ العرب

---

(١) موطّأ الامام مالك بشرح الزّرقاني ، كتاب الحجّ ، باب ما جاء في التمتّع : ٣/ ٧٠

تحرّجت – لمّا جاء الاسلام – أن يحضروا أسواق الجاهليّة كعكاظ وذى المجاز ومجنة فأباح الله تعالى ذلك أى لا درك في أن تتّجروا وتطلبوا الربح . وقال مجاهد : كان بعض العرب لا يتجرون مذ يحرمون ، فنزلت الآية في اباحة ذلك . وقال ابن عمر فيمن أكرى ليحجّ: حجّه تامّ ولا حرج عليه في ابتغاء الكراء . " (١)

ويقول ابن الجوزى – رحمه الله – :

" الفضل هاهنا : التماس الرزق بالتجارة والكسب ". (٢)

ويقول الزّمخشرى – رحمه الله – :

" (فضلا من ربّكم) عطاء منه وتفضّلا وهو النّفع والربح بالتجارة . وكان ناس من العرب يتأثّمون أن يتّجروا أيّام الحجّ ، واذا دخل العشر كفّوا عن البيع والشّراء فلم تقم لهم سوق ، ويسمّون من يخرج بالتجارة ، الدّاج ، ويقولون هؤلاء الدّاج وليسوا بالحاجّ، وقيل كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقهم في الجاهليّة يتّجرون فيها في أيّام الموسم ، وكانت معايشهم منها ، فلمّا جاء الاسلام تأثّموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم . وانّما يباح مالم يشغل عن العبادة " (٣)

ويقول الشوكاني – رحمه الله – :

" قوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم) فيه الترخيص لمن حجّ في التجارة ونحوها من الأعمال الّتي يحصل بها شيئ من الرزق ، وهو المراد بالفضل هنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أى لا اثم عليكم في أن تبتغوا فضلا من ربّكم مع سفركم لتأدية ماافترضه عليكم من الحجّ . " (٤)

وهكذا نرى المفسّرين – رحمهم الله – قد نحوا في تأويل هذه الآية منحى واحدا ، كما هو واضح من كلامهم .

---

(١) المحرّر الوجيز : ١/٥٥٨ (٢) زاد المسير : ١/٢١٢

(٣) الكشّاف : ١/٣٤٧ (٤) فتح القدير: ١/٢٠١

تقويم هذا التأويل :

ونحن قلبنا هذا التأويل ظهرا لبطن فوجدناه حقيقا باعادة النّظر فيه ، لكونه لا يتلاءم مع سياق الآية وجوّها . بل انّ سياق الآية و جوّها يأبى هذا التأويل كلّ الاباء ، كما أنّ نظيرها من سورة المائدة تجعلنا نشكّ في صحّته ، وتعدل بنا عنه الى غيره .

وبيانه أنّ قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ﴾ قد سبقته هذه الآية :

﴿ الحجّ أشهر معلومات . فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ . وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزوّدوا فانّ خير الزّاد التقوى . واتّقون يا أولي الألباب . ﴾

وجاء بعده قوله تعالى :

﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضّالّين ﴾

فالجوّ كلّه جوّ يسوده التّقوى و ذكر الله . جوّ يسمو بالمرء عن حطام الدّنيا وشهواتها الى نعيم الآخرة و جنّاتها . جوّ يزرع في المرء حبّ الله وابتغاء رضوانه ويزهّده فيما يفتنه من ماله و سلطانه .

فان قبلنا هذا التأويل فسيكون قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ﴾ غريبا جدّ غريب في هذا الجوّ كأنّه لم يصادف مكانه الّذي يليق به .

ثمّ قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ﴾ عطف عليه قوله تعالى : ﴿ فاذا أفضتم ... الآية ﴾ ولا بدّ من صلة ومناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ولا سيّما اذا كان العطف بالفاء . فما هي الصّلة والمناسبة بينهما ، اذا رضينا بهذا المفهوم ؟

وعلى هذا فنحن لا نستريح الى هذا التأويل ونفضّل أن نفسّر الآية في ضوء نظيرها في القرآن ، وهو قوله تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربّهم و رضوانا .. الآية ﴾

فقوله تعالى : ﴿ يبتغون فضلا من ربّهم ورضوانا ﴾ جاء في سياق الحجّ كما أنّ قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ﴾ جاء في سياقه ، فتصلح كلتا الآيتين لأن تفسّر احداهما الأخرى ، والقرآن يفسّر بعضه بعضا .

ولقد ذكر أبو حيّان - رحمه الله - عن بعض السلف أنّه قال في تأويل (فضلا من ربّكم) :

" الفضل هنا هو ما يعمل الانسان ممّا يرجو به فضل الله ورحمته من اعانة ضعيف واغاثة ملهوف واطعام جائع . " (١)

ونحن نرى أنّ هذا القول مع أنّه أحسن من غيره ممّا سبقه من الأقوال لم يصب المحزّ ، فالقرآن نفسه بيّن لنا كيف نبتغي فضلا من ربّنا ، فقال :

﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضّالّين . ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس . واستغفروا الله انّ الله غفور رحيم . ﴾

فالفاء هنا في قوله تعالى : ﴿ فاذا أفضتم ﴾ تفيد التفصيل والبيان ، والاكثار من الذكر والاستغفار هو الّذى نركّز عليه في حجّنا ، وهى الطّريقة الّتي نبتغي بها فضلا من ربّنا ، والبرّ أنواع وأشكال ، ولكلّ محلّه الخاصّ .

ثمّ قال أبو حيّان بعد ما ذكر هذا القول :

" واعترضه القاضي بأنّ هذه الأشياء واجبة أو مندوب اليها فلا يقال فيها لا جناح عليكم ، انّما يقال في المباحات . والتّجارة

---

(١) تفسير البحر المحيط : ٩٥/٢

ان أوقعت نقصا في الطّاعة لم تكن مباحة وان لم توقع نقصا فالأولى تركها ، فهي اذا جارية مجرى الرخص ٠ " (١)

وهذا الاعتراض يتمخّض لنا عن أمرين :

١ ــ الروايات الّتي وردت في سبب نزول هذه الآية ليست من القوّة والمتانة بحيث يحتجّ بها ، فانّها لوكانت تتّسم بالقوّة والمتانة لما عدل عنها القاضي ـ رحمه الله ـ الى دليل آخر ٠

٢ ــ ممّا صرف النّاس عن التّأويل الصحيح للآية قلّة انتباههم للمواضع الّتي يطّرد فيها استعمال (لا جناح عليكم) وهذا الّذى ساقهم الى قبول تلك الروايات الّتي غيّرت نمط الكلام وأفسدت عليهم النّظام ٠

وهذا الوضع يلحّ علينا أن تكون لنا وقفة يسيرة نبيّن فيها ماخفي من معاني (لا جناح عليكم) ٠

معنى (لا جناح عليكم) :

انّ كلمة (لا جناح عليكم) أو (ليس عليكم جناح) كما أنّها تستعمل للاباحة والترخيص ورفع الاثم فكذلك تستعمل للترغيب والتشويق والتحريض على الأمور الواجبة أو المندوب اليها ٠ ونبيّن ذلك بالأمثلة ٠

قال تعالى :

﴿ وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ٠ والصّلح خير ٠ وأحضرت الأنفس الشّحّ ، وان تحسنوا وتتّقوا فانّ الله كان بما تعملون خبيرا ٠ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ انّ الصّفا والمروة من شعائر الله ٠ فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أنّ يطّوف بهما ٠ ومن تطوّع خيرا فانّ الله شاكر عليم ٠ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصّلاة ان خفتم أن يفتنكم الّذين كفروا ٠ انّ الكافرين كانوا لكم عدوّا مبينا ٠ ﴾ (٣)

---

(١) سورة النّساء : ١٢٨ (٢) سورة البقرة : ١٥٨ (٣) سورة النّساء : ١٠١

فالمثال الأوّل قد استعمل فيه (فلا جناح عليهما) للأمر المندوب اليه بلا شكّ ، وهو اصلاح ذات البين . والقرآن نفسه قد دلّ على خيريّته حيث قال : (والصّلح خير) ثمّ قال : (وان تحسنوا وتتّقوا فانّ الله كان بما تعملون خبيرا .)

والمثال الثّاني قد استعمل فيه (فلا جناح عليه) لما يجب على من حجّ البيت أو اعتمر ، وهو السعي بين الصّفا والمروة .

والمثال الثّالث قد استعمل فيه (فليس عليكم جناح) للقصر من الصّلاة وهو أيضا ممّا يجب على الجيش الاسلامي ان كان هناك خوف الفتنة من الأعداء .

فهذه الأمثلة الثلاثة حجّة على من يقول : انّ (لا جناح) يستعمل للاباحة والترخيص فقط ، فانّه كما يستعمل للاباحة والترخيص يستعمل للترغيب والتحريض والتوكيد . وقد يكون هذا الأسلوب أبلغ من غيره في التحريض والتوكيد .

وبالجملة فنحن لا نستريح الى ما قيل في تأويل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم ﴾ فانّ جوّ الآية وسياقها يأبى ذلك كلّ الاباء .

<u>المفهوم الرّابع :</u>

يقول الامام ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ في تأويل قوله تعالى: ﴿ ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس واستغفروا الله ، انّ الله غفور رحيم ﴾ " وفي المخاطبين بذلك قولان . أحدهما : أنّه خطاب لقريش ، وهو قول الجمهور . والثّاني : أنّه خطاب لجميع المسلمين ، وهو يخرج على قول من قال : النّاس آدم أو ابراهيم .

والافاضة ها هنا على ما يقتضيه ظاهر اللفظ : هي الافاضة من المزدلفة الى منى صبيحة النّحر ، الاّ أنّ جمهور المفسّرين على أنّها الافاضة من عرفات ، فظاهر الكلام لا يقتضي ذلك ، كيف يقال :

﴿ فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ﴾ ثمّ أفيضوا من عرفات ؟ ! غير أنّي أقول : وجه الكلام على ما قال أهل التفسير: أنّ فيه تقديما وتأخيرا ، تقديره : ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس ، فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله . " (١)

ويقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل تلك الآية بعد ما يذكر الأخبار الواردة في سبب نزولها :

" والّذى نراه صوابا من تأويل هذه الآية ، أنّه عنى بهذه الآية قريش ومن كان متحمّسا معها من سائر العرب لاجماع الحجّة من أهل التأويل على أنّ ذلك تأويله .

واذ كان ذلك كذلك فتأويل الآية : فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ ، ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس ،واستغفروا الله ، انّ الله غفوررحيم ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وهذا اذ كان ما وصفنا تأويله فهو من المقدّم الّذى معناه التأخير ، والمؤخّر الّذى معناه التقديم ، على نحو ما تقدّم بياننا في مثله ، ولولا اجماع من وصفت اجماعه على أنّ ذلك تأويله ، لقلت : أولى التأويلين بتأويل الآية ما قاله الضحّاك ، من أنّ الله عنى بقوله (من حيث أفاض النّاس) من حيث أفاض ابراهيم ، لأنّ الافاضة من عرفات لا شكّ أنّها قبل الافاضة من جمع ، وقبل وجوب الذكر عند المشعر الحرام ، واذ كان ذلك لا شكّ كذلك وكان الله عزّوجلّ انّما أمر بالافاضة من الموضع الّذى أفاض منه النّاس بعد انقضاء ذكر الافاضة من عرفات وبعد أمره بذكره عند المشعر الحرام ، ثمّ قال بعد ذلك (ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس) كان معلوما بذلك أنّه لم يأمر بالافاضة الا من الموضع الّذى لم يفيضوا منه دون الموضع الّذى قد أفاضوا منه ، وكان الموضع الّذى قد أفاضوا منه فانقضى وقت الافاضة منه ، لا وجه لأن يقال : أفض منه ،

(١) زاد المسير : ٢١٤/١

٣ ـ ثمّ ما الدّليل على أنّ الخطاب في هذه الآية موجّه الى قريش بالذات ؟ فانّه في غيرها من الآيات عامّ وموجّه الى الجميع ، إنّ تخصيص آية واحدة بقريش من بين سائر الآيات يحتاج الى دليل واضح كالشّمس .

وأمّا ما قاله الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ من انعقاد الاجماع على هذا التأويل ـ أى التأويل الّذى يعتمد على القول بالتقديم والتأخير في الآية ـ فهو قول فيه نظر . فقد روى الامام البخارى من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عبّاس ـ رضى الله عنهما ـ ما يقتضي أنّ المراد بالافاضة هنا هى الافاضة من المزدلفة الى منى لرمى الجمار . (١)

ولقد اختار الامام الضّحّاك ـ رحمه الله ـ هذا القول كما ذكره الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ .

هذا من ناحية النّقل ، وأمّا من ناحية العقل ، فالعقل لا يقبل أبدا أن ينعقد الاجماع على معنى يخالف ظاهر الكلام ، اللّهمّ الاّ أن يكون هناك سبب ظاهر قاهر يلجئ الى ذلك .

وكان أولى بابن جرير أن يقيم على قول الضّحّاك ان كان قد اطمئنّ الى قوّته و رجحانه من ناحية النّظم والمعنى ، وكان أولى به أن لا يعدل عنه الى غيره بسبب روايات لا تخلو من احتمال الخطأ .

رأى ثالث :

هذا ،وهناك رأى ثالث قد يكون أرجح من غيره في تأويل الآية ، ويكون أقرب لسياقها وأوفق لنظامها ، وهو أنّ هذه الآية ليست بصدد ذكر موضع الافاضة ، فانّه معلوم مفهوم ، فالحاجّ اذا وصل الى المشعر الحرام ، فهو يفيض ـ بطبيعة الحال ـ من المشعر الحرام ، فليس القصد من الآية التنبيه الى موضع الافاضة ، وانّما القصد

---

(١) صحيح البخارى : كتاب التفسير، باب : ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس .

ومن المواضع الّتي جاءت فيها كلمة (من حيث) في معنى الكيفيّة قوله تعالى :

﴿ هو الّذى أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا و ظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ﴾ (١)

أى فأهلكهم الله بطريقة لم تخطر ببالهم ولم تكن في حسبانهم وهى أن قذف في قلوبهم الرّعب .

ومن تلك المواضع قوله تعالى في شأن المطلّقات :

﴿ أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضارّوهنّ لتضيّقوا عليهنّ . ﴾ (٢)

أى أسكنوهنّ كما تسكنون أنتم وليكن مستوى عيشهنّ شبيها بمستوى عيشكم . وهذا كما قال تعالى بعد هذه الآية :

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممّا آتاه الله ﴾

ومن تلك المواضع قوله تعالى :

﴿ ولمّا دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها . ﴾ (٣)

أى ولمّا دخلوا كما أمرهم أبوهم ، وقد أمرهم أبوهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد و يدخلوا من أبواب متفرّقة .

وهكذا نرى كلمة (من حيث) قد اطّرد استعمالها في القرآن في معنى الكيفيّة . ونرى أنّ الآية الّتي نتحدّث عنها لو فسّرت أيضا بنفس المعنى كان أقرب لسياقها وأوفق لنظامها .

---

(١) سورة الحشر : ٢ (٢) سورة الطّلاق : ٦
(٣) سورة يوسف : ٦٨

المفهوم الخامس :

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - في تأويل قوله تعالى : ﴿ فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا ﴾ :

" يعني بقوله جلّ ثناؤه : (فاذا قضيتم مناسككم) فاذا فرغتم من حجّكم فذبحتم نسائككم (فاذكروا الله) . " (١)

ويقول الامام الرازى - رحمه الله - :

" اعلم أنّ القضاء اذا علق بفعل النّفس ، فالمراد به الاتمام والفراغ ، واذا علق على فعل الغير فالمراد به الالزام . نظير الأوّل قوله تعالى : (فقضاهنّ سبع سموات في يومين) (فاذا قضيت الصّلاة) وقال عليه الصّلاة والسلام : (وما فاتكم فاقضوا) ويقال في الحاكم عند فصل الخصومة : قضى بينهما ، ونظير الثّاني قوله تعالى : (وقضى ربّك) واذا استعمل في الاعلام ، فالمراد أيضا ذلك كقوله : (وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب) يعني أعلمناهم .

اذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى : (فاذا قضيتم مناسككم) لا يحتمل الّا الفراغ من جميعه خصوصا وذكر كثير منه قد تقدّم من قبل . وقال بعضهم : يحتمل أن يكون المراد : اذكروا الله عند المناسك ، ويكون المراد من هذا الذكر ما أمروا به من الدّعاء بعرفات والمشعر الحرام والطّواف والسعى ويكون قوله : (فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله) كقول القائل : اذا حججت فطف وقف بعرفة ولا يعني به الفراغ من الحجّ ، بل الدخول فيه . وهذا القول ضعيف لأنّا بيّنّا أنّ قوله :(فاذا قضيتم مناسككم) مشعر بالفراغ والاتمام من الكلّ ، وهذا مفارق لقول القائل : اذا حججت فقف بعرفات ، لأنّ مراده هناك الدّخول في الحجّ لا الفراغ ، وأمّا هذه الآية فلا يجوز أن يكون المراد منها الّا الفراغ من الحجّ . " (٢)

ويقول الامام أبو حيّان - رحمه الله - وهو يفسّر هذه الآية :

" وسبب نزولها أنّهم كانوا اذا اجتمعوا في الموسم تفاخروا بآبائهم

---

(١) تفسير الطّبرى : ٢٩٥/٢ (٢) التفسير الكبير : ١٨٣/٥ - ١٨٤

فيقول أحدهم : كان أبي يقرى الضّيف و يضرب بالسيف ويطعم الطّعام وينحر الجزور ويفكّ العانى و يجزّ النّواصى ويفعل كذا وكذا ، فنزلت . وقال الحسن : كانوا اذا حدّثوا أقسموا بالآباء فيقولون : وأبيك فنزلت . وقال السّدى : كانوا اذا قضوا المناسك وأقاموا بمنى يقوم الرجل ويسأل الله ، فيقول اللّهم انّ أبي كان عظيم الجفنة كثير المال فأعطني بمثل ذلك ، ليس يذكر الله انّما يذكر أباه ويسأل الله أن يعطيه في دنياه . وقال معناه أبووائل وابن زيد فنزلت فاذا قضيتم أى أدّيتم وفرغتم كقوله (فاذا قضيت الصّلاة) أى أدّيت . وقد يعبّر بالقضاء عن ما يفعل من العبادات خارج الوقت المحدود . والقضاء اذا علق على فعل النّفس فالمراد منه الاتمام والفراغ كقوله (وما فاتكم فاقضوا) واذا علق على فعل غيره فالمراد منه الالزام كقوله : قضى الحاكم بينهما . والمراد من الآية الفراغ . "

ويستطرد - رحمه الله - فيقول :

" وقال بعض المفسّرين يحتمل أن يكون هذا الشرط والجزاء كقولك : اذا حججت فطف وقف بعرفة ، فلا نعني بالقضاء الفراغ من الحجّ بل الدّخول فيه . ونعني بالذكر ما أمروا به من الدّعاء بعرفات والمشعر الحرام والطّواف والسعى ، فيكون المعنى : فاذا شرعتم في قضاء المناسك أى في أدائها فاذكروا . وهذا خلاف الظّاهر ، لأنّ الظّاهر الفراغ من المناسك لا الشروع فيها ، ويؤيّد ذلك مجئ الفاء في " فاذا " بعد الجمل السابقة . " (١)

ويقول الامام ابن كثير - رحمه الله -

" يأمر تعالى بذكره والاكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها " (٢)

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله - :

" والمراد بالمناسك أعمال الحجّ ومنه قوله - صلّى الله عليه وسلّم -

---

(١) تفسير البحر المحيط : ١٠٢/٢ - ١٠٣ (٢) تفسير ابن كثير : ٢٤٣/١

" خذوا عنّي مناسككم " ، أي فاذا فرغتم من أعمال الحجّ فاذكروا الله. وقيل : المراد بالمناسك الذبائح . وانّما قال سبحانه : (كذكركم آباءكم) لأنّ العرب كانوا اذا فرغوا من حجّهم يقفون عند الجمرة فيذكرون مفاخر آبائهم ومناقب أسلافهم فأمرهم الله بذكره مكان ذلك الذكر ، ويجعلونه ذكرا مثل ذكرهم لآبائهم أو أشدّ من ذكرهم لآبائهم . " (١)

تقويم هذا التأويل :

وهكذا نرى جلّة المفسّرين - رحمهم الله - يتناقلون معنى واحدا في تأويل الآية مع أنّ هذا المعنى لا ينسجم مع السياق ، لا أقول سياق الآيات ، بل سياق تلك الآية نفسها .

ولعلّ الّذى جعل النّاس يقبلون الى هذا التأويل هو ما ورد في الروايات من أنّ العرب بعد ما كانوا ينتهون من أعمال الحجّ ، كانوا يتفاخرون بآبائهم ويتعاظمون بأنسابهم ، فأمرهم الله تعالى أن يشتغلوا بذكره دون غيره .

ولا يهمّنا الآن أنّ العرب كانوا يفعلون ذلك أم لا ، وانّما الّذى يهمّنا هو أنّ هذه الآية لم تتعرّض لصنيعهم ذلك . ولو كانت قد تعرّضت لذلك لاختلفت العبارة عمّا هي عليه الآن ، وكانت نحوا ممّا يلي :

(فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا ، فمن النّاس من يقول : " أولئك آبائي فجئني بمثلهم " ومنهم من يقول : " أبي الاسلام لا أب لي سواه ، اذا افتخروا بقيس أو تميم ")

ولكنّ السياق ما جاء على هذا النمط ، بل جاء يحمل لونا آخر وطابعا آخر ، فقوله تعالى : ﴿ فمن النّاس من يقول: ربّنا آتنا في الدّنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول: ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا ﴾ . يوحي الينا

---

(١) فتح القدير : ٢٠٤/١

بأنّ السياق هنا غير ناظر الى ما كانوا يفعلونه بعد رجوعهم الى منى بالذات، وانّما هو مركّز على صرف اهتماماتهم عن حبّ الدّنيا وشهواتها الى الاكثار من ذكر الله تعالى والتزوّد للآخرة ٠

وما استخدم هنا هذا الأسلوب ـ كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا ـ الاّ مبالغة في التوكيد والتحريض على ذكر الله ، فانّ ذكر الآباء كان أحلى شيء في أفواههم ، وأبرزه في حياتهم ، وكان هذا في نظرهم مناط عزّهم وافتخارهم ، كما هو غير خاف على كلّ من اطّلع على أحوالهم ونظر في خطبهم وقصائدهم ، فلم يكن هناك تشبيه أبلغ من هذا التشبيه لأداء هذا المعنى بهذه القوّة ٠

فهو يشبه في حكمه ووضعه قوله تعالى :

﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾(١)

فكلا التعبيرين لا يشيران الى مشهد خاصّ أو عادة خاصّة، وانّما هما أسلوبان من أساليب التعبير فقط ٠

هذا ، وهناك أمر آخر يجدر التنبيه اليه ، وهو أنّ قوله تعالى : ﴿ فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ... الآية ﴾ جملة شرطيّة ٠ فان فسّرنا ﴿ فاذا قضيتم ﴾ بقولنا : فاذا فرغتم أو فاذا انتهيتم ، فسيستلزم هذا أنّ الذكر لا يلزم الاّ بعد الفراغ من المناسك ، فانّ الجزاء يتبع الشرط ، ولا يجب أو لا يجوز تحقّقه الاّ بعد تحقّق الشرط ، كقوله تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع .. ﴾ (٢)

فالسعي الى ذكر الله وذر البيع لا يلزم الاّ بعد النّداء للصّلاة ٠

وهذا المعنى لا يستقيم في الآية الّتي نحن فيها ، فانّ أنسب وقت للذكر، بل الوقت الّذي يجب فيه الذكر وجوبا مؤكّدا هو الوقت

---

(١) سورة البقرة : ١٤٦ (٢) سورة الجمعة : ٩

الّذى يزاول المرء فيه أعمال الحجّ لا بعده ٠

ثمّ انّ هذا التأويل الّذى ذهب اليه النّاس ، كماأنّه يخلّ بنظام هذه الآية نفسها ، لا ينسجم مع سياق ما بين يديها وما خلفها ، وذلك من وجهين :

الوجه الأوّل :

قوله تعالى :﴿ فاذا قضيتم مناسككم ٠٠ الآية ﴾ عطف على ما قبله بالفاء وهو قوله تعالى : ﴿ ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس ، واستغفروا الله ، انّ الله غفور رحيم ٠ ﴾

فان فسّرنا قوله تعالى : ﴿ فاذا قضيتم ﴾ بقولنا : فاذا فرغتم أو فاذا انتهيتم ، فهذا العطف بالفاء يوهم اذاً أنّ أعمال الحجّ تنتهي بانتهاء الافاضة من المشعر الحرام ، كما أنّه يخلّ بالمصلحة الّتي تسبّبت الى المبادرة بهذا التوجيه الكريم دون تفصيل بقيّة المناسك الّتي تتبع هذه الافاضة ٠ وسنشير الى تلك المصلحة باذن الله ، حينما نذكر ما يترجّح عندنا في تأويل الآية ٠

الوجه الثّاني :

قال تعالى بعد هذه الآية بآية واحدة :

﴿ واذكروا الله في أيّام معدودات ، فمن تعجّل في يومين فلا اثم عليه ، ومن تأخّر فلا اثم عليه ، لمن اتّقى ٠٠٠ الآية ﴾

والمراد بأيّام معدودات هى أيّام الحجّ بلا خلاف ٠

فاذا جمعنا الآيتين فسيكون المضمون حسب التأويل السائر هكذا : ﴿ فاذا فرغتم من أعمال الحجّ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا ٠٠٠٠ واذكروا الله في أيّام الحجّ ، فمن تعجّل في يومين فلا اثم عليه ، ومن تأخّر فلا اثم عليه ﴾

ولا يخفى ما في هذا المضمون من الخلل وسوء الترتيب في أجزائه ٠

تلك الموانع والاشكالات الّتي تمنعنا من القول بما قيل به في تأويل هذه الآية ٠

والآن نتوجّه الى بيان ما يترجّح عندنا في تأويلها ٠

ولا شكّ أنّنا ان توصّلنا الى تأويل يكون سليما من هذه الاشكالات ويكون أقرب لنظام الآيات ، فانّه سيكون أرجح وأفضل وأجدر بالقبول والاختيار من غيره ٠

تأويل الآية :

انّ التأمّل في نظام هذه الآية و سياقها يذهب بنا الى القول بأنّ المراد بقوله تعالى : ﴿ فاذا قضيتم مناسككم ﴾ هو أداء تلك المناسك ومباشرتها ، لا الفراغ منها ٠ فيكون معنى الآية اذا :

(فاذا أدّيتم أعمالكم الّتي افترضها الله عليكم في حجّكم فأكثروا من ذكر الله في تلك الفترة ، أي الفترة الّتي تؤدّون فيها أعمالكم ٠)

ولا بأس بأن نردف هذا القول بشيء من البيان والايضاح ، فنقول وبالله التوفيق :

انّ الله تعالى لم يقصد في هذه الآيات الى أن يفصّل مناسك الحجّ ، وانّما أراد ـ كما هو واضح من السياق ـ أن ينبّه الى روحها وغايتها ، وهي الرجوع الى الله والاكثار من ذكره تعالى ، والتزوّد بالكثير الكثير من التقوى ٠

وذَكَرَ الله تعالى بتلك المناسبة الافاضة من عرفات والافاضة من المشعر الحرام ، وحرّض النّاس على أن يذكروا الله ويستغفروه أثناء تلك الافاضة ٠

وخصّ هذين المنسكين بالذكر ، لأنّهما يعتمدان على الأسفار والرحلات ٠ والغالب في الأسفار والرحلات أنّها تغفل المرء عن ذكر الله و تميل بطبيعتها الى النزهة والمتاع ٠

وقد كان حال العرب قبل الاسلام كذلك ، فقد تحوّلت هذه الأماكن عندهم الى أماكن النزهة والمتاع ٠

فخصّ الله تعالى بالذكر هذين المكانين وخصّهما بالارشاد والتوجيه ، وخصّهما بالتحريض على ذكر الله ، حتى لا تتحوّل هذه الرحلات عند المسلمين كذلك الى رحلات ترفيهيّة واستمتاعيّة ٠

ثمّ أجمل ـ سبحانه وتعالى ـ القول ، وقال : فهكذا كلّما أدّيتم مناسككم فلتكن قلوبكم وألسنتكم رطبة من ذكر الله ٠ واذكروه كما تذكرون آباءكم ، بل اذكروه أشدّ ذكرا ٠

ثمّ كرّر ـ تعالى ـ هذا النّداء فقال :

﴿ واذكروا الله في أيّام معدودات ٠٠٠ الآية ﴾

ونرى هذه الآيات الّتي وردت في شأن الحجّ تشبه في نظمها وأسلوبها تلك الآيات الّتي وردت في شأن صلاة الخوف حيث قال تعالى :

﴿ واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصّلاة ان خفتم أن يفتنكم الّذين كفروا ٠ انّ الكافرين كانوا لكم عدوّا مبينا ٠ واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصّلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلّوا فليصلّوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ٠ ودّ الّذين كفروا لوتغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ،انّ الله أعدّ للكافرين عذابا مهينا ٠ ﴾

وبعد هذه التوجيهات الّتي اقتضاها الموقف في شأن صلاة الخوف قال تعالى :

﴿ فاذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة ٠ انّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ٠ ﴾ (١)

---

(١) سورة النّساء : ١٠١ ـ ١٠٣

يقول الامام الزّمخشرى - رحمه الله - وهو يفسّر هذه الآية :

" (فاذا قضيتم الصّلاة) فاذا صلّيتم في حال الخوف والقتال (فاذكروا الله) فصلّوها (قياما) مسايفين ومقارعين (وقعودا) جاثين على الركب مرامين (وعلى جنوبكم) مثخنين بالجراح (فاذا اطمأننتم) حين تضع الحرب أوزارها وأمنتم (فأقيموا الصّلاة)[1]."

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله - :

"قيل معنى قوله (فاذا قضيتم الصّلاة) اذا صلّيتم فصلّوا قياما وقعودا أو على جنوبكم ، حسبما يقتضيه الحال عند ملاحمة القتال ، فهي مثل قوله : (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) . "[2]

فنرى قوله تعالى : ﴿ فاذا قضيتم الصّلاة .. الآية ﴾ ورد على نفس الأسلوب ونفس النّظم ، اللّذين ورد عليهما قوله تعالى :﴿ فاذا قضيتم مناسككم .. الآية ﴾ .

ففي كلا الموضعين نرى اجمال القول بعد شيءٍ من التفصيل ، ونرى التركيز على الغاية والروح بعد التلويح الى الشكل والصّورة ، مع تشابه ملحوظ في العبارة وأسلوب الأداء .

وعلى هذا فلا يصحّ الاحتجاج بما احتجّ به الامام الرازى - رحمه الله - حيث قال :

" اذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى: ﴿ فاذا قضيتم مناسككم ﴾ لا يحتمل الاّ الفراغ من جميعه خصوصا وذكر كثير منه قد تقدّم من قبل . "[3]

والامام أبو حيّان - رحمه الله - أيضا أثار نحوا من هذا الاشكال ، كما مرّ معنا من قبل ، ولعلّ ما قدّمناه يكفي للرّد عليه .

هذا ما تيسّر لنا في بيان مناسبات تلك الآيات (١٨٩- ٢٠٣) فيما بينها ، وهذا ما ظهر لنا من مفهوماتها ، فلله الحمد أوّلا وآخرا .

---

(١) الكشّاف : ٥٦٠/١ (٢) فتح القدير: ٥١٠/١

(٣) التفسير الكبير : ١٨٤/٥

وله الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما ٠

والآن نتوجّه الى التماس وجوه المناسبة فيما بينها وبين ما سبقها من الآيات وما تلاها ، متضرّعين الى الله أن يهدينا الى سواء الصّراط ٠

مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

انّ هذه الآيات قد سبقتها آيات الصّيام ، وكان بيت القصيد فيها قوله تعالى :

﴿ واذا سألك عبادى عنّي فانّي قريب ، أجيب دعوة الدّاع اذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون ٠ ﴾

ولا بدّ لنا ان كنّا نريد الاطّلاع على وجه المناسبة فيما بين آيات الصّيام والّتي جاءت بعدها ، من أن نستعيد في الذهن ما قد هدانا اليه السياق من ايحاءات تلك الآية ، فقد استوحينا من سياقها ما يلي :

(ثمّ نبّه - تعالى - على ذلكم الشعور القدسيّ الكريم ، الّذى ينبغي أن يفيض به قلب المؤمن بفضل صيام رمضان ، وبفضل تدارس القرآن في تلك الأيّام ، ألا وهو شدّة الحنين الى ربّه الودود الكريم ، والحرص على رؤيته ولقائه ، والسؤال والبحث عنه للاتّصال به والاطمئنان الى رضوانه :

﴿ واذا سألك عبادى عنّي فانّي قريب ٠ أجيب دعوة الدّاع اذا دعان ٠:٠ الآية ﴾)

فالأصل في الصّوم أن يوجّه الوجوه الى ربّها ، ويشعل في القلوب جذوة الحنين والشوق اليه - سبحانه وتعالى - ويدع العباد لا يقرّ لهم قرار لشدّة ما يشعرون به من الالحاح في التساؤل عن ربّهم ، وكيفيّة الوصول اليه ؟ وكيفيّة الحصول على رحمته ورضوانه ؟

وهكذا يعمل الصّوم عمله في قلوب المؤمنين الصّادقين ٠

الآن هناك ناسا آخرين مثلهم كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ٠

فهم يخرجون من الصوم بما قد دخلوا به ٠

ويودّعون شهر الصّيام وقلوبهم خاوية من ذكر الله ٠

ومن آياتهم أنّهم لا يتساءلون عن ربّهم وعمّا يرضي عنهم ربّهم ، وعمّا يقرّبهم اليه ٠

وانّما تحوم أسئلتهم حول مصالح الدّنيا ومتاعها وشهواتها ولذاتها ٠

تحوم حولها والنّاس قد لا ينتبهون لما وراءها ، لأنّهم يطرحونها بأسلوب يخدع النّاس ، و يخلطونها بما يوهمهم بالنّصح والمودّة والحبّ والحماس ٠

فهم يسألون ـ مثلا ـ عن الأهلّة ، وكأنّهم يملأهم الحبّ والاخلاص والنّصيحة لله ولرسوله ٠ مع أنّهم ماحدا بهم الى هذا السؤال الاّ حبّ الدّنيا والتربّص بالاسلام وأهله ٠ وقد بيّنّا ذلك في موضعه أثناء حديثنا عن الآية ٠

ولذلك نرى السياق ، بعد ما انتهى من الردّ على سؤالهم ، وانتهى من ذكر ماكان يستوجبه الموقف من التحريض على القتال والحثّ على اتمام العمرة والحجّ ـ وقد بيّنّا الصّلة والمناسبة فيما بين هذه الموضوعات أثناء حديثنا عن تلك الآيات ـ نراه قد عاد الى هؤلاء السائلين مرّة أخرى ، فأفصح عمّا كان يهيجهم الى مثل هذا السؤال وعمّا كانت تنطوي عليه جوانحهم ، فقال :

﴿ ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام ٠ واذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل والله لا يحبّ الفساد ٠ واذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالاثم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد ٠ ﴾

وذكر الى جانب هؤلاء قوما ليسوا مثلهم ، فهم يختلفون عنهم تماما في سلوكهم و تطلّعاتهم :

﴿ ومن النّاس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله. والله رؤوف بالعباد ﴾

وهؤلاء هم عباد الله الّذين يسألون عنه ويتطلّعون الى قربه و رحمته ورضوانه ، وهم المعنيّون بقوله تعالى : ﴿ واذا سألك عبادى عنّي فانّي قريب ... الآية ﴾

والآن وقد انتهينا من بيان مناسبة هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها ، نتوجّه الى ما بعدها .

نظم الآيات (٢٠٨ ـ ٢١٤)

****

قال تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ولا تتّبعوا خطوات الشيطان ، انّه لكم عدوّ مبين . فان زللتم من بعد ماجاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم . هل ينظرون الاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور . سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة ، ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فانّ الله شديد العقاب . زيّن للّذين كفروا الحياة الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة . والله يرزق من يشاء بغير حساب . كان النّاس أمّة واحدة فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الاّ الّذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البيّنات بغيا بينهم ، فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ باذنه . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مثل الّذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضّرّاء و زلزلوا حتى يقول الرسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا انّ نصر الله قريب . ﴾

*** ** ***

قبل أن نعالج ابراز مناسبات هذه الآيات فيما بينها ولما قبلها ، نودّ أن تكون لنا وقفة عند الآية الأولى من هذه الآيات وهى قوله تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة .. الآية ﴾

فانّ القصور في تأويلها ، أو الخطأ في تحديد اتّجاهها يكاد يحجب نظام هذه الآيات كلّها ، ويمنع الباحث أن يدرك ماتتمتّع به هى الأخرى من حسن الارتباط و روعة التناسق فيما بينها .

فنبدأ أوّلا بما قاله المفسّرون ـ رحمهم الله ـ في تأويل هذه

الآية و في تحديد اتّجاهها ، ثمّ نثني بتقويم تلك الأقوال وترجيح ما يترجّح منها .

يقول الامام ابن جرير - رحمه الله - وهو بصدد تأويل تلك الآية :

" والصّواب من القول في ذلك عندي أن يقال انّ الله جلّ ثناؤه أمر الّذين آمنوا بالدّخول في العمل بشرائع الاسلام كلّها وقد يدخل في الّذين آمنوا المصدّقون بمحمّد - صلّى الله عليه وسلّم - و بما جاء به ، والمصدّقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاءوا به ، وقد دعا الله عزّوجلّ كلا الفريقين الى العمل بشرائع الاسلام وحدوده ، والمحافظة على فرائضه ، الّتي فرضها ، ونهاهم عن تضييع شيءٍ من ذلك ، فالآية عامّة لكلّ من شمله اسم الايمان ، فلا وجه لخصوص بعض بها دون بعض . " (١)

ويقول الامام أبوحيّان - رحمه الله - :

" نزلت - هذه الآية - في عبدالله بن سلام ومن أسلم معه، كانوا يتّقون السبت و لحم الجمل وأشياء يتّقيها أهل الكتاب . قاله عكرمة ورواه أبوصالح عن ابن عبّاس ، أو في أهل الكتاب الّذين لم يؤمنوا برسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - قاله الضّحاك وروى عن ابن عبّاس . أو في المسلمين يأمرهم بالدّخول في شرائع الاسلام ، قاله مجاهد وقتادة ، أوفي المنافقين ، واحتجّ لهذا بورودها عقيب صفة المنافقين، وعلى هذا الاختلاف في سبب النزول اختلفت أقاويل أهل التفسير.....

والظّاهر من هذه الأقوال أنّه خطاب للمؤمنين ، أمروا بامتثال شرائع الاسلام أو بالانقياد والرضى وعدم الاضطرار أو بترك الانتقام وأمروا كلّهم بالائتلاف وترك الاختلاف ولذلك جاء بقوله " كافّة " . " (٢)

---

(١) تفسير الطّبرى : ٣٢٥/٢ (٢) تفسير البحر المحيط : ١٢٠/٢

ويقول الامام ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

" يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين به ، المصدّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك ." (١)

ويقول الامام الشوكاني ـ رحمه الله ـ :

" لمّا ذكر الله سبحانه أنّ النّاس ينقسمون الى ثلاث طوائف : مؤمنين وكافرين ومنافقين ، أمرهم بعد ذلك بالكون على ملّة واحدة . وانّما أطلق على الثلاث الطّوائف لفظ الايمان لأنّ أهل الكتاب مؤمنون بنبيّهم وكتابهم ، والمنافق مؤمن بلسانه وان كان غير مؤمن بقلبه ." (٢)

تلك أقوال أربعة من أعلام المفسّرين ـ رحمهم الله ـ في تحديد وجه الخطاب في قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ﴾ فمنهم من يؤوّل هذا الخطاب الى المؤمنين الصّادقين ومنهم من يأخذه على اطلاقه ، بل يبالغ في اطلاقه حتى يصل به الى درجة لا يحتملها النصّ .

فنحن لا نجد في القرآن شاهدا واحدا لاطلاق وصف الايمان على الّذين رفضوا الايمان بمحمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ولو كانوا يؤمنون بالأنبياء الّذين خلوا من قبل . وبالعكس هو ينصّ على كفرهم وفسقهم ويصمهم به في غير ما آية .

فالقول بأنّ المراد بـ " الّذين آمنوا " في هذه الآية هم أهل الكتاب الّذين لم يؤمنوا بمحمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قول يعلن عن نفسه بالبطلان .

وأمّا القول بأنّ المراد بـ " الّذين آمنوا " في هذه الآية هم المؤمنون الصّادقون فهو قول يأباه السياق .. والتأمّل في الآيات الّتي تتبع هذا الخطاب لا يدع لنا مجالا لمثل هذا القول .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/٢٤٧ (٢) فتح القدير : ١/٢١٠

نأخذ - مثلا - قوله تعالى بعد هذه الآية بآية واحدة :

﴿ هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر والى الله ترجع الأمور ﴾ .

فهل يتصوّر أن يوجّه مثل هذا الوعيد أو التهديد الى المؤمنين الصادقين المخلصين في ايمانهم ؟

كلا ! فلا عهد لنا في القرآن بمثل هذا الأسلوب وبمثل هذا التوعّد الا في شأن الغافلين المستهزئين بآيات الله ، الذين تبلغ بهم القساوة مبلغا لا يجدى معه أيّ لون من ألوان التنبيه والانذار .

ونظرا لهذا الواقع المتكرّر في القرآن يربط الامام ابن كثير - رحمه الله - هذه الآية بالكافرين ، حيث يقول :

" يقول تعالى مهدّدا للكافرين بمحمّد - صلوات الله وسلامه عليه - :﴿هل ينظرون ... الآية ﴾ " (١)

أليس من الأولى اذاً أن نؤوّل الخطاب في قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ﴾ الآية ، الى قوم يستحقّون هذا الوعيد وهذا التهديد، بدلا من أن نقول انّ الخطاب في الآية الأولى الى قوم وفي الآية الثانية الى قوم آخرين ، من غير دليل يوجب ذلك ؟

وعلى هذا فلم يبق أمامنا الا أن نقول : انّ المراد بـ"الّذين آمنوا" في الآية هم المنافقون المخادعون ، وهم الّذين سبق ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلّة .. الخ ﴾ وفي قوله تعالى :

﴿ ومن النّاس من يعجبك قوله في الحياة الدّنيا .. الخ ﴾ .

فبعد الردّ على سؤالهم وبعد التنديد بتصرّفاتهم جاء التوجيه الكريم لأن يثوبوا الى رشدهم :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة ولا تتّبعوا خطوات الشيطان ، انّه لكم عدوّ مبين ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢٤٨/١

وجاء الوعيد والتهديد على تردّدهم ونكوصهم وعدم الاستجابة لدعوة ربّهم :

﴿ هل ينظرون الاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر، والى الله ترجع الأمور. ﴾

ثمّ انصرف السياق الى كبرائهم و طواغيتهم من اليهود، وتوعّدهم على اصرارهم على الكفر بعد ماجاءتهم الآيات البيّنات .

ثمّ ذكر دائهم العضال ، الّذى كانوا يعانون منه ، والّذى قعد بهم عن الايمان وأخّرهم عن ركب الاسلام ، ألا وهو تبجّحهم وانتفاشهم على مايرون لأنفسهم من المكانة والفضل على غيرهم باعتبارهم أهل الكتاب ومهبط الرسالات منذ عهد قديم .

وما نشأ فيهم هذا التفكير الاّ لأنّهم ركنوا الى الدّنيا واغترّوا بحياتها ، فأصبحوا يزنون الأمور بموازينها ، والاّ فالتقوى هى مقياس الفضل والمكانة عند الله، والمتّقون هم الأفضلون المتفوّقون يوم القيامة .

وأمّا هؤلاء السّاخرون المتبجّحون بأحسابهم ، فلا يقام لهم وزن ولا يحسب لهم حساب ، وانّما لهم عندالله سوء العقاب :

﴿ سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة . ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فانّ الله شديد العقاب . زيّن للّذين كفروا الحياة الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا . والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة . والله يرزق من يشاء بغير حساب . ﴾

ثمّ كشف حقيقة غرورهم ، الّذى كانوا يعيشونه ، فكونهم من بيوتات الأنبياء لا يكسبهم شرفا ولا وجاهة . فالنّاس كلّهم سواسية وكلّهم أمّة واحدة . ولا فضل لأحد منهم على أحد الاّ بالتقوى . ولم يبعث الله نبيّا لتفخر أسرته على أختها ، وانّما بعث من بعث ليبشّروا النّاس و ينذروهم ويعودوا بهم الى الهدى ، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ، ليكون حكما يرجع اليه النّاس في خلافاتهم .

وكان من واجب هؤلاء باعتبارهم أهل الكتاب أن يبادروا الى الايمان بهذا النبيّ و هذا الكتاب ، ولا يتأخروا عنهما بعدما جاءتهم البيّنات على صدقهما ، وتبيّن لهم أنّهما من عند الله .

ولكنّهم أشربوا في قلوبهم الغرور، فسخروا من هذا النبيّ ومن آمن به و سخروا من هذا الكتاب ، واختلفوا فيه بغيا وعدوا ، فذلك قوله تعالى :

﴿ كان النّاس أمّة واحدة ، فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الاّ الّذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغيا بينهم . فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ باذنه . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . ﴾

ثمّ عاد السياق الى هؤلاء المنافقين ، الّذين كانوا يتهيّبون من مخاطر الطّريق ، ولم تكن فيهم تلك الشجاعة الكافية الّتي تحدو بهم الى الأمام ، وتحملهم على عصيان طواغيتهم الّذين كانوا مسيطرين على الموقف :

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مثل الّذين خلوا من قبلكم ، مسّتهم البأساء والضّرّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا انّ نصر الله قريب . ﴾

ومن هنا نرى الدكتور عبدالله دراز لم يكن دقيقا في التماس المناسبة بين هذه الآيات ، حيث قال :

" ... فجاءت الموعظة العامّة تقسم النّاس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة والايثار الى فئتين : فئة لا تبالي أن تضحّي في سبيل أهوائها بحياة العباد وعمران البلاد ، وفئة على العكس من ذلك لا تضنّ أن تضحّي بنفسها في سبيل مرضاة الله (٢٠٤ - ٢٠٧) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم الى توجيه النّصح للمؤمنين بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ، ويستسلموا بكلّيتهم لأوامر الله ،

دون تفريق بين بعضها وبعض ، محـذرة ايّاهم من الزلل عنها بعد أن هدوا اليها و وقفوا عليها ، معزّية لهم عمّا قد يصيبهم من البأساء والضّرّاء في سبيل اقامتها ، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنّة السلف الصّالح من الأمم السابقة (٢٠٨ ـ ٢١٤) . " (١)

وما أشبه هذه الآيات في نظمها ومضمونها بتلك الّتي مضت معنا في أوّل السورة ، وخاصّة تلك الآيات :

﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد نارا فلمّا أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صمّ بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيّب من السماء فيه ظلمات و رعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم . كلّما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا . ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . انّ الله على كلّ شيءٍ قدير . ﴾(٢)

ولقد فصّلنا القول في هذه الآيات في محلّها ، وتناولناها بما فيه كفاية باذن الله .

---

(١) النّبأ العظيم : ص / ١٩٩ ـ ٢٠٠
(٢) سورة البقرة : ١٧ ـ ٢٠

نظـــم الآيـــات (٢١٥ ـ ٢٢٧)

****

ممّا لا يخفى على المتأمّل في الآيات (١٩٠ ـ ٢١٤) أنّهـــا كلّها جاءت اعتراضا واستطرادا حتى تلقى الضّوء على خلفيّة السؤال الّذى ورد في قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلّة ... الخ ﴾ وحتى تعرّى تلك العقليّات المريضة، الّتي كانت تعمل في الظّلام لتكدّر على المسلمين الجوّ .

ثمّ عاد الكلام الى مجراه، حتى يسوق الينا نماذج أخرى من أسئلة هؤلاء . قال تعالى :

﴿ يسألونك ماذا ينفقون . قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير فانّ الله به عليم . كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير . وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا . ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . انّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم . يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للنّاس واثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون . قل العفو . كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون . في الدّنيا والآخرة . ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير . وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم . انّ الله عزيز حكيم . ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمنّ . ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم

ولا تنكحوا المشركين حتّى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون الى النّار . والله يدعو الى الجنّة والمغفرة باذنه ويبيّن آياته للنّاس لعلّهم يتذكّرون . ويسألونك عن المحيض . قل هو أذى فاعتزلوا النّساء في المحيض . ولا تقربوهنّ حتّى يطهرن، فاذا تطهّرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله . انّ الله يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم . واتّقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه وبشّر المؤمنين . ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا بين النّاس . والله سميع عليم . لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم . للّذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر . فان فاءوا فانّ الله غفور رحيم . وان عزموا الطّلاق فانّ الله سميع عليم . ﴾

*** ** ***

تلك ستّة أسئلة وجّهت الى النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - بالاضافة الى السؤال الأوّل ، الّذى مضى معنا في قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلّة ... الخ ﴾

وهذه الأسئلة كلّها متناسبة فيما بينها من ناحية اتّجاهها ودلالتها ، وان كانت تبدو في بادئ النّظر أنّها مختلفة ، بل متنافرة لا يجمعها سبب ولا نسب ، سوى أنّها أسئلة وجّهت الى النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في شتّى المناسبات .

ونحن سنحاول الكشف عن وجوه المناسبة فيما بينها ، الاّ أنّنا نريد أن نعرف قبل ذلك أنّ هذه الأسئلة لم تكن منبعثة من قلوب خالطتها بشاشة الايمان ، وانّما الّذى أثارها في قلوب أصحابها هو النّفاق وضعف الايمان .

ولسنا نقول ذلك من عند أنفسنا ، فالآيات نفسها تنطق بذلك ، وتؤكّده لنا بلسان نظمها .

ولقد علمنا شيئا من ذلك أثناء حديثنا عن السؤال الأوّل، ولنتأمّل الآن فيما تتضمّنه الآيات التّالية .

فجاء - مثلا - قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ٠٠ الآية ﴾

ثمّ جاءت هذه الآية : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ٠ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم ٠ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

هذا السياق ينبئنا أنّهم ما دفعهم الى هذا السؤال الآ كراهيتهم للقتال ، فانّ الانفاق والقتال هما طرفا الجهاد ، والجهاد بالمال لا يقدر عليه الآمن قدر على الجهاد بالنّفس ، فهما متلازمان لا يفترقان فلمّا قيل لهؤلاء القوم :

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا انّ الله يحبّ المحسنين ٠ ﴾

شقّ عليهم هذا الأمر كما كان يشقّ عليهم الأمر بالقتال ، فسألوا : ماذا ينفقون ؟ ولا يخفى ما يفيض به هذا السؤال من الملل والتّضجّر وضيق النّفس ٠ ولا يمكن أن يأتى هذا السؤال الآمن قلب أحضر الشحّ وأطبق عليه البخل ٠

ثمّ جاء السؤال الثّاني : ﴿ ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾

وبعد الردّ عليه جاء هذا التنبيه :

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة ٠ وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ٠ ﴾

ثمّ ذكرت في مقابل هذه الطّائفة طائفة أخرى قد خالطت بشاشة الايمان قلوبها ، فلم تضنّ في سبيله بنفائسها ونفوسها :

﴿ انّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ٠ والله غفور رحيم ٠ ﴾

هذا النّظم وهذا السياق يشعر أنّ الّذين أثاروا هذا السؤال لم يكونوا من المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله ٠ وانّما كانوا من قوم آخرين لم تطمئنّ قلوبهم بالايمان ٠

أمّا السؤال الأوّل ـ وهو : ﴿ يسألونك عن الأهلّة ﴾ ـ فقد بيّنّا فيما سلف أنّه كان سؤالا عن النّسيء ، وكان الدّافع اليه كراهية القتال في سبيل الله .

ولذلك نرى السياق يحرّضهم على القتال بعد ما ينتهي من الرّد عليه مباشرة :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الّذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا انّ الله لا يحبّ المعتدين . ﴾

ونرى نفس النّظم في سورة التوبة ، حيث جاء التنديد ببدعة النّسيء ثمّ جاء بعده مباشرة :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض . أرضيتم بالحياة الدّنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدّنيا في الآخرة الاّ قليل . ﴾ (١)

وأمّا السؤال الثّاني ، وهو : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ﴾ فهو أيضا يشبهه في روحه ومنشئه السؤال الأوّل ، حيث انّ الدّافع اليه هو هو . ولقد صرّح سبحانه وتعالى بذلك ، اذ قال بعد الرّد عليه مباشرة :

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

ومن ناحية أخرى فانّ الانفاق والقتال صنوان ، حيث انّهما طرفا الجهاد ، فأحدهما جهاد بالمال ، كما أنّ الثّاني جهاد بالنّفس ، ولا فرق بينهما في أنّهما يشقّان على النّفس ، ولا تتهيّأ النّفس لأحدهما الاّ اذا تهيّأت للآخر .

وأمّا السؤال الثّالث ، فهو عودة الى السؤال الأوّل ، ولكن من باب آخر وبأسلوب آخر ، فقد سألوا في المرّة الأولى عن النّسيء ، أي امكانيّة تناول الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير عن محلّها . وكانوا يرمون بذلك الى أن يدفعوا عنهم محنة القتال ، الّتي كانت جاثمة

---

(١) سورة التّوبة : ٣٨

على صدورهم وكانت تهدّد مصالحهم .

فلمّا لم يأتهم الرّد كما كانوا يشتهون ، كرّروا المحاولة للوصول الى مطلبهم بأسلوب آخر ، وقالوا ـ وكأنّهم لا يهمّهم الاّ الحفاظ على الأشهر الحرم وعلى حرمتها وقداستها ـ كيف نقاتل في الشهر الحرام ؟ من الّذى يراعي حرمته ان لم نراع نحن ؟ والله هذه كبيرة وما ينبغي لنا أن نرتكب هذه الكبيرة ! الى غير ذلك من الأقاويل ، الّتي توهم بظاهرها أنّه ليس وراءها الاّ الغيرة والحماس لله ولشعائر الله ، مع أنّه ليس هناك من الحماس والغيرة الاّ اسمها ورسمها .

فردّ الله على هذا التساؤل ردّا منطقيّا :

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير . وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا ﴾

ثمّ أماط عنهم اللّثام ، وحذرهم ممّا يوشكون أن يقعوا فيه لسوء استجابتهم لداعي الهجرة والجهاد :

﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . انّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم . ﴾

ثمّ جاء السؤال الرابع والخامس والسادس والسابع :

يسألونك عن الخمر والميسر ....

ويسألونك ماذا ينفقون ....

ويسألونك عن اليتامى ....

ويسألونك عن المحيض ....

وهذه الأسئلة وان كانت تبدو في ظاهرها متفرّقة متباينة لا يمتّ بعضها الى بعض بصلة ، ولكنّ النّظرة الفاحصة المتأمّلة في مراميها وسياقها تدرك أنّها مترابطة فيما بينها برباط قوىّ .

وممّا يؤيّد ذلك أنّ هذه الأربعة جاءت معطوفة بعضها على بعض بخلاف ما سبق من الأسئلة ، ولا يدلّ ذلك إلاّ على غاية الاتّصال والترابط فيما بينها .

ولكن قبل أن نقدم على التماس هذا الاتّصال والترابط بين هذه الأسئلة ، نودّ أن نعرف القصد منها ، أو نعرف المناسبة الّتي أثارتها واستوجبت الرّدّ عليها .

فانّ ذلك سيساعدنا في معرفة وجه الاتّصال والترابط فيما بينها .

مناسبة السؤال عن الخمر والميسر :

أمّا السؤال الأوّل ـ وهو قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر .. الآية ﴾ ـ فقد ذكر الامام ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في تفسيره قولين ، أحدهما : أنّ عمر بن الخطّاب قال : اللّهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية . والثّاني أنّ جماعة من الأنصار جاءوا الى النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وفيهم عمر ومعاذ ، فقالوا : أفتنا في الخمر ، فانّها مذهبة للعقل مسلبة للمال . فنزلت هذه الآية . (١)

ويقول الامام الشوكاني ـ رحمه الله ـ :

" السائلون في قوله :﴿ يسألونك عن الخمر ﴾ هم المؤمنون كما سيأتي بيانه عند ذكر سبب نزول الآية . " (٢)

وهكذا ذهب كثير من المفسّرين ـ رحمهم الله ـ الى أنّ هذه الآية نزلت ردّا على سؤال المؤمنين .

ولكنّ التأمّل في سياق هذه الآيات وغيرها من الآيات الّتي وردت بالسؤال في مواضع أخر يلحّ علينا بأنّ هذه الأسئلة لم تطرح أبدا من قبل المؤمنين ، وانّما طرحت من قبل غيرهم ممّن لم يسلموا أو أسلموا ولم يحسن اسلامهم .

---

(١) زاد المسير : ٢٣٩/١ (٢) فتح القدير : ٢١٩/١

أمّا الآيات الّتي وردت في غير هذه السورة مثل قوله تعالى :

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . ﴾ (١)

أو قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الرّوح . قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم الاّ قليلا . ﴾ (٢)

أو قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ، فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم . ﴾ (٣)

أو قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها . قل انّما علمها عند ربّي . لا يجلّيها لوقتها الاّ هو . ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الاّ بغتة . ﴾ (٤)

فهذه الآيات ليست بحاجة الى ايضاح وتفصيل لكونها واضحة بيّنة في أمرها .

وأمّا الأسئلة الّتي وردت في هذه السورة ، فقد أسلفنا القول فيها باجمال ، ثمّ تناولنا بعضها بالتفصيل ، وسنفصّل الباقي فيما يلي باذن الله .

فنبدأ اذا بهذه الآية الّتي نتحدّث عنها ، وهى قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر .. الآية ﴾ فنقول : انّنا لا نرتاح كثيرا الى ما ورد في الروايات من أنّ سيّدنا عمر و سيّدنا معاذ - رضي الله عنهما - سألا عن الخمر وردّاً على سؤالهما نزلت الآية ، وذلك من عدّة وجوه :

الوجه الأوّل :

قال ربّنا - تبارك وتعالى - في سورة النّحل ، وهى سورة مكّية :

﴿ ومن ثمرات النّخيل والأعناب تتّخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾ (٥)

فنصّت هذه الآية على أنّ الخمر ليست رزقا حسنا ، وبالتالي هى من الخبائث . وكون الخمر من الخبائث يكفي للحكم عليها بالحرمة ، فانّ من

---

(١) سورة طه : ١٠٥ - ١٠٧ (٢) سورة الاسراء : ٨٥ (٣) سورة الأنفال : ١
(٤) سورة الأعراف : ١٨٧ (٥) سورة النّحل : ٦٧

مزايا هذه الرسالة المباركة أنّها جاءت لتحرّم الخبائث . وقد نبّه اليه سبحانه وتعالى في سورة الأعراف ، وهو أيضا سورة مكّية ، حيث قال:

﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث . ﴾ (١)

فهذا النصّ لا يترك مجالا ، لأن يشكّ في حرمة الخمر ، فما بالك بسيّدنا عمرو سيّدنا معاذ وهما كانا من أدرى النّاس بما تنطوى عليه الخمر من شرّ و فساد حيث قالا : (فانّها مذهبة للعقل مسلبة للمال) وبالتالي كانا من أعرف النّاس بحكمها ومكانها في دين الله .

الوجه الثّاني :

انّ العرب - رغم أنّهم كانوا يحتسون الخمر وكانوا يعلّون منها وينهلون - قد أدركوا جيّدا ما تنطوى عليه الخمر من أضرار و ويلات . ولذلك نرى العقلاء منهم والصّالحين كانوا يعزفون عنها ، وكانوا يحذرون النّاس من معاقرتها . ومن ذلك ما قال عفيف بن معديكرب عمّ الأشعث بن قيس :

فلا والله لا أُلفَى و شَربا * أنازعهم شرابا ما حييت
أبى لي ذاك آباء كرام * وأخوال بعزّهم ربيت (٢)

وقال عامر بن الظّرب :

سآلة للفتى ما ليس في يده * ذهّابة بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أَسقيها وأَشرَبها * حتّى يفرّق تُربُ القبر أوصالي
مورثة القوم أضغانا بلا إِحَن * مُزرِيَة بالفتى ذى النَّجدَة الحالي (٣)

وحرّم قيس بن عاصم الخمر وقال في ذلك :

لعمرك انّ الخمر ما دمت شاربا * لسالبة مالى ومذهبة عقلي
وتاركتي من الضّعاف قواهم * ومورثتي حرب الصّديق بلا تبل (٤)

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٧
(٢) كتاب الأمالي لأبي عليّ القالي : ٢٠٥/١
(٣) و (٤) كتاب الأمالي لأبي عليّ القالي : ٢٠٤/١

وكان من أمثالهم السائرة فيما بينهم :

(الخمر مفتاح كلّ شرّ .) (١)

وقال ابن قتيبة : " وقد كان كثير من أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - حرّموا الخمر على أنفسهم في الجاهليّة لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جناياتها . وقالت عائشة - رحمة الله عليها - : (ما شرب أبوبكر - رحمة الله عليه - خمرا في جاهليّة ولا اسلام .)

وقال عثمان - رحمة الله عليه - : (ما تغنّيت ولا تغنّيت ولا شربت خمرا في جاهليّة ولا اسلام ، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - " (٢)

فمن المستبعد جدّا جدّا من أمثال سيّدنا عمر وسيّدنا معاذ - رضى الله عنهما - أن يستفتيا في أمر الخمر أو يطلبا البيان الشافي في شأنها ، وقد كان الأمر عندهم أبين من الشمس في رابعة النّهار !

الوجه الثّالث :

انّ هذا السؤال ليس سؤال من يريد أن يستفسر ويطلب البيان وانّما هو سؤال من يستثقل الحكم ويطلب الرخصة ويريد أن يطلق لنفسه العنان .

ولذلك آثر القرآن في هذه الآية أسلوب الجدال والاستدلال وأسلوب المقارنة بين النّفع والخسران فقال : ﴿ واثمهما أكبر من نفعهما ﴾

وعلى أيّة حال فالموقف لا يقبل تلك الروايات الّتي نقلت لنا في سبب نزول هذه الآية .

وانّما الّذى يترجّح في تأويل الآية هو أنّه لمّا جاء النّهى عن معاقرة الخمر ولعب الميسر في قوله تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا انّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون . انّما يريد الشيطان

---

(١) العقد الفريد : ٢٧٢/١ ، نقلا من جمهرة خطب العرب : ١/ ١٣٧

(٢) كتاب الأشربة لابن قتيبة الدّينورى : حجج المحرّمين لجميع ما أسكر. ص / ٢٤

فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح . ولوشاء الله لأعنتكم ، انّ الله عزيز حكيم . ﴾

يقول الامام ابن الجوزى - رحمه الله - في تأويل هذه الآية :

" في سبب نزولها قولان . أحدهما : أنّه لمّا أنزل الله تعالى: ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم الا بالّتي هى أحسن ﴾ الاسراء : ٣٤ ، و﴿ انّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ النّساء : ١٠ ، انطلق من كان عنده مال يتيم ، فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيءُ من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتدّ ذلك عليهم ، فذكروه للنّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - فنزلت هذه الآية . هذا قول ابن عبّاس و عطاء و سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل . والثّاني : أنّ العرب كانوا يشدّدون في أمر اليتيم حتى لا يأكلون معه في قصعته ولا يستخدمون له خادما ، فسألوا النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - عن مخالطتهم فنزلت هذه الآية ، ذكره السّدى عن أشياخه وهو قول الضّحاك . " (١)

هذان قولان ذكرهما الامام ابن الجوزى - رحمه الله - .

ولقد لجأ كثير من المفسّرين - رحمهم الله - في تأويل الآية الى هذين القولين ، الاّ أنّ الّذى يترجّح عندنا هو أنّهما وان كانا داخلين في عموم الآية و شمولها ، ولكنّهما لا يفسّران السبب الحقيقي لنزولها ، لأنّهما لا ينسجمان مع نظمها وسياقها . فقد سبقها قوله تعالى :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للنّاس ، واثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو . كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرون في الدّنيا والآخرة . ﴾

كما تلتها هذه الآية :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون الى النّار والله يدعوا الى الجنّة والمغفرة باذنه ويبيّن آياته للنّاس لعلّهم يتذكّرون . ﴾

---

(١) زاد المسير :١/٢٤٣ - ٢٤٤

هذا السياق وهذا السباق لا يسمح لنا أبدا بأن نخضع تفسير الآية لهذين القولين .

فما هو تأويل الآية اذا ؟ وما هو تفسير هذا السؤال المثار بخصوص اليتامى ؟

قبل أن نرد على هذا السؤال نود أن نتحقق من معنى المخالطة في قوله تعالى : ﴿ وان تخالطوهم فاخوانكم ﴾ فان له تأثيرا كبيرا في تحديد اتجاه هذه الآية ،كما أن له تأثيرا كبيرا في معرفة طبيعة هذا السؤال .

تحقيق معنى المخالطة :

يقول الزمخشري - رحمه الله - وهو يفسر معنى المخالطة :

" وقد حملت المخالطة على المصاهرة " (١) .

ولقد ذكر الامام الرازي - رحمه الله - فيما ذكر من معاني المخالطة فقال :

" والقول الرابع، وهو اختيار أبي مسلم ، أن المراد بالخلط المصاهرة في النكاح ، على نحو قوله : ﴿ وان خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ﴾ وقوله عز من قائل : ﴿ ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء ﴾ ".

وأضاف - رحمه الله - قائلا :

" وهذا القول راجح على غيره من وجوه : (أحدها) أن هذا القول خلط لليتيم نفسه والشركة خلط لماله . (وثانيها) أن الشركة داخلة في قوله ﴿ قل اصلاح لهم خير ﴾ والخلط من جهة النكاح ، وتزويج البنات منهم لم يدخل في ذلك ، فحمل الكلام في هذا الخلط أقرب . (وثالثها) أن قوله تعالى ﴿ فاخوانكم ﴾ يدل على أن المراد بالخلط هو هذا النوع من الخلط ، لأن اليتيم لو لم يكن من أولاد المسلمين لوجب أن يتحرى صلاح أمواله ، كما يتحراه اذا كان

---

(١) الكشاف : ١/٣٦٠

على نوع خاصّ ، فلا نظنّه الاّ نتيجة لقلّة الاهتمام بنظام الآيات وسياقها . والاّ فنظامها وسياقها يلحّان على الباحث أن يقصر المخالطة على هذا النّوع الخاصّ من المصاهرة والمناكحة دون غيره .

تأويل الآية :

والآن نجيء الى تأويل الآية فنقول :

انّ هذا القرآن قد ركّز على حقوق اليتامى تركيزا خاصّا ، وجاء في شأنهم بأوامر مشدّدة يرتجف منها القلب ، فقال - مثلا - :

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطّيّب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم . انّه كان حوبا كبيرا . ﴾ (١)

وقال :

﴿ انّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انّما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا . ﴾ (٢)

انّ هذا الوعيد وهذا التأكيد يكفي لأن يفزع منه المؤمن ويقشعرّ . وقد حصل ذلك فعلا كما تحكي لنا الروايات .

الاّ أنّ هؤلاء القوم ، ممّن سبق ذكرهم ومازال السياق يذكرهم لم يفزعهم الموقف ، وانّما كان جلّ همّهم أن يفتح لهم باب يمكّنهم من الاستمتاع بهؤلاء اليتامى ، فهم أثاروا موضوع المصاهرة والمناكحة معهم .

ولم يكن الدّافع الى هذا السؤال - كما أشرنا - شدّة الاهتمام بشئون اليتامى ومصالحهم ، أو شدّة التورّع ممّا ليس لهم أولا يطيب لهم . وانّما الّذى حفزهم الى هذا السؤال هو اهتمامهم بأنفسهم وانشغالهم بما يشبع شهواتهم . ونظير ذلك قوله تعالى :

﴿ ويستفتونك في النّساء قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النّساء اللاّتي لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ وترغبون أن تنكحوهنّ والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فانّ الله كان به عليما . ﴾ (٣)

(١) سورة النّساء : ٢ (٢) سورة النّساء : ١٠ (٣) سورة النّساء : ١٢٧

فبيّن الله تعالى - ردّا على سؤالهم - ما يحلّ لهم من المصاهرة والمناكحة معهم ، مع التنبيه على أنّه تعالى عليم بنيّاتهم وهواجس نفوسهم ، فلو شاء لأعنتهم ولكنّه شملهم بعطفه وكرمه . فليصلحوا نيّاتهم في شأن هؤلاء اليتامى وليحرصوا على اصلاح حالهم والقيام بمصالحهم ، دون الانغماس في شهواتهم والاستمتاع بما لديهم .

وبما أنّه تعالى عزيز حكيم فلا يفوته أن يؤاخذهم ان لم يثوبوا الى رشدهم ولم ينتهوا عمّا هم فيه من اتّباع الهوى والتفريط في جنب الله :

﴿ قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم . انّ الله عزيز حكيم .﴾

ثمّ بيّن لهم أنّ هذه المصاهرة لا تصحّ ولا تجوز الاّ اذا كانت تربطهم بهم آصرة الايمان . فاذا وجدت آصرة الايمان فلا مانع من المصاهرة معهم :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ . ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم . ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون الى النّار والله يدعوا الى الجنّة والمغفرة باذنه ويبيّن آياته للنّاس لعلّهم يتذكّرون . ﴾

ولقد تصدّى أبومسلم لربط هذه الآية بما قبلها ، والتمس المناسبة بين الآيتين من ناحية أخرى ، فقال :

" بل هو متعلّق بقصّة اليتامى ، فانّه تعالى لمّا قال : ﴿ وان تخالطوهم فاخوانكم ﴾ وأراد مخالطة النّكاح عطف عليه ما يبعث على الرغبة في اليتامى ، وأنّ ذلك أولى ممّا كانوا يتعاطون من الرغبة في المشركات ، وبيّن أنّ أمة مؤمنة خير من مشركة وان بلغت النّهاية فيما يقتضي الرغبة فيها ، ليدلّ بذلك على ما يبعث على التزوّج باليتامى ، وعلى تزويج الأيتام عند البلوغ ليكون ذلك داعية لما أمر به من النّظر في صلاحهم وصلاح أموالهم . " (1)

---

(1) التفسير الكبير : ٦/٥٤

هذا ما قاله أبو مسلم في مناسبة هذه الآية لما قبلها .

وكان هذا الرأي لا بأس به ، لولا أنّ القرآن نفسه قد بيّن لنا أنّ الرغبة في يتامى النّساء كانت حاصلة ومتوفّرة عندهم سلفا .ولم يكونوا بحاجة الى أن تثار فيهم هذه الرغبة ، حيث قال تعالى :

﴿ قل الله يفتيكم فيهنّ وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النّساء اللّاتي لا تؤتونهنّ ما كتب لهم وترغبون أن تنكحوهنّ .. الخ ﴾

فليس هناك تحريض وترغيب في نكاح هؤلاء اليتامى ، وانّما هو ترشيد وتقويم لتلك الرغبة ، حتى لا تكون رغبة هابطة جامحة خالية من الشعور بالمسئوليّة ، وملهية عمّا تمليه عليهم العقيدة .

ومن هنا نرى أبا حيّان ـ رحمه الله ـ كان أقرب للصّواب وأكثر ادراكا لطبيعة الموقف ، حيث قال :

" ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لمّا ذكر تعالى حكم اليتامى في المخالطة وكانت تقتضي المناكحة وغيرها ممّا يسمّى مخالطة ، حتى أنّ بعضهم فسّرها بالمصاهرة فقط و رجّح ذلك كما تقدّم ذكره . وكان من اليتامى من يكون من أولاد الكفّار نهى الله تعالى عن مناكحة المشركات والمشركين ، وأشار الى العلّة المسوّغة للنّكاح وهي الأخوّة الدّينيّة ، فنهى عن نكاح من لم تكن فيه هذه الأخوّة . واندرج يتامى الكفّار في عموم من أشرك . " (1)

السؤال السّابع :

ثمّ جاء السؤال السابع وهو قوله تعالى :

﴿ ويسألونك عن المحيض . قل هو أذى فاعتزلوا النّساء في المحيض ولا تقربوهنّ حتى يطهرن . فاذا تطهّرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله . انّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين . ﴾

يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ وهو يفسّر سبب هذا السؤال ، أو سبب نزول هذه الآية :

---

(1) تفسير البحر المحيط : ١٦٣/٢

الاّ أنّ المتأمّل في نظم هذه الآيات وسياقها لا يكاد يستريح الى هذا القول لكونه لا يتلاءم معه .

فالأقرب لسياق الآيات وأسلوبها هو ما روى عن مجاهد رحمه الله – وقد مرّ معنا آنفا – فانّ هذه العبارة برمّتها تركّز على اعتزال النّساء والابتعاد عنهنّ في حالة الحيض :

﴿ فاعتزلوا النّساء في المحيض ولا تقربوهنّ حتى يطهرن ﴾

وهذا الخطاب لا يوجّه أبدا الى قوم قد بالغوا في اعتزال الحيّض واجتنابهنّ ، وغلوا في ذلك الى أن كرهوا مؤاكلتهنّ ومجالستهنّ وأخرجوهنّ من بيوتهنّ .

وبالعكس من ذلك يوجّه الى قوم قد أسرفوا في اتيان النّساء وملامستهنّ ، حتى لم يراعوا في ذلك الحيض والطّهر .

ويؤيّد ذلك قوله تعالى في نهاية الآية :

﴿ انّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين ﴾

فهذا التذييل ينبئ أنّ القوم قد أتوا في ذلك بما يتنافى مع الطّهر ، وبذلك استحقّوا أن يزجى اليهم هذا التوجيه الكريم .

سبب نزول الآية ، كما يمليه علينا السياق :

انّ التأمّل في نظم هذه الآيات و سياقها يوحي الينا كأنّ شخصا من هؤلاء القوم – وهم الّذين أسلموا ولم يحسن اسلامهم – أراد أن يأتى امرأته في حال الحيض . والمرأة استعصت عليه وتمرّدت بحكم وضعها الّذى تتأذى فيه ، وتكره كراهية شديدة أن يؤتى اليها في ذلك الحين .

وأدّى هذا التمرّد والعصيان الى أن آلى الرجل أن لا يدخل عليها بعد هذا ، ولا يشمّ ريحها ، كما هو معروف ومشاهد في أىّ مجتمع لا يتخلّص من رواسب الجاهليّة ويرى الزّواج سبيلا من سبل التلذذ والمتاع ليس الاّ .

فيهون عليه أن يهجر المرأة أو يرميها في سلّة المهملات ، اذا هى تردّدت أو تأخّرت في تلبية دعوته واطفاء شهوته في وقت من الأوقات ، كائنا ما كان السبب .

حتّى ترمى كالمخلّفات اذا هى ضعفت أو تأخرت عن الاستجابة لداعي اللّهو والمتاع والتسلية ، وانّما هى في الواقع مزرعة يزرع فيها الرجل مصيره ويزرع فيها جنّته و سعيره كما يزرع فيها نسله وذرّيّته :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم . وقدّموا لأنفسكم واتّقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه . و بشّر المؤمنين . ﴾

فحبله متروك على غاربه ، فليأت حرثه أنّى شاء وليزرع فيها ما شاء ، علما بأنّه سيحصد ما زرع ويجني ما غرس ، فان غرس التقوى فسيجني ثمارها ويستبشر بحصيلتها ، وان غرس غير ذلك فهو الّذى يصلى بناره ويتعرّض لمرارته .

فقوله تعالى : ﴿ فأتوا حرثكم أنّى شئتم ﴾ ليس من باب رفع الحظر وفتح الباب على مصراعيه ، كما ذهب اليه الزمخشرى ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

" (فأتوا حرثكم أنّى شئتم) تمثيل أى فأتوهنّ كما تأتون أراضيكم الّتي تريدون أن تحرثوها من أىّ جهة شئتم ، لا تحظر عليكم جهة دون جهة . والمعنى جامعوهنّ من أىّ شقّ أردتم ، بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث . " (١)

أوكما قاله الشوكاني ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

" وقوله : ﴿ أنّى شئتم ﴾ أى من أىّ جهة شئتم من خلف وقدّام وباركة ومستلقية ومضطجعة ، اذا كان في موضع الحرث . " (٢)

فهذا التفسير لا يستقيم به المعنى . اضافة الى ذلك أنّنا لا نحسّ فيه ومضة من تلك الرفعة الّتي هى من خصائص مطالب القرآن .

ونرى أنّ هذا المفهوم لم يجد طريقه الى بطون الكتب وقرارة النّفوس الا بسبب ذهول النّاس عن أسلوب الآية ، مضافا الى ذهولهم عن نظامها و سياقها .

---

(١) الكشّاف : ٢٦٢/١ (٢) فتح القدير : ٢٢٦/١

فانّ هذه الآية أشبه شيءٍ في أسلوبها بقوله تعالى :

﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿ اعملوا ما شئتم . انّه بما تعملون بصير. ﴾ (٢)

ويقارب هذا الأسلوب قوله تعالى :

﴿ وقل الحقّ من ربّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(٣)

وقوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (٤)

وقوله تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر ﴾ (٥)

فهذه الآيات وان خرجت مخرج الاباحة والترخيص ، الاّ أنّها في الواقع ليست للاباحة والترخيص .

وانّما هو أسلوب حكيم يخاطب العقول ويناديها نداءً مباشراً حتى تعود الى صوابها وتدرك ما يضرّها ممّا ينفعها .

ومنه قول قراد بن عباد :

فآخ لحال السلم من شئت واعلمن * بأنّ سوى مولاك في الحرب أجنب(٦)

أي : كن محبّاً لمن شئت في حال السلم ، واعلم أنّ ابن عمّك هو الّذي ينفعك عند الحرب ، وأنّ سواه أجنبيّ يتغافل عنك ولا ينصرك .

فقوله : (آخ لحال السلم من شئت) ليس الاّ تنبيهاً له الى أن يكون عاقلاً في مؤاخاته ولا يتخيّر لها الاّ من ينفعه عند النّوائب وان كان الأسلوب يوهم بظاهره أنّه تخيير وتحريض له على وضع الحبّ في غير موضعه .

وعلى هذا فليست هذه الآية الاّ توجيهاً تربويّاً وتصحيحاً لمكانة المرأة في الحياة ، وتنبيهاً الى أنّها ليست ـ في الواقع ـ ملهى للرّجل ، وانّما هي له حرث ومزرعة يزرع فيها آخرته ويغرس مصيره ، ان خيراً فخير وان شرّاً فشرّ .

---

(١) سورة الزّمر : ١٤ ـ ١٥
(٢) سورة فصّلت : ٤٠
(٣) سورة الكهف : ٢٩
(٤) سورة التكوير : ٢٨
(٥) سورة المدّثّر : ٣٧
(٦) الحماسة لأبي تمّام : ٢٣٦/١ رقم القصيدة (٢٢٦) .

ثمّ كان من فضل الله ورحمته أنّه بعد ما حرّم الأيمان الفاسدة، ذكر لنا حلًّا لهذه المشكلة، إن وقعنا فيها، حيث قال تعالى :

﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حليم . ﴾

التفسير الخاطئ لمعنى اللّغو :

ولا يفوتنا التنبيه الى خطأ قد انتشر بين النّاس في تفسير (اللّغو) فانّه طالما حجب عنّا نظام الآية وعوّقنا عن التوصّل الى صحيح دلالتها .

يقول الزمخشري - رحمه الله - في تفسير هذا اللّفظ :

" اللّغو: الساقط الّذى لا يعتدّ به من كلام وغيره . ولذلك قيل لما لا يعتدّ به في الدّية من أولاد الابل ، لغو . واللّغو من اليمين: الساقط الّذى لا يعتدّ به في الأيمان وهو الّذى لا عقد معه . والدّليل عليه : ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، بما كسبت قلوبكم ." (١)

ويقول ابن عطيّة - رحمه الله - :

" اللّغو : سقط الكلام الّذى لا حكم له ، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان ، تشبيها بالسقط من القول ، يقال منه لغا يلغو لغوا ، ولغى يلغى لغيا . " (٢)

ويزيد - رحمه الله - فيقول بعد ذكر الأقوال الواردة في تفسير (اللّغو) :

" وطريقة النّظر أن يتأمّل لفظة اللّغو ولفظة الكسب ، ويحكم موقعهما في اللّغة ، فكسب المرء ما قصده ونواه ، واللّغو ما لم يتعمّده أو ما حقّه لهجنته أن يسقط ، فيقوى على هذه الطّريقة بعض الأقوال المتقدّمة ويضعف بعضها . وقد رفع الله - عزّ وجلّ - المؤاخذة بالاطلاق في اللّغو ، فحقيقته ما لا اثم فيه ولا كفّارة . والمؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس المصبورة وفيما ترك تكفيره

---

(١) الكشّاف : ٣٦٣/١ (٢) المحرّر الوجيز : ١٨٦/٢

ممّا فيه كفّارة . وبعقوبة الدّنيا في الزام الكفّارة ، فيضعف القول بأنّها اليمين المكفرة ، لأنّ المؤاخذة قد وقعت فيها ، وتخصيص المؤاخذة بأنّها في الآخرة فقط تحكم . " (١)

ويقول أبوحيّان - رحمه الله - في تفسيرهذا اللّفظ :

" مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، لأنّه تعالى لمّا نهى عن جعل الله معرضا للأيمان كان ذلك حتما لترك الأيمان وهم يشقّ عليهم ذلك، لأنّ العادة جرت لهم بالأيمان فذكر أنّ ما كان منها لغوا فهولا يؤاخذ به ، لأنّه ممّا لا يقصد به حقيقة اليمين ، وانّما هو شيء يجري على اللّسان عند المحاورة من غير قصد . وهذا أحسن ما يفسّربه اللّغو لأنّه تعالى جعل مقابله ماكسبه القلب وهو ماله فيه اعتماد وقصد." (٢)

وهكذا نرى المفسّرين - رحمهم الله - قد اتّجهوا اتّجاها واحدا في تأويل هذا اللّفظ . وقبل أن نحكم لهذا الاتّجاه أوعليه نودّ أن ننبّه الى أمور لا بدّ أن نضعها في اعتبارنا ، وهي كما يلي :

١ - جري اليمين على اللّسان بدون قصد ليس شيئا محمودا ولا مقبولا حتى يراعيه الشرع ويترك النّاس عليه .

٢ - ان كانت هذه العادة قد تغلغلت فيهم حتى صعب عليهم التخلّص منها ، فليس معنى ذلك أن يشجّعوا عليها . والتصريح المتكرّر بعدم المؤاخذة بها لا يعني الّا التشجيع عليها . وكم من عادة سيّئة قد تعوّدوا عليها ، ولكنّ القرآن عالجهم بحكمة حتى تخلّصوا منها . والقوم اذا قدروا على التخلّص من الخمر بعد ما كانت تجري في عروقهم مجرى الدّم فلا شك أنّهم كانوا أقدر على أن يتخلّصوا من أيّ رذيلة أخرى ، كائنة ما كانت .

٣ - ان كان الرجل بحيث يجري اليمين على لسانه من غير قصد ، فهو سيجعل الله - ولا محالة - عرضة لأيمانه الّتي نهى عنها . فهذا النّهي مع هذا الترخيص يصبح جمعا بين المتناقضين .

---

(١) المحرّر الوجيز : ١٨٨/٢ - ١٨٩ (٢) تفسير البحر المحيط: ١٧٩/٢

٤ ـ ان فسّرنا اللّغو بالمعنى الشائع ، فسيكون هذا المعنى غريبا بين المعاني الّتي تحيط به . وهذا لا يتصوّر في أىّ كلام رفيع فضلا عن القرآن الّذى جعله الله ذروة في التناسب بين موضوعاته .

تلك أمور لا بدّ أن يضعها الباحث في اعتباره . وهى تصرفه عن ذلك التأويل صرفا لا هوادة فيه .

تحقيق معنى (اللّغو) :

اذا فما هو التأويل الصّحيح لهذا اللّفظ ؟

نحن نرى أنّ ما روى عن ابن عبّاس والضّحاك في تأويل هذا اللّفظ أقرب للصّواب من غيره ، حيث قالا ـ رضى الله عنهما ـ :

" لغو اليمين هو المكفرة ، أى اذا كفّرت اليمين فحينئذ سقطت وصارت لغوا . ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع الى الّذى هو خير."(١)

وعلى هذا فليس هذا (اللّغو) من لغا يلغو لغوا أو لغى يلغى لغيا ،كما ذهب اليه من ذهب . وانّما هو من الالغاء كالعون من الاعانة في قوله ـ عليه السلام ـ :

(والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) (٢)

ولهذا الاستعمال نظائر أخرى في كلام العرب ، فمنه قول سيّدنا أبي بكر لعكرمة ـ رضى الله عنهما ـ حيث قال :

(مهما قلت انّي فاعل فافعله . ولا تجعل قولك لغوا في عقوبة ولا عفو ، ولا ترج اذا أمنت ولا تخافنّ اذا خوّفت ، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ، ولا تعدنّ معصية بأكثر من عقوبتها ، فان فعلت أثمت وان تركت كذبت .) (٣)

فقوله ـ رضى الله عنه ـ (لا تجعل قولك لغوا) يعني طبّق كلّ ما قلت من عفو أو عقوبة ولا تلغه الغاء .

---

(١) المحرّر الوجيز : ١٨٨/٢

(٢) مختصر سنن أبي داود : باب في المعونة للمسلم : ٢٤٩/٧ ، رقم الحديث (٤٧٧٩) .

(٣) عبقريّة الصّدّيق للأستاذ عبّاس محمود العقّاد : ص/ ١٢٥

المعقّدة ، وانّما هي تلك الكفّارة التي يدفعها المرء اذا أراد أن يلغى شيئا من تلك الأيمان .

ومن هنا قال ابن عبّاس ـ رضى الله عنهما ـ :

" ﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ﴾ فهذا في الرجل يحلف على أمر اضرار أن يفعله فلا يفعله، فيرى الّذى هو خير منه، فأمره الله أن يكفّر يمينه ويأتي الّذى هو خير . " (١)

وأمّا الأيمان المعقّدة أو الّتي كسبتها القلوب ، وهى الّتي يصرّ عليها المرء ولا يريد أن يقلع عنها فسيؤاخذ بها عند الله حينما تفوته الفرصة ، ولا يمكنه الغاؤها والتكفير عنها .

وكم نتعجّب من القاضي ابن عطيّة ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

" والمؤاخذة في الأيمان هى بعقوبة الآخرة في الغموس المصبورة وفيما ترك تكفيره ممّا فيه كفّارة ، وبعقوبة الدّنيا في الزام الكفّارة ، فيضعف القول بأنّها اليمين المكفّرة ، لأنّ المؤاخذة قد وقعت فيها . وتخصيص المؤاخذة بأنّها في الآخرة فقط تحكم . " (٢)

فقد جاء ـ رحمه الله ـ بكلام في غاية الضّعف ، فانّ الكفّارة ليست مؤاخذة ولا عقوبة ، وانّما هى رحمة من الله وطهارة للمرء ممّا وقع فيه وخلاص له من العقوبة والمؤاخذة الّتي كانت تنتظره لولا أنّه أقلع عن ذنبه وكفّر عنه .

وهذا الأمر لا يبقى فيه مجال شبهة اذا تذكّرنا قوله تعالى:

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ﴾ (٣)

فالمؤمنون لا يسألون ربّهم من خلال هذا الدّعاء أن يعفيهم من الكفّارات وانّما يسألونه ـ تعالى ـ أن يعيذهم من سخطه وعقابه .

وكذلك قوله تعالى بعد ذكر كفّارات الظّهار :

﴿ ذلك لتؤمنوا بالله و رسوله ﴾ (٤)

نصّ على أنّ الكفّارات ما فرضت على المؤمنين عقوبة ومؤاخذة لهم ، وانّما

---

(١) تفسير الطّبرى : ٤١٢/٢ (٢) المحرّر الوجيز : ١٨٨/٢ـ ١٨٩

(٣) سورة البقرة : ٢٨٦ (٤) سورة المجادلة : ٤

فرضت لتمدّهم بايمان الى ايمانهم ، أوتعيدهم الى رحاب الايمان ان كانوا قد خرجوا منه ٠

والآن نعود الى حديثنا السابق فنقول : ثمّ كان من فضل الله علينا ورحمته أنّه بعد مانهانا عن الأيمان الّتي تتنافى مع البرّوالتقوى والاصلاح بين النّاس ، ومنها الايلاء من النّساء ، ذكرلنا حلّا لهذه المشكلة ان وقعنا فيها :

﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغوفي أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ٠ ﴾

ثمّ ذكرلنا أقصى مدّة الايلاء حتى يكسب هذا الموضوع نوعا من الجدّية فللمرء أن يتروّى في خلال هذه المدّة وعليه أن يجزم فيها بأحدالأمرين ، فامّا أن يفيء الى ماهوأولى به وهوالتوادّ والتراحم ، أويختار ما يقابله ،وهو الطّلاق والفراق :

﴿ للّذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر،فان فاءوا فانّ الله غفور رحيم ٠ وان عزموا الطّلاق فانّ الله سميع عليم ٠ ﴾

وممّا يجدر التنبيه اليه أنّه تعالى ذكرهنا أمرين : وهما الفيئة وعزم الطّلاق ٠ كما ذكرفي الآية السابقة أمرين : وهما (اللّغو)و(ماكسبت قلوبكم) ٠

ولعلّنا لا نجانب الصّواب اذا قلنا ، انّ التالي جاء بيانا وتفصيلا للسابق ، فقوله تعالى :﴿ فان فاءوا فانّ الله غفوررحيم ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغوفي أيمانكم ﴾ كما أنّ قوله تعالى :﴿ وان عزموا الطّلاق فانّ الله سميع عليم ﴾ بيان لقوله تعالى:﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ٠ ﴾

ثمّ انّ قوله تعالى:﴿ وان عزموا الطّلاق فانّ الله سميع عليم ﴾ كان مناسبة طيّبة لتفصيل أحكام الطّلاق وما يتبعه أويتّصل به من قضايا العدّة والرجعة والخلع والرضاع والخطبة والصّداق والمتعة وما الى ذلك ٠

فنرى السياق يبادر الى انتهاز هذه الفرصة السانحة ويزوّدنا بتوجيهات قيّمة في شأن الطّلاق وما يتّصل به ٠

نظـــم الآيات (٢٢٨ ـ ٢٣٧)

****

قال تعالــى :

﴿ والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ٠ ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ ان كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر٠ وبعولتهنّ أحقّ بردّهنّ في ذلك ان أرادوا اصلاحا ٠ ولهنّ مثل الّذى عليهنّ بالمعروف ٠ وللرجال عليهنّ درجة ٠ والله عزيز حكيم ٠ الطّلاق مرّتان ٠ فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ٠ ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئا الاّ أن يخافا ألاّ يقيما حدودا لله ٠ فان خفتم ألاّ يقيما حدودا لله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ٠ تلك حدود الله فلا تعتدوها ٠ ومن يتعدّ حدودا لله فأولئك هم الظّالمون فان طلّقها فلا تحلّ له من بعد حتّى تنكح زوجا غيره ٠ فان طلّقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنّا أن يقيما حدودا لله ٠ وتلك حدودا لله يبيّنها لقوم يعلمون ٠ واذا طلّقتم النّساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهنّ بمعروف ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتّخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ٠ واتّقوا الله واعلموا أنّ الله بكلّ شيء عليم ٠ واذا طلّقتم النّساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ اذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر٠ ذلكم أزكى لكم و أطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ٠ لا تكلّف نفس الاّ وسعها ، لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ٠ فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف واتّقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير٠ والّذين يتوفّون منكم ويذرون

أزواجا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهروعشرا . فاذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف . والله بما تعملون خبير. ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النّساء أو أكننتم في أنفسكم . علم الله أنّكم ستذكرونهنّ ولكن لا تواعدوهنّ سرّا الاّ أن تقولوا قولا معروفا . ولا تعزموا عقدة النّكاح حتّى يبلغ الكتاب أجله . واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنّ الله غفور حليم . لا جناح عليكم ان طلّقتم النّساء ما لم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقّا على المحسنين . وان طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم الاّ أن يعفون أو يعفو الّذى بيده عقدة النّكاح . وأن تعفوا أقرب للتّقوى ولا تنسوا الفضل بينكم . انّ الله بما تعملون بصير. *

*** ** ***

يقول الأستاذ عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ وهو يبيّن مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

" ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الايلاء على وجه معين ، يطلّ القارئ منه على أفق متلبّد ينذر باحتمال الفراق ، فلمّا جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريبا ، بل وجد مكانه مهيّأ له من قبل، كأنّ خاتمة حكم الايلاء كانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف الى عروة أخرى تشتبك معها ، فلمّا جاءت فتيا الطّلاق في ابانها كانت هي تلك العروة المنتظرة . وما هو الاّ أن التقت العروتان حتّى اعتنقتا وكانت منهما حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها . وهكذا أصبح الحديثان حديثا واحدا . "

ويقول ـ رحمه الله ـ :

" وتمضي السورة في هذا النّمط الجديد ، مفصّلة آثار الطّلاق وتوابعه كلّها : عدّة ، ورجعة ، وخلعا ، ورضاعا ،واسترضاعا ، وخطبة ، وصداقا ، ومتعة ... الى تمام هذه الحلقة الثّانية (٢٣٧) . "(١)

---

(١) النّبأ العظيم : ص/ ٢٠١ ـ ٢٠٢

ونرى أنّ هذه المجموعة من الآيات واضحة في نظمها وربـاط معانيها وليست بحاجة الى من يبيّن وجوه ارتباطها وتناسقهـا فيما بينها ٠

والجوّ العامّ الّذى يسود هذه الأحكام كلّها هو جوّ البـرّ والتقوى والاصلاح بين النّاس ٠ كما كان الأمر في تلك الأحكام الّتي سبقتها ٠

فكما أنّه ـ تعالى ـ كره الايلاء من النّساء لكونه يتنافى مع روح البرّ والتقوى والاصلاح بين النّاس ، كره لهم ، اذا عزموا الطّلاق ، أن يحدّثوا أنفسهم بضرار المطلّقات والتضييق عليهنّ ، وأمرهم أن يلتزموا دائما وأبدا بما يملي عليهم ايمانهم من التسامح والتكارم والاخاء والتعفّف ورحابة الصّدر ، حيث قال تعالى :

﴿ ولا يحلّ لكم أن تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئا ٠٠٠ ﴾

﴿ فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهنّ بمعروف ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا ﴾

﴿ لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك ﴾

﴿ ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقّا على المحسنين ﴾

﴿ الا أن يعفون أو يعفوا الّذى بيده عقدة النّكاح ٠ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾

وهكذا نرى تلك الآيات تسمو بالنّفوس الى ذرى البرّ والتقوى والاصلاح والاحسان كما أنّ الآيات الّتي سبقتها كانت تحلّق في تلك الأجواء نفسها ، حيث قال تعالى :

﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا بين النّاس والله سميع عليم ٠ ﴾

أحوال الأزواج والزوجات وأحكامهم في النّكاح والوطء والايلاء والطّلاق والرجعة والارضاع والنّفقة والكسوة والعدد والخطبة والمتعة والصّداق والتشطّر وغيرذلك كانت تكاليف عظيمة تشغل من كلفها أعظم شغل بحيث لا يكاد يسع معها شيءٌ من الأعمال وكان كلّ من الزّوجين قد أوجب عليه للآخر ما يستفرغ فيه الوقت ويبلغ منه الجهد وأمر كلّا منهما بالاحسان الى الآخر حتّى في حالة الفراق وكانت مدعاة الى التّكاسل عن الاشتغال بالعبادة الا لمن وفّقه الله تعالى أمر بالمحافظة على الصّلوات الّتي هى الوسيلة بين الله وبين عبده واذا كان قد أمر بالمحافظة على أداء حقوق الآدميّين فلأن يؤمر بأداء حقوق الله أولى وأحقّ. ولذلك جاء فدين الله أحقّ أن يقضى. فكأنّه قيل لا يشغلنّكم التعلّق بالنّساء وأحوالهنّ عن أداء ما فرض الله عليكم فمع تلك الأشغال العظيمة لا بدّ من المحافظة على الصّلاة حتّى في حالة الخوف. فلا بدّ من أدائها رجالا و ركبانا وان كانت حالة الخوف أشدّ من حالة الاشتغال بالنّساء فاذا كانت هذه الحالة الشّاقّة جدّا لا بدّ معها من الصّلاة فأحرى ما هو دونها من الأشغال المتعلّقة بالنّساء. وقيل مناسبة الأمر بالمحافظة على الصّلوات عقيب الأوامر السابقة أنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فيكون ذلك عونا لهم على امتثالها وصونا لهم عن مخالفتها. وقيل وجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها أنّه لمّا أمر تعالى بالمحافظة على حقوق الخلق بقوله :ولا تنسوا الفضل بينكم، ناسب أن يأمر بالمحافظة على حقوق الحقّ. ثمّ لمّا كانت حقوق الآدميّين منها ما يتعلّق بالحياة وقد ذكره، ومنها ما يتعلّق بالممات ذكره بعده في قوله : والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا وصيّة .. الآية. " (1)

ثمّ يجيء بعدهما الأستاذ سيّد قطب ليضيف الى تلك النّواحي ناحية جديدة، حيث يقول ـ رحمه الله ـ :

---

(1) تفسير البحر المحيط : ٢/٢٣٩

" وفي هذا الجوّ الّذى يربط القلوب بالله، ويجعل الاحسان والمعروف في العشرة عبادة لله ، يدسّ حديثا عن الصّلاة ـ أكبر عبادات الاسلام ـ ولم ينته بعد من هذه الأحكام ، وقد بقى منها حكم المتوفّى عنها زوجها وحقّها في وصيّة تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله، وحكم المتاع للمطلّقات بصفة عامّة ـ يدسّ الحديث عن الصّلاة في هذا الجوّ ، فيوحي بأنّ الطّاعة لله في كلّ هذا عبادة كعبادة الصّلاة ومن جنسها ، وهو ايحاء لطيف من ايحاءات القرآن . وهو يتّسق مع التصوّر الاسلامي لغاية الوجود الانساني في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجنّ والانس الاّ ليعبدون ﴾ . واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر بل شاملة لكلّ نشاط ، الاتّجاه فيها الى الله والغاية منه طاعة الله ."(١)

تلك عدّة محاولات لالتماس مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما .

ولا شكّ أنّها كانت محاولات مشكورة . الاّ أنّ الّذى ينقصها هو رحابة الأفق وسعة النّظر، فالمناسبة ليس من شرطها دائما أن تكون مع الآية أو الآيات الّتي تجاورها أو تتّصل بها اتّصالا مباشرا .

بل قد تكون الآية مرتبطة بما يجاورها وقد ترتبط بما يجاورها وبما يكون على بعد منها على حدّ سواء . وقد ترتبط ـ في أصلها ـ بما يكون على بعد منها ويكون ارتباطها بما يجاورها ارتباطا اضافيّا لا يقصد بالقصد الأوّل ولا يركّز عليه .

والى ذلك يشير أستاذنا الامام عبد الحميد الفراهي ـ رحمه الله ـ حيث يقول :

" انّ بيان القرآن ونظمه ليس على أسلوب الخطّ المستقيم دائما ، بل ربما هو مشتبك كتصوير المشجرات . " (٢)

ويقول ـ رحمه الله ـ :

" من عادة العرب وفطرة البلاغة أن ينجرّ الكلام من أمر

---

(١) في ظلال القرآن : ٢٥٧/١

(٢) دلائل النّظام للفراهي : ص / ٥٧ (على الهامش) .

الى أمر ، ومنه الى أمر آخر، ثمّ يعود الى الأوّل أو الى الوسط حتّى يعود الى الأوّل ، أوالى ما يتّصل به٠ واذا كان المخاطب عالما بأسباب الكلام لم يشكل عليه نظمه ٠ " (١)

ويقول ـ رحمه الله ـ :

" انّي رأيت في ترتيب كلام الله ـ وله الحمد على ما أراني ـ أنّ الكلام يجرّ من أمر الى أمر ، وكلّه جدير بأن يكون مقصدا فيشفي الصّدور ويجلو القلوب ثمّ يعود الى البدء فيصيركالحلقة ٠"(٢)

والتأمّل في نظم هاتين الآيتين يذهب بنا الى أنّهما ماجاءتا على أسلوب الخطّ المستقيم ، وأنّ صلتهما بما يجاورهما من آيات الطّلاق والعدّة ليست الاّ صلة اضافيّة لا تقصد بالقصد الأوّل ولا يركّز عليها٠ فالّذين حاولوا التماس المناسبة فيهما منحصرين في هذا الاطار المحدود صعب عليهم أن يكتشفوا روعة نظامهما وحسن موقعهما في هذه السّورة ٠

وهناك فريق آخر تناول هاتين الآيتين بنظرة أوسع نسبيّا ، فكان طبيعيّا أن تختلف هذه النّظرة ممّا قبلها ٠

ويمثّل هذا الفريق الامام الفراهي ، ويقاربه بعض القرب الدّكتور عبدالله دراز ـ رحمهما الله ـ ٠

ونحن ننقل هنا ما دبجته يراعتهما حتّى يظهر لنا لون جديد للتّأمّل في نظم هاتين الآيتين ٠

يقول الامام الفراهي ـ رحمه الله ـ :

(آيتان : ٢٣٨ ـ ٢٣٩) :

هذه خاتمة الباب بالصّلاة والذكر كما بدأ بها القسم العملي ٠ ولهذا الأسلوب أمثلة في القرآن ٠ وسمّيته العود على البدء٠ واتّصال هذه الآية بالّتي قبل الأسئلة ، وهى آية :(٢١٣)

---

(١) دلائل النّظام للفراهي : ص / ٥٥ (على الهامش)

(٢) " " : ص / ٥٤

أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة الخ والمقصود منه تنبيه على أصل الأمر وأهمّه. ولمّا كان عهدنا الصّلاة والذكر أكّد عليهما. وهكذا فعل في التّوراة: الباب العشرون من الخروج يبتدأ بالأحكام العشرة، فبدئ بالتوحيد وختم به. ثمّ كان القربان صورة عهدهم كما أنّ الصّلاة لنا فختم به كلّيّات أحكامهم. وهذا حسب ظاهر التّوراة وأمّا القرآن فظاهره يدلّ على أنّ الصّلاة كانت لهم كما هي لنا أصل العهد. انظر المائدة: ١٢، ويونس: ٨٧ ـ (١)

وفي ذكر الصّلاة ههنا أيضا تنبيه على كونها أهمّ مقاصد الجهاد، فانّ أصل الدّين كما علمت ذكر الله والاحسان الى الخلق. وأصله السلم. فالقتال لا يجوز الّا لهذين الأمرين. ولذلك وجبت المحافظة على الصّلاة للنّصرة. والشاهد على هذه الأمور الثّلاث قوله تعالى: ﴿ ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. ولينصرنّ الله من ينصره. انّ الله لقوىّ عزيز. الّذين ان مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور. ﴾ (سورة الحجّ: ٤٠ ـ ٤١)

وكذلك ترى أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ أعلم هذه الأمّة بالقرآن لمّا أرسل سريّة أوصاهم بالرحمة والابتعاد عن الفساد واهلاك الحرث والنّسل، ليعلموا أنّ الله تعالى ينصر المصلح ويخذل المفسد. وأنّ الجهاد ليس الّا لدفع الفساد. وبالصّلاح يستحقّون الخلافة والوراثة، فهى واسطة بين ما قبلها وما بعدها. وكذلك أوصى عمر ـ رضى الله عنه ـ بالصّلاة، فقال: (من ضيّعها فهو لما سواها أضيع) (٢) فانّ الصّلاة

---

(١) آية المائدة رقم (١٢) هكذا: ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا، وقال الله انّي معكم لئن أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولأدخلنّكم جنّات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل. ﴾ وآية يونس رقم (٨٧) هكذا: ﴿ وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصّلاة وبشّر المؤمنين ﴾ (٢) الموطّأ، باب وقوت الصّلاة: ٦/١

هي الأصل ولها استخلفوا واستحقّوا وراثة الأرض . " (١)

هذا ما نجده عند الامام الفراهي ـ رحمه الله ـ في مذكّراته الخاصّة بخصوص مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما .

ثمّ يجيءُ بعده الدّكتور عبدالله دراز ليسهم في ابراز هذه المناسبة والأسلوب نفس الأسلوب ، وان كان هناك فرق واضح في تناوله . يقول ـ رحمه الله ـ :

" وهنالك تبدأ الحلقة الثّالثة ﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى ... ﴾ (٢٣٨ ـ ٢٧٤)

فلننظر كيف تمّت النّقلة بين هاتين الحلقتين ؟

انّنا بمقدار ما رأينا من التلبّث والتمكّث ، والاستجمام والتنفّس بين الحلقة الأولى والثّانية ، سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثّانية والثّالثة ، نقلة شبه خاطفة بل لفتة جدّ مباغتة ، قد يحسبها النّاظر اقتضابا ، وما هي باقتضاب الّا في حكم النّظر السطحيّ .. أمّا من تابع معنا سير قافلة المعاني منذ بدايتها ، وقطع معنا ثلثي الطّريق الّذي رسمته آية البرّ : من الوفاء بالعهود ، والصّبر في البأساء والضّرّاء وحين البأس ، فانّه لا ريب سوف يستشرف معنا الى ثلثه الباقي : اقامة الصّلاة وايتاء الزّكاة ، وبذل المال على حبّه في سبيل الله . وسوف يرى أنّ هذه الحلقة الثّالثة قد جاءت هنا في رتبتها وفي موضعها المقدّر لها ، وفق ترتيبها في الآية الجامعة .

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت في موضعها ورتبتها ، ولكنّ الانتقال اليها قد تمّ دون اعداد نفسيّ ، ولا تمهيد بيانيّ .

نقول : بل كان هذا الاعداد والتمهيد ، في الآية الكريمة الّتي ختمت بها الحلقة السابقة : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتّقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم . انّ الله بما تعملون بصير . ﴾ .. فهذه لو تدبّرت معبرة

---

(١) مذكّرات القرآن للفراهي (مخطوط) .

ذهبيّة وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزليّة ، معبرة جيء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة ، الى سكون المسامحة والمكارمة ، فكانت معراجا وسطا صعد بنا الى أفق أعلى ، تمهيدا للعروج بنا فيما يلي الى الأفق الأعلى .. ألا تسمع الى هذه الكلمات : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ لا تنسوا . الفضل .. بينكم . انّ كلّ حرف في هذه الكلمات ينادى بأنّها كلمات حبيب مودّع ، كان قد أقام بيننا فترة ما ، ليفصل في شئوننا ، ثمّ أخذ الآن يطوى صحيفة أحكامه ، ليتحوّل بنا عنها الى ما هو أهمّ منها ، فقال لنا وهو يطويها : دعوا المشادّة في هذه الشئون الجزئيّة الصّغرى سوّوها فيما بينكم بقانون البرّ والفضل ، الّذى هو أسمى من قانون الحقّ والعدل ، وحوّلوا أبصاركم معي الى الشئون الكلّيّة الكبرى ، الّتي هى أحقّ بأن يتوافر عليها العزم والقصد ، وأحرى أن يشتغل بها العقل والقلب ... نعم ، نعم . لقد كفاكم هذا حديثا عن حقوق الزّوج والولد ، فاستمعوا الآن الى الحديث عن حقوق الله والوطن :

حافظوا على الصّلاة ... أنفقوا في سبيل الله ... جاهدوا في سبيل الله ..

" وبعد " فهل حديث الصّلاة هنا يعتبر مقصدا أصليّا مستقلّا ، أم هو جزء من مقصد آخر .

لكى نحسن الجواب عن هذا السؤال ، يجمل بنا أن نرجع البصر كرّة أخرى ، لننظر في جملة الخصال الّتي جمعت في آية البرّ ، والّتي فصلت في الآيات من بعدها الى قرب آخر السورة ، ولنقارن بين حظوظها من عناية الذكر الحكيم . فماذا نرى ؟

نرى التنويه بفضيلتى الانفاق والجهاد في سبيل الله ، لا يزال يعاد ويردّد في مطالع الحديث ومقاطعه ، في اجماله وفي تفصيله ، ترديدا ينادى بأنّه هو المقصود الأهمّ ، والهدف الأعظم ، من التشريع في

هذه السورة .. فلو أنّنا ، في ضوء هذا الأسلوب ، تمثّلنا تلك البيئة وأحداثها وتمثّلنا القوم وهم تتلى عليهم شرائع هذه السورة وأحكامها ، لتمثّلنا معسكرا ثابتا للجهاد المزدوج ، المالي والبدني ، ولتمثّلنا على رأس هذا المعسكر قائدا يقظا حريصا لا يعزب عنه شأن من شئون جنوده ، خاصّها وعامّها ، ولا يفتأ يلقي عليهم أوامره وارشاداته في مختلف تلك الشئون ، كلّما فرغ من افتائهم في نوازلهم العارضة الوقتيّة ، رجع بالحديث الى مجراه العتيد ، في شأن مهمّتهم الرئيسيّة ..

ضع هذه اللّوحة الجنديّة أمام عينيك ... فلن يكون عندك عجبا أن ترى الحديث في شأن الجهاد يبرز الآن على اثر تلك الشئون. ذلك أنّ بساطه كان أبدا منشورا ، وأنّ داعيته كانت دائما قائمة ،فاذا عاد ذكره بعد أن زال ماحوله من الشواغل الوقتيّة ، فانّما يجيء على أصله وسجيّته ، فلا يسأل عن علّته ...

ماذا نقول ؟ .. شأن الجهاد !! أليس الحديث سيفتتح الآن بشأن الصّلاة ، وعدّة الوفاة ، لا بشأن الجهاد ؟

بل نقول ، ونحن نعني مانقول : انّ الحديث يعود الآن الى شأن الجهاد، وانّ الخطاب هنا بالصّلاة وغيرها يتوجّه الى المجاهدين من حيث هم مجاهدون ، ليحلّ المشاكل الّتي يثيرها موقف الجهاد نفسه ، قبل أن يوجّه اليهم الأمر الصّريح بالقتال ..

فأوّل هذه المشاكل مشكلة الصّلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في اسقاط هذا الواجب أو في تأجيله ؟

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة في ترك الصّلاة ولا في تأجيلها لا في سلم ولا في حرب ، لا في أمن ولا في خوف : ﴿ حافظوا على الصّلوات ﴾ (٢٣٨) وانّما الرخصة عند الخوف في شيء واحد : في صفات الصّلاة وهيئتها : ﴿ فان خفتم فرجالا أو ركبانا . فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ (٢٣٩) والصّلاة كما نعلم قوّة معنويّة على العدوّ،

وعدّة من عدد النّصر ، لا جرم كان من الحكمة أن تزوّد بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمرا صريحا . والصّلاة في الوقت نفسه طهرة للنّفس من مساوئ الأخلاق ، تنقيها من دنس الشّح والحرص على حطام الدّنيا . لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصيّة الآنفة ، الّتي أمرتنا بالتسامح والتكارم في المعاملات ..

هكذا كان وضع حديث الصّلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معا ، ينظر الى الأمام والى الوراء جميعا . بل قل انّه مثلّث الفائدة ، لأنّه في نظره الى الخلف لا ينظر الى الآية الآنفة وحدها ، بل ينظر كذلك الى الآية الجامعة ، ليفصّل اجمالها في هذا الجانب . " (١)

ويزيد - رحمه الله - فيقول :

" اذا فهمت حسن هذا التلطّف ، في الانتقال من المعنى القديم الى المعنى الجديد وأدركت جمال هذه الأوضاع الهندسيّة الّتي تناسقت بها المعاني السابقة واللاحقة ، فقد زالت عنك شبهة الاقتضاب هنا في الانتقال الى حديث الصّلاة .. غير أنّنا اذا قسنا هذه النّقلة الى النّقلة السابقة بين الحلقتين الأولى والثّانية ألسنا نرى هذا التمهيد قصيرا ، وهذا التحوّل سريعا ؟ أليست النّفس في سيرها هنا تدركها رجّة خفيفة لهذا التحوّل السريع الّذى تفرضه عليها حركة قائدها ؟

ألا فاعلم ، علّمك الله ، أنّ هذه سرعة مقصودة ، وأنّ من الخير لنا أن نحسّ بهذه الرجّة الخفيفة من أثر ذلك التحوّل السريع ، فانّ لذلك مغزى عميقا في تربية النّفوس المؤمنة ... انّ هذه النّقلة تصوّر لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، اذا سمع نداء الواجب الروحي وهو منهمك في معركة الحياة . فكأنّنا بهذا الأسلوب

---

(١) النبأ العظيم : ص / ٢٠٢ - ٢٠٥

الحكيم ينادينا : انّه ليس شأن المؤمن أن يحتاج الى كبير معالجة للتّسامي بروحه فوق مشاغل الأهل والولد ، وانّما شأنه أن ينتشل نفسه من غمرتها انتشالا فوريّا ، ليسرع الى تلبية ذلك النّداء الأقدس ، قائلا للدّنيا كلّها : (دعيني أتعبّد لربّي !) نعم هذا شأن المؤمنين ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفا وطمعا .. ﴾ (١)

هاتان محاولتان لتناول الآيتين بنظرة واسعة شاملة ، ونحن ننظر الى هاتين المحاولتين الطّيّبتين بعين التقدير والاجلال ، الاّ أنّ الأمر مازال بحاجة الى تحرير ومزيد تفصيل ، وما زالت الآيتان تنتظران أن يماط اللّثام عن روعة نظامهما وحسن موقعهما في هذه السورة . فانّ الفراهي - رحمه الله - لم يفصّل الأمر تفصيلا ، وانّما اقتصر على لمحات عابرة سريعة ، ولا ملام عليه ، فانّ العبارة المذكورة أعلاه من مذكّرة له قد أعدّها لما يتلوها من تغير مبسّط للسورة . ولكن عاجلته المنيّة قبل أن ينفّذ ما أراد .

وأمّا الدّكتور عبدالله دراز - رحمه الله - فانّه - ولا شكّ - حاول أن يتناول الموضوع بحرص وبنظرة شاملة واسعة ، الاّ أنّه - رحمه الله - تعجّل في ربط الأمور بعضها ببعض ، فلم يكد يحسن التمسّك بنظام الآيات ولم يكد يملأ يديه بثمار هذه الفكرة الّتي تبنّاها وكان معجبا بها غاية الاعجاب .

وعلى أيّة حال فهو مأجور مشكور - باذن الله - على ما بذل من جهد .

والآن ، وقد انتهينا من استعراض جملة من المحاولات ، الّتي بذلت في هذا الطّريق ، نودّ أن ندلي بدلونا في تجلية هذا الموضوع ، فنقول وبالله التوفيق :

انّ البحث عن مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما يلزمنا

---

(١) النّبأ العظيم : ص/ ٢٠٥ - ٢٠٦ (على الهامش) .

أن نتراجع الى مسار الكلام ونكرّر النّظر الى تلك الأسئلة السبعة الّتي وجّهت الى النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ والّتي مضت معنا قبل قليل ، فانّ الآيات الّتي وردت تبحث موضوع الطّلاق وما يتّصل به انّما جاءت عرضا واستطرادا . وليست من المقاصد الأصليّة المستقلّة ، الّتي سيق لها الكلام . وقد بيّنّا ذلك في موضعه .

فلا بدّ اذا من العودة الى تلك الأسئلة الّتي سبق ذكرها ولا بدّ من استحضار جوّها وملابساتها الّتي كانت تحيط بها .

وقد وضح ممّا أسلفنا ، أنّ تلك الأسئلة كانت موجّهة من قبل منافقي اليهود ومن على شاكلتهم ممّن آمنوا ولم تؤمن قلوبهم .

وكان الدّافع الى تلك الأسئلة اهتمامهم بالدّنيا وشهواتها من الخمر والميسر والنّساء والتهرّب ممّا يحول دون شهواتهم ، أو يعكّر عليهم صفو نعيمهم من الجهاد بالنّفس والنّفيس في سبيل الله .

ولا يستغرب أبدا اذا جاء في مثل هذا الجوّ وهذا السياق ذلك التوجيه الكريم :

﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين ، فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون . ﴾

فانّهم ما وصلوا الى ما وصلوا اليه من الركون الى الدّنيا والميل الى شهواتها الّا لقلّة اهتمامهم بالصّلاة والتهرّب ممّا يمليه عليهم ايمانهم من الانفاق والجهاد في سبيل الله .

وقد جاء ذلك واضحا في موضع آخر حيث قال تعالى :

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا . ﴾ (١)

فاتّباع الشهوات لا يكون الّا نتيجة لاضاعة الصّلاة ، وما أضاع قوم صلاتهم الّا انغمسوا في شهواتهم .

---

(١) سورة مريم : ٥٩

والمحافظة على الصّلاة هي الّتي تأخذ بيد العبد الى الله وتقوّي صلته به وتحفظ له دينه وتمضي به قدما في سبيل طاعة الله · ومن هنا قال سيّدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ :

(انّ أهمّ أمركم عندي الصّلاة · فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه · ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع) (١)

فذكرت هاتان الآيتان بعد ما سبقهما من الآيات كما يذكر العلاج بعد ذكر المرض ·

ولعلّ هذا هو السرّ في اختيار لفظة (حافظوا) في الآية دون لفظة (أقيموا) فانّ (حافظوا) أقرب وأنسب للمقام اذا كان الخطاب موجّها الى قوم قد أضاعوا الصّلاة ، فانّ اضاعة الصّلاة تقابلها المحافظة على الصّلاة لا اقامة الصّلاة ·

هذه ناحية ·

ومن ناحية أخرى فانّ هذه الآية جاءت على أسلوب العود على البدء ، وهو أسلوب شائع في القرآن ·

وتلك نكتة دقيقة لا بدّ من ايضاحها ·

لقد رأينا في هذه السورة نفسها أنّ الله تعالى بعد أن أمر بتحويل القبلة الى الكعبة المشرّفة ، وبعد أن نبّه الجماعة المسلمة الى المهمّة الجليلة ، الّتي نيطت بها في هذا الكون ، أزجى اليها هذه النّصيحة الغالية :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة · انّ الله مع الصّابرين · ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات · بل أحياء ولكن لا تشعرون · ﴾ (٢)

ثمّ تطرّق الحديث بمقتضى المقام الى أمور وموضوعات متنوّعة متلاحمة آخذ بعضها بأعناق بعض · وقد كانت لنا وقفات

---

(١) الموطّأ للامام مالك : باب وقوت الصّلاة : ٦/١ ، رقم الحديث (٦)

(٢) سورة البقرة : ١٥٣ ـ ١٥٤

لا بأس بها عند كلّ من تلك الموضوعات ، وفصّلنا هناك وجوه ارتباطها بعضها ببعض ، وفصّلنا وجوه مناسبتها لما بين يديها وما خلفها . ثمّ عاد الكلام على بدئه :

﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى ... الآية ﴾

ولا غرابة في هذا الأسلوب ، فانّ له نظائر وأشباها في القرآن . وهي من الوضوح بحيث لا تحتمل الشكّ أو المراء .

نأخذ – على سبيل المثال – فاتحة سورة المؤمنون ، حيث قال تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون . الّذين هم في صلاتهم خاشعون ... ﴾ الى أن قال : ﴿ والّذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ (١)

ونرى نفس الأسلوب في سورة المعارج حيث قال تعالى :

﴿ انّ الانسان خلق هلوعا . اذا مسّه الشرّ جزوعا . واذا مسّه الخير منوعا ، الاّ المصلّين ، الّذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ الى أن قال : ﴿ والّذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ (٢)

ونلاحظ في هذين المثالين أمرين :

الأمر الأوّل : أنّ صفات المؤمنين بدئت بالصّلاة وختمت بها . وهو الّذى نسمّيه العود على البدء .

والأمر الثّاني : أنّ المحافظة على الصّلاة تذكر دائما في آخر الشوط . هكذا رأينا في سورة المؤمنون : ﴿ والّذين هم على صلواتهم يحافظون . ﴾ وهكذا نرى في سورة المعارج :

﴿ والّذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾

ولا يمنعنا مانع من القول بأنّ الوضع في سورة البقرة أيضا هكذا ، فانّ الأمر بالصّلاة بدئ بقوله تعالى :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة .. الآية ﴾

---

(١) سورة المؤمنون : ١ – ٩ (٢) سورة المعارج : ١٩ – ٣٤

ثمّ ختم بقوله تعالى :

﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . ﴾

ولا بأس بأن نستأنس أيضا لهذا التأويل الّذى يفسّر الآية على أنّها جاءت على أسلوب العود على البدء بالجوّ الّذى يحيط بالموضعين ، فالجوّ في كلا الموضعين جدّ متقارب .

ففي الموضع الأوّل ـ مثلا ـ نرى الأمر بالصّلاة والصّبر قد سبقه التنويه بكون تلك الجماعة أمّة وسطا :

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا . ﴾

بينما نرى في الموضع الثّاني الأمر بالمحافظة على الصّلاة الوسطى :

﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . ﴾

فالأمّة الوسط ما أقيم بناؤها إلاّ على الصّلاة الوسطى. والصّلاة الوسطى هى الّتي تجعل الأمّة تحرز هذا الشرف ، وتنهض لهذا المنصب . وسنعود الى هذه النّكتة بشيء من التفصيل باذن الله .

ونرى في الموضع الأوّل الحثّ على الاستعانة بالصّبر والصّلاة ، ونرى التنويه بشأن الصّابرين : ﴿ وبشّر الصّابرين ﴾ بينما نرى في الموضع الثّاني الأمر بالمحافظة على الصّلوات والصّلاة الوسطى ، ثمّ نرى مثالا عمليّا رائعا للاستعانة بالصّبر بعد الاستعانة بالصّلاة :

﴿ قال الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصّابرين . ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا أفرغ علينا صبرا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .﴾

والمعنيّون بقوله تعالى : ﴿ قال الّذين يظنّون أنّهم ملاقو الله ﴾ هم الّذين استطاعوا الاستعانة بالصبر والصّلاة بدليل قوله تعالى :

﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة . وانّها لكبيرة الاّ على الخاشعين . الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم اليه راجعون ﴾ (١)

ونرى في الموضع الأوّل قوله تعالى بعد الحثّ على الاستعانة بالصّبر والصّلاة :

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات . بل أحياء ولكن لا تشعرون . ﴾

فقد جمع السياق هنا بين الصّلاة والقتال في سبيل الله ، ومثل هذا النّظر نرى في الموضع الثّاني حيث قال تعالى بعد الأمر بالمحافظة على الصّلوات :

﴿ فان خفتم فرجالا أو ركبانا فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم مالم تكونوا تعلمون . ﴾

وهكذا نرى الجوّ في كلا الموضعين جدّ متقارب ، وهذا يحدو بنا الى القول بما قلناه آنفا من أنّ هذه الآية وردت على أسلوب العود على البدء ، وأنّ الحديث عاد الى الصّلاة كما بدأ منها .

<u>وحي هذا الأسلوب :</u>

وهنا يثور سؤال : فما هي فائدة هذا الأسلوب ؟

ولماذا تكرّر ذلك في القرآن ؟

والجواب أنّ هذا الأسلوب يوحي الينا معاني لم نكن لندركها لولا أنّ القرآن قد لجأ اليه .

فهذا الأسلوب يجسّد لنا مكانة الصّلاة وأهمّيتها في دين الله بشكل عجيب . ويبيّن لنا أنّ الصّلاة هي أصل الدّين ، وهي عماد الدّين ، وهي ملاك الدّين ، والدّين يبدأ منها وينتهي اليها .

---

(١) سورة البقرة : ٤٥ ـ ٤٦

والأمّة الّتي ترتضي لنفسها ملّة ابراهيم ، وتريد أن تقوم بدورها المرتقب في أداء هذه الرسالة العظمى ، لا بدّ أن تكون الصّلاة هي عنوان حياتها ومصدر قوّتها ونشاطها ، كما أنّه لا بدّ أن تكون هي أوّل خطواتها وغاية غاياتها .

تأويل الصّلاة الوسطى :

ويحسن بنا ، قبل أن ننتقل الى حديث آخر ، أن نطمئنّ الى تأويل الصّلاة الوسطى ، فقد اختلف النّاس في شأنها اختلافا كبيرا ، حتّى روى عن سعيد بن المسيّب - رحمه الله - أنّه قال :

(كان أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - في الصّلاة الوسطى هكذا ، و شبّك بين أصابعه) [(١)] يريد أنّهم كانوا في خلاف شديد في الصّلاة الوسطى .

ويقول الامام الشوكاني - رحمه الله - :

" وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولا ، أوردتها في شرحي للمنتقى وذكرت ما تمسّكت به كلّ طائفة . " [(٢)]

وأرجح تلك الأقوال عندنا وأقربها لنظم الآيات وسياقها هو ما روى عن سيّدنا معاذ بن جبل ، فانّه قال في تفسير الصّلاة الوسطى أنّها الصّلوات الخمس . [(٣)]

ولقد ذكر ابن عطيّة نفس القول عن بعض العلماء فقال :

" وقال بعض العلماء : الصّلاة الوسطى المكتوبة الخمس " [(٤)]

ويظهر لنا أنّ سيّدنا زيد بن ثابت أيضا كان يرى نفس الرأى فقد أخرج عبد بن حميد عن محمّد بن سيرين ، قال : سأل رجل زيد بن ثابت عن الصّلاة الوسطى ، قال : (حافظ على الصّلوات تدركها) [(٥)]

---

(١) زاد المسير : ٢٨٢/١ (٢) فتح القدير : ٢٥٦/١
(٣) تفسير البحر المحيط : ٢٤١/٢ (٤) المحرّر الوجيز : ٢٣٦/٢
(٥) الدرّ المنثور : ٧٢٩/١

فجعلت هذه الأمّة أمّة وسطا ، وأمرت أن تحافظ على صلواتها ، وأن تحاول أن تكون صلواتها كلّها صلاة وسطى ، أى قمّة في حسنها وروعتها وكمالها ، حتّى تؤتى أكلها باذن ربّها ، وحتّى تعدّ الأمّة لأداء مهمّتها الجليلة ، الّتي نيطت بها في هذه الحياة ، وهى الشهادة بالحقّ على النّاس ، المهمّة الّتي بعث لأجلها النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - حيث قال تعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

فالأمّة لا تكون أمّة وسطا حتّى تكون صلاتها صلاة وسطى والصّلاة لا تكون صلاة وسطى حتّى يملأها القنوت ، أى التضرّع والخشوع ، حيث قال تعالى :

﴿ وقوموا لله قانتين ﴾

فهذا توجيه وترشيد من الله تعالى ، حتّى يتهيّأ الوصول الى الصّلاة الوسطى لمن أراد أن يصل اليها .

وهذا التأويل هو الّذى ينسجم مع نظم الآيات وسياقها ، ويلائمه كلّ الملاءمة .

وأمّا بقيّة الوجوه ، الّتي وردت بها الروايات ، فهى لا تخلو من اشكال ، ولا تنسجم مع نظم الآيات وسياقها .

بالاضافة الى أنّ تأويلنا هذا جامع شامل . وبامكانه أن يضمّ في بحبوحته سائر الروايات الّتي تبدو في ظاهرها متنافرة متعارضة .

فليست الصّلاة الوسطى صلاة واحدة بعينها دون غيرها . وانّما هى كلّ صلاة تتحلّى بالفضل والكمال ، وتتندّى بالخشوع والخضوع والتضرّع الى الله .

والخلاف الّذى ورد في الصّحيح الثّابت من الروايات ، ليس خلافا في الرأى ، وانّما هى أقوال قيلت في مختلف الأوقات

حسب المناسبات ، فحملها النّاس على الخلاف في الرأى ، ورووها على ظاهرها ، حتّى قال سعيد بن المسيّب ـ رحمه الله ـ كما أثرعنه : (كان أصحاب رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مختلفين في الصّلاة الوسطى هكذا . وشبّك بين أصابعه) . (١)

وليس الأمر كما قال ـ رحمه الله ـ .

ونبيّنا ـ عليه الصّلاة والسلام ـ لمّا قال يوم الأحزاب ـ مثلا ـ : (شغلونا عن الصّلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله أجوافهم و قبورهم نارا) (٢)

فلم يكن يقصد بقوله هذا الى حصر الحكم أو حصر الصّفة على صلاة العصر ، وأنّها هى الصّلاة الوسطى دون غيرها ، بل كان ذلك مجرّد حكاية للواقع .

ومعلوم أنّ ثبوت الوصف لشيء لا يعني انتفاءه عن آخر . فاذا كانت صلاة العصر صلاة وسطى ، فليس معنى ذلك أنّ غيرها من الصّلوات ليست صلاة وسطى .

ولووقع ـ مثلا ـ أنّه فاتته ـ عليه الصّلاة والسلام ـ صلاة الفجر دون صلاة العصر حتّى طلعت عليه الشمس لكان من المحتمل جدّا أن يقول عن صلاة الفجر مثلما قال عن صلاة العصر .

ويؤيّد هذا ما ورد في بعض الروايات أنّه ـ عليه الصّلاة والسلام ـ قال ما قال ولم يكن صلّى يومئذ الظّهر والعصر حتّى غابت الشمس . (٣)

فلا ينصرف اذاً ما قاله ـ عليه الصّلاة والسلام ـ الى صلاة العصر فقط، بل ينصرف اليهما جميعا .

والمقام لا يسمح لنا بأن نتنفّس في الكلام أكثر ممّا فعلنا ،

---

(١) زاد المسير : ٢٨٢/١ (٢) صحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصّلاة ، باب الدّليل لمن قال الصّلاة الوسطى هى صلاة العصر . ٤٣٧/١ ، رقم الحديث (٦٢٨) .

(٣) الفتح الربّاني : باب تاخير الصّلاة لعذر الاشتغال بحرب الكفّار ٢/ ٣٠٩ ، رقم الحديث (٢١٦)

فانّه لا يتّصل بموضوعنا اتّصالا مباشرا ، مع أنّ ما قدّمناه فيه كفاية باذن اللـــه .

والآن ، وقد انتهينا من بيان المناسبات الواسعـــة المترامية لتلك الآية ، نزيد فنقول : انّ هذه المناسبات الواسعة المترامية لا تعني أبدا أنّ تلك الآية غريبة في بيئتها الخاصّـــة أو غريبـــة بين الآيات الّتي تجـــاورهـــا من قـــريب .

كـــلّا ! فقد وافقت تلك الآية مكانها ، الّذى لا يكون مكان أنسب منه ، وأشـــدّ مـــلاءمـــة لها .

فهـــذا المكان هو الّذى قادنا الى ما قادنا من تلك المناسبات الواسعـة المترامية الّتي تقصد اليها الآية قصدا أوّليّا ومباشرا ، كما أنّه هو الّذى يقودنا الى ما يقودنا من مناسبات أخرى قريبـــة ومتّصلة بما حولها من الآيات ، وهى كما يلي :

المناسبة الأولى :

كان الحديث قبل تلك الآية يجرى حول المحافظة علـــى حقوق النّساء ـ المطلّقات منهنّ والمتوفّى عنهنّ أزواجهنّ ـ فانتهـــز السياق هذه الفرصة بلباقـة عجيبة ، وانتقل من حديث المحافظة على حقوقهنّ الى حـديث المحافظـة على حقوق ربّهنّ ، وعلى رأسها الصّلوات .

المناسبة الثّانيـــة :

لقد تكرّر قبل هذه الآية التحـــريض على التقوى في عدّة آيات:

﴿ واتّقوا الله واعلموا أنّ الله بكلّ شيء عليم ﴾ (١)

﴿ واتّقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير ﴾ (٢)

﴿ واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أنّ الله غفور حليم . ﴾ (٣)

ثمّ جاء في الآية الأخيرة ، الّتي تلي هذه الآية :

﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم . انّ الله بما تعملون بصير ﴾ (٤)

---

(١) ســورة البقرة : ٢٣١ (٢) ســورة البقرة : ٢٣٣

(٣) ســورة البقرة : ٢٣٥ (٤) ســورة البقرة : ٢٣٧

فلمّا كان الجوّ جوّ التحريض على التقوى ، ناسبه أن يتبعه الأمر بالمحافظة على الصّلوات ، فانّ الصّلاة هى الّتي تغرس في القلب بذور التقوى ، وترسخ جذورها ، وتهيب بالمرء أن يراقب الله في سرّه وعلنه وفي صغير أموره وكبيرها ، بل وفي جميع شئونه وأحواله .

ولقد صرّح القرآن بذلك في عدّة آيات ، منها قوله تعالى:

﴿ وأمر أهلك بالصّلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا . نحن نرزقك والعاقبة للتّقوى . ﴾ (١)

المناسبة الثّالثة :

الآيتان اللّتان سبقتا هذه الآية تتضمّنان الأمر بتمتيع المطلّقات والتّسامي بالنّفس في أداء ما فرض لهنّ ، وبعدهما مباشرة جاءت آية المحافظة على الصّلوات .

ولا يخفى أنّ تمتيع المطلّقات وأداء مهورهنّ من الانفاق والصّلة بين الانفاق والصّلاة واضحة معلومة .

تلك ثلاثة أوجه لمناسبة هاتين الآيتين لما يجاورهما من الآيات ، بالاضافة الى تلك الأوجه الّتي مرّت معنا في كلام جلّة المفسّرين - رحمهم الله - .

ولن نجانب الصّواب ، اذا قلنا بعد هذا ، انّ هاتين الآيتين قد وافقتا مكانهما الّذى لا يكون مكان أنسب منه وأشدّ ملاءمة لهما .

كما أنّ الآيات الّتي سبقتهما جاءت شديدة الالتئام مستحكمة النّظام ، منسوقا بعضها على بعض ، وان كان يبدو بادئ ذى بدء أنّها موضوعات متفرّقة ، لا يربطها رابط ولا يشملها نظام .

وبعد ما انتهينا من بيان مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما نتوجّه الى ما بعدهما .

---

(١) سورة طه : ١٣٢

نظم الآيات (٢٤٠ ـ ٢٤٢)

****

قال تعالى :

﴿ والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا وصيّة لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج . فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف . والله عزيز حكيم . وللمطلّقات متاع بالمعروف ، حقّا على المتّقين . كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعقلون . ﴾

لقد ذهل النّاس في الغالب عن نظام هؤلاء الآيات .

وهذا الذهول أفضى بهم الى الخطأ في تأويلها ، والى الخطأ في استخراج الحكم منها ، كما أفضى بهم الى القول بما لا يتّفق مع جودة الترتيب وروعة النّظام ، الّتي عهدناها في كلام الله .

وهذا الوضع يتطلّب منّا أن نطيل الوقوف عندها ونستعرض ما قيل فيها ، ثمّ نتبيّن الوجه الصّواب في تأويلها .

يقول الامام ابن جرير ـ رحمه الله ـ بعد سرد الأقوال الواردة في تأويل الآية الأولى :

" وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصّواب أن يقال : انّ الله تعالى ذكره كان جعل لأزواج من مات من الرجال بعد موتهم سكنى حول في منزله ، ونفقتها في مال زوجها الميّت الى انقضاء السنة ووجب على ورثة الميّت أن لا يخرجوهنّ قبل تمام الحول من المسكن الّذي يسكنه ، وان هنّ تركن حقّهنّ من ذلك وخرجن لم تكن ورثة الميّت من خروجهنّ في حرج ، ثمّ انّ الله تعالى ذكره نسخ النّفقة بآية الميراث وأبطل ممّا كان جعل لهنّ من سكنى حول سبعة أشهر وعشرين ليلة ، وردّهنّ الى أربعة أشهر وعشر على لسان رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ " (١)

---

(١) تفسير الطّبرى : ٢/٥٨٢

ويزيد ـ رحمه الله ـ فيقول :

" انّ المتاع الّذى جعله الله لهنّ الى الحول في مال أزواجهنّ بعد وفاتهم وفي مساكنهم ، ونهى ورثته عن اخراجهنّ انّما هو لهنّ ما أقمن في مساكن أزواجهنّ وانّ حقوقهنّ من ذلك تبطل بخروجهنّ ان خرجن من منازل أزواجهنّ قبل الحول من قبل أنفسهنّ بغير اخراج من ورثة الميّت . ثمّ أخبر تعالى ذكره أنّه لا حرج على أولياء الميّت في خروجهنّ ، وتركهنّ الحداد على أزواجهنّ ، لأنّ المقام حولا في بيوت أزواجهنّ ، والحداد عليه تمام حول كامل لم يكن فرضا عليهنّ ، وانّما كان ذلك اباحة من الله تعالى ذكره لهنّ ان أقمن تمام الحول محدّات . فأمّا ان خرجن فلا جناح على أولياء الميّت ولا عليهنّ فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف ، وذلك ترك الحداد . يقول : فلا حرج عليكم في التزيّن ان تزيّنّ وتطيّبن وتزوّجن ، لأنّ ذلك لهنّ . وانّما قلنا : لا حرج عليهنّ في خروجهنّ ، وان كان انّما قال تعالى ذكره : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ لأنّ ذلك لو كان عليهنّ فيه جناح ، لكان على أولياء الرجل فيه جناح بتركهم ايّاهنّ ، والخروج مع قدرتهم على منعهنّ من ذلك . ولكن لمّا لم يكن عليهنّ جناح في خروجهنّ وترك الحداد ، وضع عن أولياء الميّت وغيرهم الحرج فيما فعلن من معروف ، وذلك في أنفسهنّ . وقد مضت الرواية عن أهل التأويل بما قلناه في ذلك قبل." (1)

ويقول الامام الرازى ـ رحمه الله ـ في تأويل تلك الآية :

" في هذه الآية ثلاثة أقوال : (الأوّل) وهو اختيار جمهور المفسّرين ، أنّها منسوخة ، قالوا : كان الحكم في ابتداء الاسلام أنّه اذا مات الرجل لم يكن لامرأته من ميراثه شيئاً الاّ النفقة والسكنى سنة . وكان الحول عزيمة عليها في الصّبر عن التزوّج ، ولكنّها كانت مخيّرة في أن تعتدّ ان شاءت في بيت الزّوج وان شاءت خرجت قبل الحول ، لكنّها متى خرجت سقطت نفقتها ، هذا جملة ما في هذه الآية

---

(1) تفسير الطّبرى : ٥٨٣/٢

لأنّا ان قرأنا (وصيّة) بالرفع كان المعنى : فعليهم وصيّة، وان قرأناها بالنّصب، كان المعنى : فليوصوا وصيّة ، وعلى القراءتين هذه الوصيّة واجبة، ثمّ انّ هذه الوصيّة صارت مفسّرة بأمرين : (أحدهما) المتاع والنّفقة الى الحول (والثّاني) السكنى الى الحول . ثمّ أنزل تعالى أنّهنّ ان خرجن فلا جناح عليكم في ذلك . فثبت أنّ هذه الآية توجب أمرين (أحدهما) وجوب النّفقة والسكنى من مال الزّوج سنة (والثّاني) وجوب الاعتداد سنة ، لأنّ وجوب السكنى والنّفقة من مال الميّت سنة توجب المنع من التّزوّج بزوج آخر في هذه السنة . ثمّ انّ الله تعالى نسخ هذين الحكمين ، أمّا الوصيّة بالنّفقة والسكنى فلأنّ القرآن دلّ على ثبوت الميراث لها ، والسنّة دلّت على أنّه لا وصيّة لوارث . فصار مجموع القرآن والسنّة ناسخا للوصيّة للزّوجة بالنّفقة والسكنى في الحول ، وأمّا وجوب العدّة في الحول فهو منسوخ بقوله : * يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا * فهذا القول هو الّذى اتّفق عليه أكثر المتقدّمين والمتأخّرين من المفسّرين .

(القول الثّاني) وهو قول مجاهد : أنّ الله تعالى أنزل في عدّة المتوفّى عنها زوجها آيتين (أحدهما) ما تقدّم وهو قوله : * يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا * والأخرى : هذه الآية ، فوجب تنزيل هاتين الآيتين على حالتين . فنقول : انّها ان لم تختر السكنى في دار زوجها ولم تأخذ النّفقة من مال زوجها كانت عدّتها أربعة أشهر وعشرا على ما في تلك الآية المتقدّمة . وأمّا ان اختارت السكنى في دار زوجها والأخذ من ماله وتركته فعدّتها هى الحول . وتنزيل الآيتين على هذين التقديرين أولى ، حتّى يكون كلّ واحد منهما معمولا به .

(القول الثّالث) وهو قول أبي مسلم الأصفهاني : أنّ معنى الآية : من يتوفّى منكم ويذرون أزواجا ، وقد وصّوا وصيّة لأزواجهم

بنفقة الحول وسكنى الحول فان خرجن قبل ذلك وخالفن وصيّة الزّوج بعد أن يقمن المدّة الّتي ضربها الله تعالى لهنّ فلا حرج فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف أى نكاح صحيح . لأنّ اقامتهنّ بهذه الوصيّة غير لازمة . قال والسبب أنّهم كانوا في زمان الجاهليّة يوصون بالنّفقة والسكنى حولا كاملا ، وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول. فبيّن الله تعالى في هذه الآية أنّ ذلك غير واجب . وعلى هذا التقدير فالنّسخ زائل . " (١)

ثمّ ساق الامام الرازى - رحمه الله - ما احتجّ به أبو مسلم لترجيح ما ذهب اليه ، ثمّ قال :

" فهذا تقرير قول أبي مسلم وهو في غاية الصّحّة . " (٢)

هذان مذهبان متوازيان في تأويل تلك الآية ، فمن قائل بنسخها ، ومن قائل بمحكميّتها و سريان حكمها .

وممّن قال بمحكميّتها واستمراريّة حكمها الأستاذ سيّد قطب ، حيث يقول - رحمه الله - :

" والآية الأولى - أى الآية : (٢٤٠) - تقرّر حقّ المتوفّى عنها زوجها في وصيّة منه تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله ، مدّة حول كامل ، لا تخرج ولا تتزوّج ان رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة بها ما يدعوها الى البقاء .. وذلك مع حرّيتها في أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليال كالّذى قرّرته آية سابقة . فالعدّة فريضة عليها ، والبقاء حولا حقّ لها .. وبعضهم يرى أنّ هذه الآية منسوخة بتلك . ولا ضرورة لافتراض النّسخ ، لاختلاف الجهة كما رأينا . فهذه تقرّر حقًّا لها ان شاءت استعملته . وتلك تقرّر حقًّا عليها لا مفرّ منه . " (٣)

ولقد قال بمثل هذا القول الدّكتور عبدالله دراز - رحمه الله -

---

(١) التفسير الكبير : ١٥٨/٦ (٢) نفس المصدر : ١٥٩/٦

(٣) في ظلال القرآن : ٢٥٩/١

حيث انّه يعتقد بقاء هذا الحكم واستمراريّتها لأنّه يخصّصه ويقصره على زوجات المجاهدين دون غيرهم ، فيقول :

" للمفسّرين في هذه الآية قولان مشهوران : أحدهما أنّها وصيّة مندوبة لا واجبة . والثّاني أنّها كانت واجبة في صدر الاسلام ثمّ نسخت بالآية السابقة (٢٣٤) الّتي توجب تربّص أربعة أشهر وعشر لا أكثر ... وواضح أنّ كلا القولين مبنيّ على أنّ آية الحول يسرى حكمها على الأزواج عامّة ... ولكنّ السياق الحكيم أوحى الينا هذا المعنى الجديد : وهو أنّ تربّص الحول الكامل كان خصوصيّة فضّلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين. والله أعلم . " (١)

وبالجملة فهذان رأيان متوازيان في تأويل الآية . وان كان الرأى القائل بنسخ الحكم هو الرأى المفضّل عند أكثر النّاس .

وهنا يثور سؤال : فأىّ هذين الرّأيين أرجح وأقوى وأدنى الى سداد القول ؟

تقويم الـرّأيين في ضوء السياق :

ولن نجد أمامنا في هذا الموضوع وأمثاله من الموضوعات أفضل من الاحتكام الى نظام الآيات وسياقها .

فلنرجع الى هذا الحَكَم حتّى نتمكّن من تقويم هذين الرّأيين، ونتمكّن من معرفة الأقوى من الأضعف منهما .

انّ الوضع الّذى نستلهمه بالتأمّل في نظام الآيات وسياقها هكذا :

لقد تناول السياق قبل آيتى المحافظة على الصلوات :(٢٣٨- ٢٣٩) موضوع تمتيع المطلّقة غير المدخول بها وغير المفروض لها ، حيث قال تعالى :

﴿ لا جناح عليكم ان طلّقتم النّساء مالم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة . ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف . حقّا على المحسنين . ﴾

---

(١) النّبأ العظيم : ص / ٢٠٦

ثمّ جاء أنّ المطلّقة المفروض لها غير المدخول بها يكون لها نصف المهر إلاّ أن تعفو أو يعفو زوجها ، بخلاف المطلّقة غير المدخول بها ولا المفروض لها ، فانّه لا نصيب لها في المهر. وانّما لها المتاع :

﴿ وان طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلاّ أن يعفون أو يعفو الّذى بيده عقدة النّكاح. وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم. انّ الله بما تعملون بصير﴾

ثمّ ختم هذا الموضوع بآيتى المحافظة على الصّلوات والصّلاة الوسطى.

وهنا يثور سؤال : هل التمتيع خاصّ بالمطلّقة غير المدخول بها ولا المفروض لها كما يفهم من ظاهر الآية ، أم يعمّ جميع المطلّقات ؟

ثمّ ان كان هذا الحكم يعمّ جميع المطلّقات ، فهل يعمّ المتوفّى عنها زوجها كذلك أم يكون مقصورا على المطلّقات فقط ؟

لا بدّ أن تكون هذه الأسئلة قد ثارت في الأذهان واقتضت البيان الشافي في هذا الموضوع.

فجاء الوحى مرّة ثانية يغطّي ذلك الموضوع ويفصّله :

﴿ والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا وصيّة لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج. فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف ، والله عزيز حكيم. وللمطلّقات متاع بالمعروف حقّا على المتّقين. ﴾

حقائق تستفاد من نظم الآيتين :

والتأمّل في نظم الآيتين يكشف لنا حقائق مهمّة جدّا ، وهى كما يلي :

١ ـ انّ المتوفّى عنها زوجها يصرف لها المتاع لحول كامل :

﴿ متاعا الى الحول ﴾

٢ ـ انّ هذا المتاع لا يشترط فيه أن تبقى المرأة في بيت زوجها ، فالمتاع حقّها المستقلّ ، وهى تستحقّه أينما كانت.

٣ ـ اذا أرادت المرأة أن تبقى في بيت زوجها المتوفّى فلها الحقّ أن تبقى في بيته الى حول كامل . وليس لورثة المتوفّى أن يخرجوها (غير اخراج) .

٤ ـ هذه الوصيّة من الله وليست من الزّوج ، كما جاء ذلك مصرّحا في موضع آخر حيث قال تعالى : ﴿ وصيّة من الله والله عليم حليم . ﴾ (١)

فلا تبطل هذه الوصيّة استنادا الى قوله ـ عليه السلام ـ :

(انّ الله قد أعطى كلّ ذى حقّ حقّه ، فلا وصيّة لوارث) (٢)

والمرأة تأخذ متاعها وتأخذ حقّها من الميراث من غير أدنى حرج .

٥ ـ هذه الوصيّة جاءت في سياق المتاع ، وهى بيان وايضاح لما ثار في الأذهان بخصوص المتاع ، كما بيّنّاه آنفا ، ولاصلة لها بموضوع العدّة .

وهذا هو رأى الامام مجاهد ـ رحمه الله ـ كما يظهر من رواية الامام البخارى ـ رحمه الله ـ حيث قال : حدّثنا اسحق حدّثنا روح حدّثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا . قال كانت هذه العدّة تعتدّ عند أهل زوجها واجب ، فأنزل الله : ﴿ والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا وصيّة لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج ، فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة ، سبعة أشهر و عشرين ليلة وصيّة ان شاءت سكنت في وصيّتها وان شاءت خرجت وهو قول الله تعالى : ﴿ غير اخراج ، فان خرجن فلا جناح عليكم ﴾ . فالعدّة كما هى واجب عليها ، زعم ذلك عن مجاهد . (٣)

فهذه الرواية تبيّن لنا أمرين ، أحدهما : أنّ هذه الوصيّة من الله وليست من الزّوج ، حتّى نبطلها استنادا الى قول النّبيّ ـ صلّى

---

(١) سورة النّساء : ١٢ (٢) مختصر سنن أبي داود : ١٥٠/٤

(٣) صحيح البخارى : كتاب تفسير القرآن ، سورة البقرة ، باب : والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهنّ ... الآية .

الله عليه وسلّم ـ : (لا وصيّة لوارث) .

والثّاني : أنّ هذه الآية (٢٤٠) لا صلة لها بموضوع العدّة.

ولقد وهم الامام الرازى ـ رحمه الله ـ في تفسير قول مجاهد حيث قال : (القول الثّاني ، وهو قول مجاهد ، أنّ الله تعالى أنزل في عدّة المتوفّى عنها زوجها آيتين .. الخ)

فقول مجاهد واضح في مدلوله . وهو لا يقبل هذا التفسير.

وقد نستأنس لهذا الرأى بما يوجد من فرق واضح بين العبارتين، فانّ القرآن كلّما تناول موضوع العدّة استخدم عبارة :(التربّص بالنّفس أو عبارة :(بلوغ الأجل) أو صرّح بلفظ (العدّة) كما نرى في الآيات التالية :

﴿ للّذين يولون من نسائهم تربّص أربعة أشهر ﴾ (١)

﴿والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء ﴾ (٢)

﴿ والّذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا ﴾ (٣)

﴿ واذا طلّقتم النّساء فبلغن أجلهنّ ﴾ (٤)

﴿ واللّائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر واللّائي لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ ﴾ (٥)

وأمّا هذه الآية الّتي نتحدّث عنها فعبارتها تختلف عن تلك العبارات كلّها . وهذا الاختلاف لا يدلّ الّا على اختلاف الموضوع في كلا الموضعين .

فلا يصحّ أن تربط هذه الآية بآية العدّة وتجعل تلك ناسخة لهذه .

ولقد نبّه القرآن نفسه الى هذا الوضع، حيث قال في نهاية الحديث :

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٦ (٢) سورة البقرة : ٢٢٨ (٣) سورة البقرة : ٢٣٤
(٤) سورة البقرة :٢٣١ (٥) سورة الطّلاق : ٤

﴿ كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعقلون ﴾

وهذا من عادة القرآن ، فانّه كثيرا ما ينبّه اذا جاءت الآية بيانا للحكم السابق بمثل تلك العبارة .

ولقد تكرّر ذلك في سورة النّور بصورة واضحة جدّا ، حيث جاءت الآيات تبيّن ما سبقها من الأحكام . فجاء النّصّ بمثل تلك العبارة في كلّ مرّة ، حيث قال تعالى :

﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآيات . والله عليم حكيم ﴾ (١)

﴿ كذلك يبيّن الله لكم آياته . والله عليم حكيم ﴾ (٢)

﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تعقلون ﴾ (٣)

ولقد سبق معنا مثل ذلك في سورة البقرة نفسها ، حيث جاءت الآيات : (١٨٣ ـ ١٨٦) تذكر لنا واجب الصّيام وأحكام الصّيام .

وبعد فترة جاءت الآية :(١٨٧) تبيّن للنّاس بعض ما التبس عليهم من أمر الصّيام . ثمّ نبّه السياق على هذا الوضع ، حيث جاء في آخر الآية :

﴿ كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون ﴾

ومن هذا النّوع ما نرى في سورة النّساء حيث قال تعالى وهو يذكر الفرائض لأصحابها :

﴿ وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكلّ واحد منهما السدس ، فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثّلث من بعد وصيّة يوصى بها أو دين . غير مضارّ وصيّة من الله . والله عليم حليم . ﴾ (٤)

فهذه الآية أثارت تساؤلا في الأذهان ، واستفتى النّاس في الكلالة ، وطلبوا زيادة البيان ، فأنزل الله تعالى جوابا على هذا الاستفتاء أو بيانا وايضاحا لهذا الموضوع :

﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له

---

(١) سورة النّور : ٥٨ (٢) سورة النّور : ٥٩

(٣) سورة النّور : ٦١ (٤) سورة النّساء : ١٢

ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد، فان كانتا اثنتين فلهما الثّلثان ممّا ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظّ الانثيين . ﴾ وفي آخر الآية صرّح تعالى بأنّ هذا بيان وايضاح لما التبس عليهم في شأن الكلالة :

﴿ يبيّن الله لكم أن تضلّوا . والله بكلّ شيء عليم ﴾ (١)

وعلى هذا فهاتان الآيتان (٢٤٠ ـ ٢٤١) أيضا جاءتا بيانا وايضاحا للموضوع السابق ، كما نبّه عليه السياق .

وشتّان بين كون الآية بيانا وايضاحا للموضوع السابق وبين كونها منسوخة !

وممّا يبعث الارتياح في أنفسنا أنّ الامام الفراهي ـ رحمه الله ـ أيضا سلك نفس الطّريق في تأويل تلك الآيات . وتأمّل في نظامها وسياقها ، فتوصّل الى مثل ما توصّلنا اليه . والفضل للمتقدّم ولا شكّ . يقول ـ رحمه الله ـ :

" هاتان الآيتان : (٢٤٠ ـ ٢٤١) نزلتا لبيان بعض ما بقيت فيه شبهة ، فهما كالجملة المعترضة والضميمة بعد سرد الأحكام وختمها بذكر الصّلاة عند القتال . " (٢)

٦ ـ واذا ثبت أنّ هذه الآيات لا صلة لها بآية العدّة ، فلا يصحّ أن تحسب مدّة العدّة : (أربعة أشهر وعشرا) في مدّة المتاع .

فالمرأة تقضي العدّة أوّلا في بيت زوجها المتوفّى ، ثمّ يكون لها الخيار، فان شاءت خرجت من البيت ، وان شاءت بقيت حولا كاملا ماعدا فترة العدّة . وليس لأحد من الورثة أن يرغمها على الخروج قبل انتهاء هذه المدّة .

٧ ـ انّ هذه الفترة الّتي تقضيها المرأة في بيت زوجها المتوفّى بعد فترة العدّة ليست للحداد على الزّوج ، كما يراه ابن جرير ـ رحمه الله ـ وانّما جعلت لها هذه الفترة مراعاة لظروفها ، حتّى تدبّر

---

(١) سورة النّساء : ١٧٦

(٢) مذكّرات القرآن للفراهي (مخطوط)

لنفسها وتنظرفي أمرها . فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات ، - وهى في بيت زوجها - ولها أن تتلقّى خطبة الخطّاب ، ولها أن تزوّج نفسها ممّن ترتضي ﴿ فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف ﴾ .

٨ - آية التربّص أربعة أشهروعشرا متقدّمة في النّظم على آية المتاع الى الحول . والمتقدّمة لا تصلح أبدا لأن تكون ناسخة للمتأخّرة .

وأمّا القول بأنّ الآية السابقة متقدّمة في التّلاوة ، متأخّرة في التنزيل وهذه بعكسها (١) فهو قول عظيم . ويحتاج لثبوته الى دليل أوضح من القمرالساطع وأرسى من الطّود المنيف .

ولعلّ الّذين ذهبوا الى هذا القول لم يذهبوا اليه الاّ كرها ، بعد ما عجزوا عن التوفيق بين الآيتين .

ولوأنّهم ظهر لهم الوجه الصّحيح ، الّذى هدانا اليه التأمّل في نظم هذه الآيات ، لكانوا أسرع النّاس اليه ، وأبعدهم ممّا قالوا .

٩ - المتاع حقّ لكلّ مطلّقة ، سواء كانت مدخولا بها أو غيرمدخول بها ، وسواء كانت مفروضا لها المهرأو غيرمفروض لها ، فانّ السياق هنا أطلق لفظ (المطلّقات) من غيروصف ولا تحديدولا استثناء .

ولا يفوتنا التنبيه الى أنّ العبارة جاءت في سياق المطلّقات غيرالمدخول بهنّ ولا المفروض لهنّ هكذا :

﴿ متاعا بالمعروف . حقّا على المحسنين ﴾

وجاءت في سياق غيرهنّ هكذا :

﴿ وللمطلّقات متاع بالمعروف . حقّا على المتّقين ﴾

هذا النّظم يفيد أنّ المطلّقات الأخريات أحقّ بالمتاع من المطلّقات غيرالمدخول بهنّ ولا المفروض لهنّ ، فانّ المسلم مطالب بالتقوى قبل أن يطالب بالاحسان . والتقصيرفي الاحسان قد يتغاضى عنه ، وأمّا

---

(١) تفسيرالبحرالمحيط : ٢٤٦/٢

التقصير في التقوى فلا خلاص للمرء من عقوبته الا من رحم الله ·

ومن هنا نرى المتعة واجبة لكل مطلقة ، كائنة من كانت ، ومن أى نوع كانت ·

*** ** ***

تلك حقائق تنكشف لنا حين نتأمل في نظم تلك الآيات وسياقها · ولا شك أنها بأجمعها تضع ثقلها في كفة الذين يقولون بمحكمية تلك الآيات وسريان حكمها ، دون من يقول بنسخها ·

سر الفصل بين البيان والمبين عنه :

وقبل أن نغادر تلك الآيات الى ما بعدها ، نود أن نعالج شبهة قد تثور عنها في ذهن الدارس ، وهى أنها اذا كانت بيانا لآية المتاع : (٢٣٦) فلماذا لم توضع في جنبها ؟ ولماذا تخللت تلك الآيات آية المحافظة على الصلوات ؟

والرد على هذا السؤال يكمن في استحضار تلك الصلة الماسة ، التي توجد بين الصلاة وبين تلك الشرائع · فالصلة بين هذه وتلك أمس من الصلة بين البيان والمبين عنه ·

وما كانت هذه النكتة لتدرك لولا أن الأمر كان على ما هو عليه الآن ·

ثم ان هذه الآية – آية المحافظة على الصلوات – مرتبطة في أصلها بالأسئلة السبعة ، التي وجهت الى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد بيناه فيما مضى ·

فكان الموقف يقتضي أن توضع هذه الآية بعد الأسئلة مباشرة ، بدون أن يكون بينها وبينها أى فاصل · الا أن الموضوعات التي تبعت السؤال الأخير و تفرعت منه وتشعبت كانت متلاحمة ومتداخلة بعضها في بعض ، بحيث لم يكن في النص لتلك الآية مكان مناسب الا بعد ما انتهى من تلك الموضوعات ·

وبعد ما انتهى النّص من تلك الموضوعات جاء بتلك الآية . ولم يترك الآيات الّتي جاءت للبيان تأخذ مكانها الاّ بعدها .

فانّ الموقف الّذى أشرنا اليه كان يتطلّب ذلك ، بالاضافة الى أنّ هذا الفصل ما كان ليخدش أو يشوّش تلك الصّلة القائمة بين تلك الآيات والآيات الّتي اقتضت ذلك البيان .

بل يبيّن ذلك للقارئ الوضع التاريخيّ لتلك الآيات ، حيث انّها نزلت منفصلة ونزلت بعد تلك الآيات ، الّتي كانت تنتظر ذلك البيان ، بفترة .

هذا ما تيسّر لنا في بيان مناسبة تلك الآيات لما قبلها . فنحمده تعالى ونشكره ، ثمّ نتوجّه الى ما بعدها .